أوراق في سيرة ومسيرة

الإمام الصادق المهدي

.. الجزء الثاني ..

إعداد وتحرير : رباح الصادق

مكتبة جزيرة الورد


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

أوراق في سيرة ومسيرة

الإمام الصادق المهدي

الجزء الثاني

إعداد وتحرير

رياح الصادق



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســـم الكتاب: **أوراق في سيرة ومسيرة الإمام الصادق المهدي**

الجزء الثاني

المـــــــؤلف : رباح الصادق

رقم الايداع / ٢٦١٥١/ ٢٠١٥

الطبعة الأولى ٢٠١٥



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

تعلمت منك أن الإنسان لا يبلغ الكمال ولكن حسبه المحاولة.

وأنه حتى ولو بدت نداءاتنا آذاناً في مالطافإن البذور سوف تثمر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف]

هل حقاً وقفتُ على أهم محطات، ولخصتُ أهم دروس مسيرة الأهوال لدرك الأحوال؟ المسيرة التي لم تأبه فيها بالغيلان والفراعين، ركبت سرجك وسبلت نفسك في شأن الدين، والوطن..

لربما كنت تلميذة متعثرة، فاقبل ما فهمته من الدرس يا نعمتنا..

إليك وإلى ذلكم الدين الوضاء، والوطن الحبيب،أهدي ليالي سهري، آلاء محبتي.

رباح

مدخل أول

(جعفر نميري كان يقول أنا ما عارف فلان دا داير شنو؟ أنا أديته نائب أول، وقلت له تعال أبقى رئيس وزراء، وقلت له مستعد أديك أي وزارات تدورها أو أي مسئوليات انت عايزها، لكن انا ما عارف لي يوم الليلة هو داير شنو؟ لأنه أنا قدر ما عرضت ليه هذه الأشياء رفض.. صحيح هو عرض علي أن أكون نائب أول وعرض علي أكون رئيس وزراء، وعرض كثيراً من المناصب وأنا كنت أقول له المسألة ليست في المناصب المسألة في كيف الوصول لهذه المناصب؟ أنا أقول ليك دعنا نغير الوضع بحيث أنه أنا إذا جئت أجي باختيار الناس، إذا عملنا كذا أنا مستعد اشتغل غفير في القصر الجمهوري. لكن بالتعيين بالقوة أنا ما مستعد أتولى أية مسئولية ولا منصبك هذا نفسه).

السيد الصادق المهدي في ٢٨ سبتمبر ١٩٨٦م

أمام ضباط وصف وجنود وادي سيدنا

(الصادق المهدي أنا قلت له إذا كنت تريد أن تكون حاكماً قومياً تعال تعاون معي وأنا أعلمك. أنا لا أريدها وقد عرضت عليه أرفع المناصب، وفتحت له باب المساهمة في العمل العام على مصراعيه ولكنه آثر أن يعيش بعقلية الماضي.)

جعفر نميري

لقاء أجراه فهمي هويدي ونشر في الوطن المصرية في ١٦/ ١٢/ ١٩٨٤م

مدخل ثاني

(لقد قبلت الدعوة للاجتماع في السودان مدركاً أن في الأمر مخاطرة كبيرة، وانتظر إحدى نتيجتين فإما اتفاق عادل، واما التعرض لغدر لن يفيد النظام في المدى البعيد وسيكون دمي أو جسدي داعياً للجهاد وحركة التحرير الديمقراطي في السودان).

السيد الصادق المهدي، في يوليو ١٩٧٧م

رسالة تركها وهو متجه لبورتسودان للقاء النميري

(قال إن عليه أن يجرب صدق نميري، فإذا ما فرض شروطاً لإجراء ذلك اللقاء فإن

الأمر سيترك انطباعاً بأنه خائف أو متهرب..لم اتقبل جداله هذا لأن شجاعة الصادق لا جدال فيها.. لقد غادر الصادق بريطانيا إلى السودان وترك خطاباً وتعليمات محددة فيما إذا لم يعد.. كان قلقاً من أن نميري قد يكون مخادعاً، ومع هذا فقد قرر أن يعرف الحقيقة لأن هذا من مصلحة السودان).

غراهام توماس في كتابه (السودان: موت حلم)

مدخل ثالث

يا عزنا..

وعرق الجهاد ضارب غريق

لا ضل دقّر في حجر

لا جاهرو شيطان البريق

ضارب غريق

لا نبتو صفرن من عطش

لا حتحت الثمر الحريق

ضارب غريق

مرفوعة هامتك في السما

وحرفك أنيق

تروي العطيش تلفى البضيق

جيت للودر طوق النجاة

وما شبعت فوق جوع الفريق

الحبيب محمد صالح مجذوب ، ٢٠٠٥

مقدمة صاحب السيرة والمسيرة

رحمة الله وسعت كل شيء، ومن نعمه على محبّه الصادق أربعة خصال:

أولها: أنني مهما ظُلمت لم أظلم أحداً، بل كل من تعاون معي منحته ثقة بلا حدود. ثقة أدهشتهم فمن تجاوب مع تلك الثقة أحبني حباً أدهشني، ومن أضاع تلك الثقة تمرد تمرداً أدهشني ودمره.

وثانيها: أن حياتي حفلت برجال ونساء وأطفال بذلوا في خدمتي وخدمة أهداف عليا باختيارهم جهداً من شدته وعمقه يكاد ألا يصدق، كأنما حلت فيهم أرواح أولاد حاج شريف الأسطورية.

وثالثها: أنني مهما تراكمت علي الأرزاء لم تؤثر سلباً على معنوياتي بل اعتبرتها:

قَدْ يَنْعِمُ اللهُ بِالبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ   وَيَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ النَّاسِ بِالنِّعَمِ

بل أضع في صدر مجلسي عبارة «أشدكم بلاءاً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل[1]»:

عَلى قَدْرِ فضل المرءِ تأْتي خُطُوبُه

ورابعها: وهبت ذرية تفانوا باختيارهم ذكوراً وإناثاً في خدمة أهداف دينية، ووطنية، واجتماعية، عليا أجلها، تفانوا دون استثناء وعلى اختلاف مواقع الأداء.

الحبيبة رباح تجسيد حي للفئتين الثانية والرابعة.

في مكتبي الخاص كتب جمعتها على طول الحياة وأنا أصنف الكتاب خير جليس. وفيها الأوراق المتصلة بعملي، حافظت عليها حرص جعد الكف بالدينار.

هذه الجواهر من كتب وأوراق أضر بحفظها التنقل لحمايتها من عبث الطغاة أثناء

(١) رواه البخاري

اعتقالاتي المتعددة.

ولكن بنتاي الحبيبتان أم سلمة، ورباح، فقد عملتا على تنظيمها وتبويبها.

أما الحبيبة رباح كمسؤولة في مكتبي الخاص فقد ألمت بأوراق حياتي كلها، كما راجعت كل كتاباتي. وشاركت مع أبنائي الأحباب عبد الرحمن فرح، وسامية يعقوب، وإنعام الجمري وغيرهم ممن تعاون معهم في الطباعة والأرشفة الإلكترونية، ذلك أنهم في مكتبي الخاص قرروا منذ العام ٢٠٠٠م أن يطبعوا أعمالي كلها في مجلدات أتمنى لهم التوفيق.

الحبيبة رباح رأت أن توثق لسيرة حياتي استناداً لما سمعته مني في مناسبات كثيرة وللأوراق المرتبة في المكتبة.

هذا السفر هو الجزء الأول من هذه السيرة وهو يصلح مرجعاً تاريخياً وأدبياً مثلما هو سيرة حياة.

إن دراسة رباح الهندسية، وموهبتها كشاعرة وفنانة تشكيلية، جعلت عملها يكتسب منهجية العلم الطبيعي، وانعتاق الفن، والعمق الروحي، والإتقان. كأنها تتعبد ربها بالإتقان. «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ»[1].

إن في هذا الكتاب لوحة جامعة لهذه المعاني، وأقل ما فيها بر بنت بوالدها، وخير ما فيها ديوان أحداث وأفكار تهم جيلنا والأجيال بعدنا، فالماضي جذر الحاضر والمستقبل. ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي

القاهرة نوفمبر ٢٠١٥م

(١) رواه الطبراني

مقدمة الأجزاء الثلاثة الأولى

بسم الله والحمد لله القائل ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ والصلاة على حبيبنا المصطفى الذي أثبت للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجر إذا أخطأ، وبعد-

الإمام الصادق المهدي شخصية لها أثر يمتد من نطاقه الوطني السوداني إلى إقليميه العربي والأفريقي والعالم.

ففي وطنه انتخب رئيساً للوزراء مرتين في عهود ديمقراطية (يوليو ١٩٦٦-مايو ١٩٦٥م) و(مايو١٩٨٦-يونيو ١٩٨٩م)، وانتخب رئيساً لحزب الأمة وإماماً للأنصار الكيان الديني الأكبر بالسودان. وإقليمياً اختير رئيسا للمنتدى العالمي للوسطية، وصنفه معهد الدراسات الموضوعية بنيودلهي، الهند، ضمن أعظم مائة شخصية مسلمة في القرن العشرين، وعالمياً حاز على جائزة قوسي للسلام للعام ٢٠١٣م، بالفلبين. ويعد من أبرز الناشطين بنادي مدريد وهو نادٍ لرؤساء حكومات ودول سابقين يعمل على تمكين وتطوير الديمقراطية في العالم. وهو نشط فكرياً بالتأليف والخطب المنبرية واللقاءات الإعلامية، وسياسياً عبر حزب الأمة، ودينياً عبر هيئة شئون الأنصار، فهو ذو اهتمامات عديدة تمد صلتها لفكرة التحديث المؤصل.

وبالرغم من أنه وجدت كتب وأدبيات عديدة تعرضت إيجاباً أو سلباً لجانب من أدائه سواء السياسي أو الفكري إلا أنه لم يوجد كتاب لسيرته، على أهمية مثل هذا الكتاب في التعريف بشخصيته منذ نشأتها، وتطور فكره، وملامح عطائه السياسي بتتبع لصيق.

وقد حاولت كثيراً حضه على تدوين سيرته، وبصفتي مسئولة الدراسات والنشر في مكتبه تبنيت مخططاً لكتابة تلك السيرة لتنشر بالتزامن مع احتفاليتنا بعيده السبعيني في ديسمبر ٢٠٠٥م، ولكن حال دون ذلك أنه لم يتحمس كثيراً للفكرة في البداية باعتبار أنه يدوّن كل الأشياء والفترات الهامة التي مرت به وشارك في أحداثها فلم يتبق من السيرة سوى الرواية عن الذات ولم يكن متحمساً لها.

ولهذا بدأت في هذا الجهد قبل نحو أربع سنوات، ولكن ببطء فرضته ظروف الإقامة في السودان والمشاغل الملتفة، وبرغم ذلك واصلت، ولم يثنني أنه استجاب للدعوات المتكررة بتسجيل ذكرياته أخيراً وبدأ في ذلك فعلاً إبان إقامته الحالية بمصر منذ ديسمبر ٢٠١٤م، كما سجّل ستة عشر حلقة من برنامج (شاهد على العصر) الذي يقدمه الإعلامي المجتهد أحمد منصور بقناة الجزيرة والتي تبث هذه الأيام وفيها من معلومات السيرة الكثير.

واصلت في إكمال الكتاب والسعي لنشره لأن إخراجي للأوراق كان بصورة مختلفة عن تلك التي خرجت بها حلقات السيرة أو الشهادة على العصر، وإن كانت أكملت بعض النقص في كتابي. فالقيمة الأساسية لهذا الكتاب أنه يجمّع أهم الشهادات التي كتبها الإمام الصادق المهدي حول الأحداث المختلفة، وبعضها مأخوذ من وثائق مغمورة لا أظن اطلع عليها أحد.

فحديث الحبيب الإمام الصادق المهدي حول تدوينه للأحداث المهمة في حياته صحيح من ناحية وجود عدد من الأدبيات التي تغطي الفترات والأعمال المهمة التي قام بها أو شارك فيها. كما أنه يحرص دائماً على اصطحاب أجندة يودعها اللقاءات والأفكار والأحداث بل حتى الرؤى المهمة، ويبثها همه أحياناً، وأبيات الشعر التي تسليه، ومن أسف أن أجندة كثير من الأعوام ضائعة مع الجزء المفقود من مكتبته أو بسبب التنقل المستمر.

وبرغم هذا التدوين المذكور، فلا شيء يعدل روايته المباشرة للأحداث وانطباعاته حول الموضوعات التي تثيرها. ولو كان الحبيب الإمام الصادق هو كاتب السيرة لكنا قرأنا عجباً.

المصادر الأساسية

وما صنعته هنا هو أنني قلبت بين أوراقه، ما استطعت فهي كثيرة عصية على الحصر وفوق طاقتي الحالية وإن كنت أظنني بلا ادعاء أكثر شخص على ظهر البسيطة مطلع على كتاباته حتى الآن. انتخبتُ من تلك الأوراق رواياته للأحداث ونقاشاته للقضايا التي كانت تشغل باله في مراحل حياته المختلفة، وأحياناً جلبتُ أكثر من رواية له لنفس

الحدث مع ما في ذلك من تكرار تغاضيتُ عنه لاختلاف في التناول أو نظرات أو معلومات جديدة، كما أشرتُ لأعمال أو كتابات مهمة في سياق مشروعه الفكري ووضعتها ضمن السيرة.

ومن الأوراق التي دوّن فيها تجاربه ورقة (ثلاث سنوات في خمسينيات القرن) التي دونها في ١٨ مارس ١٩٨٣م وروى فيها مذكراته في كلية فيكتوريا، ثم كلية الخرطوم الجامعية، ثم دراسته في جامعة أوكسفرد بكلية القديس يوحنا، وهي موجودة بأكملها في الفصل الأول المعني بالمولد والنشأة (مجاهد جاي من كبكابية) في الجزء الأول للكتاب بعنوان (بينج ماريال)[1]، يضاف إليها مذكرات (تضاريس الذاكرة) التي أصدرها البيت العربي في مدريد عام ٢٠١٠م كثالث إصدارة في سلسلة تضاريس الذاكرة مع قادة وزعماء ومفكرين عرب.

أما كتاب (جهاد في سبيل الديمقراطية) الذي يرصد دور الإمام الصديق في مناهضة حكم عبود، فقد كان مرجعاً رئيسياً في الفصل الثاني للجزء الأول (رياح لم تشتهها السفن).

وكتاب (الانشقاق في حزب الأمة بالوثائق) يروي الأحداث التي أدت للخلاف داخل الحزب في الأعوام ١٩٦٢ وحتى ١٩٦٨م، وكان مرجعاً أساسياً في الفصل الرابع من الجزء الأول (بينج ماريال) الذي أضفتُ إلى مقتطفاته عدد من الأوراق بعضها ناقص وبعضها جزء من كتب ضائعة، إضافة لمذكرات السيد الصادق في سجن جبيت في الفترة (يونيو- يوليو ١٩٦٩م) وهي مدونات لم تنشر على قدر كبير من الأهمية وقد اقتبستُ منها بتصرف نظراً للصراحة البالغة التي كان يكتب بها كأنها شهادة للتاريخ من النوع الذي يودع في دار الوثائق مختوم بالشمع الأحمر! وكتاب (خطب السيد رئيس مجلس الوزراء لسنة ١٩٦٦م)، ومحضر لقاء دونه السيد الصادق بسجن شندي، بالإضافة إلى أجندة العام ١٩٦٢م.

كتاب المصالحة الوطنية الصادر عام ١٩٧٨م يروي الأحداث منذ قيام انقلاب ٢٥

(١) يرد في الفصل الرابع من الجزء الأول شرح للتسمية (بينج ماريال) والتي أطلقها عليه الدينكا لدى زيارته للجنوب في ١٩٦٦م وفي أحد تفسيراتها تشير للجمع بين الشباب والزعامة.

مايو وحتى تاريخ كتابته، وأنت تجد/ ين أن معظم فقرات هذا الكتاب إما موجود بكاملها أو ملخصة في الجزء الثاني من الكتاب (ظلام أب عاج)، مع الاستعانة في أوله بمذكرات سجون جبيت وبورتسودان وشندي، وبسلسلة (مذكرات الإمام الصادق المهدي في السجون) التي نشرتها صحيفة الأخبار في أغسطس ٢٠١٠م، وفي آخره تمت الاستعانة بكتاب «ميزان المصير الوطني في السودان» الصادر عشية انفصال الجنوب المرير عام ٢٠١٠م.

الجزء الثالث من الكتاب والذي يروي قصة الديمقراطية الثالثة جزء منه مأخوذ من كتابه (الديمقراطية في السودان عائدة وراجحة). ومجلدات خطب السيد رئيس مجلس الوزراء الثلاثة التي تغطي الفترة من ٦ مايو ١٩٨٦ وحتى ٣١ ديسمبر ١٩٨٨م (أما الجزء الرابع الذي يغطي الفترة المتبقية حتى ٣٠ يونيو ١٩٨٩م فلم أفلح في الحصول عليه)، بالإضافة لكتاب (ميزان المصير الوطني)، وهكذا..

الكثير من هذه الأوراق نفسها لم نجدها بهذه السهولة التي نسردها بها، فمكتبة الحبيب الإمام الصادق المهدي ووثائقه عانوا مثله إبان الشموليات التي احتلت أكثر من ثلاثة أرباع عمر السودان المستقل. وقد عشت حياة هذه الوثائق القلقة منذ بل حتى قبل تخرجي من دراسة الهندسة بجامعة الخرطوم عام ١٩٩١م. فانكببت على وثائقه وكتبه أبحث عنها وأجمعها وكانت موزعة في المخازن في حالة رديئة وبعضها مجموع في جوالات وأخرى «مبهولة» وبعضها في شنط، ومنها ما تسربت إليه مياه الأمطار وما أكلت منه دابة الأرض «الأرضة» وذلك أنه كلما كانت هناك غارة أمنية على بيتنا (وكانت تلك الغارات طيلة عهد مايو و«الإنقاذ» حالة متكررة) كان هناك قسم كبير من الأوراق يُخفى بسرعة داخل المخازن حتى لا تلحقه الأيدي الآثمة.

ولم يفت زمان طويل منذ جمعتها في ١٩٩١م وبدأت في تصنيفها وترتيبها حتى جاء الإنذار بأن البيت معرض للمصادرة إثر اقتلاع منزل المرحوم الدكتور عمر نور الدائم في ١٩٩٧م، كان السيد الصادق حينها قد هاجر في «تهتدون» فلم يهتم إلا بمصير المكتبة ونظر للبيت كطين زائل، وطالب بأن توزع المكتبة بين الأحباب المضمونين لئلا تطالها اليد الباغية ويكون مصيرها كمكتبة الدار الثرية التي نهبوها عشية انقلابهم فلم يُعرف مصيرها حتى الآن.

تولت الوالدة المرحومة الحبيبة سارا يساندها شقيقي الصديق توزيع المكتبة على عدد من الأحباب، ولم يسجلوا الأسماء بالطبع خشية الملاحقة الأمنية وأن تكتشف القائمة فتركوا المسألة محفوظة في الصدور، والصدور بئس المستودع! أما في بيتنا فحفظها كما يحفظ البحر النقوش! ولذا حض ربنا على الاستكتاب حتى لا نرتاب ولا ننسى. المهم في نهاية الأمر، بعد أن عاد السيد الصادق في «تفلحون» عام ٢٠٠٠م هب بعض الأحباب وأعادوا ما عندهم من كتب وأوراق مشكورين، وآخرون الله يعلمهم احتفظوا بها ظناً منهم أن وقت إعادتها لم يحن بعد خاصة وليل «الإنقاذ» الطويل لا زال يجثم على صدرنا. فقمنا بالإعلان في الصحف، وفي منبر صلاة الجمعة، ولم يأتنا مردود تلك النداءات، فلا زالت الأوراق والكتب ناقصة بشكل مؤلم.. وبرغم ذلك فإن حصيلتنا من الأوراق هائلة.

ومن أهم الأدبيات الموجودة في هذا الصدد هي خطب السيد الصادق في حكومته الأولى بستينات القرن العشرين والتي غطت مواقفه وآراءه في حكومته الأولى بالستينات وقد وجدناها بحوزة الدكتور عبد الرحمن الغالي، ومجلدات خطبه كرئيس للوزراء في الثمانينات وهي أربعة وجدنا ثلاثة منها بحوزة الحبيب مولانا آدم أحمد يوسف، أما الرابع الذي يحوي خطب العام ١٩٨٩م فلم نحصل عليه كما ذكرت آنفاً!

ومثلما استفدتُ من بعض الروايات وأهمها روايته هو نفسه لقصة حياته ويرد في الكتاب كيف نظم لنا درساً لسيرته الذاتية في مطلع تعرفنا عليه، فقد استفدتُ للتاريخ في مرحلة الطفولة والصبا من عدد من الخطابات خاصة خطاباته وأخيه عصام وخطابات الإمام عبد الرحمن المهدي لوالدته السيدة رحمة.

كتاب السيرة والمسيرة

المرة الأولى التي حاولت فيها تدوين جانبا من عطاء الحبيب الإمام الصادق المهدي ومواقفه كانت حينما اتصل بنا في عام ٢٠٠٧ بعض الأحباب الذين أرادوا التقديم له لنيل تكريم يستحقه فطالبوا أن نرصد لهم أهم جوانب عطائه، فقمت يومها بكتابة «مفردات التفرد في تجربة الإمام الصادق المهدي»، مفردات التميز في تجربته كحاكم، وكمعارض، وكزعيم حزبي، وكقائد ديني، وكمفكر، ثم تطرقت للتفرد في مسألة

الكسب المعيشي، وختمتها بذكر أهم مفردات الاعتراف بتفرد الإمـام وطنيـاً وإقليميـاً ودولياً.

والآن تصديت لكتابة موسعة ترصد سيرته عبر أوراقه وما كتب عنه في إطار بحوثي، وهو هدف طموح جداً كلما أوغلت في تنفيـذه وجـدتني في محـيط أعمـق. ورأيـت أن يخرج الكتاب في خمسة أجزاء مركزاً على سيرة للحبيب الإمام الصادق المهـدي، وأهـم ملامح فكره، وعطائه السياسي، وبعض مميزاته الشخصية. وذلك على النحو التالي:

الجزء الأول: يغطي الفترة حتى حلول الظلام المايوي، بعنوان (بينج ماريال). وهـو لقب أطلقه الدينكا على السيد الصادق لدى زيارته للجنوب في ١٩٦٦م، ويعني الـزعيم ماريال، وقد اختلفت تفسيرات أساتذة لغة الدينكا الذين قابلتهم للتسـمية، وكـان أحـد التفسيرات أنه تشبيه له بطائر الغرنوق الذي يجمع بين جمال المنظر والنبل، فهـو حينهـا كان يجمع بين الشباب والزعامة فكأنما هو تناقض شبيه.

الجزء الثاني: يغطي فترة الانقلاب المايوي، بعنوان (ظـلام أب عـاج)، ولقـب (أب عاج) كان يطلقه نصراء نظام مايو على رئيسه الذي كان يحمـل عصـا مـن العـاج دارت حولها الأساطير.

الجزء الثالث: يغطي فترة الديمقراطية الثالثة، بعنوان (الصادق أمل الأمة..ولكن!)

الجزء الرابع: يغطي فترة ليل (الإنقاذ) الطويل.

الجزء الخامس: يهتم بتحليل فكر الإمام والتطـور فيـه، وبعـض مميـزات الحبيـب الإمام الصادق المهدي الشخصية، وباب حول الأشعار التي قيلت حوله، وأهم الأقوال والتحليلات لدوره من قبل آخرين.

وتخرج الأجزاء الثلاثة الآن متزامنة مع ثمانينية الحبيب الإمـام الصـادق المهـدي، وذلك بأمل إلحاق الجزئين الرابع والخامس حالما يتم إعدادهما بعون الله وتوفيقه.

جزء كبير من مادة الأجزاء الثلاثة هذه كما أشرت هي عبارة عن كتابات سابقة للسيد الصادق المهدي، أو ملخصات عنها، إذ قمت بجمع المادة وتحريرها وترتيبها بتسلسل تاريخي، مع ربطها برواية متسقة للأحداث مستعينة بروايات سمعتها أو ببحث محـدود

في بعض الأدبيات التي تغطي الأحداث التي أرويها. ولهذا لا يمكن القول إن الكتاب من تأليفي بينما ثلاثة أرباعه تقريباً عبارة عن كتابات قمت فقط بتحريرها وجمعها في سياق رواية متصلة.

وقد اخترتُ أن أروي عنه وبالطبع واجهتني مشكلة اللقب فهو والدي وإمامي و«الحبيب» الكلمة التي صارت تعنيه في مخاطباتنا، ولكني تركت قلمي يسير مع عمره فهو الصادق أو السيد الصادق وهو صغير إلا إذا رويت عنه رواية حديثة حيث يتحول «للإمام الحبيب»، وأرجو ألا تضير هذه اللغة القارئ، ولا ينظرن للألقاب، فالحبيب الإمام الصادق المهدي ليس ممن يضيف إليهم اللقب أو يحذف عنهم، وكنت عودت نفسي أن أكتب عنه كما يحب من الشعب السوداني أن يناديه (الصادق) لأنه برأيه يحول الاسم إلى صفة محببة. ولكني تركت لمحبي اللقب أوقاتا فيها ينعمون! وأنا أعلم مدى أهميته لدى كثيرين، وقد رُوي أن صحافياً أنصارياً مخضرماً في صحيفة مستقلة، حينما عرض عليه مقال لكاتب كان يشير للحبيب الإمام الصادق ب«الأستاذ»، وذلك في عرفه قلة أدب ما قبلها ولا بعدها ولكنها مغلفة، قال للمحرر احذف هذا اللقب واتركه الصادق قراحاً ليعلم الجميع أنه قليل الأدب!

ولكنا لنا رأي مغاير عن تلك الفكرة، ولا يضيرنا أن نتحدث عنه باسم الصادق، بينما نحبه ونجله ونعترف بفضله أيما اعتراف! وأنت تجد/ين في آثار الإمام المهدي عليه السلام انتقاداً لاستخدام الألقاب باعتبارها باباً للتكبر المذموم، كذلك تجد/ين لدى بعض حاملي الألقاب في بلادنا خواءً يدعو للرثاء ولدى بعض المتجردين منه امتلاءً ورواءً يدعو للاحتفاء، وكما قال شاعرنا الفيتوري رحمه الله فالغافل من ظن الأشياء هي الأشياء! ومجمل القول إن حبيبنا يزين اللقب وليس العكس، ولا حاجة لي بتزيين الألقاب: مطية الخاوين وزينة الذين هم عن الفضل عارين!

وفي هذا الكتاب حرصتُ إذا كان الكلام نقلاً عن روايته على ترك ما رواه بنفسه بنفس اللغة (ضمير المتكلم)، وحرصت على التفرقة بين ما سقته من روايات الآخرين أو مشاهداتي أو من البحث، وبين ما جاء بلسانه بتغيير شكل الخط. ولكن هذا التغيير أحيانا خادع، فكثير مما هو وارد كأنه روايتي في الحقيقة تلخيص أو تحرير لمادة كتبها خاصة كتاب المصالحة الوطنية.

مشروع الكتابة عن الإمام الصادق المهدي مشروع طموح جداً فجوانبه عديدة وعطاؤه ثر، وحتى السرديات المتعلقة بسيرته كثيرة من لقاءات صحفية وتلفزيونية وأجندة وأوراق وكتب ومدونات. لذلك فإن المغامرة بإخراج كتاب يدعي تغطية الفترة التي يرصدها الكتاب ظلم وجهل كما هو حال الإنسان الذي وصفه ربه في تقلد حمل الأمانة التي أبتها السموات والأرض والجبال.

ولكن شجعني في المقابل معطيات محفزة، فالمادة حول كثير من حقب حياته شبه جاهزة. وعلاوة على كوني ابنته وذلك باب لمعرفة لصيقة، فقد كنت فرداً غير رسمي في مكتبه منذ فترة الديمقراطية حيث كنت أقضي ساعات طويلة في المكتبة، وكنت ألازمه في بعض الأسفار الخارجية حينما تسمح ظروف دراستي، بعد ذلك لازمته كمساعدة بحثية ومسئولة من أوراقه ومكتبته بشكل رسمي منذ ١٩٩١م أي ربع قرن حتى الآن ولفترة أكثر من نصف عمري، ذهبت على إثره للقاهرة ثم عدت معه في «تفلحون»، ومنذ تكوين مكتبه الخاص بشكل مؤسسي سنة ٢٠٠٠ تقلدت منصب سكرتيرة المعلومات والدراسات والمكتبة والنشر، وعبره توثقت معرفتي بالآلية التي يتابع بها الأحداث ويتفاعل بها معها.

هذه الفترة الطويلة جعلتني قريبة منه فيزيائياً بما يسهل علي رصد تحركاته وأعماله، ولكن الأكثر من ذلك هو القرب الفكري حتى أنه صار أحياناً يعود لي يسألني عن بعض آرائه والمقولات التي يستشهد بها إذا ند عليه موضعها ويقول إن «رباح هي ذاكرتي».. وأخيراً وهو يستعد لحلقات (شاهد على العصر) ساعدته ببعض بحوثي حوله فقال لي: لقد صرتِ تعرفيني أكثر مني! وهذه قلادات أعتز بها، وأدعو الله أن أكون قدرها.

ولعلك تقول/ ين كما قال كثيرون إن هذا الكتاب هو مصداقاً للكلمة القديمة: كل فتاة بأبيها معجبة! ولعلك تتعجب لو قلت لك إن باب الأبوة لم يكن باباً للإعجاب بحد ذاته، فحينما بدأت تجربتي مع الإمام كابنة كنت ملأى بالحنق على هجرنا طيلة سنوات طفولتنا الأولى، فكم كان يؤلمني مثلاً ونحن صغار سؤال بعض أندادنا في الأسرة هل لكم أب أو أين أبوكم؟ وكان هذا السؤال من إحدى بنات الأهل حجاباً عنها امتد لسنوات، كنت أحسها كمن صفعني في خد مجروح! ولذلك كنت غير مستعدة للتعامل بأريحية مع ذلكم القادم الجديد حينما بدأ يطل في حياتنا، والذي يبدو أن لديه رؤى

كثيرة لست مستعدة لاتباعها بحال، وقد واجه الإمام شيئاً من هذا الرفض الظاهر أو المستتر منا جميعا بدرجات متفاوتة ربما باستثناء قليلين. ولكن منهجه في التعامل معنا كان قاصماً لظهر هذه الشنشنة التي أبدلها أصحابها وصاحباتها طوعاً بعرفان لقيمة هذا الرجل والقمة التي يتربعها على مرتفعات المكارم.

فهو برغم رؤاه الواضحة وقيمه الأخلاقية والدينية العالية، لم ينه ولم يأمر ولم يعاقب أو يزجر، وقرّبنا إليه حينما أتيحت له ظروف، في جو من المحبة والاحترام لذات كل شخص منا وفضّل التوجيه لا باللسان ولكن بإعطاء القدوة. إنه رجلٌ مهيبٌ عظيم، ونحن كنا نشهد كم من الناس كان يجله، ولكنه كان يجلس بيننا ونحن أبناؤه الصغار الذين شهدنا كيف تعني الأبوة في السودان شيئاً أقرب للسخرة، أو بين محبيه الذين يعلم كم تسعدهم خدمته، ولكنه يخدم نفسه بنفسه، ويستكثر حتى أن يطلب أحداً مناولته كوب ماء!

وإني لن أغالطك قارئي في أن الكتاب يأتي كإعجاب فتاة بأبيها، ولكني ألتمس أن تنظر فيما أقول بعين النقد لا عين الانطباع، والنقد يستكنه الأشياء ولا يكتفي بالأحكام والانطباعات السابقة أو السريعة، فإن كان ما أتيت به هو من باب ما يمكن أن تقوله أية فتاة معجبة بأبيها فلك أن تحكم علي بأنني مقادة بعاطفة البنوة وأن الكتاب نتاج عاطفة وتزيين، وإن رأيت أن ما ذكرته فيه رصد وبحث وخبرة ولا ينفي العقل وإن لف بالمحبة، فاحكم لكتابي هذا بأنه صفحات من حياة رجل أثر ويؤثر على حياة السودانيين وأفكارهم بل حياة كثيرين خارج السودان، ويحق لهؤلاء جميعاً الاطلاع عليها، وأنه يستحق أن ننظر إليه بتعاطف، هو الذي قدم وما استبقى شيئاً!

وإني لا أنسى في النهاية أن أؤكد أن ما جاء في الكتاب وإن كان في قسم كبير منه من كتابات الإمام الصادق المهدي إلا أنه غير مسئول مما فيه من قريب أو بعيد بل رفض مراجعته وتصويبي لو اشتططت أو مساعدتي فيما غاب عني من أحداث، وإن كان رضي أن يكتب مقدمة له بدون أن يصحح أو يقوم، مطالباً إياي بتقلد مسئوليتي في الرصد بعيداً عن حكمه وليس مطلوباً مني في النهاية (لوحاً محفوظاً) أو كما قال.

وهذه النقطة مهمة للغاية لأنني اتضح لي أثناء مشاهدة حلقات (شاهد على العصر) التي بثت في النصف الثاني من هذا العام (٢٠١٥م) أنني أوردت معلومات غير دقيقة

أحياناً، وكنت اتصل به وهو في القاهرة لأسأله أو أحاول الانتصار لرصدي أحياناً حتى تأتي التوضيحات الدامغة منه، ومن ذلك نلت معلومات إضافية كنت بها حفية.

وإن كنت اجتهدت للحصول على رواية لأهم الأحداث بحسب معرفتي وإلمامي، إلا أنه لم يتح لي الاستفادة من مصادر هامة مثل دار الوثائق القومية خاصة أرشيف الصحف فيها، وبالرغم من رجوعي لبعض الكتب والدراسات والبحوث التي نشرها آخرون إلا أن مصدري الأساسي كان كتابات الإمام الصادق المهدي نفسه، وحتى هذه ما أمكن استصحابها جميعا كما ذكرت.

وقد أقحمت أحيانا ذكرياتي وانطباعاتي لا لأهميتها بحال، ولكن لإضافة مسحة حميمية على الكتاب الذي صيغت أغلب فصوله بتجريدية بالغة، وذلك كعربون إلفة للقارئ. كما أضفت روايات في إطار ينكره البعض، فإن لم يقنع أولئك بأن في الكون روحانيات، فلينسبوها للتخاطر أو الاستبصار Telepathy أو أي من ضروب الباراسايكولوجي التي صارت تدرّس لدى أعتى الماديين.

وقبل الختام، أعد بمواصلة هذا الجهد حتى تمام الأجزاء المزمعة بإذن الله، وأقر بأني وقد فتحت ثغرة على نبع المعرفة وأنا أقلب أوراق الإمام الصادق المهدي وجدت السيل يغمرني ويشرقني، وكثير من الأوراق التي طالعتها مست شغاف قلبي، وفي النهاية جددت دهشتي بهذا الحبيب! ولكن، لا ينبغي النظر لهذه الدهشة باعتبارها حجاباً يعمي عن النظر الموضوعي، فأحياناً برغمها خالفت رؤى الإمام الصادق، وربما مردُّ ذلك الخلاف أني تتلمذتُ على رؤاه وتشبعتُ بروحه التي تشع من كتاباته المنادية بتغيير الواقع وتثويره منذ صغري، ولم أمارس السياسة عملياً بذات القدر، لذلك صرت أقل قدرة على تفهم الموازنات التي كثيراً ما جعلته يصالح الواقع، مثلما يشير كثيراً لفقه التنزيل في مفهوم ابن قيم الجوزية قائلاً إن الفقيه هو الذي يدرك الواجب ويفهم الواقع ويزاوج بينهما.

وإضافة لاختلاف التقديرات، ليست هناك مسيرة بشرية تخلو من خطأ، وبكلمات السيد الصادق ذاته في أكتوبر ١٩٦٦ مؤكداً أن الأداء الإنساني لا مجال فيه للكمال: (كل أداء أنساني مهما كان ذلك الأداء حتى وإن كان في أدق أوضاع الهندسة لا بد له من تقصير في شئ ما، فالأداء الإنساني مربوط بالنقص ارتباط الإنسان بطبيعته وتكوينه)

ولهذا سنجد أنه أحياناً أقر بارتكاب أخطاء ندم عليها.

الشاهد، لقد بدا هذا الحبيب غريباً في ستينات القرن الماضي وهو يطلق صيحة تحديث مؤصل في واقع منقسم بين الذين سدروا خلف صاحب الناي الحداثوي مشغولين ببعض قشوره غير آبهين بجوهر الحداثة، وبين الذين قنعوا بواقع التخلف وارتضوا مواريث المجتمع وقيمه كما هي، فجلب معه ذلك الذهن المرتب إلى رئاسة الوزارة، وقد أطلق نداء التطوير والتحديث في كل ملفات العمل من ضرورة التقيد بالميزانية، وإصلاح الخدمة المدنية، وعمل الجمعية، والعمل الحزبي، وغيرها من الملفات. وظل صوتاً ينادي بالتطوير والمأسسة من داخل كيان وصم بالتقليدية، متناقضاً مع ما يسود مجتمعنا من تحلل، غريباً على ما حوله من نماذج منها من سعى لتثبيت واقع التخلف والإفادة من ميزات القيادة بالإرث حشداً لجماهير مذعنة خلف مصالحه، ومنها من استغل الأشكال الحداثوية مطية لنظم النخبة في سلك أغراضه.. نعم كان غريباً، وهبت في وجهه أعاصير الرفض من الحرس القديم، ثم ركب أهل الشعارات التقدمية الدبابات فما وجدوا لسهامهم من صيدٍ أعز منه. وظل يعافر ويقاتل ويصالح ويواجه حتى كانت الانتفاضة المباركة وله فيها سهم مع غيره من قوى الانتفاضة الباسلة، ليأتي حاكماً من جديد، وتبدو مواقفه ورؤاه محط أمل جموع كبيرة، ومحط نقد ومناورات لمعارضين كثر في اليمين واليسار والوسط، فيبدو من جديد وكأنه قريب من الأمل غريب ممن حوله حتى داخل حزبه أحياناً، تتلاحم من حوله وتعلو أمواج وتقترب الحيتان وهو يقود السفين في بسالة وفي استماتة.

ويبدو مشوار الحبيب الطويل ذاك وكأنه رحلة أحد أبطال الأحاجي كحسن الشاطر، أو فاطمة السمحة، وما فيها من غيلان وسعالي، أو كالأوديسة وأهوالها العجيبة، وتراه يواجهها بذاك الوجه الباسم أبداً، ويعلّق على صفحة المرآة التي يلف أمامها عمامته برشامة للصبر: (إذا زاد فضل المرء زادت خطوبه ويحمد منه الصبر فيما يصيبه/ فمن قل فيما يلتقيه اصطباره لقد قل فيما يرتجيه نصيبه).. كتب عنه ذلك الصحفي العربي أنه (المعذّب في الأرض) ومع أنه لم يستطع إدراك كنه ذلك العذاب كما نراه لكنه لمح الظاهرة، ثم أنشد له المغني في ليلة العرفان: لو ينحني الجبل الأصم..لا تنحني!!

إنها مسيرة يصعب تلخيصها، تشد العصب وتشرع الروح في أساطيل الشجى، ولكنها صفحات أحضرت فيها من قراطيس السيد الصادق المهدي ما رأيته يروي الرواية، وأضفت من عندي. وهو رصد قطعاً مثلما ينبع من محبة الحبيب الإمام الصادق المهدي، ينبع من محبة الحقيقة ومن محبة الحبيب الأعظم الذي أوصانا بتحري الصدق ﷺ، ومن محبة هذا الشعب العظيم الذي إنما أوقف حبيبنا عليه حياته، اللهم احفظه لنا وبارك في أيامه، واذهب اللهم قيد بلادنا وأحطها بالعناية التي تذهب عنها النكاية، آمين.

وفي نهاية مقدمتي هذه أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في مدي بالوثائق التي احتجتها وقد قطعت البحر الأحمر نحو ديار الحرمين الشريفين فلم يمكن اصطحاب كل المكتبة التي تعوزني. وأخص بالامتنان الكاتب الصحفي الكبير الأستاذ مصطفى عبد العزيز البطل الذي بعد إفادتي القصوى من واحد وعشرينيته حول فترة الديمقراطية الثالثة رأيت أن أعرض عليه الجزء الثالث ليراجعه ففعل ذلك مشكوراً في سرعة تؤكد أنه قارض مهول للكتب، وأغراني جوده بسؤاله المزيد فلم يبخل بملاحظاته وتصحيحاته التي أفادتني كثيراً في الأجزاء الثلاثة، جزاه الله عني كل خير.

كما أشكر الأحباب رشيدة إبراهيم عبد الكريم، وصديق الصادق، على ما جوّدوا من عملي بنظراتهم وملاحظاتهم.

ولا يفوتني شكر زوجي الحبيب عبد الرحمن الغالي الذي صبر على انكبابي المتصل وما جره من انشغال ورهق ومن ثم علل فكانت شفقته تؤاخي تشجيعه، وكم كنت أغرف من علمه وخبراته شفاهياً وقد ظللت أفعلها طيلة تلك السنين! ومحبتي وامتناني للصغار الثلاثة: محمد الرشيد، ورحمة، والطاهر، وأختهم الكبرى أمان التي كانت تتابع من بعد، فقد عانوا معي مخاض هذا السفر وكانوا يعبرون عن إشفاقهم من طول ليالي الكد والسهر، إني أدعو الله أن يكون في جهدي ما يشحذهم وجيلهم نحو عطاء متصل للوطن، أسوة بصاحب السيرة والمسيرة. فلو تم تدويل مثل كدحه وجده واجتهاده في بلادنا لبلغلنا الحداء (**شان هنانا، شان منانا.. شان عيون أطفالنا ما تضوق الهزيمة**).. آمين.. آمين.. آمين.

رباح الصادق المهدي

أبها في نوفمبر ٢٠١٥م

الفصل الأول

ظلام «أب عاج»

في الجزء الأول من هذا الكتاب سردنا سيرة ومسيرة السيد الصادق المهدي رجوعاً لأوراقه حتى قيام ليل مايو ١٩٦٩م. كان ليلاً طويلاً، استمر لستة عشر عاماً، قضاهم الصادق سجناً وتشريداً وقتالاً ومفاوضة ومصالحة ومواجهة حتى كانت الانتفاضة المباركة عام ١٩٨٥م.

وفي هذا الجزء الثاني تفاصيل هذه الرحلة الشاقة التي التهمت شباب السيد الصادق وهو يكدح نحو فجر الحرية.

كان الصادق أبرز منتقدي الوضع السياسي قبل قيام الانقلاب وتعداداً لمساوئه، وبرغم ذلك كان من أوائل أهداف الوضع الجديد.

في هذا الجزء تمت الاستعانة بالعديد من مدونات وأوراق السيد الصادق، ولكن الكتاب الذي ورد غالبه بدون الإشارة هو كتاب المصالحة الوطنية الذي شكل عظم ظهر هذا الجزء من الكتاب.

قادمون من خور عمر

الانقلابات العسكرية كانت موضة ذلك الزمان في كل أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وكان مما قاله جماعة عبود إنهم استلموا السلطة ليقطعوا الطريق على انقلابات عديدة تضمر للبلاد شراً بزعمهم، كما عانوا هم أنفسهم من انقلابات كثيرة أشرنا لها فاستمرار ديمقراطية السودان وهذه الحالة كان أمراً صعباً ويتطلب وعياً سياسياً وأمنياً لم يكن متاحاً حينها، وحينما حدث الفراغ باستقالة رئيس الوزراء تقدم العساكر، أو قل المناكر! وبمناسبة العساكر المناكر هؤلاء أذكر مدحة الحبيبة رابعة بت بلالة وهي إحدى مادحات الأنصار المعروفات، والتي تقول:

أنصار الدين جوكم يا العساكر

يا الفي خوف قاطعين تذاكر!

شبهت الخوف بفيلم سينمائي «قطع» العساكر تذاكر لحضوره! وهو تشبيه لطيف، وقيل إن أمي السيدة عائشة عبد الرحمن المهدي قالت لها ربما كان هنالك عسكراً محموداً فقولي (يا المناكر) فغيرتها، ولكن ما فتئت النسوة تغنينها بالعساكر! والحقيقة إن هذا الشعب ذاق من العسكر الأمرين سواء أكان يسارياً (**الشعارات التي رُفعت ستائر، خلفها الجاسوسُ يلبسُ ثوبَ ثائر، خلفها العملاء أبطال نواضر، خلفها السودان يسجنه العساكر**[1]).. أو يمينياً (**يا أب دقناً تحت الكاب والإفك رباط البوت.. بين السونكي وحد الناب فلتحكم بالنبوت**)[2].

كانت المنطقة كما قلنا تضج بهم إما قبل انقلاب مايو أو بعده بقليل، فالعساكر استلموا مصر بعد حركة الضباط الأحرار في يوليو ١٩٥٢م، وجاء الانقلاب العسكري البعثي في العراق ١٩٦٨م، واستلم العقيد معمر القذافي ليبيا في سبتمبر ١٩٦٩، واستلم عيدي أمين الحكم في يوغندا بعد انقلاب عسكري في ١٩٧١، وأطيح بالإمبراطور هيلاسيلاسي في أثيوبيا بانقلاب عسكري في ١٩٧٤م وقبله الانقلاب الفاشل في ١٩٦٠م، وهكذا.

أما في السودان فقد تحدثنا عن الجو الانقلابي منذ وقبل انقلاب نوفمبر ١٩٥٨م، وعن القلاقل التي أحاطت بالحكم البرلماني وأفقدت فيه الثقة وصبغته بالتطاحن، والتطور الخطير في النزاع الذي أدى لطرد نواب الحزب الشيوعي من البرلمان وحل الحزب وحظر نشاطه وما أدى إليه ذلك من تذمر وسط قوى اليسار واتجاه جزء منهم للحل الانقلابي حتى بعد احتواء القضية عبر بيان ١٣ مايو ١٩٦٧م، وذلك لمناهضة الدستور الجديد.

وقد تكرر اسم جعفر نميري في انقلابات عديدة حتى قبل حل الحزب الشيوعي مما يؤكد أنه كان ساعياً للانقلاب قبلها.

ففي ١٩/ ١١/ ١٩٦٤م أي بعد أسابيع من ثورة أكتوبر صدر منشور باسم الحزب

(١) من قصيدة للمرحوم فاروق البرير حول الانقلاب، مايو ١٩٦٩م
(٢) من قصيدة للمرحوم محجوب شريف حول انقلاب (الانقاذ) ١٩٨٩م

الشيوعي تحت عنوان «فلتملأ القوى الوطنية الشوارع من جديد» وفيه: المطالبة بإطلاق سراح الضباط الأحرار المعتقلين فوراً. من هؤلاء الضباط: جعفر نميري، فاروق حمد الله والرشيد نور الدين. [١] وقد ذكر السيد فاروق أبو عيسى اعتقالهم ضمن ملابسات بيان ليلة المتاريس[٢].

وفي ٢٨/ ١٢/ ١٩٦٦م حدثت محاولة انقلاب قام بها بعض صغار الضباط وحوالي ٣٠٠ من جنود سلاح الأساس في مدرسة جوردون للتدريب. المحاولة قادها الملازم خالد حسين الكد، واعتقل جميع القائمين بها. وقد شمل الاعتقال بالإضافة للعسكريين عدداً من المدنيين وزعماء الحزب الشيوعي. قال خالد والضباط الذين اعتقلوا معه إن حركتهم كانت تهدف وضع حد لحالة الفوضى السياسية، ومن بين المعتقلين النواب الثمانية الذين رفضت الجمعية التأسيسية عودتهم إليها برغم حكم المحكمة العليا[٣].
وكان أعضاء مجلس قيادة (ثورة) الكد هم: جعفر محمد نميري- الرائد هاشم العطا- الرشيد نور الدين- الرائد الرشيد أبو شامة- الرائد بابكر عبد الرحيم- الرائد مصطفى عبادي- على التوم[٤].

وبهذا يتضح أن جعفر نميري، ذلكم الضابط المتأخر في الدراسة في مدرسة حنتوب الثانوية والذي كانت المظاهرات الطلابية تطلق عليه صفة (طيش حنتوب) أي الأخير في ترتيب مدرسته، والذي أطلقت عليه بطانته لقب (أب عاج) إشارة للعصا العاجية التي كان يحملها والتي قيل إن أحد السحرة أو (الفكيا) قال له سوف يسقط حكمك حينما تنكسر، فكان يحملها في حله وترحاله! كان شريكاً في عدد من الانقلابات، وفي كل مرة تسلم له الجرة حتى نجحت محاولة ٢٥ مايو ١٩٦٩!

كان النميري منتمياً لتنظيم «الضباط الأحرار» وهو يساري التوجه، وقد وردت إفادات متناقضة وآراء متضادة لقيادات الحزب الشيوعي إزاء علاقتهم بانقلابه المشئوم: فالسيد عبدالخالق محجوب نفى تلك الصلة والسيد أحمد سليمان أثبتها.

---

(١) محمد محمد أحمد كرار الانقلابات العسكرية في السودان (ص ٩).
(٢) تفاصيل ما جرى في ليلة المتاريس موجودة في الجزء الأول (بينج ماريال)
(٣) الأهرام ٢٩ ديسمبر ١٩٦٦م
(٤) (كرار، ص١١)

ومهما يكن فإن الثابت أن الحزب الشيوعي كان يعلم بالانقلاب وحلقة الوصل بينه وبين الانقلابيين كانت فاروق حمد الله. وفي صبيحة يوم ٢٤ مايو ١٩٦٩م استدعى سكرتير الحزب «عبد الخالق محجوب» كلا من محمد إبراهيم نقد والشفيع أحمد الشيخ لمقابلته حيث أخبرهما أنه اتفق مع حمد الله لمقابلتهم لينقلوا له رأي المكتب السياسي للحزب وأخبرهما بما سمعه في أمسية ٢٣ مايو من أن صغار الضباط بالجيش اختاروا النميري لقيادة الانقلاب. كما اجتمعت اللجنة المركزية للحزب مساء ٢٥ مايو لمناقشة موقفها من الانقلاب وانقسمت بين مؤيد ورافض، وكان الرأي الغالب هو التأييد لتوافق الشعارات. بل لقد أكد حمد الله للانقلابيين موافقة الحزب الشيوعي على الاشتراك منذ مساء ٢٤ مايو[١].

تحركت جماعة الانقلاب المايوي ليلاً من خور عمر بأ مدرمان، فاحتلت الإذاعة والوحدات العسكرية بالعاصمة، وفي صباح ٢٥ مايو ٦٩ عزفت الموسيقى العسكرية بإذاعة أم درمان وأذاعت بيانهم معلنة العهد الجديد.

الصادق ومحاولة الاغتيال الأولى

كان الإمام الهادي حينما قام الانقلاب بالجزيرة أبا التي اتجه لها قبل أيام معدودة منه، وكان يزمع التوجه ذات يوم الانقلاب إلى تلس بجنوب دارفور، بينما كان السيد إسماعيل الأزهري يزمع السفر بذات اليوم لمايرنو وكانت تلك الزيارات في إطار المنافسة على رئاسة الجمهورية وانتخاباتها المقبلة وفقما جاء في كتاب الأستاذ صديق البادي[٢]، أو هرباً من حرج الاتفاق مع حزب الأمة الذي لم يمكن تمريره على مؤسسة حزبهم وفق ما جاء في مذكرات السيد الصادق التي اقتبسنا منها في آخر الجزء الأول (بينج ماريال).

كان السيد الصادق المهدي حينها بأم درمان، ومع إدانته للفساد في الوضع السابق وترحيبه بإصلاحه إلا أنه رفض فرض أجندة حزب أقلية وإقصاء الآخرين، وخاطب الناس في منزله بتلك المعاني، فتمت محاولة اغتياله هو ومن معه من الأنصار

(١) نفسه الصفحات ٢١-٢٢، و٢٤

(٢) صديق البادي احداث الجزيرة ابا وودنوباوي

المتجمعين عبر قوة يقودها الرائد عثمان الحاج حسين (أبو شيبة) لولا أن لطف الله بتدخل من السيد بابكر عوض الله، مثلما روى مشارك أصيل في الأحداث هو الرائد حينها محجوب برير محمد نور.

يروي محجوب أنه صباح الانقلاب التقى السيد بابكر عوض الله نائب رئيس مجلس قيادة «الثورة» ورئيس الوزراء في مدخل القيادة العامة للقوات المسلحة..«كان كمن يبحث عني وهو بادي الاضطراب والقلق،..، وبلا مقدمات أو مناسبة خاطبني في ضراعة ورجاء: يا محجوب أوقف نزيف الدم، نريد لهذه الثورة أن تولد بيضاء ما كان إلى ذلك سبيل. وقال إن عوض الله أخبره بأن (قيادة الحزب الشيوعي) أوهمت نميري بوجود ترسانة أسلحة بمنزل السيد الصادق المهدي الذي تجمع أنصاره المتطرفين حول منزله ينتظرون إشارة منه للتحرك المسلح لإجهاض الثورة. فاقتنع النميري الخائف على نفسه وثورته بضرورة تصفيتهم جميعاً فوراً، وتقرر أن يرسل لهم تحركٌ مسلحٌ بقيادة أبو شيبة، وطالبه بأن يبذل قصارى جهده لوقف ذلك التحرك. وذكر محجوب أنه ذهب وأوقف تحرك أبو شيبة، ثم اتجه لمناقشة الأمر مع نميري الذي قال إنه يريد أن (نتغدى بيهم قبل أن يتعشوا بينا)، وقال محجوب إن النميري كان مصراً على الفكرة وبعد لأي ومحاججة قبل أن يقود محجوب القوى الذاهبة لمنزل السيد الصادق مفوضاً في التعامل مع الأمر وذلك بثلاثة شروط: الأول: أن يكتم خبر تدخل نميري في الأمر ويتقلد كامل مسئولية إيقاف تحرك أبو شيبة وقيادة التحرك بنفسه، وبالكلمات التي ساقها عن نميري (لأني سبق واتفقت مع قيادة الحزب الشيوعي على أخذ زمام المبادأة وتصفية الصادق وأنصاره). والثاني: أن يصدر محجوب أوامر ضرب مؤجلة للقوة المرابطة حول منزل السيد الصادق المهدي، ويدخل وحده لمواجهته فإذا تبين (صدق معلومات الرفاق) فلا تتردد في الاشتباك وتنفيذ المهمة. والثالث: أن ينقل له بأمانة موقف الصادق السياسي والعسكري من (ثورتنا) ويستكشف مدى حيازته للسلاح وتدبيره للتحرك المسلح ضدهم.

وحكا أنه توجه على رأس القوة ضحى يوم ٢٥ مايو متجهاً لمنزل السيد الصادق المهدي وطلب منه أبو شيبة أن يكون قائداً ثاني للقوة فاصطحبه، ولكن لحقه الرائد فاروق عثمان حمد الله وطلب منه ألا يدع أبو شيبة قائداً للقوة لئلا يقوم بالهجوم خضوعاً

لتوجهه العقائدي.

قال: واصلت سيري نحو منزل السيد الصادق بعد أن أمرت القوة بصوت مرتفع حرصت أن يصل إلى الجموع المحتشدة حول المنزل، بإطلاق النار عند سماع أفرادها لصوت إطلاق النار بالداخل، أو إذا تأخر خروجي عليهم عن ساعة واحدة، وكانت هذه الأوامر على مسمع ومشهد من الأمير عبد الله عبد الرحمن نقدالله وهو يعرفني وأعرفه، وقادني والأخ أبو شيبة وسط جموع الأنصار إلى لقاء السيد الصادق المهدي بالداخل[1].

وسوف ننقل من مذكرات السيد الصادق المكتوبة في الأسبوع الأول من يونيو ١٩٦٩م وقائع ما دار[2]:

(لقد وصل نبأ انقلاب مايو إلى علمي ساعة قبل وقوعه وكنت في الخرطوم وخرجت فرأيت حيث ذهبت تحركات ومصفحات..إلخ، وكان في خاطري صراع بين ترحيب وإشفاق. إشفاق لأن الانقلاب معناه دخول الجيش الميدان السياسي وهذا معناه أن يتعرض الجيش للفساد السياسي حتماً فإن اعتقادي كان دائماً أن الجيش ينبغي أن يكون وطنياً وملماً بالقضايا العامة ومتحمساً لها، ولكن دخوله الحكم معناه تعرضه للتحزب ودخوله المعترك السياسي بكل مخاطره. وإنني كنت ولا زلت اعتقد أن الدول العربية لن تكون لها جيوش بالمعنى الحقيقي فتقاتل ما دامت القيادة السياسية فيها تُحزّب الجيش فتفسد ضباطه عن طريقين: الفئة التي تقربها وتعتمد عليها تتحول إلى طبقة جديدة من الذوات ويصبح لا هم لها إلا الرحلات والتصريحات وولوج أبواب هي عاجزة عن ولوجها فتبدأ عملية مطاردة بين الضابط والصورة التي رسمها لنفسه في الخيال وهي مطاردة لا تنتهي إلا بإفساده كعسكري، أما الفئة الأخرى التي تتخوف منها القيادة فتجمد أو ترسل للمعاش وفي الحالين الجيش خاسر والبلاد معه. وبالطبع فإن أي انقلاب يولد ومعه انقلاب في جيبه «ومن ارتفع بالسيف فبالسيف ينزل» كما يقول المسيح، ومعنى ذلك الدخول في فترة من المغامرات لا ندري متى وكيف تنتهي؟

(١) محجوب برير محمد نور مواقف على درب الزمان الصفحات ٢٩٩-٣٠٧

(٢) المذكرات في كراسة بخط الوالدة سارا الفاضل ولكن الراوي فيها هو الحبيب الإمام. وكانت في الماضي تنقل كتاباته وتبيضها بخطها فكثير من كتاباته موجودة بخطها. وقد قمت بنقل هذه المذكرات الهامة مع بعض التحرير والتصرف. (كتبها أثناء إعتقاله بجبيت)

وأما الترحيب فسببه أن أحوال البلاد كانت في حضيض لا يعلم مداه إلا الله.

ولم أنم تلك الليلة وبقيت في منزلي، وحوالي الساعة الثالثة إلا ربعاً أرسلت إلى أحد الضباط في ود نوباوي أن يذهب ويستفسر فذهب وجاء ليؤكد أن انقلاباً وقع وأنه تحدث مع أحد الضباط الذين أحاطوا بمنزل السيد أزهري وهنا كتبت خطاباً للإمام بأبا للمعلومية بما حدث.

وبقيت حتى أذيعت البيانات واتضح لنا أن المدنيين عبارة عن أصدقاء أو محاسيب للسيد بابكر عوض الله، وبعض الشيوعيين، وبعض العناصر الأخرى التي تتلون بلون الإناء الذي توضع فيه، مع عزل حزب الأمة وعزل سانو، فشعرنا بأن الانقلاب قد اتخذ شكلاً مدنياً غير مناسب فبدأ شعورنا بالإشفاق على مصير البلاد.

والحقيقة أن جماعتنا كانوا مستخفين جداً بالوضع الجديد، بأن جنوده قليلون وبأن الجيش لن يتضامن معه. وفي فورة حماسهم هذا، جاء ضابطان معهما ٢ عربة ومصفحة وجنود هما محجوب برير وأبو شيبة وكان مظهرهم أمام منزلنا استفزازياً وكان رد الفعل من ناسنا عنيفاً فكادوا أن يبطشوا بهما، ثم دارت محادثة بيننا وبينهما.

قال محجوب إن الجماعة التي قامت بهذه الثورة مؤمنة بأهدافها وستضحي بالحياة لحمايتها ولن تسمح بمعارضة ولن تعتدي على أحد، وكان معنا في الاجتماع الأمير نقد الله والسيد صلاح عبد السلام فقلت لهما قولا لهم: نحن مع إدانة الفساد البائد ومع ضرورة الإصلاح الثوري وضد التسلط الشيوعي، ونتمسك بمبادئنا دون تردد أو خوف من وعيد.

كنا في حالة حماس شديد، ولكننا كالعادة لم نكن مستعدين لأمر ما، وأرسل لي وزير الداخلية ضابطين بوليس ليقولا إنه يريد مقابلتي الساعة ١٢:٠٠ في مكتبه فقلت لهما قولا له إنني لن أحضر). أ.ه.

في بيت المهدي ثم إلى أبا

وكتب محجوب برير في مذكراته كذلك إن الأنصار تجمعوا ليلة ٢٥ مايو حول قبة الإمام المهدي فتصدت لحشدهم قوة عسكرية ففرقتهم[1].

---

(١) محجوب برير ص ٣٠٩

يقول السيد الصادق في مذكراته:

(تزايد حماسنا ورأينا أن نذهب إلى بيت المهدي وليست لنا فكرة محددة غير أننا نريد أن نجتمع ونواجه المفاجأة. ودعوت المجلس العالي للحزب إلى بيت المهدي الساعة ٢:٠٠ وتسامع الناس بوجودنا في بيت المهدي فتوافدوا. أما المجلس العالي فإنه في النهاية رأى أن يوكل إليّ الأمر أصنع فيه ما أرى مناسباً لحماية البلاد.

وفي المساء في بيت المهدي وبعد صلاة المغرب خطبت في الحاضرين وقلت إننا لا نوافق على الطابع الشيوعي الذي انطبع على هذه الحكومة ولا نستكين لها، وسنعارض هذا الوضع.

وفي صباح اليوم قبل هذا الاجتماع جاءنا في بيت المهدي السيدان يسن محمد أحمد ومحمود. وقالا إنهما والاتحادي الديمقراطي يقفون معنا وسيقومون بما نقرر، وأن الأمر بيدنا وكانا أيضاً في حالة استخفاف شديد بما وقع.

وعناصر كثيرة تدافعت إلينا منها حلفاؤنا الأقدمين ومنها آخرون وبدأنا نفكر ماذا نصنع إذا اعتدى علينا. وأمضيت يوما في بيت المهدي محروساً، ثم بدأت الحكومة تطوق منزلنا بحي الشاطئ[1] وبعد يوم من ذلك بدأت تطوق بيت المهدي ونشأ في ذهني اعتبار هام وهو هل هناك داعٍ للمقاومة والدماء؟

رأيت أن ذلك يدخل البلاد في فتنة كبيرة، وربما أمكن تفاديها ولذلك خرجت من بيت المهدي، ومررت على السيد أحمد المهدي لأخبره أنني بالتشاور مع الأمير نقد الله رأيت أن أذهب إلى الجزيرة أبا وأرى أن يذهب أحمد أيضاً وذهبت منه إلى منزل السيد إبراهيم النور وبقيت هناك حتى ذهبت ليلاً إلى أبا.

وفي أبا تفاكرنا مع السيد الإمام واتفقنا أننا في الوقت الحاضر نوضح موقفنا لناسنا وننتظر ما تسفر عنه التصرفات والأيام، وذهبت من أبا إلى سنجة على أن أقوم باتصالات بجميع الناس ليفهموا أننا لا نؤيد هذا الوضع ولكن عليهم ألا يقوموا بأي عمل استفزازي، وكانت إقامتي بالرايات.

(١) هو حي الملازمين حالياً وكان يسمى حينها بحي الشاطيء

ثم طرأت علي بعض الأفكار، ورأيت أن أعود إلى أبا لبحثها، وكذلك رأيت أن أكتب إلى بعض معارفي من الضباط من زاوية شخصية عساهم يجدوا سبيلاً لإخراج البلاد من هذا الموقف بالتفاهم، وتحمسوا لذلك عندما وصلتهم الرسالات.

وبينما أنا في أبا جاءنا السيد الفاتح عابدون مع السيد إسماعيل ليقولا إن القيادة تريد التفاهم معنا، وأكد السيد الفاتح أن النية صادقة، وأقسم له وزير الداخلية فاروق حمد الله بشرفه العسكري فيما يتعلق بالتعرض لي بسوء.

وقبل ذلك جاء الأمير نقد الله، وحكى لنا أنه اعتقل ليلاً، وبعد مضي زمن يسير طلبه وزير الداخلية ليعتذر له عن ذلك الإجراء وقابل به مجلس الثورة لاعتذار مماثل، فشكرهم الأمير والتمس الفرصة ليتحدث إليهم في الأمر وخرج بنتيجة أن ما قاله كان مقبولاً لديهم على وجه العموم، وأن مقابلتي لهم ممكنة، وأن مواصلة الحديث معهم لازمة، فهل يفوض لذلك أم أذهب إليهم أنا للمفاوضة؟

أنا شخصياً كنت راغباً في الخروج من أبا:

أولا: لأن وجودي هناك مع التحدي الذي قمت به للوضع الجديد يلفت نظره إلى أبا، وأنا أعلم أن في ذلك تعريض لرجال أبرياء مستعدون للتضحية لخطر لا أوافق عليه.

ثانيا: لأن خروجي من الخرطوم كان مفاجئاً فيحسن أن أعود إليها، ولكن أهم شيء في نظري هو أن أزيل وجه الخطر المباشر من أي تصرفات عسكرية ضد أبا.

ثالثا: ومن أقبح ما أقلقني وأنا هناك أن جاء الهندي صباح يوم للتعاون أو التفاهم، ولم يكن هذا رأيي عن المنبر الذي نحاول به إصلاح الأحوال الجديدة.

كل هذه العوامل تضافرت لتجعلني اقتنع بضرورة الذهاب للخرطوم، فإن كان التفاوض سبباً فنعم السبب، ومع أن مخاوفاً ما كانت في خاطري وخواطر آخرين أن غدراً ربما دبر، قررت أنا شخصيا أن أذهب مهما كانت المخاطرة، وأن أقول أشجع وأوضح كلام سمعه هؤلاء الضباط منذ استيلائهم بغرض النصحية، وبغرض تأكيد أن السودان هذا ليس سهلاً فيخضع دون إقناع، وبعد ذلك فليكن ما يكون.

ألم يكن من الأصلح تفويض الأمير لبحث الأمر معهم؟ ألم يكن من الأصلح عدم

الذهاب للخرطوم؟ ألم يكن من الأصلح أن يتسم حديثي بقدر كبير من اللين؟

ربما، ولكن الفكرة التي استولت علي هي: إزالة الخطر المباشر من أبا وسكانها أولاً، والتعبير عن عدم الاستكانة بسبب الخوف من الحكم الجديد ثانياً.

ما هو الحكم على هذا الموقف؟ الأيام ستفصح.

ذهبت إلى الخرطوم وتمت المقابلة يوم الثلاثاء ويوجد نص كامل بكل ما جرى في غير هذا المكان إلى اعتقالي وحضوري إلى جبيت)[1].

كانت المقابلة بين الصادق وبين النميري في يوم ٣ يونيو ١٩٦٩م.

وأنت تجد في هذه القطعة الهامة من مذكرات السيد الصادق التي دونها في أوائل يونيو ١٩٦٩م وهو بمعتقل جبيت العديد من الحقائق التي أغفلتها حتى الأدبيات التي وثقت للفترة مثل كتب المصالحة الوطنية، فالسيد الصادق بادر بتحدي النظام وضباطه المرسلين، كما رفض المثول أمام وزير الداخلية الذي طلب لقاءه، وكان مستهدفاً حينها بالاغتيال لولا لطف الله، وذهب لأبا ليتفاكر مع عمه، وكان خروجه من أبا بسبب تجنيب أهل أبا البطش بسببه وليس العكس فلم يكن أحد يستطيع قراءة الغيب وأن أبا سوف تتعرض للبطش بعد عام.

وكان خطاب السيد الصادق للضباط لإيجاد مخرج بعد ذهابه لأبا ثم للرايات، وفي هذا تروي المرحومة الوالدة سارا الفاضل عن رحلتها للرايات والأوراق التي سلمتها للحبيب السيد الصادق، والخطابات التي تسلمتها منه، وقد ذكرت أن الخطابات التي تسلمتها كانت للضباط الذين قاموا بالانقلاب، وهذه الواقعة أثبتها أحدهم وهو محجوب برير محمد نور مما يعني أن السيد الصادق خاطب قادة الانقلاب وضباطاً من معارفه ليتدخلوا بالإصلاح أو التفاهم.

وقد روت أمي سارا رحلتها لسنجة وقد تركت صغيرتها طاهرة المولودة في مارس وعمرها أقل من ثلاثة أشهر من خلفها، ذهبت بصحبة العم قريب الله رحمه الله الذي كان سائقاً لعربة السيد الصادق حينها. وقالت إن قريب الله سلمها رسالة من السيد الصادق

(١) المقابلة نشرت في كتاب المصالحة الوطنية وسوف نلخصها لاحقاً.

طلب فيها منها إحضار بعض الأشياء والأوراق، وذهبت مع قريب الله وهي تعتقد أن الصادق لا زال بشمال أم درمان (لعلها تعني منزل السيد إبراهيم النور)، ثم قالت: (بعد أن وصلنا الكاملين سألت قريب الله إلى أين نحن ذاهبان؟ قال لي «أنا من قبيل متخيل تسأليني السؤال دة»، وقلت له «إنت قلت لي الصادق دايرك وجيت معاك». ونزلت أمطار شديدة جداً بينما أنا وقريب الله مسافران، وكنت لابسة «جبة» من جبب الصادق وقد ربطت الأوراق المطلوبة حول بطني تحتها. وأخبرني قريب الله بأن الصادق في الرايات بالقرب من سنجة محل ناس السيد إسماعيل الخليفة شريف)[1].

وقالت إنهما لما ذهبا للرايات وصلا متأخرين بسبب الأمطار، ووجدا أن البوليس داهم الصادق والجماعة معه في الليلة السابقة، فقاموا (وكانوا ثلاثة أو أربعة) بدفن السيارات التي كانت معهم تحت الأشواك وذهبوا لمكان اسمه الجوامعة يبعد بالعربة حوالي ساعة من الرايات، و(لم يكن من الممكن الذهاب بالعربية لأن الدنيا خريف شديد والعربية التي جئنا بها نفسها أخفوها ومعها قريب الله. وجدت هناك شيخ «المهل»[2] وجاؤا لي بحمار ومن بنات السيد إسماعيل «توب زراق» و«قفة»، وصرت مسافرة بالحمار). وقالت إنهم وصلوا للجوامعة بعد حوالي ثلاث ساعات وزيادة، ووجدوا الصادق ومن معه مستعدين للذهاب للجزيرة أبا فأعطته الأوراق والأشياء التي طلبها، وناولنها جوابات لبعض الضباط منهم نميري ومحجوب برير محمد نور.

خدعة الحوار!

روى محجوب برير أن بابكر عوض الله الذي تدخل بداية ليحبط محاولة الاغتيال الأولى ثارت ثائرته لما علم أن الصادق يحذّر قادة الانقلاب من الشيوعيين ومن بابكر عوض الله فقال (إما الصادق وإما الثورة)[3] وقال إنه في اجتماع عقد في ثالث يوم لانقلاب مايو، ٢٧ مايو ١٩٦٩م، (كان من بين أجندة الاجتماع كيفية التعامل مع السيد الصادق المهدي إزاء موقفه المعادي للثورة في ذلك الحين، أو كما توهم البعض سعياً لتصفيته والخلاص منه! فرأى مولانا بابكر عوض الله ووافقه نميري وكل أعضاء

(١) كتابات وأقوال السيدة سارا الفاضل جمع وتحرير رباح الصادق، ٢٠٠٩م

(٢) شيخ المهل كان من الأنصار المقيمين بمنزلنا في طفولتنا، رحمه الله.

(٣) محجوب سابق ص ٣٠٧

مجلس قيادة الثورة،..، اعتقال السيد الصادق المهدي وإبعاده إلى حامية جبيت، ليكون بمنأى عن أنصاره، وهذه، كما قالوا أولى خطوات القرار الكبير! وكان واضحاً أنهم يعنون بذلك التصفية البدنية بصورة لاحقة إذا اقتضى الأمر)[١]. (وفي مرحلة التنفيذ بدأوا الاتصال ببعض معاونيه وقادة حزبه كالأمير عبد الله عبدالرحمن نقد الله والسيد صلاح عبد السلام وغيرهما)[٢].

وذكر كيف رفض هو نفسه هذا الاتجاه باعتباره حنث بالمواثيق والعهود، وسبق أن أعطي السيد الصادق الأمان على نفسه وأنصاره. ثم وصلتهم في نفس اليوم رسالة من السيد الصادق المهدي موجهة له وللنميري قال فيها إنه لم يستغرب الانقلاب العسكري بسبب ما اكتنف الأوضاع السياسية من تردٍ وصراعٍ عقيم، وخرق للدستور والمواثيق، ولكنه يرى أن يكون الانقلاب العسكري وسيلة للإصلاح ووضع الأمور في نصابها العادل الذي يخدم مصلحة البلاد لا غاية في ذاته و«تكراراً لتجربة فاشلة سبق أن رفضها شعب السودان»، وأنه على استعداد للاتصال بالقوى الوطنية ذات الثقل لاقناعهم بالتعاون مع الثورة إذا اتفق على فترة انتقالية تجري خلالها إصلاحات سياسية ودستورية، وأنه يحذر من التعاون مع الحزب الشيوعي، مؤكداً أنه لم يخطط لتحرك عسكري مضاد.

ولكن تلك الرسالة لم تغير في الموقف المتخذ من خداع السيد الصادق والتغرير به بإرسال من يوهمه بأنهم يطالبون بالحوار، بل مضوا في خطتهم، فأعادوه من الجزيرة أبا وكانت الخطة (كميناً معداً بإتقان، وأرسل على متن طائرة خاصة إلى منفاه بجبيت)[٣].

جاء السيد الصادق للحوار وقابل بالفعل النميري وتحادثا في جلسة أولى، ولما كان بانتظار الجلسة الثانية أخذ خداعاً لجبيت.

ملخص ما داربين الصادق والنميري

ذكرنا أعلاه أن لقاء جمع بين السيد الصادق وبين قائد الانقلاب الجديد جعفر محمد

(١) محجوب، سابق ص ٣٢٦

(٢) نفسه

(٣) محجوب برير سابق ص ٣٢٩-٣٣٠- ٣٣١

نميري في يوم ٣ يونيو ١٩٦٩م. استمر هذا اللقاء ثلاث ساعات.

جاء في كتاب المصالحة الوطنية:

(قال نميري للسيد الصادق إنهم قاموا بالثورة لحاجة البلاد لها وعرض عليه بحث الوسائل ليتعاون السيد الصادق معهم لأنهم يعلمون أن أفكاره تقدمية. وأكد السيد الصادق أن الوضع البائد مدان وعاجز، ولكن لكي يمكن التعاون لا بد من القيام ببرنامج للإنقاذ، وقال السيد الصادق إنه يلتزم بتأييده وتأييد الإمام الهادي والسيد إسماعيل الأزهري وغيرهم من القادة السياسيين السودانيين، وذلك في حالة تحول الثورة إلى شكل قومي وطني لا شيوعي أو متحالفة مع الشيوعيين كما هي حينذاك. فإما أن يبعدوا كل الأحزاب أو يشركوها كلها.

البرنامج الثوري البديل الذي طرحه السيد الصادق كان يتكون من ١٢ نقطة كالتالي:

(١) تكملة الاستقلال الاقتصادي بتأميم وسودنة الشركات الأجنبية.

(٢) تأمين سيطرة القطاع العام علي الاقتصاد الوطني بتأميم المصارف إلا البنك التجاري السوداني لأنه شركة سودانية عامة؛

(٣) حل سياسي لمشكلة جنوب السودان علي هدى توصيات لجنة الإثني عشر ومؤتمر جميع الأحزاب؛

(٤) تحقيق الإصلاح الزراعي لتصبح المشروعات الزراعية ملكية تعاونية لمزارعيها، ولينعم مشروع الجزيرة بعلاقات إنتاج جديدة.

(٥) حل اتحاد نقابات عمال السودان وتكوين تنظيم العمال في نقابات شاملة وديمقراطية يضمها تنظيم عمالي قومي موحد؛

(٦) حل اتحاد الشباب السوداني وتكوين تنظيم قومي ديمقراطي للشباب السوداني؛

(٧) حل الاتحاد النسائي وتكوين تنظيم نسوي قومي ديمقراطي يقوم باستنهاض المرأة السودانية؛

(٨) انتهاج سياسية خارجية يمارس السودان بموجبها دوره العربي الرائد

والأفريقي القائد والعربي الأفريقي الرابط والدولي المحايد بين المعسكرين العالميين؛

(٩) محاسبة الفاسدين في العمل السياسي وإقامة محكمة شعب لمحاكمة الذين أثروا علي حساب الشعب والذين ارتكبوا المفاسد السياسية؛

(١٠) تطبيق توصيات لجنة إصلاح الخدمة المدنية وتطهير الخدمة المدينة على أساس عادل؛

(١١) المحافظة علي كيان القوات السودانية المسلحة درعاً حامياً للوطن ومشاركاً في مسيرته، ومراجعة قرارات إبعاد الضباط الأكفاء أمثال الباقر ومزمل والشفيع ما داموا أكفاء والجيش محتاج للكفاءات.

(١٢) التعامل مع كل الكفاءات الوطنية واتخاذ موقف موحد من الأحزاب السياسية لضمان قومية نهج الثورة السودانية.

وعد النميري ببحث المسألة مع زملائه في مجلس قيادة الثورة على أن يفيد السيد الصادق بالقرار الذي سيتخذ، وبدلا عن إعلامه بالقرار الذي كان ينتظره، تم إرسال ضابطين للسيد الصادق في مساء يوم ٤/٦/١٩٦٩م ليذهب لرئاسة القوات السودانية في الخرطوم لمواصلة الحوار وهناك أحتجز وأعتقل وأرسل الي جبيت بشرق السودان.

بعد ذلك أعلن المتحدث الرسمي باسم الحكومة السيد فاروق أبو عيسي أن الثورة لم ولن تفاوض أحداً، وسار الاتجاه الإعلامي الحكومي في خط صدام، وقال المايويون إنهم (تحفظوا) على السيد الصادق.

وقال الإمام مؤخراً[١]:

(بالفعل جئت إلى الخرطوم وتم لقاء أول بيني وجعفر نميري. كنت وحدي أنا وهو، واللقاء تم في القيادة العامة في مكتبه. وقلت له أنتم قمتم بانقلاب وهذا ليس مجرد تغيير في السلطة بل هو تغيير للنظام الاجتماعي في السودان بالكامل، لأنكم تبنيتم شعارات الحزب الشيوعي (وغالطني في هذه النقطة)، وقال لا نحن اتجاهنا وطني وقومي، قلت له شعاراتكم شعارات الحزب الشيوعي، وكوادر الحزب الشيوعي التي كانت مرشحة

(١) من الحلقات التوثيقية التي أجرتها معه صحيفة الأخبار ونشرت في أغسطس ٢٠١١م

ي الانتخابات قبل الانقلاب هم الآن وزراء في الحكومة، والفصائل التي أيدت لانقلاب اتحاد نقابات عمال السودان والاتحاد النسائي واتحاد الشباب السوداني، هذه واجهات للحزب الشيوعي، فلن تستطيعوا أن تنكروا أن النظام في حضن الحزب الشيوعي، لذلك أمامكم خياران إن كان هذا هو خطكم، إما أن تستقطبوا بقية السودانيين المعادين للحزب الشيوعي ضدكم أو تقولوا إنكم جئتم للإصلاح وتتخذوا نهجاً قومياً بعيداً عن الشعارات الحزبية المنحازة، وعند هذه النقطة اقتنع النميري، وقال انا موافق وهذا الكلام معقول جداً.. وطلب أن يناقش هذا الكلام مع زملائه في مجلس قيادة الثورة وآخرين، وانتهى اللقاء على أن نجتمع مرة أخرى لمواصلة التفاكر حتى تصل لتفاهم، واتفقنا على أن يتم الاجتماع بعد يوم أو يومين على الأكثر.. لقائي الأول بالنميري كان في ٣ يونيو ١٩٦٩م، وفي فجر٤ يونيو جاء عدد من الضباط إلى المنزل وطلبوا مني أن أذهب معهم للقيادة العامة لمواصلة النقاش، ولكن كان من الواضح أن هنالك خدعة، وذهبت معهم إلى القيادة وبقيت في مكتب الضابط العظيم وعندها تأكد لي أن الأمر لم يكن لمواصلة الحوار وإنما عملية اعتقال.

وما حدث أن نميري عرض ما دار بيننا في اللقاء الأول على زملائه في مجلس الثورة، ووقتها كانوا تحت توجيه ومشاركة من العناصر الشيوعية، فرفضوه جملة وتفصيلاً، بل قالوا له نحن قمنا بثورة لنحقق برنامجنا وليس برنامج الصادق المهدي، واتفقوا على أن ينكروا التفاوض بين نظام مايو والصادق وحزب الأمة قبل أن يتسرب للناس، ورأوا أن يعلنوا ذلك رسمياً وبالفعل أعلنوه على لسان السيد فاروق أبو عيسى، وفي ذلك الوقت كان أحد كوادر الحزب الشيوعي، وكان من الواضح أن هنالك عنصراً آخر مشترك مع الانقلابين، وهم الناصريون ويمثلونهم السيد بابكر عوض الله والضابطين أحمد ومحمد عبد الحليم، وفي فجر ٥ يونيو وأنا في مكتب الضابط العظيم في القيادة جاء الضابط محمد عبد الحليم وقال لي سنذهب إلى مكتب آخر حيث يتصل الحوار، إلا أننا عندما تحركنا اتجهنا إلى المطار، وفي المطار كانت هنالك طائرة مجهزة أقلتنا - والعملية كلها كانت عبارة عن خديعة، وكل الاعتقالات التي حدثت لي في تلك الفترة كانت تتم عن طريق الخدعة. ونزلت بنا الطائرة في حامية جبيت وتم اعتقالي وحبسي في أحد بيوت الضباط، وأمضيت فترة ليست بالطويلة، حوالي شهرين، وعزلت خلال هذه الفترة عن أي اتصال بالخارج).

كان السيد الصادق يومها غير مستغرب اعتقاله كما تشي مدوناته في الأسبوع الأول من يونيو ولكنه كان مستغرباً للخديعة. والخديعة كانت مبيتة أصلاً، وفق ما دون محجوب برير في مذكراته كما رصدنا.

هذي جبيت وقد بدت

ما أن تذكر جبيت إلا وتذكر قصيدة الشاعر مصطفى التني (الطبيعة تصحو) وفيها:

صحت الطبيعة فانتبه ما بال عينك ناعسة

هذي جبيت وقد بدت.. في فتنة متجانسة!

وهنا الأراك وعنده قصص الغرام الدارسة

بيد أن جبيت يومها قد بدت بشكل مختلف! كانت مقراً للاعتقال، ففي جبيت مدرسة للمشاة تابعة للجيش السوداني، تم اعتقال الصادق في إحدى المباني التابعة لها.

ومع أنه لم يكن اعتقالاً قاسياً كما تشي مذكرات السيد الصادق يومها، ولكن أحاط بالوضع الغموض والتساؤلات، ولن أفسد عليكم بتحليلاتي لأن السيد الصادق يومها كان يفكّر مع نفسه ويقيّد أفكاره في الورق، أوراق جمعت في بدايتها «قصص الطحان الدارسة» إبان العهد الديمقراطي الثاني، وقد اقتبسنا جانباً منها في نهاية الجزء الأول من الكتاب (بينج ماريال).

تساؤلات جبيت

كتب متسائلاً في الأسبوع الأول من يونيو ١٩٦٩م:

(لماذا قرر النظام الجديد اعتقالي بينما كانت الروح التي أبداها من قابلتهم من قادته روحاً طيباً جداً؟

أولاً: إنني لا بد أن اعترف بإنني هاجمت الوضع الجديد أوضح وأعنف من أي شخص آخر وكذلك أصبحت رمز التحدي له.

ثانياً: بعض المدنيين الذين اتخذتهم هذه الحركة سيعلمون أن هجومنا الإساسي ضدهم ولذا سيكون كل همهم محاولة إبعادنا وإنهم ألحف بحجتهم من العسكريين

الذين معهم يتعاملون.

***ثالثاً:** إن الوضع الجديد أعطى لنفسه صورة الحزم التام فلا يستطيع أن يعمل استثناءات، لذلك فأنا أفهم الدوافع التي جعلتهم يقدمون على هذه الخطوة.*

ولكن لماذا أقدموا عليها بطريق ملتوٍ؟ لماذا ضللت؟ هذا سؤال لا بد من أن أجد له إجابة يوماً ما. ربما تكمن الاجابة في الطبيعة المهتزة للوضع الجديد فهو وضع بطبيعته ثنائي ولا يستطيع أن يمضي في اتجاه واحد وهذا سبب القرارات المتعارضة والتردد الملحوظ في كل ما أقدموا عليه، وقد اتخذوا بطانة مدنية ذات أحقاد تكفي لترجح بالسودان كله، وستحاول هذه البطانة أن تستفيد من البأس العسكري لتصفية خصومها. وهؤلاء العسكريون لا يعرفون العلاقات بين الناس ولذا سيقعون فريسة لهذه الأحقاد.

عشرات من أكفأ السودانيين ذهبوا للمعاش أو أبعدوا ممارسة لمشاعر شخصية. إنني أفهم جداً ضرورة التطهير لإبعاد العناصر الفاسدة، ولكن التطهير الذي يبعد عناصر هي من أفضل أبناء السودان في أجهزة الدولة المختلفة والجيش ضمنها لا يمكن أن يسمى إلا إجراءً حزبياً شخصياً.. لك الله أيها السودان تتطلع لكل سحابة غبار تعتقدها كتيبة نجدة وكثيراً ما ينكشف الغبار عن كتيبة غارة!)[1].

تعليق: ستدرك أيها القاريء الكريم أن السيد الصادق أضره اسمه، إذ لكل امريءٍ من اسمه نصيب، وهو ثمن فادح أن تدخل السياسة وفي بلد يكره الناس فيه الوضوح ويتحاشونه، ويكون اسمك الصادق الصديق وأنت تحمل نصيباً كبيراً منه! في حكايته للقصة لقناة الجزيرة هذا العام لا يرويها الصادق كمؤامرة فهو لم يجد الإجابة ربما بعد. وسوف تتكرر اللقطات التي ننبهك فيها أيها القاريء/ ة الكريم/ ة إلى تحليل يؤكد مؤامرة محبوكة بعناية لخداع السيد الصادق، ولا يسيء الظن بالقدر المطلوب.

طبيعة النظام الحالي

تساءل السيد الصادق في ٢٧/ ٦/ ١٩٦٩م عم يحدث بعد اعتقاله مقلباً الاحتمالات بين أن يعطي الاعتقال محركاً مباشراً فترتفع الروح المعنوية، أو تنخفض لانعدام

(١) دفاتر مذكرات جيبت

شخص محرك، وبين أن يجلب له الاعتقال عطفاً أو في المقابل يجلب شماتة واستخفافاً، وبين أن يثبت النظام قوة وفعالية ويزف الناس في نصرته، أو يعزل نفسه ويبدأ الدوران في فلكه نحو العزلة، وكتب متسائلا عن نوع التغيير المطلوب مؤكداً ألا عودة للنظام البائد، وحول طبيعة النظام الانقلابي، وقال:

(تبدو لي الحقائق الآتية عن طبيعة النظام الحالي:

الضباط وأنا أعرف بعضهم وقابلت بعضهم بعد الثورة متحمسون للإصلاح. وكنت دائما أحس بالحاجة إليه، وقد درست كل أوضاع الجيش ولكن من الواضح أنني لم أستطع الإقدام على عمل شيء في ظل حكم ائتلافي وفي ظل الديمقراطية للاتهام بأننا نريد أن نؤثر على الجيش وهذا الاتهام قوي وصعب أن يجابه في تلك الظروف هذا بالاضافة إلى أننا كنا دائماً نقول إن الجيش يجب أن تكون له حرمة لحساسية وضعه. هذا أعجزنا عن عمل إصلاح حاسم وهذه هي مبررات مشاعر الضباط.

ولكن هؤلاء الضباط أبرياء من الانتماء السياسي المحدد والفكر السياسي المنظم هذا مصدر الأمل في أن يتجهوا نحو الإصلاح غير المشوب بالأحقاد والانحرافات، ولكنه أيضا مصدر الضعف الذي تسلل منه التسلط الجديد فهل يستطيعون جر هؤلاء الضباط إلى أهدافهم؟

ربما وربما يحدث انفلات في هذا الصدد.

السيد بابكر عوض الله عنده اتجاهات مثالية لا صلة لها بما هو موجود بالسودان، وعنده مشاعر محبة وكراهية شخصية هي ميزانه، وفي نطاق المثاليات هذه والمشاعر القوية والمشاكل الشخصية التي وصلت درجات غريبة على البيئة السودانية، فالسيد بابكر عوض الله وهو رئيس قضاء كان في حالة مقاطعة بينه وبين كبار القضاة كالسيد محمد يوسف مضوي بلغت حد إسقاطه التحية بينهم! وهو في منصبه ذلك كانت علاقاته الخاصة أغلبها مع أشخاص أجانب بالنسبة للمجتمع السوداني. والسيد بابكر وزن ثقيل على كاهل النظام الحالي وسيكلفهم تكاليف باهظة فهل يدفعون الثمن؟ أم يضيقون به ذرعاً؟

والمجلس الذي اختاره لهم أو اختاروه له مجلس ليس فيه تجانس ولا يحتمل أن

ينشأ فيه أي تجانس وهو مجلس خفيف الوزن جداً.

وكيف العلاقة الثنائية بين هذا المجلس ومجلس الثورة؟ أيهما يحكم فعلاً، فالحكم عقيم ولا يعرف التقسيم خصوصاً مع عدم وجود دستور يحمي التقسيم؟

وماذا يكون من أمر مجلس الثورة نفسه في داخله وفي علاقاته مع الجيش؟ وماذا تكون علاقة المجلس بالضباط والجنود الذين ساهموا في الثورة ولم يدخلوا المجلس؟ وماذا تكون علاقات ضباط مجلس الثورة وبعضهم صغير المكانة في الجيش ببقية ضباط الجيش الذين يفوقونه في الرتب؟ وماذا تكون العلاقة بين السيد نميري وهو رأس الدولة بمجلس الوزراء وهو أحد أعضائه؟ هذا الوضع بهذا الشكل لا يمكن أن يستمر فلا بد من تغيير يحسم ويحدد معالم هذه الأسئلة وسيسعى قوم لتغيير بسيط ويسعى آخرون لتغيير جذري وفي هذا تكمن بعض مجالات الاختلاف.

السؤال المهم إلى أي مدى تستفيد الأفكار الشيوعية من الوضع الجديد؟ وإلى أي مدى يستفيد الحزب الشيوعي؟ أما الأخير فلن يستفيد لأن نظام الحزب الشيوعي أن يستولي على السلطة ويسير الأمر وفق مخططاته المعروفة. ولكن الأفكار الشيوعية ستجد مناخاً صالحاً. ولكن هل للشيوعيين بالسودان أفكار؟ ليس في الصعيد الداخلي فإنني أستطيع أن أؤكد أنهم في الصعيد الداخلي أشبه بالاتحادي الديمقراطي أبرياء من الفكر والتخطيط لإخراج السودان مما هو فيه، ولكن لديهم تعليمات واضحة في الصعيد الخارجي: مساندة خط مصر طالما استمرت مصر بوقاً لموسكو في الشرق الأوسط، ومساندة الخط الشيوعي السوفيتي ضد الصين.

أما الحزب الشيوعي كحزب فإنني أعتقد أن هذه الحركة قد قضت عليه:

أولاً: لأنها لم تشرك التنظيم كتنظيم فأبعدت عناصره الجادة واتفقت مع عناصره شبه الهازلة.

ثانياً: لأنها قضت على الشعارات التي يمكن أن يعمل بها في نطاق الحياة السياسية في السودان أمثال: الحريات النقابية، استقلال القضاء، الحريات العامة. وقد أخذت الحركة من عناصره عدداً كافياً لتلوين الوضع الحاضر بلون شيوعي، وهذا يلزم الحزب إلزاماً محدوداً، ويلوث النظام تلويثاً مطلقاً، ولكنه لا يعاون الحزب الشيوعي في السير

في خطواته.. اللهم إلا أن يحدث التطور الآتي: أن يستطيع الشيوعيون العمل السري وأن يستفيدوا من مواقعهم الحالية لتصفية الأوضاع لمصلحتهم وهذا ممكن ولكن هل لديهم القيادة؟ هل توافق موسكو؟ من يعيش يرى!

إنني بعد تفكير مكرر أرى أنه من مصلحتنا ومصلحة السودان ومن مصلحة العناصر الصالحة داخل النظام لا بد أن نكون نحن في معارضة الوضع الحالي، لا معارضة دامية ولا معارضة عمياء ولكن معارضة مسببة وصلبة وعاقلة ومعقولة حتى يكون سبيل إيجاد مخرج للبلاد دائماً مفتوحاً.

لقد علمت أن السيد الإمام أرسل مذكرة احتجاج على اعتقالي، واطلعت عليها، فرأيت أن لهجتها مناسبة، وقد وجهت بكل ما أستطيع أن لا يهتموا بأمري، وأنا هنا سأقوم بعمل هام جداً وهو تحديد الإطار الفكري والنظري للبعث الاسلامي والعربي والسوداني، وهو عمل طالما تطلعت لأجد الوقت لأقوم به، وها هو الوقت أتيح. ولذا فلا داعي للانشغال باعتقالي، ولا داعي لعمل أي شيء مضاد سيعرض البلاد لفتنة والأيام كفيلة بعلاج كثير من المشاكل.

علمت في رسالة من السيد أحمد أنه يرى أن يتم تفاهم مع السلطات شبيه بتفاهم الختمية، وذلك ليطلق سراحي، وإن توجيهي هو: لا تصعيد للخلاف ولا مهادنة، بل الاستمرار في معارضتنا دون عنف ودون ضعف وترك المجال لنرى ما تفسح الأيام، هذه هي الرسالة التي أرسلتها وأرجو أن تكون قد وصلت كما هي.

ماذا عسى أن يحدث لي شخصياً؟

أن أحاكم، أو أن أطلق: وبين هذين الاحتمالين أن تتغير المعاملة أو مكان الاعتقال إلى أحسن أو أسوأ؟ أو أن يفتح باب تفاوض معي؟

أحاكم بأي تهم؟ ربما يلفق لي اتهام.

أطلق؟ وهل زالت الأسباب التي أدت لاعتقالي؟ إن كان تلك الأسباب هي سلامة الوضع فإن سلامته ستتعرض دائماً وبغير مساهمة منا إلى مشاكل. ولذا لا أرى بوضوح ما سيحدث. على كل حال علي الآتي: أن اعتبر أنني سأكون هنا لستة أشهر وأن أضع برنامجي على هذا الأساس فأدبر عيشة أسرتي والذين يعتمدون علي لمدة ٦ أشهر، وأنظم

كل شيء في القراءة والكتابة ..إلخ على هذا الأساس، وهذا أسلم لأن التكهن بما قد يحدث مباشرة من المستحيلات لأن هذا الوضع ثنائي الإرادة، كثير التردد، ولا يمكن معرفة ما ينطوي عليه غده. والمهم ما هو حكمنا الموضوعي على قيام هذا الوضع الآن)[1].

وكتب في ٤/ ٧ حول ما يمكن أن يفعله النظام للقادة السياسيين ثم تطرق لحزبهم قائلاً:

(أما نحن فلا يستطيع أن يغيرنا: لأننا لا مال عندنا فيصادره. أنا شخصياً لا أملك شيئاً يصادر والدائرة مديونة بما يفوق أصولها، وحقوق إرثي كلها في الدائرة، ولذا أنا في حقيقة الأمر أستطيع أن أواجه الموقف مشمراً ولم ارتكب مفسدة وكذلك كبار أعواني: كالأمير- أمين- دريج- عمر).

وكتب:

(أنا الآن في المعتقل. لا بد من الاعتراف أنه إذا استثنينا التضليل في البداية إن المعاملة حسنة، والسودانيون شعب حبيب فإنني منذ أول لحظة وحتى الآن لم أشعر بعداء بل شعرت من كل من قابلت وعلى كل المستويات وبمبالغة باحترام وتقدير وشعور شخصي حسن. ومهما كانت أفكار هؤلاء الساسة فقد عاملوني جميعاً وبغير استثناء وفي كل المستويات معاملات إنسانية وإسلامية وسودانية طيبة فالحمد لله.

وإنني بالرغم من الاعتقال لا أشعر بمرارة نحو الوضع الحالي، ربما لترحيبي بإزالة الفساد البائد حتى إذا كان ذلك على يد قوم أنا معهم في خلاف وأجلس داخل معتقلهم! ربما.

لقد مضى على العهد الحالي شهر فما هي أبرز سماته؟

يتسرع في فتح الجبهات، عدم وجود خطة لمواجهة الموقف، ارتباك في العلاقة الثنائية، وارتباك في وضع المجلس من القوات، محسوبيات في تصرفات رئيس الوزراء، خياليون في السياسة الخارجية، تردد في مسألة الجنوب، حملة تصفيات طابعها شخصي

(١) دفاتر مذكرات جبيت

وليس إصلاحياً، استعداء بعض أحسن العناصر المدنية والعسكرية دونما سبب واضح، التوشح برداء الشيوعية دون أن يكون للحزب تنظيم يستفاد منه مما يكسب نقمة الناس دون الاعتماد على تنظيم سياسي، ارتماء في أحضان مصر لا يمكن أن تكون له قيمة إلا لفظية واستفزازية فإنه لا تستطيع هذه الحكومة أن تزحف نحو مصر أكثر مما بلغته الحكومة الماضية ووزير خارجيتها «الشيخ على» كان منتمياً لمصر. وعلى كل حال مصر الآن مشغولة ومحتاجة للإعانة لا في موقف المغيث.

هذا سجل شهر واحد وقد أطلت الاشاعات عن الخلافات بوجهها، وعلمت أن السيد بابكر عوض الله قد نفى اليوم خلافاً بينه وبين النميري وهذا يؤكد وجوده تماما كما أن نفي فاروق أبو عيسى أن تكون مفاوضات قد تمت معي يؤكد حدوثها الذي وقع فعلاً)[1].

وكتب في ٦٩/٧/٥

(لقد تأملت أمري ملياً ورأيت أن واجبي المحتوم لهذ العام ابتداء من ٦/٥ هو:

١. اعتبار الاعتقال فرصة للعبادة والاطلاع والكتابة والتأمل في أخطاء الماضي، واعتباره اعتكافاً لازما لإصلاح أحوالي والالتزام أثناءه بالجدية والصبر والخشونة.

٢. العمل بجهد شديد على وضع الأساس النظري والفكري للبعث الاسلامي – العربي – السوداني في إطار وجودنا الأفريقي.

٣. وضع أساس لتحديد عجلة الأداء.

٤. الانطلاق منذ الآن لتجديد ما علق باسمي بحق من خطأ، والعمل حقاً وصدقاً على تنظيفه.

٥. وتحقيق الآتي في بحر العام:

أ. الهبوط بمستوى حياتي إلى المستوى العادي.

ب. الاستقامة التامة والجدية التامة.

---

(١) دفاتر مذكرات جبيت

ج. تحسين علاقاتي العائلية في الأسرة المباشرة والأسرة الكبيرة وإزالة ما بها من نقص.

هذا هو الواجب ولا واجب سواه.)[1]

وكتب في ٧/٧ التالي:

(قرأت اليوم تصريحات لأعضاء وفد الحكم الجديد إلى القاهرة في جريدتي «آخر ساعة»، و«روز اليوسف». وملاحظاتي أن الذي قيل في جملته حديث معقول ومقبول فليس فيه ما يدل على تراخ في مسألة استقلال السودان وكرامته، وفيه ما يوضح النزعة الاصلاحية التجديدية للوضع الجديد، وهذا كله حسن. وإذا صدق إحساسي فالوضع في مصر لم يطبل لضيوفه، ويبدو أن المقابلة كما عكستها الصحف فاترة خالية من الحماس، وخالية من أي هجوم على الوضع البائد في السودان بأي شكل من الأشكال. ولا شك أن أعضاء الوفد قالوا شيئاً يخص خصومهم السياسيين، ولكن هذا لم يظهر في أية صورة في الصحف المصرية، وواضح جداً أن مقداراً كبيراً من التحفظ قابلت به مصر هذا الوفد. لماذا؟

إنني كنت اعتقد منذ البداية أن مصر لن تكون سعيدة بالأوضاع الجديدة في السودان للأسباب الآتية:

أ. الوضع الجديد في السودان لا يعتمد على قاعدة واسعة، وهو وضع يحتاج لمساندات على الأقل لدعم موقفه، ومصر تحتاج لمن يساعدها في الموقف الراهن.

ب. الوضع الجديد سيُعزل من الاتجاهات العربية الأخرى، ومصر تحتاج لجسور ووسائط مع الاتجاهات العربية الأخرى في موقفها الحالي.

ج. الوضع البائد في السودان كان مريحاً جداً لمصر، فقد تجاوب معها في كل حال تجاوب ائتلاف واسع القاعدة مقبول في الأوساط العربية المختلفة، وسار نحوها بأقصى ما يمكن أن يسيره اتجاه سياسي في السودان من مودة وتضامن ومساعدة، عمل كل ما يمكن عمله دون الوحدة، والوحدة كانت وما تزال عملياً وسياسياً بعيدة المنال، ولذا فإن الوضع الجديد لن يستطيع أن يأتي لها بجديد في علاقات البلدين، ولذا فمصر

(١) دفاتر مذكرات جيبت

ستجد تقريباً نفس العلاقة بالسودان التي كانت قائمة على يد حكومة الائتلاف الماضية من وضع أكثر ضعفاً. وهو خسارة سياسية. لقد عاش النظام في مصر على الشعارات. واكتشف بعد ١٤ عاماً أن الشعارات لا تحقق عدالة، ولا تبني الاقتصاد، ولا تبني الجيش. ولذا اعترف بالخطأ على لسان رئيسه، وأبعد عدداً من القادة في كل المجالات تأكيداً لاكتشاف الخطأ وتغيير المسلك، ولكنه وجد أن النظام في سوريا ما زال يعيش بالشعارات دون عمل ويستمد قوة سياسية من التطرف. إن احتمال دخول الوضع الجديد في السودان هذا الطريق المسدود احتمال موجود، ومصر لا تريد أن تكون لها سوريا في الشمال وسوريا في الجنوب، فإن ذلك سيفسد لها الدروس والعبر التي اخذتها.

إن المشكلة التي يواجهها الوضع السياسي الحالي في السودان من حيث اتجاهاته الفكرية والسياسية وضع فريد ومحرج. ففي السياسة الداخلية لا يوجد شعار واحد لم يرفع سابقاً ورفعناه نحن. جميع الشعارات رفعناها، وعملنا عملاً واضحاً للتنفيذ، والحكومة الائتلافية التي اعقبتنا إما سايرت تلك الاتجاهات أو سكتت عنها ولكنها لم تعارضها: الحكم الذاتي للمديريات الجنوبية، الإصلاح المصرفي، الإصلاح الزراعي، الإصلاح الإداري، إصلاح الإدارة الاهلية، سودنة التجارة الخارجية، المشاركة والإصلاح العمالي، إصلاح حال المزارع، الالتفات إلى القطاع التقليدي.. إلخ. جميع هذه الاتجاهات مولوجة من ناحيتنا والرأي العام السوداني يعلم ذلك.

إذاً فالوضع الجديد لا يستطيع أن يأتي بجديد في سياسته الداخلية، ولا في سياسته الخارجية، وهذا موقف محرج جداً. الشيء الهام الذي ركزوا عليه هو قضية فساد السياسيين. وهذه أيضاً لم ينشروا رقماً أو اتهاماً أو بياناً إلا سبقناهم إليه ونشرناه بالبيانات والوثائق.

إحدى مشكلات الوضع الحالي الكبرى: فقر دم في الفكر السياسي.)[1]

وفي ٦٩/٧/١٦ كتب التالي:

(علمت اليوم أن السيد أحمد وآخرين لم توضح لي أسماؤهم اعتقلوا. لماذا؟ لا أدري ولكن أغلب الظن بسبب وشاية من بعض الناس فآخر خبر سمعته عن السيد أحمد أنه

---

(١) دفاتر مذكرات جيبت بتاريخ ٧ يوليو ١٩٦٩م

يريد أن يعمل كل ما في وسعه من تفاهم ليحصل على إطلاق سراحي، وهو حريص جداً كالعادة على مسائل السمعة والكيان لأنه يهتم بأوضاعنا التقليدية واستمرار الاحترام النابع عنها اهتماماً كبيراً.

هذا وقد كان توجيهي أننا لا نتفاهم تفاهم مهادنة، ولا نصعد الموقف تصعيد صدام بل نستمر في موقف معارضين على أساس ومبدأ، طارحين دائماً احتمال إيجاد مخرج سلمي للبلاد. فماذا حدث لتغيير هذه الصورة؟ لست أدري.

إن الوضع الجديد بمواجهته لنا سينشغل عن كل أداء آخر، ويثقل في كاهل السودان لأنه لا يعيش سياسياً إلا على منجزاته ولكن هل يسمعون مثل هذا النصح؟

لا اعتقد بل سيحاول الحاقدون من كل اتجاه استغلال الأداة الجديدة للانتقام كل من خصمه وخصومه وبالوشاية والنميمة والخبر الكاذب سيجد الوضع نفسه مشغولاً لا بأعداء السودان ولا بقضايا السودان ولا بالفاسدين من السياسيين ولكن بمطاردة الرجال الذين لا يعرفون الانحناء، ومطاردة الخصومات الشخصية للمقربين الذين التفوا حول الضباط. هل خطر ببالهم أن هذا يجهض عمليات الإصلاح؟

أرجو أن يتمكن رجالنا جميعاً من تمالك أعصابهم والصمود مع الصبر، فلا يصدر منهم أي تصرف به اندفاع أو حماقة. اللهم ألهمهم صبراً وبروداً وتماسكاً.

في بعض الأحيان يصح قول القائل: إذا صبر القاتل لمات المقتول. علينا أن نصبر ونصمد وننتظر، وبالله التوفيق)[1].

وفي ٦٩/٧/٢١ كتب:

(يمر اليوم الخامس والأربعين لاعتقالي اليوم. وإني لأحمد الله أنني استفدت فائدة عظيمة من هذه الأيام. لقد تمكنت من تنظيم قراءاتي واطلاعي للفراغ من كل برنامج القراءة الذي كنت سائراً فيه فلم تساعدني ظروف الحياة العادية، واستطعت أن أنظم عباداتي وأعمقها، واستطعت أن أنظم رياضتي البدنية واتخذت من جميع مهمامي برامجاً يومياً رتيباً.

---

(١) دفاتر مذكرات جبيت في ١٦ يوليو ١٩٦٩

لم أكن اتصور أنني في المعتقل سأجد نفسي محتاجاً لمزيد من الوقت والزمن في يومي. المتوقع أن يحاط الشخص بالملل والسأم. ولكن هذا ولله الحمد لم يحدث فأنا الآن من ناحية شخص سعيد جداً بما أتيح لي من مجال، وما أنجز من أعمال وقد وضعت برنامجاً لستة أشهر ويسير البرنامج بانتظام وتوفيق.

والحقيقة هي أن من له هدف وواجب وإيمان لا يمكن محاربته، فهو يجد الجليس والأنيس في خلوته. ما أروع الإنسان. بعضنا يشعر بالعزلة وهو وسط الأهل والجماعة وبعضنا يشعر بالأنس وهو في عزلة حبسه.

ولا يخامرني القلق إلا من ناحية مسئولياتي العائلية والوطنية ولكن حتى في هذين المجالين فإن الفرصة الحالية في الخلوة الحالية مجال لتعمير ذاتي، وتغيير الأخطاء في مسلكي، وتعميق وجودي الفكري والعاطفي، وهذا إذا وفقني الله إليه سيجعلني شخصاً أفضل وذاتاً أحسن، وهذا يفيدني ويفيد غيري من الناحية الخاصة والعامة)[1].

ملاحظات في جبيت

ويبدو أن هذا الرضا لم يكن على طول الخط، ففي دفتر آخر بجبيت، في وقت ما قبل حريق الأقصى في ٢١ أغسطس ١٩٦٩، وجدته يكتب تحت عنوان «السجن» الآتي:

(١ . الاضطهاد له وزن يقع ثقيلاً على النفس.

٢ . الوقت يصبح طويلاً رتيباً ويحاول الإنسان بكل ما أوتي من قدرة أن ينوعه فيؤرخ ويحدد أشياء تافهة.

٣ . مواعيد الأحداث بانتظامها ورتابتها تصبح مبعث غيظ وكدر.

٤ . ساعات طوال تتملك الشخص أثناءها وحشة النفس.

٥ . آلام الوحدة.

٦ . غياب المناظر العادية: الناس، الأطفال، الحيوانات، له أثر موحش.

٧ . الخواطر التي يفرضها المصير المجهول.

(١) نفسه بتاريخ ٢١ يوليو ١٩٦٩م

٨. أقل إشارة فأل تملأ الأفق تفاؤلاً، والعكس.

٩. يجوّد الإنسان بحثه في أغوار نفسه بالتأملات والتفكر.

١٠. تصفو العبادة وتنتظم وتحلو.

١١. الطعام، اللباس، النظافة..الخ، جميع أوجه النشاط الإنساني تفقد الطابع الاجتماعي فتفقد معاني هامة للغاية.

١٢. مأساة الإنسان أن علمه تقدم وعقله نضج، ولكن عاطفته ما زالت في عهد طفولتها. لا شيء يكشف هذا التباين مثل حالات العسرة وساعات النكبة!!

كل ما يمر بي يزيد من قوة إيماني في جودة معدن الشعب السوداني.

الطباخ لا يتكلم، لكنه ما أطيبه حركاته تغني عن كلام.

نظام السجون في السودان:

١. كادر السجانة يحتاج لمراجعة.

٢. هل السجناء معاملون معاملة عصرية؟ من ناحية العمل. من ناحية الإصلاح الاجتماعي. من ناحية المأكل والملبس والمرقد؟

٣. ما هي وظيفة السجون: التأديبية؟ الإنتاجية؟ الإصلاحية؟ الإدراية؟ يقدم بيان ونقد للائحة السجون.

٤. هناك عدد كبير من المترددين للسجون أطلقوا وعادوا ٣٠ و٤٠ مرة. هل هناك جدوى في المعاملة الحالية لأمثالهم؟ علمت أن بعض المساجين (يعامل لدى خروجه باعتباره سيعود قريباً، هذا وبعض هؤلاء مكتوب في قائمة سوداء عند البوليس، فهم لا يكادون يخرجون ويراهم البوليس في أي مكان وحتى إذا لم يرتكبوا أي جريمة، البوليس لا يؤمن بحرية أمثال هؤلاء فيعودون إلى السجن. هؤلاء السجناء أصبحوا يعلمون لوائح ونظم السجن أكثر من معرفة الموظفين في السجن!!

٥. كالعادة في جميع أجهزتنا السودانية المسلحة ألاحظ أن العمل الأكثر مشقة وإرهاقاً يقوم به رجال الصف. The PM governs and the Queen shrines!! بدلا

من علاج مسألة توزيع الاختصاص والعدالة في المناصب بين رجال الصف والخريجين. العالم الثالث كما قال ريني ديمنت يعاني من بهاظة تكاليف طبقة جديدة (النخبة) وقلة إنتاجها الحقيقي. هذا يعكس المشكلة في عالم الهندسة وغيره.

ملاحظات عن مدرسة جبيت:

١) المدرسون ضباط صغار وليسوا في مرحلة تعليمية أعلى من الضباط الذين يدرسونهم، هذا خرق لقاعدة تعليمية حكيمة.

٢) لا توجد المعدات لدراسة الحرب الحديثة. فلا طيران ولا بحرية ولا أسلحة ثقيلة، دبابات.. الخ. ولذا فالتعليم شبه نظري. والغريب أن كثيراً من الضباط الذين يدرسون كورس جبيت، مثلاً في التكتيك، قيادة بلتون، يرسل لبعثة خارجية لدراسة نفس الكورس في الخارج. اعتراف بأن الكورس الأول غير مجدٍ أم ماذا؟

٣) حياة الضباط في جبيت فقيرة للغاية، ولذا فهم في الغالب في حالة تعاسة شديدة.

٤) المكتبة بائسة جداً والموقف الاجتماعي للضباط أشبه بالسجن.

٥) الضباط الذين يعملون في المدرسة يبقون عامين أو نحو ذلك، ولكن ضباط الصف والجنود الذين يعملون في المدرسة يبقون بصفة دائمة في المنطقة. هذا ظلم ولا بد من وضع نظام أكثر عدلاً. على أن مساكنهم حسنة.

الشخص الذي سكن منزل القائد في جبيت في مرحلة ما قبل غندور مستهتر فقد بني حوضاً للسباحة!! في شكل ♥ ومسطبة في شكل ♠[1] وهما شكلان من الكتشينة. ولا بد أن أعرف من هو؟ والبيت في جملته باذخ البناء.

ملاحظات: نسبة الأمية في الجيش لا يعلمها الضباط بل لم يخطر ببالهم السؤال عن الموضوع. فبعض من سألت قال ٢٠٪ وبعض آخر قال ٨٠٪، وأنا كنت أقدر ٦٠٪، فمن يسعفنا بالحقيقة؟)[2] أ.هـ

(١) رسم الحبيب الشكلين والشكل الأخير رسمه مرتين فشطب المحاولة الأولى، ولست متأكدة هل هو هذا الرمز أم الشيريا؟ والتعليق الضروري أن الحبيب الإمام لا يجيد الرسم كما ظل يكرر عن نفسه وأنه كان يعاني صعوبات حتى في رسوم مادة العلوم إبان الدراسة.

(٢) مذكرات دفاتر جبيت في ٢١ أغسطس ١٩٦٩م.

رحيل الأزهري وحجود الانقلاب

كان الزعيم الأزهري معتقلاً منذ ليلة الانقلاب حيث أحاطت بمنزله قوة عسكرية، وتم التحفظ عليه يومين ثم أحيل بعدها لسجن كوبر، وكان يشكو من مرض القلب، وفي ٢٠ أغسطس ١٩٦٩م توفي شقيقه، وبعد تردد سمحت له السلطات بحضور الجنازة، ثم أصيب بعدها بنوبة قلبية فأحيل للمستشفى حيث توفي في ٢٦ أغسطس ١٩٦٩م.. الحكومة المايوية الرعناء تحفظت على خبر مرضه، ثم أذاعت خبر وفاته من راديو أم درمان كالتالي: (في صبيحة هذا اليوم توفي إسماعيل الأزهري المدرس في المدارس السودانية)[١]. لم يرد أي ذكر لعمله السياسي والوطني ولا المناصب التي شغلها ولا أنه رافع العلم.

قال السيد غراهام: وقد عملت الحكومة كل ما استطاعت لمنع السودانيين من التعبير عن احترام الفقيد يوم جنازته، حتى أنها أوقفت القطارات خارج مدينة الخرطوم، كما قيدت حركة الشاحنات الكبيرة وحافلات الركاب أيضاً، ومع كل ذلك فإن هذه الإجراءات جميعها لم تستطع أن تمنع نصف مليون إنسان من الانتقال ولو على ظهور الحمير للوفاء بحق الفقيد الكبير[٢].

نعم، برغم ما فعلوه خرجت الجماهير تحيي الزعيم الأزهري، وقال في ذلك المرحوم فاروق البرير قصيدة غاضبة:

يا رفاقي..

سوف أدعو اخوتي الأصلاء

من قلب البوادي والحواضر

اتركوها لم تعد أرض الأكابر

إنها أرض لينين وناصر!

وأخي!!

(١) توماس، سابق، ص ١٢٠، وانظر ايضا نادر الفضلي، سودانيز أون لاين

(٢) توماس، سابق ص ١٢٠

القادم من أرض القياصر

والشعارات التي رُفعت ستائر

خلفها الجاسوس يلبس

ثوب ثائر

خلفها العملاء أبطالٌ نواضر

خلفها السودان يسجنه العساكر

..

يا رفاقي

جهلهم بالشعب يبدو كالصباح

بالإرادات التي ما فلها

يوماً سلاح

ما هزها الرصاص

أو بيض الرماح

ذرت عزاؤمها الطغاة

مع الرياح

ذهبوا ليبقى الشعب

مرفوع الجناح

..

يا رفاقي

هل رأوا يوماً تطوقه الحشود؟

والسيل جمهور يدمدم كالرعود؟

لا قهر يجمعه ولا قسر الجنود

لا نشر.. لا مذياع.. لا دجلٌ يقود

الحشد خلف النعش تتبعه حشود

والألف فوق الألف يكتسح الحدود

والشعب موجٌ هادرٌ بين السدود

في رأسه اسماعيلُ حيّا للشهود

حياً يحي الجمع من سفر الخلود

ويسير في موج ليهزأ بالطغاة وبالجمود

ليميت أحياءً ويحي ميتاً بين اللحود

ما طاق سوداناً تكبله السلاسل والقيود

يغشاه جهل مسلح بالطيش أقسم أن يسود

رحم الله الأزهري والبرير في الخالدين، كم دهشت لشعر المرحوم فاروق القوي، ولكنه محبوس في الأضابير[1].

والحقيقة إن تصرف قادة الانقلاب كان غريباً تجاه القادة السياسيين بالتفرقة بينهم على أسس غير معلومة، ويبدو كانت متأثرة بمواقف السيد بابكر عوض الله وأحكامه بل ومشاعره تجاه الساسة.. وكان مثلاً لا يحب الأزهري وهي كراهية صمدت أمام الزمن حتى إنه في مناسبة تكريمية حديثة ندت منه مشاعر الكره تلك فالتقطها من حوله.

أما موقف الانقلاب من السيد محمد أحمد محجوب الذي كان رئيساً للوزراء متربعاً على السلطة التنفيذية في نظام برلماني، وبرغم تقديمه للاستقالة إلا أنه ظل آخر رقم حيث لم يتم إعلان استقالته ولا تنصيب بديل له، المحجوب بأي مقياس موضوعي هو الأحق بالبطش كرمز للنظام الذي أطاح به الانقلاب، ولكن نجد أنه تم التحفظ عليه

(١) برتني ببعض القصائد ابنته عائشة، وأدعو الله أن يوفق مساعيهم لنشر ديوانه.

منزلياً لفترة قصيرة ولم يسجن، بل سمح له بعدها بالسفر للقاهرة بحسب طلبه. ومنها توجه إلى لندن، ولم يُسمع له بعدها بموقف سياسي حتى وفاته عام ١٩٧٦م، ولكنه في تلك الفترة ألف كتابه (الديمقراطية في الميزان) مطففاً بميزانها ومخففاً من شأنها، ومع أنه لم ينخرط ككثير من المثقفين في الانقلاب بل عرف عنه عدائه للعسكر، إلا أنه لم ينضم للجهد المحموم حينها لإرجاع الديمقراطية.

أما السيد الصادق المهدي الذي لم يكن يتقلد أي منصب في الحكومة بل كان ضد الوضع القائم قبل الانقلاب، لكن قابله الانقلابيون بكل أشكال الفتك بدءاً بمحاولة الاغتيال الأولى ثم الاستدراج خداعاً ليأتي الخرطوم ويعتقل في معتقلات انفرادية، ثم خططوا لاغتياله خمس مرات مثلما سوف تكشف الأوراق.

محاولتا التصفية والاغتيال بعد جبيت

قال السيد الصادق [1]:

(بينما أنا معتقل في جبيت فكر الانقلابيون في أساس لتجريمي وطبعا لم يجدوا شيئاً في سلوكي السياسي يدينونني به، لذلك بدأوا في تسريب كلام وشائعات عن محاولة انقلابية عنصرية مرتبطة بالسيد فيليب عباس غبوش والصادق المهدي، ثم صرحوا رسمياً بأن أجهزتهم كشفت هذا الانقلاب العنصري المدعوم من أمريكا، وأعلنوا أن الأمريكان أرسلوا لي مسدساً في شكل قلم لاغتيال بابكر عوض الله رئيس الوزراء، ودعا وزير الداخلية فاروق عثمان حمد الله إلى مؤتمر صحفي وذلك في أول سبتمبر ١٩٦٩م [2]، وفي هذا المؤتمر قال إن الصادق المهدي يريد أن يقوم بانقلاب عنصري ويغتال رئيس الوزراء، وهذا الاتهام عقوبته الإعدام ونحن سنحاكمه ونعدمه. كل هذه الحكاية قصد منها تجريمي ثم إعدامي.

هذه طرفة من طرف ذلك العهد العجيب، ولكن بعد مرور سنوات، في عام ١٩٧٨م

---

(١) من حلقات الأخبار التوثيقية معه حول تجاربه في السجون والمنشورة في أغسطس ٢٠١١م، بتصرف

(٢) الأرجح أن يكون ذلك المؤتمر الصحفي في أواخر يوليو ١٩٦٩م. فمن المؤكد أنه حتى ٢١ يوليو كان السيد الصادق في جبيت. ولكنه شهد جانبا من يوليو في بورتسودان (نجد في مذكراته ببورتسودان إشارة للحر في يوليو وأغسطس في بورتسودان).

وبعد المصالحة كنت في لقاء مع نميري وأراد أن يحكي لي قصة تلك المؤامرة بصورة تثبت براءته وإدانة الآخرين، قال لي: (المؤامرة عليك دبرها الروس ووزير الداخلية فاروق، وأنا لم أكن أعرف الطرف الأجنبي إلا بعد أن كشفت على المسدس فوجدت فيه قطعة خشبية من خشب لا ينمو إلا في سيبيريا، من ذلك استنتجت أن العنصر الأجنبي هم الروس!!) لا يفوت علي فطنة القارئ أن وزير الداخلية لا يمكن أن يمضي في هذا الشأن إذا لم يوافق عليه رئيسه، وأن مسألة خشب سيبيريا هذه أضحوكة. فقلت له لماذا لا تعلن هذه الحقائق للرأي العام؟ قال سأفعل ولكن تمر على الثورات ظروف كهذه هي بعض ثمن الثورة!

إن جعفر نميري عندما يتحدث بالسليقة يقول أشياء غريبة تتركك متسائلاً أحقا هو يصدق هذه السخافات؟ أم أنه يستخف بعقل المستمع؟ ففي ذات يوم اعتدى جماعة أيلول الأسود على ضيوف في السفارة السعودية في الخرطوم ١/٣/١٩٧٣م وهناك قتلوا دبلوماسيين، أمريكياً وبلجيكياً، ونتيجة لذلك الحادث أعلن نميري حملة ضد المقاومة الفلسطينية وقال سأجعل أيامهم كلها سوداء لا أيلول وحده، هذا ما أعلنه، وذات يوم قابلت نميري فقال لي: (لقد كنت جاداً عندما قلت إننا سنجعل كل أيامهم سوداء، ففي بيروت حيث يعيش عدد كبير من الفلسطينيين البوابون كلهم سودانيون وسوف نسلطهم عليهم وسوف يجعلون أيامهم سوداء)! صدق أو لا تصدق!!.. هذا المستوى من الفهم هو الذي جعل المستشار الألماني السابق هلمت شمت[1] يقول لي: أنا لا أستبعد وجود حكام عسكريين في بلاد العالم الثالث فهذه بعض مظاهر التخلف الاجتماعي، ولكن الذي أدهشني هو كيف وصل شخص بمثل قدرات نميري العقلية ليصبح الشخص الأول في أي نظام؟!!)[2]

وحول محاولة الاغتيال الثانية بعد جبيت قال السيد الصادق:

(أمرت السلطات بتحويلي من منزل كنت معتقلاً فيه في جبيت إلى سجن بور تسودان،

---

(١) هلمت شمت (ولد٢٣ ديسمبر ١٩١٨م) Helmut Schmidt سياسي ورجل دولة ألماني عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي، شغل عدة وزارات، وكان المستشار لألمانيا الغربية في الفترة ١٩٧٢-١٩٨٤.

(٢) من كتاب الفكاهة ليست عبثا

وعلمت أن تعليمات صدرت بتصفيتي في الطريق إلى بور تسودان ولكن التعليمات وصلت بعد وصولي للسجن[1].

تعليق..

حاول الدكتور محمد علي جادين وهو يؤرخ لهذه الفترة في كتابه (تقييم تجربة الديمقراطية الثالثة في السودان) أن يقول إن العناصر الشيوعية والديمقراطية داخل منظومة مايو ومجلس ثورتها كانت مختلفة مع جماعة نميري والقوميين العرب منذ البداية حول مسألة الحريات، وإنهم نادوا بها[2].. اعتقد ينبغي الاعتراف بأن تلك العناصر أيدت مايو في البطش وطربت لأعمالها في التنكيل بالآخرين، اللهم إلا إذا كانت المناداة بالحرية المقصودة لعناصر يسارية أو تتفق معها في الرؤى.

لقد سيرت منظومات الحزب الشيوعي الشبابية والعمالية المسيرات المؤيدة لضرب الجزيرة أبا وكانوا يهتفون (لا تحفظ بل إعدام) مطالبين بإعدام السيد الصادق المتحفظ عليه حينها في شندي وفقما أعلنت مايو. وقد سعوا، ومنهم كما رأينا السيد فاروق حمد الله، الذي عد ضمن العناصر المذكورة، سعوا لتجريم ملفق للحبيب ومن ثم إعدامه.. بل أخبروا الشعب عن محاكمة معلومة النتيجة سلفاً في دك لأبسط قواعد العدالة. هذا بدون إنكار الدور الإيجابي الذي لعبه السيد فاروق يوم الانقلاب وفق رواية السيد محجوب برير بحرصه على عدم إهراق الدماء وتصفية السيد الصادق هو والسيد بابكر عوض الله، لكنهما وفق شهادته غيرا الموقف بعد علمهما بانتقاده للحلف المدني للانقلاب.

وكنت استنكرت أقوالاً حديثة لأستاذنا الدكتور عبد الله علي إبراهيم فيها ذكريات تلك الأيام، في مقدمة كتاب عن الشاعر عبد الرحيم أبو ذكرى رحمه الله، تند عنها النشوة بعد ضرب الجزيرة أبا، وحينما قلت له كان الأحرى أن يتم التراجع عن تلكم الأيام وذهنيتها الإقصائية، رد بأنه لم يعن احتفاءً بالتقتيل ولكنهم كانوا اطلعوا على مضابط دائرة المهدي وانتقدوا علاقات الإنتاج في مشاريعها وقد وجدوا فيها برأيهم ضيماً على

(١) نفسه

(٢) محمد علي جادين، الدكتور، تقييم تجربة الديمقراطية الثالثة في السودان.

العمال والمزارعين.. الشاهد إن دراسات لاحقة رأت غير ذلك[1]، ولكن مهما كان حول علاقات الإنتاج ونقدها فإنها لا تبرر ما حدث، ولو صح ما ذهبوا إليه فإنه ما من انتهاك أبلغ من سلب الحق في الحياة وقصف المدنيين بالطائرات ودفنهم أحياء بالكراكات، مثلما سوف نصف.

إن الجرائم البشعة التي هلل لها بعض اليسار والعناصر الديمقراطية بتعبير جادين في تلك الفترة تؤكد بجلاء أنهم إن كانوا يطالبون بالحرية فقد فعلوا بشكل انتقائي، والحريات والحقوق لا تتجزأ: الحريات ينبغي أن تكون للجميع.

المطلوب خطوة جريئة كالتي قام بها شاعر الشعب الراحل محجوب شريف، والذي رفع لافتات تنقض شعره لمايو مكتوب عليها: (لا حارسنا لا فارسنا)، واعتذر للشعب السوداني، كم كان كبيراً، وبلادنا تحتاج مواقف المراجعة الشجاعة هذه، لأنها تغسل الجراح وتهيؤها للالتئام.

هل يستطيع أحد أن يفسر كلمات المرحوم السيد عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي حينها التالية: (إن تصاعد الصراع السياسي والطبقي في بلادنا والذي اتخذ من الجزيرة أبا وودنوباوي مسرحاً له ليس أمراً عابراً لأننا قد استقبلنا بالفعل نقطة في تطور الحركة السودانية. نستطيع أن نقول بأنه قد وجهت ضربة قاضية للتنظيم المسلح الرجعي في بلادنا، الضربة أنزلت بمجموع قوى اليمين في بلادنا ضربة ساحقة

---

(١) يقول الإمام الصادق المهدي في مقدمة كتاب يسألونك عن المهدية وهو يشير لاتهام الإمام عبد الرحمن المهدي باستغلال العمال والمزارعين في مشاريعه: (أما مسألة استغلال العمال فقد تطرق لأمرها الباحثون، وأوضحوا كيف أن هؤلاء جاءوا إليه باعتباره ابن المهدي ليقاتلوا معه. ولكنه صرف جهدهم لعمل مدني أفادهم. وفي مرحلة كانت رعايته لهم أبوية، ثم صاروا مزارعين. كمزارعين كان نصيبهم محدداً بقانون لائحة سحب مياه النيل. وفي المرحلتين كان يصرف عليهم أكثر من الاستحقاق القانوني. ولكن الفرق كان في أنه رفع همتهم ودربهم وأدار عملهم بطريقة رفعت إنتاجيتهم بصورة لا تقارن مع غيرها. صحيح جمع ثروة ولكنه جعل دائرته منظمة إنتاجية اقتصادية ذات أهداف اجتماعية بحيث صرف على الصحة، والتعليم، والمساجد، والبعثات، ونافس الحركة الاتحادية الممولة من الدولة المصرية لنصرة الدعوة الاستقلالية.. نعم جمع المال بكفاءة عالية، ولكنه صرفه صرف من لا يخشى الفقر، حتى أنه يوم وفاته كانت قيمة أصول ثروته تساوي الديون عليها.) الصادق المهدي، يسألونك عن المهدية، الطبعة الثالثة ٢٠١٥م.

وأضعفت فعاليتها وقدرتها. إن أي تقليل من شأن ما جرى يؤدي إلى التقليل أيضاً من فرص العمل الثوري وممكناته في هذه الظروف وإن الضربة التي وجهت للتنظيم تفتح السبل أكثر من أي وقت مضى نحو حركة الجماعة الثورية بصورة حاسمة وفي مستويات أعلى الدرجات مما كانت عليه قبل معركتي أبا وودنوباوي، كما تؤدي إلى تعاظم دور الحزب الشيوعي السوداني في الحياة السياسية)[1]. هل في هذا دعوة للحريات أم احتفاء بنهر الدماء الذي أساله النميري؟

في السجن الأسود ببورتسودان

حينما كان السيد الصادق ببورتسودان أتيحت له بعد فترة من الإقامة بالسجن فرصة زيارة الأسرة، وكانت أمانا، حفية وسارا، تتبادلان في زيارته فتقيمان لدى الخال بشير عبدالله جادالله الذي أقام في بورتسودان عقودا وتذهبان لزيارته بين الفنية والأخرى، وفي الإجازات كان يصحبهما الأربعة الكبار: أم سلمة، ورندة، ومريم، وعبد الرحمن. وربما زار بعضنا ولكني لم أذهب لبورتسودان أبداً، ففي بيتنا كان هناك اهتمام كبير بالتراتبية العمرية والأربعة الكبار كان لهم وضع مميز بالنسبة إلينا نحن الأصغر.

كتب السيد الصادق حول تجربته في سجن بورتسودان:

(وصلت إلى سجن بورتسودان، وكان يسمى بالسجن الأسود لأن حوائطه سميكة جداً وطويلة جداً، ولا تدخله الشمس. وضعت في زنزانة (حبس انفرادي)، وحتى في بورتسودان استمرت العزلة المفروضة عليّ، إلا أنهم بعدها تخلوا عن فكرة المؤامرة العنصرية التي حاولوا إلصاقها بي لاغتيال شخصيتي ومن بعد ذلك أُغتال في الطريق، كما أنهم تخلوا عن المحاكمات.

وبقيت في سجن بورتسودان، ولم يسمحوا بالزيارة نهائياً في أول الأمر وبعد حين تغيرت الأمور قليلاً وسمحوا بزيارات أسرية على نطاق ضيق جداً. طالبت بمطلب واحد استجابوا له وهو ألا يحجروا على كتبي ويسمحوا لي بها. ومع الزمن تكونت عندي مكتبة كبيرة جداً في السجن.. وسارا رحمها الله أصبحت فيما بعد حلقة الوصل بيني وبين الخارج، وكانت الشخص الذي يوفر لي الكتب. كانت رؤية النظام في الاستجابة لطلبي أن يعزلني تماماً عن

(١) قسم السيد، سابق ص ٢٢٤

خارج السجن ليشغلوني بالفكر، فكانوا يسارعون بتوفير أي كتب أطلبها. ومن ذلك الوقت بدأ أهم مشوار تثقيفي وفكري في حياتي على الإطلاق.

خلال فترة السجن تكونت عندي مكتبة ضخمة جداً واستطعت أن أطالع ثلاثة آلاف كتاب في مختلف فروع المعرفة. وتوفرت لي خلوة خلال حبسي منفرداً بلا زوار، فكانت الفرصة لتكوين أهم أفكاري حول القضايا الفلسفية والفكرية والقضايا السياسية، وفي كل شيء.

ثم سمحوا لنا بالزيارات بعد ستة أشهر من السجن أي في أواخر ١٩٦٩م وأوائل ١٩٧٠م، وسكتوا عن المحاكمات والاتهامات.)[1]

من مدونات بورتسودان:

كتب السيد الصادق في بعض دفاتره بالسجن:

(مضايقات خاصة:

- *الحر- بورتسودان- يوليو- أغسطس.*
- *الراديو، عالياً ويظل حتى منتصف الليل.*
- *الغراب: كثرته- قبحه- صوته. هذه (بونص) لسجناء بورتسودان.*

كيف يمكن لإذاعة تتكلم باسم حركة تدعي تأييد المثقفين، وتدعي التقدمية، أن تكون فارغة إلى هذا الحد؟ لا أدري!!

١- معظم أخبارها تصريحات لأشخاص.

٢- تعطي مجالات لثقلاء يدلون بمطولات في (الوعظ) السياسي يرددون ببغائياً عبارات لا علاقة لها بالبيئة السودانية.

٣- الغناء المنحل كما هو لم يتعرض لإصلاح.

٤- لا أسمع تعليقاً ذكياً في أي موضوع.

(١) الحلقات التوثيقية في صحيفة الأخبار حول ذكريات السجون. أغسطس ٢٠١١م

٥- الأناشيد، ما عدا ما يكرر من أناشيد أكتوبر، سخيفة.

٦- كأن السيد محجوب عثمان قرر أن «يكاوي» الشعب السوداني بهذا الإزعاج من إذاعة أم درمان، حتى بدا لي أن أسمي هذه الإذاعة أنيانيا: الحشرة السامة.

٧- أما الطريقة التي تذاع بها الليالي والاجتماعات السياسية فتتساوى في العامية مع ما كان يفعله بعض الساسة.

٨- وقت الإذاعة العام تشغله منظمات: اتحاد نقابات السودان، الاتحاد النسائي، اتحاد الشباب السوداني، يا ترى هل يعلم الحاكمون حقيقة هذه المنظمات؟ بعضهم مؤكد يعلم. والأذان يحدث مرة ومرات لا يحدث، لماذا؟

الإذاعة تكرر كتابات بعض الصحفيين الذين إن قورن ما يقولون بما كانوا يقولونه قبل ٦ أشهر أو عامين أو ثلاثة لا تضح معدنهم.(١)

حريق المسجد الأقصى ٢١ أغسطس ١٩٦٩م

دفاتر السجن مليئة بالملاحظات والمتابعات للإذاعات العالمية والتعليق على الأحداث، ولكنني انتخبت من بينها تعليق السيد الصادق على حريق المسجد الأقصى لأنه فيه وعلى غير العادة تحدث عن مشاعره، ونحن نحتفي بكل ثقب نراه لنطلع على دواخل الصادق، كيف كان يفكر، ويشعر؟ كتب الصادق:

(سمعت نبأ حريق المسجد الأقصى. بكيت بكاءً مراً. لم أبك لفداحة المصيبة فلها في فداحتها أقران في التاريخ القديم والجديد أحزنتني، ولكن ليس إلى نفس القدر. فالحجاج هدم الكعبة، والبعث قصف المسجد الأموي في دمشق. ولكن حادثة المسجد الأقصى هيجت كوامن الشعور بالذل والهزيمة التي ألحقتها إسرائيل بكياننا ووجودنا. إذا مات لك عزيز في أسر فإنك تحزن حزناً مضاعفاً بصرف النظر عن أسباب الوفاة: طبيعية أم غير طبيعية. فالأسر في حد ذاته حالة غير طبيعية.

---

(١) مدونات بدون تاريخ. والحقيقة ينبغي إجراء مزيد من البحث للتأكد من التواريخ. فبينما يؤرخ السيد الصادق للمؤتمر الصحفي الذي عقده السيد فاروق حمد الله بأنه أول سبتمبر ويفترض أنه بعده انتقل إلى سجن بورتسودان نجد في مدونات سجن بورتسودان هناك إشارة للحر في يوليو وأغسطس. مما يشير إلى أنه حضر جانباً من يوليو في بورتسودان.

وبعد أن حلل وضع اليهود ودوافعهم والسياسة العالمية واصل متسائلاً:

والآن فما هو موقف حريق المسجد الأقصى؟ لقد استمعت إلى الإذاعات العربية: القاهرة، عمان، أم درمان، دمشق. ولم أستطع الاستماع لبغداد والرياض ودول المغرب.

ما سمعته من هذه الإذاعات، يا للهول، أضحكني! وهذا شعور لم أفهمه. ماذا يضحك؟

إن الذي أضحكني هو أنني شعرت شعوراً عجيباً بأن التعليقات غير جادة، وإن عدم الجدية واضح لدرجة مفضوحة. فكل الذي حدث هو تصعيد الحملات الكلامية ضد إسرائيل وتأييد الدعوة لمؤتمر قمة عربي!!

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع!

المؤسف حقا أن العالم العربي اليوم بين نوعين من الحكم. حكم تقليدي جاهل وعاجز وخائف من الانقلاب وحكم ثوري فاشل معتمد على فئة شعبية ضئيلة فاقد الثقة في نفسه بأنه غير شرعي. لا بد من ثورة عربية جديدة تغير هذه الوجوه العاجزة.

نحن مفتقرون إلى ثورة تتمتع بالعقل وبالأصالة لتغير الواقع العربي الحالي، وهذا لا بد أن يظهر على الصعيد الفكري قبل الصعيد السياسي. ولكن متى يكون ذلك؟ لا أدري. ولكن حتى يتم ذلك فإننا سنظل نعبث وستظل تصرفاتنا تثير الضحك!)[1]

ومضى السيد الصادق يتمنى مواقف على زعماء العرب يومها فيتساءل: ماذا لو كنت حسينا؟ (يعني الملك حسين ملك الأردن رحمه الله وكانت تجمعه به صداقة كما مر) ثم يجيب، وماذا لو كنت جمال عبد الناصر؟ وهكذا. وأنت تلاحظ أن الصادق يناقش الورق، ويحاوره، ولعل الورق أصدق أصدقائه لأنه أدومهم، فقد صادق وزامل كثيرين منهم من غيبهم الموت أو السفر أو تنكّر للصداقة، وظلت الدفاتر هي صديق الصادق الوفي وأكثر من يبث له همومه ويشاركه أفكاره!

***

(١) مدونات سجن بورتسودان، ٢١ أغسطس ١٩٦٩م.

في سجن شندي أكتوبر ١٩٦٩م

نقل السيد الصادق بعد ذلك إلى معتقل في شندي ويرجح أن ذلك في أكتوبر ١٩٦٩م، ففي أوائل قدومه لسجن شندي زاره كل من فاروق حمد الله ومأمون عوض أبـو زيـد في يوم الجمعة ٣١ أكتوبر ١٩٦٩م، وهذه الزيارة سقطت من ذاكرة التـاريخ حتـى وجـدنا ملخصاً لمحضر اللقاء سجله السيد الصادق في ١ نوفمبر ١٩٦٩م، ولأنه كما قلنـا لقـاء ضائع من مضابط التاريخ فسنورده كاملا:

(زارني الرائدان فاروق عثمان حمد الله ومأمون عوض أبو زيـد ومكثـا حـوالي سـاعة ونصف وبعد المجاملات والتعليقات العامة دار الحديث الآتي:

فاروق: رأينا أن نزورك ونتحدث معك ونسمع ما تريـد أن تقـول إن كنـت تريـد أن تقول لنا شيئاً.

الصادق: لقد كنت في الماضي أريد أن أنبهكم إلى الحملات الإعلامية التي أصدرت حكماً علينا في الاتهامات غير الصحيحة التي اتهمنا بها، وهذا المسلك بـه سـبْق لنتـائج التحقيقات ويشجع الفتنة ولكن هذا المسلك توقف منذ حين.

فاروق: لقد كانت تلـك الاتهامـات نتيجـة أقـوال بعـض النـاس، وتناولهـا الـبعض بالطريقة التي حدثت نتيجة الظروف الخاصة المحيطة بذلك الموقف، ونحن كثيراً مـا نسمع ما يؤذينا أيضاً والظروف الآن مختلفة.

الصادق: ما دمتم تريدون معرفة رأيي الآن فإنني سبق أن تحدثت مع السيد النميـري وأوضحت له أننا قد قمنا بإدانة الأوضاع التي كانت تسود الـبلاد، وإننـا لـذلك لا نريـد العودة إليها، وإننا نرى ضـرورة إجـراء إصـلاحات فوريـة في الـبلاد، ولكننـا نعـارض الشيوعية لأنها تناقض عقيدتنا، ولأنها عبودية لدولة أجنبية. وذكرت للسـيد نميـري مـا نعتقد أنه سيحقق الإصلاح الثوري في إطار قومي يمكن أن يقبلـه النـاس. ولكـن ذلـك الحديث مع أنه كان في جو من التفاهم لم يثمر وأدى إلى الاعتقال والموقف الحالي.

مأمون: هذا كلام معقول، ولكننا دائما نجد صعوبة في معرفة مواقفكم الحقيقية فمثلاً نسمع عن آراء مختلفة من أشـخاص ينتمـون إلـيكم، وإذا أردنـا معلومـات مـثلاً عـن

حسابات الدائرة قبل اتخاذ إجراءات الاستيلاء لا نجد من يعطينا لها وفي هذا كله صعوبة شديدة.

الصادق: نحن قطاع من أهل السودان يمكن أن تسمعوا عنا الكثير، فالناس مشارب ويتحدثون، ولكن الحقيقة دائماً سهلة وممكن الوصول إليها بالطريق المباشر والاتصال بالجهة التي تريدون معرفة رأيها.

فاروق: المشكلة التي أمامنا والتي ينبغي أن توضع في الأذهان هي أننا ملتزمون بقرار يمنع إجراء أي مفاوضات لأننا ثورة، والثورة بطبيعة الحال لا تفاوض، ولكننا نريد أن نعرف هل من سبيل للتفاهم غير إجراء مفاوضات؟

الصادق: نحن أيضاً لا يلائمنا إجراء مفاوضات، فأنتم قد اتخذتم إجراءات ضدنا تجعل التحدث عن مفاوضات أمراً منتقداً، ولكن الشكليات غير مهمة ويمكن التوصل إلى الأسلوب الصحيح للحوار إذا رغبت الأطراف المعنية في ذلك. إنني شخصياً أحس بإدراككم لضرورة اتخاذ مسلك قومي بعيد من النفوذ الشيوعي، ودليلي على ذلك بيانكم عقب تصريح السيد بابكر عوض الله، فإذا تأكد أن سياستكم متخذة هذا الاتجاه فإن إيجاد سبيل للتفاهم يشمل السواد الأعظم من أهل السودان ممكن. ولكنني طبعاً لا أستطيع التحدث عن تفاصيل هذا الموقف إلا بالتشاور مع السيد الإمام، ونحن لنا رجال لا بد من إشراكهم في هذا الأمر. ولذا فإن إيجاد أسلوب للتفاهم في نظري ممكن ما دامت القاعدة هي قومية المسلك ولكن تفاصيل هذا كله تخضع لمشاورات.

فاروق: لقد أرسل لنا السيد الإمام نقاطاً محدودة فيها الدستور الإسلامي، وتحديد عمر هذا النظام، إلخ. وهذه النقاط ليست للتفاهم بل هي لتصفية النظام الحالي كله، فما رأيك في هذا الموقف وهل ما قلته أنت في بداية حديثك يمثل رأيك وحدك أم يشمل رأي السيد الإمام أيضاً؟

الصادق: عندما قام الوضع الحالي نحن اعتقدنا أنه استيلاء شيوعي على حكم البلاد، وواجبنا في هذه الحالة المقاومة. بعد ذلك وصلتنا معلومات أنه بالرغم من وجود شيوعيين في أفراد الوزراء المختارين إلا أن الحزب الشيوعي لم يكن الموجه لما حدث، ولذلك ظهر لنا احتمال الوصول إلى قاعدة تفاهم مع النظام الجديد للأخذ بيد البلاد.

لقد كنت أنا بالعاصمة وكان السيد الإمام بالجزيرة أبا فسافرت أنا للجزيرة أبا حيث تفاهمت مع السيد الإمام على موقفنا من الوضع الجديد وبقيت هناك إلى أن وصلنا ما يؤكد إمكانية إجراء حوار مثمر، أكد لنا ذلك الرائد الفاتح عابدون والأمير عبدالله نقدالله الذي جاء إلى أبا لينقل إلينا انطباعاته المشجعة عما دار في اجتماع مجلسكم به. وفي الجزيرة أبا تم اتفاقنا على أسس صالحة للتفاهم بيننا وهي الأسس التي ذكرتها للسيد نميري في اجتماعي به يوم ٣/٦/٦٩ وقد أبلغته إياها شفهياً وتحريرياً، وكل ما قلته له وسلمته إياه موجود معي الآن مكتوباً ويمكن أن أعطيكم نسخة منه إن لم يسبق لكم الإطلاع عليه. تلك الأسس مؤيدة من قبل السيد الإمام الذي يعتبرني مندوباً عنه لإجراء تلك المحادثات. ولكنكم بعد ذلك تصرفتم نحونا تصرفات باعدت الشقة، وقطعت عرى الاتصال، وإنني لا أستطيع القطع في أمر يتناول تفاصيل تصلح إلا بعد الاجتماع بالسيد الإمام وإجراء المشاورات المشار إليها. وإنني لا أقول ذلك لأنني أريد أن يفك اعتقالي كمدخل للتفاهم، فإنني سعيداً جداً بالمجال الذي وجدته في الاعتقال في جبيت وفي بورتسودان وفي شندي، وتستطيعون الرجوع إلى تقارير ومشاهدات المسؤولين الذين باشروا الاتصال بي في تلك المعتقلات للتأكد من عدم تبرمي بالاعتقال وانشغالي بما ينفع روحي وعقلي. كل هذا يؤكد أنني لم أضق بأي واحد من تلك المعتقلات، والآن أنا لست ضائقاً بهذا المعتقل ولكن إذا أردتم التفاهم معنا فهذا لا يمكن الشروع فيه جدياً إلا بعد إجراء المشاورات التي ذكرتها لكم سابقاً. وأريد أن انتهز هذه الفرصة لأقول لكم إن اتهاماتكم لنا بالرجعية والتحالف مع الاستعمار والثورة المضادة اتهامات غير صحيحة وظالمة. فإن جميع شعارات التقدم ومشروعاته رفعناها قبل الناس، وشرعنا فيها كالإصلاح الزراعي، والإصلاح الإداري، والسيطرة السودانية على الاقتصاد السوداني، وتحريك الريف والبادية في السودان..إالخ. هذا وغيره يؤكد بطلان الاتهام بالرجعية. وتستطيعون العودة لكل المراجع فلن تجدوا لنا صلة صاغرة مع أية جهة أجنبية، فنحن الذين فتحنا باب تسليح الجيش السوداني من الاتحاد السوفيتي وتشيكوسولفاكيا في ديسمبر ١٩٦٦م، ونحن أوائل من أدان السياسة الأمريكية في فيتنام في ديسمبر ١٩٦٦م، وفتحنا باب العلاقات الجادة مع العالمين العربي والأفريقي، وحتى الاعتراف بألمانيا الشرقية فقد اقترحناه لاجتماع وزراء الخارجية العرب قبل مؤتمر القمة الذي عقد في الخرطوم، مما ينفي أية صلة بالاستعمار في أية صورة من

صوره.

أما الحديث عن الثورة المضادة فغير صحيح، فنحن نؤمن بمبادئ ثورية مصلحة صالحة، ولكننا ضد الشيوعية لا لخوفنا من أي مصالح تؤمم، فنحن في هذا الصدد نقدم دائماً مصالح الأمة على المصلحة الخاصة، ولا أذيع عليكم سراً إن قلت إنني قررت أثناء تولي الحكومة استيلاء الحكومة على ممتلكات شركات وأفراد منها دائرتي المهدي والميرغني سداداً لمتأخرات الضرائب عليها، وأعطيت تعليمات بذلك للسيد حمزة ميرغني وزير المالية الأسبق والسيد حمزة ميرغني رأى أن يتخذ أسلوباً آخر لتحصيل تلك المتأخرات من الضرائب، ولذا فإننا لا نرى حداً أو قيداً في سبيل المصلحة العامة.

ولكن الشيوعية عبودية لدولة أجنبية، وقد سعينا مراراً في أن نحمل الشيوعيين السودانيين للتمسك بالاشتراكية في صورها غير الشيوعية، ولكن الارتباط العضوي بين حزبهم ومركز الشيوعية العالمية في موسكو قفل أبواب الصلة بينهم وبين أهل السودان.

مأمون: يشاع دائماً إن لكم معاملات واتصالات مع بعض الشيوعيين وخاصة عبد الخالق محجوب.

الصادق: ليست لنا اتصالات إلا في إطار إيجاد المخارج للبلاد، ونحن نعتقد أن جزءً من واجبنا أن نجد المخارج القومية السلمية لأزمات البلاد. حدث ذلك في مناسبات عديدة فعندما حل المجلس العسكري الأعلى في أكتوبر ١٩٦٤م وجاءنا الضابطان الطاهر المقبول وعوض عبد الرحمن لم نشأ أن يكون التفاهم خاصاً بنا، بل رأينا أن يشمل التفاهم كل ممثلي الحركة السياسية فتم الاجتماع ببيت المهدي الذي أسس التفاهم وميثاق أكتوبر. ويمكن الاستشهاد على هذا المسلك في مناسبات مختلفة بعدد من الأشخاص، وهذا المسلك نابع من إيمان حقيقي بأن السودان لا يمكن أن يحكم بالقوة فهو واسع المساحة مشتت الولاءات كثير العصبيات ولا بد لاستقرار الحكم فيه من قدر معلوم من الرضى والاقتناع. ولذلك تعجبنا وما زلنا نتعجب لاتهامنا باستغلال العنصرية لتولي السلطة في البلاد!

فاروق: نستطيع أن نقول إن خلاصة رأيك حول الموقف أنك ترى أنه يمكن إيجاد أساس للتفاهم بأسلوب يتفق عليه ما دام المنطلق هو قومية المسلك، وأنك ترى أن

بحث هذه الأمور لا بد أن يتم بعد المشاورات المشار إليها.

الصادق: نعم.

مأمون: نحن مسافران الآن فهل تحتاج لأي شيء أو لديك أي طلب؟

الصادق: لا مع الشكر)[1].

تعليق على لقاء شندي

هذا اللقاء ليست له أهمية من ناحية عملية فلم يترتب عليه شيء، ولكنه برأيي مهم من ناحية إبراز التفاهم أو التلاقي بين قادة النظام والأنصار، فهم تلمسوا رأي الإمام الذي برأيهم لا يؤدي لإمكانية حوار، كما أن السيد الصادق يبدو مطالباً بلقاء الإمام، وكما كررنا فقد كان السيد الصادق هو الذي في موضع العسرة وليس الإمام بأبا كما كتب البعض ممن تسقط الحاسة التاريخية لديهم.. كذلك يبدو في كلامه مع الانقلابيين غير مشحون بالمرارة التي تقتضيها حاله من حبسٍ انفرادي استطال، وهجوم إعلامي، بل ومحاولات اغتيال، ولا زال الباب مواربا برأيه لحديث طالما ارتأوا البحث عن مخرج بشكل قومي وبدون فيتو شيوعي. ومأخذه على الشيوعية كما جاء في اللقاء هو ارتباطاتها الأجنبية أو العبودية لمركز الشيوعية العالمية بموسكو بحسب تعبيره.

هناك خاصية في السيد الصادق عجيبة، فمع كثرة الذين يستعدونه ويستهدفونه بالأذى، نجده دائماً مستعد لتجاوز ذلك الأذى كأن الغل منزوع عن صدره بالسليقة، ومستعد للتفاهم مع الجميع.

وستجد مثل هذا المسلك لدى السيد الصادق دائماً بشكل يضج منه البعض، فناهيك عن انقلاب مايو الذي أطاح بسلطة كان هو أول منتقديها، إننا سوف نرى مع انقلاب «الإنقاذ» الذي أطاح به وبالإجماع القومي الفريد الذي صاغه حينها باتجاه المؤتمر القومي الدستوري المزمع في سبتمبر ١٩٨٩م.. إنه سرعانما ظن بأن الانقلاب لا تحركه أيدٍ أجنبية، كما قال، كتب مذكرة لرئيس الانقلاب يحثه على البحث عن مخرج قومي ووجدت بجيبه لدى اعتقاله.

(١) محضر بسجن شندي في ١ نوفمبر ١٩٦٩م.

والملاحظة المهمة الأخرى أن أحداث الجزيرة أبا لم تكن بعد في الأفق. وأنت ترى أن الصادق يريد أن يلتقي الإمام قبل الحديث عن أي موقف، بل ويؤكد أن رغبته في لقاء الإمام ليست ضجراً من الاعتقال ولكن لبحث القضية العامة.. شكراً لهذا المحضر. فبغيابه انسل مرجفون!

من جهة أخرى، وجدت ملفا كاملاً لمكاتبات الحبيب الإمام الهادي في أواخر عام ١٩٦٩م وشهري يناير وفبراير ١٩٧٠م. حتى ذلك التاريخ فإن مكاتبات الإمام الهادي لا تظهر يوميات حرب. على العكس من ذلك، هنالك برقيات تهنئة بعيد الفطر المبارك في يناير ١٩٧٠، وتعازي من الإمام الهادي قبلها وبعدها في وفيات أهمها ربما وفاة السيد عبد الرحمن علي طه في نوفمبر ١٩٦٩م، ومعاودة لمرضى مثل خطابه إلى «حبيبنا ووكيلنا الشيخ الخواض جاد الله» وفيه أنه بلغه «أنك كنت تشكو من لطف ألم بك وعلى أثره رقدت في المستشفى وأنه قد أجريت لك عملية»، ومكاتبات حول مطلوبات لمكتب الإمام بأبا مثلا دولاب لحفظ الدوسيهات، ومكاتبات من الإمام لمسئول سعودي ليتوسط لمساعدة السيد إسحق الخليفة شريف، ومكاتبات بالشكر لمن تبرع لبناء جامع الكون، ورسالة لشخص طالب بمساعدته في عمل (كشك) والإمام وعد بالمساعدة، ورسائل من كثيرين يبلغونه التحايا، والبعض يسأل عن حال السيد الصادق ويتمنى فك أسره، وهناك مكاتبة مع الناظر بابو نمر الذي أرسل يؤكد بقاءه على العهد وذكر أن الحزبية ذهبت بغير رجعة، فرد الإمام عليه بأن المهم ليست الحزبية ولكن الحرية التي ينص عليها الإسلام. وفيما عدا مكاتبات قلائل إحداها تدعو للصبر الجميل وأخرى تؤكد أن الله ينصر من ينصره، فإن الوضع الذي نتخيله حول أن أبا كانت مستهدفة والبقاء فيها شدة لا يظهر من قريب أو بعيد، وأنى له أن يظهر إلا بقراءة الغيب؟ وعلى العكس يظهر أن المعتقل هو الشدة، فقد جاء في خطاب الإمام الهادي للحبيب عبد الرحمن أبو البشر في يناير ١٩٧٠م[1] تهنئة له بفك الأسر وحمداً لثباته في المعتقل، ومع ملاحظته أن السودان كله معتقل قال الإمام الهادي: (ولقد علمنا أيضاً من الذين كانوا

(١) الحبيب عبد الرحمن أبو البشر من قيادات الأنصار في كادقلي وكان رئيس الحزب هناك وهو عضو الآن، بمجلس الحل والعقد لهيئة شئون الأنصار ونظرا لمجاهداته المستمرة فقد أنعم عليه الحبيب الإمام الصادق المهدي مؤخرا بلقب الأمير.

معك في المعتقل من الأحباب بموقفك الصلب إبان الفترة التي اعتقلت فيها، والذي إن دل على شيء إنما يدل دلالة واضحة على رسوخ العقيدة وصدق الوقوف بمعرفة ويقين إلى جانب نصرة دعوة الحق والتزام بها في كل الظروف والأحوال).

هذا مع ملاحظة أن العم الحبيب أبو البشر كان معتقلاً مع جماعة، وهذا أهون بمراحل من الحبس الانفرادي الذي كان فيه الحبيب السيد الصادق يومها، والذي عزم على ملاقاته بالعبادة والانصراف لمهام جسام على رأسها بلورة أسس البعث الديني والنهضة الوطنية، وقد رأينا أنه استطاع ذلك وحدّث به الأوراق، كما حدثها عن وحشة نفس غزته مرة وربما مرات.

الفصل الثاني

مجازر أبا وودنوباوي والكرمك

قلنا إن السيد الصادق المهدي تم تحويله لسجن شندي ورجحنا أن ذلك كان في أكتوبر ١٩٦٩م.

وقلنا إن النظام بعد أن نفى محاورته للسيد الصادق، أعلن أنه قد تحفّظ عليه. وكلمة التحفظ هذه كانت الاسم الذي أطلقته مايو على اعتقال السيد الصادق غدراً.

وروى لنا الشاعر الأنصاري حاج العمدة عبد الماجد أنه ذهب لمقابلته حينما اعتقل بشندي فمنع، فأرسل حينها للسيد الصادق تلغرافا شعريا عبر عسكري حارس (من الجبلاب) قال له:

فرخ أم صنقر الصايد البلد قديد

وضنب العقرب الما بنمسك بالإيد

أكان قريتَ فوق لبن الجداد لا تزيد!

بالطبع كان اعتقال أولاد المهدي بادرة مايوية ابتدأت بالصادق، وكانت من أقصى حالات البطش حتى حينها، وقد ذكرت الأنصار بالبطش البريطاني بأبناء المهدي أيام الشكابة والأسر من بعدها في رشيد بمصر، فعسكر حكومة نوفمبر (١٩٥٨-١٩٦٤م) اكتفوا بتحديد تحركهم داخل العاصمة وسبب ذلك ذاته غضباً. ويروي بعضهم أن عبوداً كان يزمع اعتقال الإمام الصديق ولكنه استجاب لنصح السيد علي الميرغني بألا يفعل ذلك، وكان عبود من أبناء الختمية المحتفظين بولائهم للسيد علي.

الشاهد، لم يحتمل حاج العمدة فيما يبدو فكرة أن السيد الصادق المهدي اعتقل، ويبدو من أبياته أنه كان يفهم أنه يتم التحقيق معه! والحقيقة إنه كانت هناك خطة لإبعاده من التأثير في الساحة السياسية ومحاولات لاغتياله كما ذكرنا، ربما خوفاً من تأثيره

السياسي أو اتصالاته العسكرية التي لم يحجب أمرها من قادة الانقلاب. وسنرى أن اعتقال الصادق والسعي لتصفيته، كرره (بالضبانة) تقريبا نظام الإنقاذ فيما بعد!

كما سعى النظام لعزل السيد الصادق مما يدور في الجزيرة أبا.

كان قائد القيادة الشمالية بشندي هو الضباط تاج السر مصطفى، من الضباط الوطنيين الذين مروا بالقوات المسلحة السودانية، وكان مشفقاً من حال البلاد والاستقطاب فيها، وفي مرحلة ما رجحنا أنها في فبراير ١٩٧٠ بدأ يطلع السيد الصادق على المخاطر المدبرة ضد الجزيرة أبا، ورصد سلاح داخل إليها، وتدريبات وترتيبات لمواجهة فيها، وكانت أخباراً مزعجة للسيد الصادق جداً. ثم جاء خبر زيارة النميري للنيل الأبيض فجأة، فتأكد السيد الصادق أن هذا ما هو إلا شرك للإيقاع بالإمام الهادي والأنصار بأبا وهم غير مستعدين، لأن السلاح الذي يعد للإدخال لم يدخل ولا معشاره بعد ولا التدريب المطلوب تم، وأبا نفسها ليست ميداناً مناسباً لمعركة، فأرسل رسالة للإمام الهادي حملتها شقيقته السيدة وصال المهدي في ١٤/ ٣/ ١٩٧٠م، قال السيد الصادق للإمام في الخطاب إنه يدرك أن النظام يدبر مكيدة فهم يرصدون ما يدور في الجزيرة أبا، ويريدون القضاء على المعارضة باختلاق أسباب المواجهات، ولذلك يرى أن يتم تجاهل زيارة النميري للنيل الأبيض بشكل تام على أن نختار نحن زمان ومكان المعركة.

ونحن سوف نتعرض لاحقا لما جرى بأبا، ولكننا نورد هنا الأحداث التي جرت في شندي، مستندين على رواية السيد الصادق[1]:

(ارتفع التوتر بين الإمام ونظام مايو، وفي هذه المرحلة وقبل المواجهات التي وقعت لاحقاً في الجزيرة أبا نُقلت من سجن بورتسودان إلى مدينة شندي، وصرت قيد الإقامة الجبرية تحت حراسة القوات المسلحة قيادة الحامية الشمالية.

وفي شندي سمحوا أكثر بالزيارات الأسرية وغير الأسرية، مثلاً أصبت بألم في الأسنان فسمحوا لصديقي الدكتور حسن عبد اللطيف بزيارتي، وتساهلوا مع بعض قيادات الحزب، وزارني صلاح عبد السلام، إلا أن الزيارات الغالبة كانت للأسرة، وأنا في

(١) رواية أحداث سجن شندي مقتبسة من مذكراته في السجون المنشورة في صحيفة الأخبار

شندي كان التوتر يتزايد ويرتفع وتأكد للنظام أن الإمام يستورد أسلحة ويخطط لمواجهة، كما أن عدداً من الشخصيات كتبوا خطابات حادة جداً يحمسون فيها الإمام ويحثونه على التحرك، أولا جاءه خطاب من السيد حسين الهندي يقول فيه إن الناس الذين دعمونا من السعودية وأثيوبيا يسألون عن نتيجة الدعم المادي والعسكري الذي قدموه لنا، فهم لم يروا نتيجة حتى اليوم، ثانياً خطاب من السيد فاروق البرير يؤكد أن الموقف في الخرطوم معادٍ للانقلاب، بمعنى إذا حدث تحرك في الجزيرة أبا سيلاقي تأييداً شعبياً كبيراً، وخطاب آخر من السيد مأمون شرفي، وكان ضابطاً بالقوات المسلحة، وفيه أن القوات المسلحة رافضة لمايو وستدعم موقف الأنصار، إضافة إلى أن الأنصار تقاطروا من مختلف مناطق السودان لمناصرة الإمام.

في هذه المرحلة نشأت بيني وبين قائد القيادة الشمالية في شندي صداقة، وكان اسمه تاج السر، وأنا لم أر في حياتي شخصاً له أخلاق ملائكية مثل هذا الرجل، إنسان فاضل وتعامل معي باحترام شديد جدا، وأذكر أنه كان يزورني كل يومين أو ثلاثة وبسيارته يذهب بي إلى خارج المدينة ليروح عني، وكان يتآنس معي في أي موضوع بلا حرج ودون أن أشعر بأننا سجين وسجان، وفي بعض المرات يصطحبني إلى بيته ونشرب شاي وكذا، وتاج السر، وقد انتقل إلى رحمة الله، كان قلقاً بسبب ما يحدث في الجزيرة أبا، لذلك كان دائماً يطلعني على بعض المعلومات الأمنية، ويشير إلى أن الحكومة ترصد كل ما يحدث هناك: كمية السلاح والتدريب وعدد الجنود، وكان يؤكد أن هنالك اختراقاً للأنصار أو «طابور خامس» في الجزيرة. وبصورة مفاجئة نقل تاج السر وتم تبديله بضابط آخر، لعلهم شعروا بالصداقة التي بيني وبينه، والضابط الذي خلفه ولا أذكر اسمه كان مختلفاً كل الاختلاف عن تاج السر، ولكن رغم سياسة الضابط الجديد الجافة إلا أن الزيارات لم تمنع والزوار لم ينقطعوا.

وأنا في المعتقل في شندي زارتني وصال أختي وتمكنت من أن أهرّب معها خطاباً للإمام، وخطابي وخطاب فاروق البرير وخطاب الشريف وجدت في جيب الإمام عندما اعتقل فيما بعد. كتبت له بأن النظام يعلم تفاصيل ما يحدث في الجزيرة أبا، وهي ليست مكاناً مناسباً للمواجهة مع النظام، وقلت له يجب ألا نترك للنميري أن يختار مكان وزمان المواجهة، وفي حالة زار النميري الجزيرة أبا يقابل بمواجهة سلمية: ناس ترفع

أعلام ولافتات وشعارات، وهذا رأيي، ويرى الحاضر ما لا يرى الغائب، وإن لم يأت النميري للجزيرة فكفى الله المؤمنين القتال. روى لي السكرتير الخاص للإمام أن الإمام عندما وصله خطابي وكان النميري قد عدل عن زيارة الجزيرة أبا، أن الإمام بعد أن وضع الخطاب في جيبه قال: كفى الله المؤمنين القتال).

كان اعتقال السيد الصادق في شندي أيضاً في بيت أحد الضباط. وفقط لضبط التواريخ نقول إن خطاب السيد الصادق للإمام كان في يوم ١٤/ ٣/ ١٩٧٠م. وقد روي لي الحبيب الإمام الصادق المهدي أنه مع تسامعه بوتيرة الأحداث بعدها، وهو في معتقله بشندي طلب من الضابط المسئول حينها، الذي استبدل السيد تاج السر مصطفى، أن يرسل رسالة لقادة الانقلاب أنه مستعد لإطفاء النار في أبا، طالباً أن يعطى فرصة للذهاب لهناك، ولأنهم كانوا قد أحكموا الخطة وعزموا على دك أبا (وليس صحيحا أن فعلهم كان ردة فعل غاضبة لما قام به الإمام وصحبه) رفضوا طلب الصادق الذي اعتقد أن المسألة كان يمكن لحاقها برأي، وفبركوا قصة أن رجل تهجم على النميري من الأنصار، وأن ذلك التهجم يدل على «مؤامرة»، ويبرر المذابح التي تلت!

الجزيرة أبا وظلم التاريخ

كتبت من قبل أقول إن أكبر ما تثيره مجازر أبا الآن ليس مواقف الرسميين وأعمالهم التي جاءت ضمن خطة قهرية جربتها المنطقة من شرقيها لغربيها ومن سافلها لصعيدها، ولكن ظلم التاريخ، الظلم البائن الذي تراه حينما تجيل النظر بين الوثائق التي خلفتها الأحداث.. إن وثائق أبا مرة، لم تكتف بدفن الآلاف ودك ديارهم، بل بتشويه صورتهم. الصحف اندرجت في مواويل الغثاء المشروخ، تحول الضحية لجلاد، وتحول الشهيد لبغي، وتحول النبل لخيانة، والخيانة لبطولة، والبسالة لخور.. أنت إن قرأت ما جمعه الأستاذ صديق البادي (صاحب كتاب أحداث الجزيرة أبا وودنوباوي) من أقوال، وما أورده من بيانات لا بد باكٍ أو مجروح.. كلهم قتلوا الشهداء بعد الدفن معنوياً.

مثلا، كنت تقرأ ما نشر للأستاذ إدريس حسن بصحيفة الأيام بعد ثلاثة أيام من المجزرة (٣/ ٤/ ١٩٧٠) حيث وصف الأحداث وقال إنهم دخلوا الجزيرة حينما كانت الشمس تميل للمغيب وفي مؤخرة الأذهان عشرات الأسئلة التي بددتها زيارتهم قال: (ليس هناك آثار لدمار أو خراب وليس هناك بقايا لآثار معارك عنيفة فإن قوات الأمن لم

تستعمل إلا أقل قدر من العنف وهي تستولي على الجزيرة، المنازل قائمة في أماكنها، المواطنون الذين لم يشتركوا في المؤامرة يعيشون حياتهم العادية في بيوتهم ويتجولون في قراهم)[1] وكان إدريس قد زار الجزيرة أبا ضمن وفد الصحفيين مباشرة بعد القصف، ولكنك الآن تسمعه يقول بقناة النيل الأزرق (ببرنامج حتى تكتمل الصورة في ١٤/ ٦/ ٢٠١٠م) وفي عينيه نظرة التكفير، إنهم حينما ذهبوا لزيارة أبا حجزوهم خارجها ساعات طويلة ولم يسمحوا لهم بالدخول في الحال، وأنه حينما استفسر بعدها بزمان من أحد الضباط المسئولين (التاج حمد) حول سبب ذلك التأخير قال له: كنا مشغولين بدفن الناس بالجرافات وقد كانت أعدادهم مهولة، وما كنا نريدكم أن تشهدوا ذلك المنظر (البشع.. وهذه إضافة مني!)

يجب أن ينضم للأستاذ إدريس حسن الآخرون لا نطلبهم اعتذارا فقط استدراكا كاستدراكه!

يجب أن يكتب تاريخ جديد للأحداث، تاريخ حينما يورد قصائد الأستاذ الزين عباس عمارة:

بارك مولانا غضب الثورة حين تصدت للجلاد

من حمل المدفع باسم الدين أثار الفتنة والأحقاد

أو قصيدة الأستاذ عثمان خالد (أنصاري مطرود من الجنة):

كنا نباع نستذل بالخديعة

أرواحنا كانت لدى أطماعكم وديعة

وكنت يا سيدي الكبير

تبيعنا الجنة بالحياة!

أو قصيدة الأستاذ كمال الجزولي (دفاتر حب لمايو):

ها أنت تعود إذن يا سيدنا

(١) صديق البادي، أحداث الجزيرة أبا وودنوباوي، ص ١٠٤

حسنا!! ذلك آخر ما في جعبتنا

أن نقتل أصبح أسهل من إلقاء تحية

أن نطلق في الرأس رصاصة

أن نغرز في الصدر الخنجر

أن نشنق أن نخنق أن نبتر

أن نمسح حد السيف بحد اللحية

أصبح يا سيدنا أسهل من إلقاء تحية!

حينما يورد تلك الأدبيات متعلقة بأبا وهي واردة في كتاب البادي، وقصيدة الجزولي ورادة أيضا في كتاب محمد أحمد كرار: «سنة أولى مايو»، مربوطة بأبا، ولكن البادي يقول إنه زار الجزولي وعلم أنه كتب القصيدة لمايو بعد لقائه بالنميري بروسيا ثم إنه تحول لمعارض لمايو واعتقل في معتقلاتها. الشاهد، حينما ترد تلك القصائد في أي تاريخ للأحداث يجب أن ترد إلى جانبها قصيدة المرحوم الفضل عبد الحميد في رثاء الإمام الشهيد، وفيها:

يا ابنة النيلين ويحك اذكري	فضل الرجال العاملين وقدري
وتناولي كف الإمام وقبلي	كفا فدتك من الخطوب الغبر
كفا وقتك الذل من كيد العدا	وعقوق بعض من بنيك الفجر
إن نام ناس إن عينك لم تنم	عن مجد قومك بالعيون السهّر

وهي القصيدة التي قال البادي في كتابه إنه بحث عنها فلم يجدها.

وليورد التاريخ قصيدة المرحوم مختار محمد مختار:

يا رب أما لليل غد	والظلم أليس له أمد
تاهت بالظلمة أعيننا	فكأن نهايتها الأبد
قتلوا حفاظ القرآن	وصلوهم وابل نيران

ولا نجدها مكتوبة أو مذكورة في أي مكان.. ترى هل هناك من لا يزال يحفظها؟ ترى أهكذا نحن وأقوالنا وأشعارنا دائما سقط في ذاكرة التاريخ، وتدوّن أقوال وأشعار صائدينا؟ وهل سنظل دوماً بلا لسان؟ فُقَرَا، وفلْسَان؟

أحداث الجزيرة أبا

جاء في كتاب المصالحة الوطنية:

(كان الإمام الهادي قد ظل مقيماً بالجزيرة أبا وقد انضم إليه جمع كبير من الأنصار، وبدأ يبني «جامع الكون» في الجزيرة أبا. وفي مارس ١٩٧٠ م وضع برنامج زيارة النميري للنيل الأبيض وكانت العلاقة بين النظام الجديد والجزيرة أبا متوترة، ففي أول يوم من شهر رمضان في نوفمبر ١٩٦٩ م سجل عضوا مجلس قيادة «الثورة» وقتئذ الرائدان فاروق عثمان حمد الله وزير الداخلية وأبو القاسم محمد إبراهيم وزير الحكومات المحلية زيارة للإمام الهادي بالجزيرة أبا وتحدثا عن ضرورة إقامة نقطة بوليس في الجزيرة أبا، وهي التي لم تكن تعرف رائحة السيجار ولا شهدت التمباك ناهيك عن أنواع الجرائم التي يحمي منها البوليس! الإمام الهادي عارض الفكرة وأكد أن الأنصار يقدرون المسئولية الوطنية وظلوا يحفظون الأمن داخل الجزيرة أبا، وبعد مداولة توصل الاجتماع لاتفاق أن تشرف الحكومة علي الأمن بواسطة العمدة.[1])

وفي ديسمبر ١٩٦٩م حدث أمرٌ هام ربما كان له أثر فيما جرى لاحقاً من تشفي وضرب للأنصار شارك فيه الطيران المصري. فقد أرسل الإمام الهادي مذكرة مؤرخة ب١٨ شوال ١٣٨٩ه الموافق ٢٧ ديسمبر ١٩٦٩م إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر يلومه على تصرفاته العدائية تجاه السودان وآخرها تأييد الانقلاب على الديمقراطية، و يرفض الوحدة التي قال إنه نشط العمل لها بين السودان ومصر، ويقول في نهايتها إنه يتحدث باسم المعارضة وهي الشعب كله باستثناء الشيوعيين ويقول (إنني أرفض أي إجراء أو إقرار يخضع السودان لسيطرة غير سيطرة أبنائه تحت أي شعار).

لغة المذكرة ليست من النوع الذي تتقبله مصر الرسمية من ساسة السودان وزعمائه فهي لا ترضى إلا الإذعان وجملاً على شاكلة (الرأي رأي عبد الناصر).

(١) كتاب المصالحة الوطنية، بتصرف

قال الإمام الهادي للرئيس عبد الناصر في المذكرة: (أثناء فترة ما بعد أكتوبر حدثت محاولات شتى لإرجاع شعبنا إلى قبضة الحكم الديكتاتوري، ولكنها جميعاً فشلت، والذي يهمنا هنا أن المسئولين عن السلطة التنفيذية في الوطن تأكد لديهم أن مخابراتكم كانت وراء تلك الانقلابات).

وذكره بوقوف السودان إلى جانب مصر متغاضياً عن (الأخطاء والإساءات والمظالم)، سواء كان ذلك في حرب السويس ١٩٥٦م، أو حرب يونيو ١٩٦٧م، وعقده لمؤتمر قمة عربي مساند لمصر في الخرطوم، حيث (سارعت بلادنا إلى الوقوف إلى جانبكم بكل ما تملك من إمكانيات)..(وتعلم يا سيادة الرئيس أكثر من غيرك أن السودان هو الذي أقنع الدول العربية الغنية بمساعدتكم، وهو الذي قام بالدور الأساسي في عقد المؤتمر، وفي إنجاح المؤتمر المتمثل بصفة خاصة في الدعم المالي لكم والذي بلغ حتى الآن نحو (٤٠٠) أربعمائة مليون جنيه استرليني، والسودان هو الذي أنهى في نفس المؤتمر المشكلة الدامية التي أهدرت جهود مصر البشرية والمادية لبضع سنين، وهي مشكلة اليمن.. ولا نريد أن نحصي أعمالنا ولا نمن على مصر بما قدمناه، فإن أياً من هذه الأمور لا يتفق والخلق السوداني. إننا نذكر ذلك لنوضح مدى المفارقات الكبيرة و لمحزنة بين ما يقدمه السودان من خير وبر ويتلقاه من شر وعقوق).. (وفي ٢٥ مايو ١٩٦٩م قامت مجموعة من الضباط الشيوعيين والناصريين بانقلاب،..، وتأكدنا أنكم قد اشتركتم في تدبير هذا الانقلاب سلفاً في اجتماع عقد في القاهرة بين سيادتكم وبابكر عوض الله وعبد الكريم ميرغني كان سفير العهد الديمقراطي في بلادنا، وشخص رابع وهو نفسه الآن من ضحايا الانقلاب.. وبمرور الأيام تنكشف الحقيقة وتنفضح إذ انهال عونكم على الانقلابيين بشكل ملفت، خاصة في مجال الأمن والاستخبارات ثم كانت الخطوة الخطيرة التي أقلقت كل سوداني وهددت حاضره ومستقبله، ففي هذه الأيام كثر الحديث عن الوحدة ونشط العمل لها من جانبكم ومن الطغمة العسكرية هنا).. ثم مضت المذكرة تفند الوحدة لا كمبدأ ولكن لأسباب أربعة: أن الأنظمة العسكرية غير شرعية ولا تملك تفويضاً من الشعوب يمكنها من الإقدام على عمل خطير كهذا، وأن السودان يعاني مشكلة وحدة في حد ذاته وهو متعدد الأجناس والوحدة المذكورة تستند على نسب عنصري عربي مما يهدد الوطن بالفرقة والنزيف، وهي

وحدة تهدر مصالح السودان ولحل مشاكل نظام مصر على حسابه، وأن الارتجال في تحقيق الوحدة هو إجهاض لها كما في وحدة سوريا ومصر واليمن ومصر، ونحن لا نريد لشعبنا أن يكفر بالوحدة إلى الأبد إذ يرى التزييف والتشويه[1].

هذه المذكرة ربما كانت سبباً في سعي ناصر المحموم لمسح الأنصار وإمامهم من على وجه البسيطة كما حدث في قصف الجزيرة أبا.

ولنواصل تسلسل الأحداث منذ أعلنت زيارة نميري. جاء في كتاب المصالحة الوطنية:

(عندما أعلن برنامج زيارة النميري لمنطقة النيل الأبيض طرح السؤال في أوساط المعارضة ماذا تفعل؟

كان رأي بعض الناس أن النيل الأبيض هو معقل المعارضة ولذلك لا بد أن يسمع النميري صوتها هناك. ومع أن الأمر كان موضع خلاف حول هل يسمع النميري صوت المعارضة الآن أم يتم تجاهله، إلا أن الرأي استقر على ضرورة أن تقابله جماهير سلمية تحمل شعارات في لافتات وهتافات هي: لا سلام بلا إسلام، الإسلام طريق الخلاص، إسلامية لا شرقية ولا غربية، لا شيوعية ولا إلحاد، وعاش الإمام حامي الإسلام.

هذه الشعارات أُمر الأنصار من الكوة شمالاً وإلى كاكا التجارية جنوباً، وفي ضفتي النيل الأبيض شرقاً وغرباً أن يحملوها، وألا يهتفوا بسقوط النظام ولا يعتدوا عليه يرفعوا فقط الشعارات. وحينما وصل نميري الكوة قابله بعض الأنصار باللافتات والشعارات المتفق عليها، ولكنهم أشاعوا أن أحدهم حاول التهجم عليه، وبالتالي عزمت الحكومة على اعتقال الإمام وأرسلت قوة بقيادة العقيد أحمد محمد أحمد أبو الدهب في صباح الخميس الموافق ٢٦/٣/ ١٩٧٠م، ووقعت القوة في أسر الأنصار في الجزيرة أبا فاحتال قائدها مدعياً أنه قادم لمقابلة الإمام، وأجرى معه حواراً، ووقع معه اتفاقاً خلاصته: إزالة الواجهة الشيوعية من الحكم؛ وإلغاء ميثاق طرابلس (وهو ميثاق أمني بين كل من مصر وليبيا والسودان ضمن المحور الشرقي)؛ وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين؛ وإجراء استفتاء علي مشروع دستور ١٩٦٨م. ووقع الطرفان علي

---

[1] قسم السيد، سابق الصفحات ٣٠٧-٣١٣ حيث يورد مذكرة الإمام الهادي كاملة ملحقة بكتابه.

الاتفاق وعادت القوة المسلحة أدراجها وأعلن الإمام على الناس في خطبة الجمعة ٢٧ مارس أن: كفي الله المؤمنين القتال!

ولكن العقيد أبو الدهب الذي نجا بالخدعة وصل للنميري في طوافه، وكان في طريقه لكوستي بعد أن أنهى زيارته لتندلتي وأخبره بما جرى، فتقرر محاصرة الجزيرة أبا وتطويقها مما يتطلب استدعاء قوات إضافية. وأذاع نميري بياناً أعلن فيه المواجهة على الأنصار، وانهالت عليه البرقيات المؤيدة لهذا الخط من جميع الجهات والتيارات، والنقابات، كما سير أنصار النظام المسيرات التي تنادي بضرب الأنصار وقياداتهم، وكانت شعاراتهم كالتالي: لا تحفظ بل إعدام (في إشارة للتحفظ على السيد الصادق المهدي)، اضرب الرجعية بيد من حديد، رأس الهادي مطلب شعبي، الصادق عميل أمريكي. وهكذا كان الرد المايوي على صوت المعارضة أن تدك دكاً دكاً.. ضمن خطة الضرب على الحديد وهو حام!)(١)

وقد أشار د. الصادق الهادي في حلقة تلفزيونية بقناة النيل الأزرق قبل بضع أعوام لما كتبه أحد الضباط الشهود على الواقعة وهو السيد أحمد عبد العزيز مؤكداً أن حادثة التهجم تلك كانت فبركة تم تصعيدها إعلامياً، كاختلاق للأسباب في الهجوم على أبا.

ضربة الجزيرة أبا عصر الجمعة ١٩٧٠/٣/٢٧م

كان الأنصار وعلى رأسهم الإمام قد اطمأنوا إلى نجاح وساطة أبو الدهب وأن الأمور تجري كما طلبوا، وصلى الإمام بالناس ظهر الجمعة مؤكدا هذه المعاني، وبعد ذلك بقليل فوجئوا بهجوم عسكري عليهم ونيران تطلقها القوات المسلحة بقيادة العقيد أحمد محمد أبو الدهب..نفسه صاحب العهد الكاذب!

وفي الساعة الرابعة وخمس دقائق اشتبكت هذه القوة قبل أن تحتل مواقعها بالأنصار ولقيت مقاومة شرسة، واستشهد من الأنصار يومها أكثر من تسعين دفنوهم ليلا. بعد ذلك عين أبو القاسم محمد إبراهيم نفسه ليكون قائداً على القوة المرابطة بالجزيرة أبا، فوصلها ظهر السبت ٣/٢٨ كما وصلت سرية من القيادة الوسطى وسرية من القيادة الشرقية صباح الأحد ٣/٢٩ وانضمتا للقوات هناك.

(١) نقلا عن الكتاب بتصرف

وبدأ منذ يوم السبت ضرب الجزيرة أبا بالطائرات وضربت إحداها بسلاح مضاد للطائرات، ثم استبدلت بالطائرات الميج ١٧ التي حلقت وضربت الجزيرة أبا، كما كان الضرب موجها للجزيرة أبا بالهاون طويلة المدى، وكانت تصوب من حجر عسلاية بالضفة الشرقية، وأيضا من الطويلة الواقعة على الضفة الغربية، ومن الحصي، بالإضافة للضرب الجوي. وقد هجر كثيرون منازلهم واتجهوا للجنائن النائية والأطراف، وبعضهم أغلقوا منازلهم ومع ذلك قتل كثيرون داخل منازلهم جراء الضرب العشوائي، ومن لطف الله فإن قنابل كثيرة لم تنفجر، وتساقطت بعض المنازل ونجا من بداخلها[1].

كان الضرب مكثفاً ولا يتصوره عقل، واشتركت فيه الطائرات المصرية والليبية، ولكن الأنصار واجهوا هذه المحنة بثباتٍ عجيب، وكانت حلقات الراتب تعقد يومياً وتصل المئات فجراً وعصراً في حالة من الضرب والغبار لا يمكن معها تصور القيام بأي عمل. كما حدثت قصص كثيرة يرويها الأحباب الشهود على هذه الأحداث تؤكد أن العناية أحاطت بهم وإلا لكانت الخسائر غير متصورة، فالقنابل التي رميت كانت لو انفجرت كفيلة بأن تفجر الجزيرة أبا وتبيد كل من فيها، وقد جاء بعض الخبراء الروس بعد ذلك وقالوا إنهم يريدون فحص تربة الجزيرة أبا لمعرفة لماذا لا تنفجر القنابل عليها؟![2].

وبالرغم من ذلك فقد أورد البادي أن عدد قتلى الأنصار المحصورين بأبا كان ٧٤٥ والجرحى والمعوقين ٢٨٠ (وفي كتاب ذكرى الخالدين)[3] أن عدد أفراد أسر الشهداء الذين تيتموا يصل إلى ٣٢٧٩، هذا غير شهداء ودنوباوي بالأحد ٢٩/ ٣ الذين ساروا في مظاهرة احتجاجية على الضرب الغاشم للجزيرة أبا، ومنعوا من اجتياز كبري النيل الأبيض الواصل بين أم درمان والخرطوم، فرجعوا، وهوجموا بالذخيرة الحية وتم تعقبهم حتى داخل مسجد الهجرة بودنوباوي فاستشهد ٢٠٥ مرصودين بأسمائهم[4] (البادي يقول استشهد من الأنصار

---

(١) (البادي ص ٧٣-٧٤).

(٢) من روايات الأحباب المهاجرين حول الأحداث في حلقة توثيقية عقدت في يناير ٢٠٠٨م بالمركز العام لهيئة شئون الأنصار بودنوباوي، وقد أشرفتُ على تدوين الروايات.

(٣) ذكرى الخالدين، أبريل ٢٠٠٦م، اللجنة العليا لإحياء ذكرى شهداء الجزيرة أبا والكرمك وونوباوي مارس ١٩٧٠

(٤) هذا بحسب ملف في مكتبة الحبيب الإمام، أما كتاب ذكرى الخالدين فيورد العدد ١٧٣

١٦٢ وجرح ٣٥ وقتل بالمصادفة ١٨ مواطنا كانوا يمرون بالطريق)!

استشهدت بعض النساء في الأحداث أشهرهن الشهيدة ثريا بت الزاكي، ومعها ست أخريات. وحاولت بعض السيدات في أم درمان على رأسهن السيدتين سارا الفاضل ونفيسة كامل تنظيم مظاهرة تنديداً بأحداث الجزيرة أبا. وحينما تم الضرب في ودنوباوي تحركت السيدة سارا رحمها الله مع كل من السيدات عائشة نقد الله وأم البدوي عبد الله وكلتوم الترجماوية وعدد من الأنصاريات (كنا نقوم بحمل جثامين الشهداء من الميدان للمسجد ونقل الجرحى للمستشفى، كما كان هناك أخريات يتسللن خلف الجنود ويحملن ذخائر الجنود ويخفينها تحت الجسر (أي داخل الخور) المقابل لشارع المسجد. فجمعوا ذخيرة العساكر كلها وأصيبوا بالفزع لما اكتشفوا ذلك)[1].
وقالت السيدة سارا: (وفي نفس يوم العدوان على ودنوباوي تحركت للاتصال بعدد من الشخصيات الوطنية مناشدة إياهم التدخل والاتصال بالسلطات لإيقاف الضرب بالذخيرة الحية على المدنيين العزل، اتصلت بكل من السادة عبد الرحمن عابدون وميرغني النصري كما اتصلت بالعم عبد الله المليح للاتصال بالسيد دفع الله الحاج يوسف، وبآخرين. وحينما عدت وجدت منزلنا محاصراً ومنعت من الدخول، فسافرت مباشرة لشندي لإطلاع السيد الصادق، الذي كان معتقلاً هناك، على ما جرى ومنعت من مقابلته فاكتفيت بإرسال رسالة له مع الطباخ وعدت أدراجي)[2].

أحداث الكرمك واستشهاد الإمام الهادي

تتابع القصف العشوائي على أبا حتى صبيحة الاثنين ٣٠/ ٣/ ١٩٧٠م حيث بدأ منذ الساعة الخامسة صباحاً وتواصل حتى بعد المغيب. وفي وقت متأخر من ليل الاثنين قرر مجلس شورى الأنصار أن يغادر الإمام الهادي الجزيرة أبا مهاجراً لأثيوبيا حقناً للدماء، على أن تسلم الجزيرة أبا للقوات المحاصرة بعد ساعات كافية تتيح للمهاجرين وصول الحدود الإثيوبية، وهذا ما تم فتوقف ضرب الجزيرة أبا فجر الثلاثاء ٣١/ ٣ ودخل قادة الانقلاب الجزيرة أبا وتم احتلالها بالكامل.

توجه الإمام الهادي مهاجراً لأثيوبيا، واتجه نحو الحدود ومعه تسعة أشخاص عبر

(١) سارا الفاضل دور المرأة في حزب الأمة، ٢٠٠٨، مرجع سابق
(٢) نفسه

الكرمك، لينضم لقادة الجبهة الوطنية الذين ينتظرونه في معسكر جبل الرادوك داخل الحدود الأثيوبية. ثم اختفى ومعه الخال محمد أحمد مصطفى وملازمه سيف الدين الناجي، وعاد سبعة من مرافقيه وقد شاهدوه آخر مرة مصابا بطلق ناري. وكثرت الشائعات بعدها حول مصير الإمام الهادي المهدي، وتحفظ النظام على ما جرى وأطلق معلومات متضاربة مما جعل المسألة فعلا غامضة وغير معلومة التفاصيل. مثلا أذاع النظام عصر الأربعاء ١ أبريل أن الإمام قتل ضمن اشتباكات حدثت في الحدود، ولكن لم يتم أبداً الحديث عن تشييع أو مكان دفن. وانطلقت أقاويل وثارت معتقدات أن الإمام لا زال حياً بدار الهجرة، وطبعت في ذلك ولا زالت تطبع كتب أمثال كتاب (الغربال) أو (وحي المؤمن) يحوي بشارات من رؤى الأحباب المؤمنين بعودة الإمام الهادي ولو بعد حين وهي مطبوعات يشرف عليها السيد ولي الدين الهادي المهدي وجماعة ممن يؤمنون بعودة الإمام الهادي، وكنتُ قد زرته في العام ١٩٩٦م لأخذ إفاداته حول الإمام الهادي وما حدث له، ضمن بحث لي لنيل دبلوم الفلولكور وكان البحث حول مقتل الإمام الهادي لبحث دور (المادة السمعية أو الإشاعة) ضمن ما درسناه في مادة (التراث الشفوي كتاريخ) التي تتلمس خطى المؤرخ النمسوي الألمعي جان جاك فانسينا في استخلاص تواريخ المجتمعات الشفاهية من إرثها المروي. وقد أعطاني العم ولي الدين حينها نسخاً من تلك المطبوعات التي تبشّر بعودة الإمام الهادي في النهاية. ففي وحي المؤمن تجميع لرؤى مبشرة، وفي الغربال تأكيد لأن غياب الإمام الطويل سوف يغربل المؤمنين فيتساقطون إلا قليلٌ من أخلص المخلصين.

وقد هالني أثناء ذلك البحث إدراك مدى الوهم والخلط في روايات كثيرين للأحداث حتى ممن يستبعد التباسهم حول تلك التراجيديا التي ينبغي أن تحفر في ذواكرنا كصفحة من صفحات الفداء، ودليل على مدى التجبر المايوي ووحشيته.

الشاهد.. حينما جرت المصالحة في ١٩٧٧م بين الجبهة الوطنية والنظام المايوي، أثير الملف بضرورة رد اعتبار الإمام الهادي المهدي وتبيان حقائق ما جرى والسماح للأنصار أن يدفنوه حيث يشاؤون، وكان ذلك من ضمن ملفات المصالحة المقبورة.

وبعد قيام انتفاضة رجب/ أبريل المباركة تم تكوين لجنة تحقيق حول الأحداث، هذه اللجنة قامت بمجهود لتقصي الحقائق فاستدعت الشهود الأحياء وسمت المتهمين، وقدمت تقريرها الذي بناء عليه جرى تحديد قبري الإمام الشهيد ورفيقيه الشهيدين (الخال محمد أحمد

مصطفى والحبيب سيف الدين الناجي)، وتم نقل رفاتهم جميعا لقبة الإمام المهدي في موكب تشييع ضخم، وخاطب رئيس الوزراء السيد الصادق المهدي الشعب السوداني في خطاب نشر وطبع ضمن خطب مجلس الوزراء (المجلد الثاني) جاء فيه:

رواية السيد الصادق لأحداث الكرمك

(الجزيرة أبا قرية ليس فيها أسباب الدفاع ضد الطيران، والسلاح الثقيل لم يقف عند هذا الحد من الوحشية، بل استعان بقوى أجنبية للبطش بالمواطنين في خطة غدر لم يشهد التاريخ السوداني الحديث لها مثيلاً. وأمام هذه المعركة غير المتكافئة قرر الإمام الهادي المهدي أن يهاجر من الجزيرة أبا إلى أثيوبيا حيث يقابل قادة الجبهة الوطنية في الخارج الذين ينتظرونه في معسكر جبل الرادوك الذي يقع على بعد عشرين كيلو متراً شرق مدينة الكرمك. وفي طريق الهجرة أحاطت قوة من الشرطة بالإمام وصحبه وهناك تتالت أحداث انتهت باغتيال الإمام واثنين من رفاقه هما الخال محمد أحمد مصطفى والأخ سيف الدين الناجي ودفن الثلاثة في وادي الدوم«.. »منذ أن سقط السفاح طالبنا ومعنا نفر من خيرة المواطنين أن تحقق الحكومة الانتقالية في هذه الأحداث وأن تعمل على معاقبة الجناة وكشف الحقائق كاملة. لقد قبلت الحكومة الانتقالية هذه المذكرة القومية التي رفعت لها ولكنها لم تتمكن من تحقيق مطالبنا، ومنذ تولينا الحكم أعطينا الموضوع اهتماماً كبيراً، وكونا لجنة عالية الكفاءة، وأحطنا أعمالها بالسرية التامة ومنحناها تفويضاً كاملاً لإحصاء الحقائق وتحديد المسئوليات. فقامت اللجنة في سرية تامة بأعمالها فعرفت تفاصيل الحادث، وأسماء القتلة، والذين قاموا بالدفن، ومواقع القبور؛ واستناداً على هذه الحقائق الموثقة اتخذنا الإجراءات الكفيلة بمحاسبة الجناة ووضعنا أيدينا على القبور وحرسناها، واتخذت الإجراءات الكفيلة بحفظ النظام، وقررنا دفن رفاة الإمام في القبة مع جده وأبيه وأخيه، ودفن رفاة زميليه الذين وقفا معه مؤازرين: الخال محمد احمد مصطفى والأخ سيف الدين الناجي في فناء القبة. إن كل الحقائق والوثائق بتفاصيلها سوف تنشر ومعها شهادة الشهود واعترافات المعترفين ليصبح الناس كلهم على بينة من الأمر».

وبعد أن تعرض السيد الصادق للموقف الفقهي الإسلامي من نقل الرفاة وأكد مشروعيته والمصلحة المجنية من ورائه قال: « لقد تقرر أن يكون نقل الرفاة ودفنها بالقبة في البقعة في يوم الاثنين التاسع والعشرين من شعبان الموافق ٢٧ أبريل الجاري

سوف يبدأ التشييع من مسجد الهجرة في تمام الرابعة من عصر ذلك اليوم. لقد وجهت الدعوة على الصعيد القومي لممثلي أهل السودان دينياً وسياسياً وفئوياً وإقليمياً وصحفياً شخصيات وطنية للمساهمة في هذه المناسبة القومية الكبرى.[1])

وقائع الكرمك.. من محضر المحكمة

وبعد ذلك جرت محكمة علنية للمتهمين في مقتل الإمام ورفيقيه، وقد نشرت كافة جلسات المحكمة حتى وقائع الجلسة الختامية في كتاب، فصارت المسألة متاحة للباحثين وللرأي العام.. وجاء في وقائع الجلسة الختامية للمحاكمة أن البلاغ أقيم ضد لمتهمين «بتاريخ ١٦/ ٤/ ١٩٨٧م بواسطة لجنة التحقيق حول ظروف وملابسات مقتل الإمام الهادي المهدي وآخرين» المفوضة من قبل النائب العام، وقد تم فتح البلاغ في مواجهة سبعة من المتهمين إلا أن جهات الضبط القضائي لم تتمكن من إحضار أحد هؤلاء المتهمين وهو المتهم جعفر نميري»[2].

وبعد أن سردت المحكمة الوقائع المأخوذة من أقوال الشهود وتطابقها أوردت: «إن سلسل البيانات في هذه المسألة وردت متواترة بدرجة لا تحتمل أي شك أو مظنة، وهي تقطع وفاة الإمام الهادي عبد الرحمن المهدي والمرحومين سيف الدين الناجي ومحمد أحمد مصطفى. وإذا جاز لنا أن نعلق على تلك الحوادث فهي بلا شك صورة مثلى للفوضى وغيبة حكم القانون وخرق صريح لمبادئ حقوق الإنسان وحق الفرد في المثول أمام محاكمة عادلة مختصة. وإن إفلات بقية الأسرى من القتل ونقلهم من الدمازين إلى الخرطوم بالطائرة كان من قبل العناية الإلهية ومحض مصادفة حيث أنهم لم يكونوا في العربة التي حملت الجثث، الأسير محمد أحمد مصطفى، وأن سلوك بعض الأفراد المسئولين عن هذا الحادث يعد إدانة للنظام السابق حيث خرج من عباءته عدد من الدكتاتوريين الصغار نصبوا أنفسهم قضاة جلادين ونفذوا حكم الإعدام دون تردد أو رحمة، ولم تتمكن الشرطة من مجرد فتح البلاغ للسرية التي أحيطت بها العملية حتى إماطة اللثام عنها بواسطة لجنة التحقيق»[3].

---

(١) الخطاب موجود بقسم الوثائق بموقع حزب الأمة

(٢) كتاب محاكمة المتهمين في قضية مقتل الإمام الهادي، ص ١١٩

(٣) نفسه (ص ١١٨)

الوقائع التي صدقتها المحكمة تقول إن مجلس شورى الإمام اتفق على هجرة الإمام، وأن يكون أمر الجزيرة أبا بعد هجرة الإمام لشاهد الاتهام الأول خالد محمد إبراهيم. وحقناً للدماء وإيقافا لنزيف الدم طلب الإمام الهادي منه تسليم الجزيرة أبا بعد هجرته، وعند الساعات الأولى من فجر الثلاثاء (٣١/ ٣) وعند الواحدة صباحا خرج الإمام الهادي من الجزيرة أبا يرافقه كل من عمر مصطفى ومحمد أحمد مصطفى، وعباس أحمد عمر، و سيف الدين الناجي، ومحمد علي يونس، ومحمد محمد صادق الكاروري، وعز الدين الشيخ، وعبد المطلب بابكر خوجلي، والفاضل الهادي بعربة لوري عن طريق الجاسر.

ثم مضت المحكمة تسرد الوقائع وكيف وصل المهاجرون لمنطقة خور أحمر، وترجلوا لما لقوه من (تحرش) سكان قرية أونسة، وانقسموا إلى مجموعتين: مجموعة أولى ضمت الإمام الهادي ومحمد أحمد مصطفى وعمر مصطفى وسيف الدين الناجي والفاضل الهادي، والمجموعة الثانية ضمت الباقين، وتحركت المجموعة الأولى صوب الحدود الأثيوبية.

هذه المجموعة الثانية تم القبض عليها من قبل شرطة الكرمك، وتمت حراستها ثم تم التوجه للقبض على المجموعة الأولى حيث وجدوها جالسة على الأرض، وفي أثناء القبض عليها قاوم الفاضل الهادي الضابط الذي كان يهم بتفتيشه وحاول الاستيلاء على سلاحه، وفي أثناء ذلك حاول الإمام الهادي إخراج مسدس فنبهه أحد العساكر من مغبة ذلك، وضربه بعيار ناري في منطقة الفخذ، وحينها، أي بعد إصابة الإمام، انهارت المجموعة وأدركت قوة الشرطة أن المصاب هو الإمام الهادي، فحاول قائد القوة إنقاذه بربط الإصابة بعمامة ثم تحرك لإحضار طبيب، وتم نقل أفراد المجموعة المنهارين لصحبهم في المجموعة الثانية بينما بقي الإمام الهادي ومعه سيف الدين الناجي و(الخال) محمد أحمد مصطفى، كما تم إخطار الخرطوم بالحادثة.

وجاء الأمر من جعفر نميري بقتل جميع الأسرى ودفنهم في سرية، ولملابسات ذكرتها المحكمة انبنت على الصدفة تم الإبقاء على أرواح الأسرى السبعة الذين نقلوا للخرطوم، بينما قتل سيف الدين الناجي في وحشية بالغة ومن بعده الخال.

تروي المحكمة: «وصل المتهم الثاني أحمد حسين بامسيكة ووجد الإمام الهادي قد فارق الحياة، وكان سيف الدين الناجي جالساً على الأرض واضعاً رأس الإمام على حجره في حراسة قوة الشرطة، فطلب منه الوقوف فرفض سيف الدين الناجي وأخذ يكبر: الله أكبر ولله الحمد عدة مرات، فما كان من المتهم الثاني أحمد حسين بامسيكة إلا أن أطلق عليه من مسدسه ثلاث طلقات نارية في صدره وأمر شاهد الاتهام الرابع الأمين مصطفى إدريس أن يصرعه بطلقة، إلا أن الأخير رفض الانصياع للأمر، فأمر المتهم الثالث وداعة علي سيد أحمد فاستجاب المتهم الثالث للأمر وأطلق طلقة نارية واحدة من بندقيته على صدر سيف الدين الناجي».

وتروي المحكمة كيفية دفن الشهيدين وقتل الثالث حيث قامت قوة بحفر قبرين في منطقة باو التي تبعد ٥٩ كم من الدمازين على بعد ١٥٠ مترا شمال شرق مفترق الطرق المؤدي إلى قادمية والطريق المؤدي إلى باو، وكان البعد بين القبرين حوالي ١٠ خطوات، وكيف نقلت الجثتان عبر عربة جيش يرافقهما الخال الذي كان حياً، فطالب المتهم (تيراب الغالي النور) من أحد الجنود إعدام محمد أحمد مصطفى فتردد، فأمر جندي آخر ففعل بطلقة اخترقت الرأس من الخلف مهشمة للوجه من الأمام، بعد ذلك دفن كل من سيف الدين الناجي ومحمد أحمد مصطفى في قبر واحد في وضع معكوس، ودفن الإمام الهادي في مقبرة وحده مع العنقريب الذي حمل فيه!

التفاصيل الدقيقة التي أسفرت عنها المحكمة وأظهرت دهشتها للتطابق المذهل في الحيثيات أذيعت للعالمين، وحوكم المتهمون فبرئ من برئ وأدين من أدين.

ولكن وبرغم ذلك ففي يونيو ٢٠١٠م قال الكاتب المصري الكبير محمد حسنين هيكل وهو يروي أحداث مقتل الإمام الهادي إن الإمام قدمت له قطعة مانجو مسمومة في كسلا، وإن قاتله لا يزال مجهولاً! صحيح إن هيكلاً أوضح لاحقاً إن معلوماته كانت مستقاة من تقارير استخباراتية، ولكن ذلك الخطأ يظهر مدى غياب المعلومات الهامة حول تاريخنا وعدم نشرها بشكل كافٍ حتى صار بالإمكان ما كان.

هكذا اغتال النظام المجرم إمام الأنصار ومرافقيه، كان ذلك توجيه السفاح في الخرطوم، وقبل وصول التوجيه كان سفاحون صغار تناسلوا منه وقاموا بالمهمة على

أبشع وجه!

كادوا يقتلونا جميعاً

بعد أحداث أبا وودنوباوي كانت هناك حملة مسعورة ضد أسرتنا الكبيرة، وضد الأنصار عموماً، وانطلقت فرق عسكرية لبيوت الأهل تقبض على الذكور وتروع الجميع. ومع أنني لا أذكر هذه الحادثة لصغر سني يومها إلا أن الكبار منا يذكرون أننا كنا نقيم بعد الأحداث في منزل المرحوم العم نور الدين الشنقيطي وزوجته أمنا عزيزة حسن كرار، وكانت صديقة العمر لوالدتنا سارا تهرع لتؤوينا كلما ألم بنا حادث، وبعد ضربة ودنوباوي جاءت فساقتنا جميعا من البيت وكنا ثمانية من أبناء وبنات الإمام وأربعة هم ولدي وبنتي عمتنا وصال أبناء الدكتور حسن الترابي. ورأى بعض أهلنا أن يسوقونا من بيت أمي عزيزة بشارع البلدية لسرايا الإمام عبد الرحمن بالخرطوم شارع الجمهورية حيث كانت تقطن جدتنا شامة، وهناك كان العسكر قد أصدروا أمراً بإخلاء السرايا. وحينما داهموا السرايا وجدونا هناك، فأمرنا أحدهم أن نقف في صف واحد، وأزالوا الأشياء من حولنا استعدادا لضرب النار، ووجه أحدهم بندقيته علينا ليطلق الرصاص، ولكن شاءت الأقدار أن يحضر السيد فاروق حمدالله في اللحظة الأخيرة ويمنعه قائلاً له: نحن خارجين للتو من معركة وتريد أن تقتل هؤلاء وهم مجرد أطفال صغار؟!

ألم تثبت محكمة الكرمك أنه نسل من النظام دكتاتوريين صغار (نصبوا أنفسهم قضاة وجلادين ونفذوا حكم الإعدام دون تردد أو رحمة)؟

ومن الطرف التي تحكيها أخواتي الكبار حول الحادثة أن رندة ولم تكن قد بلغت سبع سنين بعد قد أضاعت في السرايا في ذلك اليوم إحدى نعليها (السفنجة) وكانت تبحث عنها بهمة بالغة تعاونها مريم ذات الخمس سنوات، ولم يهمهم ما يقال من أنهما مطلوبتان للوقوف في طابور الإعدام (ليرصصوا) أي يطلق عليهم الرصاص، وقالت رندة إنها كانت ضجرة جداً من ذلك وتتمنى أن تتم عملية (الترصيص) بسرعة حتى تعود لتبحث عن (فردة السفنجة)، وفي النهاية ظل هاجس السفنجة الضائعة هو أكبر همها في ذلك اليوم والأيام وربما السنين التالية!

الفصل الثالث

ما بعد المجزرة

كانت أحداث أبا وودنوباوي فاجعة وقعت على الأنصار عمودياً، فأعادت كل الأحزان منذ «الكسرة» وإلى يومها.

ويروي الحبيب الأستاذ محمد المصطفى حسن عبد الكريم في كتاب يحوي سيرته العملية كموظف في وقاية النباتات بكوستي سابقاً، كيف أصابته الحادثة بارتفاع في الضغط سقط على إثره مغشياً عليه، وبعدها غادر الحزب الشيوعي الذي انتظم في صفوفه فترة وقال «لعنة الله على مايو»! ولكن للأسف فإن أجندة عام ١٩٧٠م التي يتوقع أن يسجّل فيها السيد الصادق خواطره حول الحدث هي من بين الأوراق الضائعة.

في ١ أبريل ومباشرة بعد الأحداث التي لم يكن قد سمع بها بعد، أخذ السيد الصادق من المعتقل في شندي إلى طائرة أقلته للقاهرة. وفي الطائرة وجد والدته السيدة رحمة وزوجه السيدة سارا، وكان حالهما يغني عن سؤالهما. إذ بادرته والدته بالقول: الفاتحة على روح ود المهدي! ثم روت له ما دار والعبرة تخنقها، والآلام تكاد تعصف بقلبها المفجوع.

وقد علمت من أمي حفية إنها والحاجة السارة كانتا مع السيد الصادق بشندي حينما جاء العساكر وساقوه إلى الطائرة، وأخذوهما إلى أم درمان وهناك استوقفوهما لبعض الاجراءات حتى سمح لهما بالذهاب لودنوباوي حيث بيت السيد الإمام الهادي لزوجته السيدة رقية عبد الله الفاضل المهدي وأبنائها وهم نصر الدين والفاضل والصادق ورحيمة وبرهان وعبلة وصديقة، وله بيتان أخريان: بيت في الملازمين قرب منزل الإمام الصديق المهدي لزوجته السيدة زهراء خالد شيخ الدين وأبنائها وهم معتصم وولي الدين ومرام ومريم وعبد الرحمن ومحمد، والآخر في الامتداد[1]

(١) صارت هذه المنطقة اليوم تسمى العمارات

بالخرطوم تقطنه زوجه السيدة فاطمة الصادق وابنها مهدي.

وقالت إنهما لما ذهبتا لودنوباوي وجدتا كل الأهل هناك في حالة عزاء باعتبار أن الإمام الهادي قد قتل. وبالطبع فإن ذلك بسبب البيان الذي أذيع عصر ذلك اليوم الأول من أبريل.

ولكن، ونسبة للغموض الذي تعامل به النظام لاحقا مع المسألة، وإخفائه لقبره ومن استشهد معه كما ذكرنا، فقد صار هناك شك حول مصير الإمام الهادي حتى أجلي في الديمقراطية الثالثة.

المعتقل في مصر

يروي السيد الصادق[1]:

(بسبب كل ذلك رأى نظام مايو أن وجودي في السودان يشكل خطراً عليه، وخاصة بعد مقتل الإمام، واتفق مع الرئيس جمال عبد الناصر على أن استضاف معتقلا في القاهرة. وبليل وبعد اغتيال الإمام شحنت أنا وأسرتي في طائرة عرفت أنها متجهة إلى القاهرة، والغريب أن في الطائرة التي ستنقلني إلى المعتقل في مصر وجدت عبد الخالق محجوب معتقلاً أيضا ومرسلاً إلى مصر ليحبس هناك، وفي ذلك الوقت العلاقة بينه والنميري وصلت إلى نهايتها، وانقسم الحزب الشيوعي مع وضد النظام، ويبدو أن عبد الناصر كزعيم في المنطقة ولتوتر الوضع في السودان قرر أن يستضيفنا نحن الاثنين معتقلين عنده، إلا أن المدهش بالنسبة لي أن نكون في طائرة واحدة، وكان هذا في أول أبريل من سنة ١٩٧٠م.

في القاهرة وضعوني وأسرتي في منزل قائد كلية الشرطة الذي أخلوه خصيصاً لذلك، وبعد يومين من وصولي زارني محمد حسنين هيكل ومعه سامي شرف وقالوا نحن مندوبين عن الرئيس عبد الناصر، وكانت لغتهم أنت هنا في بلدك وبين أهلك ولكن ممنوع من أي نشاط سياسي، وكل ما احتجت إليه لممارسة نشاط فكري وثقافي متاح لك وحتى مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر. الشرطة كانت تقوم بحراسة المكان

(١) من مذكراته المنشورة في الأخبار بتصرف.

وخصص ضابط مناوب للمراقبة.

النظام في الخرطوم سمع بهذه الزيارة، لذلك اتصل بابكر عوض الله بالنظام في مصر وقال لهم إن الكلام الذي دار في زيارة محمد حسنين هيكل وسامي شرف للصادق المهدي مرفوض للأمن السوداني، وبالفعل بقيت في حبس منزلي في كلية الشرطة. وسمحوا لي في الكلية بركوب الخيل ولعب التنس، وهذا كل ما كان من مقدار الحرية المتاحة، أما الزيارات فسمحوا بها لأسرتي فقط وأي شخص آخر ممنوع، ولأني ذهبت في أبريل ١٩٧٠ بقيت حتى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، وخلفه السادات وفي تلك الأثناء كتبي لم تفارقني وكانت بالآلاف).

عداء النميري لمصر

كانت الجفوة بين الشيوعيين والنظام قد بدأت منذ عام ١٩٧٠م وربما قبلها. وقد رأينا كيف تم التحفظ على سكرتير عام الحزب الشيوعي مع السيد الصادق ونقل معه في طائرة واحدة لمصر في أبريل ١٩٧٠م، ولكن نظام مايو وبعد انقلاب هاشم العطا في يوليو ١٩٧١م بطش بالشيوعيين بلا رحمة فصفى كل قيادات الحزب ولم يقتصر في المحاكم الإيجازية التي أعدمت جل قادة الحزب العسكريين والمدنيين رمياً بالرصاص على من شارك في الانقلاب، المحاكم التي شارك فيها حلفاء الحزب الشيوعي السابقين فتولوا رئاسة المحاكم الميداينة بحسب الأستاذ عبد الله أبو إمام، وقد نقل عن مجلة الدستور الآتي: في العديد من المحاكمات التي سميت بالمحاكمات الميدانية لم يكن هناك مجلس تحقيق بل كانت حلقة من حلقات التعذيب والتشفي يقودها نميري ويشارك فيها آخرون[1].

كانت أول خطوة بعد الانتهاء من ثنائية الحكم هي تثبيت النميري كحاكم مطلق، وأتاه المقترح من اللواء خالد عباس في أغسطس ١٩٧١م[2] بتقلده رئاسة الجمهورية، وذلك بتنظيم استفتاء شعبي صوري أتى به لرئاسة الجمهورية كفائز ب٩٨.٦٪ من

(١) جعفر نميري والصراع حول السلطة ١٩٦٩-١٩٧٣ ، الطبعة الأولى ١٩٩٠، ص ٧٧، نقلا عن مجلة الدستور العدد ١٤٢ - ١١ آب أغسطس ١٩٨٠

(٢) نفسه ص ٨٦

أصوات الناخبين في ١٠ أكتوبر ١٩٧١م. وتمت مكافأة خالد الموالي لمصر بأن نصب نائباً لرئيس الجمهورية، ولكن الأمور سرعانما انعكست كما سوف نرى.

وحاول النميري في هذه الفترة التبرؤ من الأعمال الوحشية التي ارتكبها خلال تحالفه مع الشيوعيين، وأوفد الوزراء موسى المبارك، عمر الحاج موسى، ومأمون عوض أبو زيد للتفاوض مع زعماء المعارضة الموجودين في السعودية (عمر نور الدائم، حسين الهندي، عثمان خالد، وآخرون)، فطالبوا بالتالي:

- أن تصدر الحكومة بياناً سياسياً تعترف فيه بأن حاملي السلاح ضد الحكومة كانوا مواطنين شرفاء قاوموا التسلط الشيوعي دفاعاً عن حريتهم ومعتقداتهم.
- إطلاق سراح المعتقلين السياسيين وعلى رأسهم الصادق المهدي، وحسن الترابي والصادق عبد الله عبد الماجد والآخرون، على أن يسمح لهم بالسفر لمقابلة زملائهم في الخارج لإجراء حوار سياسي مع السلطة القائمة[١].

ولكنها مطالبات ذهبت أدراج الرياح.

وكانت المرحلة التالية هي قطع دابر القوميين العرب والعداء لمصر. ففي توجهه المعادي للشيوعية استنبت النميري عداء المعسكر الشرقي واشترك السادات، الرئيس المصري يومها، مع زعماء الكرملين في بيان يستنكر العداء للشيوعية (ومقصود بها السودان)[٢].

أثناء هذه الجفوة بدأت مصر في التقرب للسيد الصادق المعتقل بين جنبيها.

يقول السيد الصادق:

(في ذلك الوقت وقعت في السودان محاولة انقلاب يوليو ١٩٧١ بقيادة هاشم العطا وآخرين، وبعد الانقلاب ساءت العلاقة بين السادات والنميري لأن النميري اتهم السوفييت بمساعدة الانقلابيين، فناصب السوفيت العداء واتجه للأمريكان مما تسبب

---

(١) أبو إمام، جعفر نميري والصراع حول السلطة ١٩٦٩-١٩٧٣ ، الطبعة الأولى ١٩٩٠، نقلا عن مجلة الدستور العدد ١٤٢- ١١ آب أغسطس ١٩٨٠ ص ٨٨-٨٩

(٢) نفسه ص ٩٩

في إحراج كبير للسادات. توتر العلاقة هذا كان مناسبة ليقرر السادات فتح حوار وتفاوض معي. أرسل في طلبي وأنا في السجن وذهبت إليه، وعندما قابلني بدأ معي الكلام بهجوم على النميري وقال (جعفر بتاعكو ده ما بيفهمش، أنا لو عندي قروش وعاوز أشتري سلاح لن أجد غير السوفيت وكيف وهم يمنحونا السلاح بالدين). وشرح لي كيف أن العلاقة بينه والنميري (باظت)، وشرحت له كل عيوب مايو، وفي الآخر اتفق معي على أنها خطر على أمن السودان وأمن مصر، واتجه الحديث إلى إمكانية التعاون بيننا.

والمشكلة أن ما دار بيني والسادات بلغ نظام نميري، وهذا الوضع أزعجهم جداً، وبات وجودي في مصر يشكل خطراً خوفاً من تعاوني مع السادات، لذلك سعوا وبأي ثمن لإعادتي للسودان، ولجأوا إلى الحيلة فخدعوا المصريين وقالوا لهم إننا نريد أن ننصب الصادق المهدي رئيساً للوزراء، وأبلغوهم رسميا بأني عائد إلى السودان كرئيس وزراء، وإن لم يبلغوني، وعلمت الخبر من ضابط مصري بعد أن حياني مهنئاً بالوزارة. والمفاجأة أن الطائرة من مطار القاهرة هبطت بنا في بورتسودان)[1].

وقبل أن نذهب مع السيد الصادق إلى بورتسودان، نكمل رواياته وذكرياتنا في مصر.

فقد روى إحدى الطرائف أثناء حبسه بمصر قائلاً:

(كنت محبوساً في مصر في كلية الشرطة، وكان يحرسني عدد من أفراد الشرطة يتناوبون على حراستي وعلى رأس الحراس ضابط من ضباط الشرطة، وكان هذا الحبس غريباً لعله من الأشياء العملية القليلة التي حققها التعاون السوداني المصري في عهد مايو، وأثناء محاكمة المرحوم عبد الخالق محجوب بعد محاولة انقلاب يوليو ١٩٧١م جاء في الجريدة المصرية أن المتحري سأل عبد الخالق هل تشرب الويسكي؟ فرد عبد الخالق: أشرب ما تيسر. اطلع أحد ضباط الشرطة الذين معي على ما ورد في الجريدة، ثم قال لي: الله..! انتو عندكم في السودان مشروب اسمه ما تيسر؟!؟)[2]

ومن الطرائف التي يرويها أيضا أن أحد ضباط الشرطة قرأ على أنبوب لسائل مطهر:

(١) الحلقات التوثيقية في صحيفة الأخبار، أغسطس ٢٠١١م
(٢) من كتاب الفكاهة ليست عبثاً

Kills Germans by millions! أي يقتل الألمان بالملايين! والكلمة المقصودة طبعا الجراثيم Germs وليس الألمان![1]

وأذكر أننا ذهبنا كلنا لزيارة الوالد الحبيب أثناء حبسه في مصر، وكانت تجربة عجيبة أن نراه يمشي ويتحرك وكان بالنسبة لنا قصة تحكى، أو صورة تعلّق، وكانت أكثرنا دهشة (طاهرة) أصغرنا حينها وكان عمرها نحو سنتين ولكنها (فصيحة قليصة).

وكنا معتادين على صورة له بكامل هندامه من جلباب وعباءة وعمة وهو يمتطي حصانا أشهباً، وكانت علاقتنا إنما بتلك الصورة لأنها كبيرة ومعلقة في مكان بارز بالبيت. وظلت طاهرة لا ترفع عينها عنه، وتظل تقول: هَيْ نزل من الحصان!! وإذا قام بأية حركة مثلا رفع يده تقول باستغراب ودهشة بالغة: هيْ!.. رفع يده! وإذا ضحك وإذا قام وإذا مشى.. صارت مثل المعلقين الرياضيين فأنت لست مضطراً لمتابعة ما يقوم به الحبيب إذ طاهرة تنقل لك ما يفعل بخلاف وضع الصورة الذي هو برأيها الوضع الطبيعي الوحيد له! وظلت هكذا مندهشة من أنه قد خلع العباءة وأنه ترجل من الحصان، وأن شعر رأسه الحليق تحول للحيته، وهكذا!

هي التي طالما حاولت إقناع الوالدة أنه ما من جدوى من الارتباط بعريس (في الصورة) وأن تدعه وتبحث لها عن عريس بلحم ودم! ولذلك هزتني أيما هزة ملحمة الأستاذ عبد العزيز الكابلي (ليس في الأمر عجب) حينما سمعتها أول مرة بعد زوال الظلام المايوي، وقد غناها في جو احتفالي بالانتفاضة في ساحة المسجد الرابع (الشهير بمسجد الخليفة)، وفيها:

ليس في الامر عجب، إنّه ما قد وجب، في جمادي او رجب

كلما القهر سلب، حق شعبي واغتصب، فوقه الشعب وثب

لهب اثر لهب، غضب تلو غضب، فتوارى وانتحب

ثم ولى واحتجب

وإذ الناس صحاب

(١) نفسه

عائدٌ بعد غياب

بينهم قد صفق البشر شهياً مستطاب

طفلة تمسك من خوف أباها والثياب

تنظر الصورة في البرواز خطفاً ثم في وجه أبيها في ارتياب

ما رأت منه سوى الصورة وجهاً كان محظور الإياب

فهي كؤوس مرة، تجرعناها ومعنا آخرون كثر في هذا الشعب المسكين! ويا لها من مسكنة، ما أن أزاح ذلك الظلام الكالح وبدا يتنفس الصعداء حتى أطل غيهب ما أتت به أحاجي أهلنا عن الغول والسعلاة، أكل من عمره أكثر من ربع قرن حتى الآن، ولا يزال!

في سجن بورتسودان

قلنا إن المايويين لجأوا للخداع مرة أخرى لجلب الصادق من جديد تحت جناحهم بعد أن خشوا من تنسيقه مع القيادة المصرية، فأرسلوا طائرة نقلته من مصر إلى بورتسودان.

يقول السيد الصادق:

(ولم يذهبوا بي إلى سجن بورتسودان الأسود؛ وإنما إلى بيت جوار الشاطئ كاعتقال منزلي، وفي هذه الفترة كنت تحت إمرة الشرطة، كمندان الشرطة جاء وقال لي ستكون إقامتك في هذا البيت، والأمر المهم جداً والمفيد أن طوال فترة السجن في بورتسودان وفي شندي وفي القاهرة كانت كتبي معي لا تفارقني)[1].

وفي هذه الفترة اشتغل بالمطالعة والتأليف..

يسألونك عن المهدية

يقول السيد الصادق: *(فترة السجن كانت مفيدة جداً؛ أولا أتاحت لي العزلة، والمجتمع السوداني مجتمع مترهل اجتماعياً ولا يسمح لأحد أن ينشط في مجال الاطلاع والتفكير والكتابة، فيه ما أسميها بالعينات الأربعة (العقد، والعزاء، وعيادة*

(١) الحلقات التوثيقية بصحيفة الأخبار، ٢٠١١م

المريض، والعودة لزيارة العائد من السفر). السجن أتاح فرصة للتحرر من العينات الأربعة، و أتاح فرصة الاطلاع المتعمق، وأتاح لي فرصة التفكير، وفي حياتي العادية لا أجد عزلة مماثلة إلا عندما أقود عربة أو أركب طائرة، وفي بعض المرات من أجل العزلة أركب العربية وأتجه حتى جبل أولياء أو مشارف شندي، والخيار الثاني للتفكير الصافي أن أركب الطائرة، ويزعجني جداً أن يركب جواري مسافر يريد أن (يكسّر) الدقائق، وهذه الدقائق أنا أحتاجها للتفكير)[1].

كان أهم ما كتب الإمام الصادق المهدي في تلك الفترة كتاب (يسألونك عن المهدية) ويتحدث عنه قائلاً: *(كتاب المهدية نشأ من حوارنا مع المثقفين وهم ينكرون المهدية ودورها أصلاً، وكان يهمني أمران أن أؤصل للمهدية في الفكر الإسلامي، وأفتح بابها للتعاطي مع الفكر الإسلامي وهذا جوهر المطلوب من كتاب يسألونك عن المهدية).*

وقد تطورت أفكار السيد الصادق حول المهدية عبر عدد من الأدبيات، أهمها ورقة (أيديولوجية المهدية) التي اشترك بها في المؤتمر المقام بجامعة الخرطوم بمناسبة مرور مائة عام على المهدية. وفيها نظّر لوظيفية الدعوة ومناداتها بإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما، وأنها لم تكن مربوطة بالمواقيت المعهودة، وأنها ألغت المذاهب والطرق فاتحة الباب للتجديد والاجتهاد المتجدد مع الزمان وفقا لمقولة الإمام المهدي: إنما لكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال[2]. وسوف نتطرق للتطوّر في فكر السيد الصادق حول المهدية بإذن الله في الباب المختص بفكرويته.

في ذلك الوقت يبدو أن السيد غراهام كان قلقاً على مصير السيد الصادق ، وقال إنه زار السودان مع زوجته السيدة إزماي في يناير ١٩٧٢م واحتد في النقاش مع كل من نائب النميري اللواء محمد الباقر والوزير منصور خالد مطالباً بالإفراج عنه، قال: (وأشرت إلى أن استمرار احتجازه دون توجيه تهمة إليه أو تقديمه للمحاكمة إنما يقوي مركزه)..

---

(١) نفسه

(٢) بالتزامن مع كتاب السيرة هذا خرجت الطبعة الثالثة من كتاب (يسألونك عن المهدية) وفيها تم تضمين الاجتهادات اللاحقة حول المهدية منها دراسة الأيديولوجية المذكورة، ودراسة حول الإمام عبد الرحمن الصادق ودوره الديني، والبعث الإسلامي كمشروع مستقبلي وليس ماضوياً.

والواقع إنني كنت أخشى على حياته في ذلك الحين لأن النميري كان يتحول إلى رجل لا يمكن التنبؤ بتصرفاته)[1].

اتفاقية السلام مارس ١٩٧٢م

اتجه النظام بعد بطشه الدموي بالشيوعيين للمعسكر الغربي، فاستثمر علاقات هذا المحور كما استفاد من تحضيرات الديمقراطية الثانية على نحو ما بين المرحوم محمد عمر بشير سكرتير المفاوضات، وهي التحضيرات المتمثلة في مؤتمر المائدة المستديرة (مارس ١٩٦٥م) ولجنة الاثنى عشر، ومؤتمر كل الأحزاب (أكتوبر ١٩٦٧م)، ووقع مع حركة الأنيانيا اتفاقية أديس أبابا للسلام في مارس ١٩٧٢.

يقول السيد الصادق حول الاتفاقية:

(تشكلت الوفود الرسمية للمفاوضات وكانت من جانب حكومة السودان برئاسة السيد أبيل ألير وعضوية عدد من الوزراء وكبار المسئولين، أما وفد الأنيانيا (حركة تحرير جنوب السودان) فقد كان برئاسة السيد أزبوني منديري جوانزا وعدد من الأعضاء بينما كان نائب السيد جوزيف لاقو والمتحدث باسم الوفد هو السيد مادينيج كما ذكر أعلاه، وكان في عضوية الوفد ممثلين لمجلس الكنائس العالمي ولمجلس كنائس عموم إفريقيا ولمجلس الكنائس السوداني.

أهم ملامح الاتفاقية

ضمت اتفاقية أديس أبابا من الوثائق التالية:

١. مشروع القانون الأساسي لتنظيم الحكم الذاتي الإقليمي للمديريات الجنوبية بجمهورية السودان الديمقراطية[2]، وقد تحول هذا المشروع بالفعل لقانون الحكم الذاتي الإقليمي للمديريات الجنوبية (٣/٣/١٩٧٢) لسنة ١٩٧٢م، مع تعديل طفيف في بعض النصوص. هذا الاتفاق كان له ملحقان:

(أ) الحقوق والحريات الأساسية (الملحق أ).

---

(١) غراهام توماس، سابق ص ١٤٢

(٢) نص الاتفاقية باللغة الإنجليزية في موقع الجيش الشعبي لتحرير السودان www.splamilitary.net .

(ب) مشروع قانون بشأن الأرباح والإيرادات والإعانات المالية لإقليم جنوب السودان (الملحق ب). وبالفعل فقد خرج عنه قانون إيرادات الضرائب والرسوم (والإعانات المالية والإيرادات الأخرى) المخصصة لإقليم جنوب السودان لسنة ١٩٧٢م.

٢. اتفاق على وقف إطلاق النار في إقليم جنوب السودان.

٣. بروتوكولات حول الترتيبات الانتقالية من ثلاثة فصول كالتالي:

(أ) الفصل الأول: الترتيبات الإدارية الانتقالية.

(ب) الفصل الثاني: الترتيبات المؤقتة لتشكيل وحدات من قوات الشعب المسلحة في المنطقة الجنوبية.

(ج) الفصل الثالث: العفو والترتيبات القضائية.

أهم ما جاء في هذه الوثائق هو:

(أ)لا يجوز تعديل الاتفاقية إلا بأغلبية أعضاء مجلس الشعب بموافقة ثلثي مواطني إقليم جنوب السودان في استفتاء عام يجرى في مديريات السودان الجنوبية الثلاث.

(ب) قيام حكم ذاتي إقليمي يقوده مجلس تنفيذي عال ويتولى التشريع فيه مجلس نيابي منتخب عبر الاقتراع السري(مجلس الشعب الإقليمي). رئيس المجلس التنفيذي العالي يعينه الرئيس بتوصية من مجلس الشعب الإقليمي ويعين أعضاء المجلس بتوصية من رئيس المجلس.

(ج) توزيع مسئوليات الحكم بين المركز والإقليم وحددت قائمة بصلاحيات الحكم الذاتي الإقليمي بحيث لا يصدر مجلس الشعب الإقليمي تشريعات فيما يتعلق بالدفاع، الشئون الخارجية، العملة، النقل الجوي والنهري عبر القطر، المواصلات السلكية واللاسلكية، الجمارك، الجنسية والهجرة، التخطيط التنموي والتربوي والمراجعة العامة.

(د) في ملحق الحريات تم النص على عدد من المبادئ أهمها المساواة في المواطنة أمام القانون ومنع التفرقة، وحظر التوقيف أو الاعتقال بدون أمر قضائي، وحرية الدين

والضمير، وحماية العمل، وحق الأقليات الثقافية في استخدام لغاتها وتنمية ثقافاتها.

(ه) بالنسبة لوقف إطلاق النار تم الاتفاق على أن تظل كل القوات المحاربة في المناطق الخاضعة لسيطرتها ولا يتحرك الأفراد فيها خارج تلك المناطق إلا بعد نزع سلاحهم وسماح السلطات التي يتبعون لها. وأن تتكون مفوضية مشتركة لتنفيذ وقف إطلاق النار تضم أعضاء من الطرفين بالإضافة لأعضاء من كل البلاد المجاورة لإقليم جنوب السودان وممثلين للجنة الدولية للصليب الأحمر، ومجلس الكنائس العالمي، ومؤتمر جميع كنائس أفريقيا والمفوضية السامية للاجئين التابعة للأمم المتحدة.

(و) بالنسبة للإجراءات الإدارية الانتقالية فإن الرئيس يعين بالتشاور مع قائد حركة تحرير جنوب السودان وأفرع الاتحاد الاشتراكي بالجنوب رئيس المجلس التنفيذي العالي الانتقالي وأعضاءه، بحيث لا تمتد ولايته لفترة أكثر من عام ونصف.

(ز) بالنسبة للترتيبات العسكرية المؤقتة فإن قوات الشعب المسلحة، وهي بحسب الاتفاقية شأن مركزي على المدى الطويل، لكنها في أول خمس سنوات تكون عبارة عن قوة قومية التكوين تسمى «القيادة الجنوبية» فيها ١٢/٠٠٠ ضابط نصفهم من أبناء الإقليم والبقية من خارجه. تحدد المفوضية المشتركة تكوين النصف الجنوبي منها وتتأكد من إتمام هذه العملية بشكل يشيع مناخ السلام والثقة في إقليم جنوب السودان.

(ح) تم الاتفاق على إعلان العفو العام على كل حملة السلاح في الجنوب منذ ١٨ أغسطس ١٩٥٥م (تاريخ الأحداث الشهيرة) وحتى تاريخ توقيع الاتفاقية. وصدر قانون بذلك.

ولتأكيد حماية الاتفاقية من التعديلات صيغت في قانون أدخل برمته في الدستور الذي أعقب الاتفاقية وأجازه مجلس الشعب في ١٩٧٣م. هذا الإجراء معناه نظام فيدرالي لأن الفرق بين الحكم الفيدرالي والإقليمي ليس في نوع الصلاحيات التي يمارسها ولكن في أن صلاحيات الحكم الفيدرالي مستمدة من الدستور بينما صلاحيات الحكم الإقليمي مستمدة من القانون وحده.[1]

لقد ثار غبار كثيف حول موقف الصادق من تلك الاتفاقية، بالرغم من أنه ما فتئ

(١) الصادق المهدي، ميزان المصير الوطني في السودان، ٢٠١٠

يشيد بها ويؤكد أنها إنما استندت على المجهودات التي شارك فيها ودفعها في الديمقراطية الثانية.

مثلاً، مباشرة بعد أن خرج السيد الصادق من المعتقل اشترك في التعبئة لانتفاضة شعبان ثم بعد قمعها والمواجهة مع النظام من جديد خاطب السفاح بخطاب ناري قال له فيه: *«لقد حفظ النظام الحالي وقف إطلاق النار في الجنوب وتوصل لاتفاقية الحكم الذاتي الإقليمي في الجنوب،..، وفي هذا حل لإحدى مشاكل البلاد الكبرى. ولو أن أجهزة الإعلام لم تحاول استغلال هذا الإنجاز ولو أنها اعترفت أن ما تم قد بدأ في وزارة الحركة السياسية السودانية من قبل ولكن في ظل النظام الجديد اكتمل وكلل بالنجاح لدوّت أصوات الجميع حتى المعارضة بالترحيب به»*[1].

وكتب في كتاب المصالحة الوطنية عام ١٩٧٨م: *(لقد كان إخراج اتفاقية الجنوب مثار تساؤلات في صفوف المعارضة ولكن الجزء المسئول من المعارضة ومنه حزب الأمة رحب بها. ومنذ عقد الاتفاق بدأت الأصوات تكرر في أوساط كثيرة: ما دام النظام فاوض الأنيانيا فلا مبرر ألا يفاوض المعارضة الأخرى، وما دام قد الزم نفسه في الاتفاق بالحريات (العامة) الأساسية فإن ذلك يفتح الباب أمام الاتفاق مع الجميع!)*

جاء في كتاب المصالحة أيضاً:

(ونتيجة لذلك تمت تحركات تتناغم مع هذا الاتجاه، ففي أبريل ١٩٧٢م تمت اتصالات بين قادة النظام وبعض قادة المعارضة في مدينة جدة حصرها السادة: حسين الهندي، عمر نور الدائم، أحمد عبد الرحمن من جانب المعارضة والسادة مأمون عوض أبو زيد، عمر الحاج موسى من جانب الحكومة وكان ذلك برعاية الملك فيصل رحمه الله.

وبعد التفاوض تم الاتفاق علي الآتي:

١) إطلاق سراح السجناء والمعتقلين السياسيين ويحاكم من عليه قضية سياسية والساسة المغتربون يعودون للسودان.

(١) الصادق المهدي، في خطاب موجه للنميري حول انتفاضة شعبان حرر في ٨/ ٩/ ١٩٧٣

٢) إلغاء الأمر الجمهوري الرابع.

٣) إصدار بيان عن دور الأنصار التاريخي يؤكد أن أبا وقفت ضد التسلط الشيوعي، واتفق الطرفان علي نص بيان بإلغاء الهجرة وعودة المهاجرين للبلاد.

٤) يعقد داخل السودان مؤتمر مائدة مستديرة للاتفاق حول جميع الأمور.

تم الاتفاق على هذه النقاط في الأسبوع الأخير من أبريل ١٩٧٢م، وحملها السيد مأمون عوض أبو زيد لقيادة النظام بالداخل)[1].

ولكن لم ير الاتفاق في خاتمة المطاف النور، مؤاخياً بذلك سابقه الذي كان في أغسطس ١٩٧١م والذي أشرنا له آنفاً.

الصادق طليقاً

بعد إبرام الاتفاقية أجرى النظام انتخابات لمجلس شعب. كان مجلس الشعب القومي هو السلطة التشريعية بالبلاد، وقد جرت انتخاباته بعد صدور قانونه في ١٩٧٢[2] (كون أول مجلس من ثلاث فئات بالتعيين والانتخاب من الدوائر الجغرافية والفئوية من قوى الشعب العاملة المنبثقة من الاتحاد الاشتراكي). أجريت هذه الانتخابات في ١٢٥ دائرة لم تشارك فيها الأحزاب السياسية «إلا أن رجالات الإدارة الأهلية وبعض قادة الحزب الاتحادي إلى جانب العناصر المنشقة عن الحزب الشيوعي السوداني، شاركوا فيها»، ثم صدر أمر جمهوري بتعيين ١٠٪ من الأعضاء[3]. فأكتمل المجلس بإعلان نتائج الانتخابات ليتكون أول مجلس شعب قومي في أكتوبر ١٩٧٢م[4] وكان مجموع عدد الأعضاء (٢٥٥). وهذا المجلس هو الذي أجاز دستور سنة ١٩٧٣م[5] باعتباره (دستوراً دائماً للسودان)، وأدخل في الدستور ما اتفق عليه مع الجنوبيين من

---

(١) من كتاب المصالحة الوطنية (باختصار وتصرف)

(٢) ناصر السيد النور تاريخ الانتخابات السودانية موقع السودان الإسلامي

(٣) عبد العزيز حسن البصير. يؤرخ عبد العزيز للمجلس بـ١٩٧٤م ويقول إنه هو الذي أجاز دستور ١٩٧٣م

(٤) محجوب باشري، أإعدام شعب؟ ص ١١٠

(٥) عبدالعزيز حسن البصير، تاريخ البرلمانات السودانية، صحيفة الرائد، ٢٤ مايو ٢٠١٠م

حكم ذاتي إقليمي، وأدخل أيضا النص علي الحريات مما أدي لاطلاق سراح المعتقلين دون محاكمة، وكان أولهم لا زال رهن الاعتقال وهو السيد الصادق المهدي، فأطلق سراحه في أوائل مايو ١٩٧٣م مباشرة بعد توقيع رئيس الجمهورية علي الدستور.

وتلت ذلك حوارات بين النظام والمعارضة ولكنها كسابقتها لم تسفر عن شيء.

الشاهد، قضى السيد الصادق طليقاً لنحو سبعة أشهر. قام فيها بالعديد من المناشط قبل أن يتم اعتقاله من جديد، وقبل أن نفصّل الأحداث في هذه الفترة والتي قادت لاعتقاله من جديد، نورد تقييمه لفترة حريته المحدودة. إذ أنه من داخل المعتقل كتب مقيما هذه الفترة قائلاً:[1]

(منذ الاعتقال دارت في نفسي خواطر تحوم حول تقييم تجربة حياتي خارج الأسوار في الأشهر السبعة الماضية. حبذا لو وجدت لجنة من محايدين للقيام بذلك التقييم، لأستفيد منه وأعرف ما فيه أخطأت وما أصبت؟

إنني سوف أظل أتطلع لمثل هذا التقييم وإلى أن يحدث فإنني هنا أثبت ما خطر ببالي:

1. *لقد استطعت أن أعيد رفع راية الموقف الوطني من الفرية المايوية علناً.*
2. *لقد استطعت إعادة رفع راية كيان الأنصار.*
3. *لقد حاولت جهدي التأليف بين عناصر الأنصار المختلفة، واحتضنت أسرة الإمام الهادي، وعزفت عن أي قول أو عمل لا يوحد ويؤلف.*
4. *بالصلاة على الموتى ورثائهم، والعقد للمتزوجين، والمجاملات لكل الناس حاولت جمع الكلمة وإفشاء المودة.*
5. *رفعت رايات فكر سياسي جديد بديل لمايو وبديل للنظام القديم.*
6. *رفعت رايات تفسير جديد للفكر المهدوي.*
7. *رفعت رايات بعث إسلامي جديد.*
8. *أقمت مداخل في كل مجالاتنا الهامة.*

(١) اعتقل الحبيب في أواخر ديسمبر ١٩٧٣م كما سوف نتابع لاحقاً

٩ . ولكنني لم أستطع جمع كلمة القوى السياسية المتنافرة!

١٠ . كذلك لم أستطع حسم ما يدور حول مآل الإمام الهادي.

١١ . ولم أستطع تفقد الأنصار في كل مكان.

١٢ . ولم أستطع المضي إلى الأمام بمسائل العائلة والدائرة وتعمدت هذا حتى لا يكون همنا شخصي الطابع.

١٣ . أثرت حساسيات الذين نمت لهم مصالح في غيبتي.

وأعتقد أنني رابح من تلك الفترة وطنياً وشخصياً، وأعتقد أن الأكثرية تعتبرني مظلوما لأن سلوكي فيما يعلم الناس في جميع نواحي الموقف كان متعقلاً دون أن يكون في ذلك معنى التخلي عن الموقف الوطني.

هل هذا التقييم دقيق؟ الله أعلم، ولكن المهم هو أنني عندما كنت خارج الأسوار لم أتصرف كأنني مطمئن لذلك الحال، بل كانت كل تصرفاتي من وحي شعوري بأن حريتي موقوتة جداً. وعلى أية حال فإنني كنت تحت المراقبة الرسمية باستمرار، مما ينبهني للقرب من الاعتقال، ولذلك لم أكن آمناً مكر الأيام. وأمن مكرها هو دائماً مدخل للخملة والإهمال والتفريط.

لقد كان إجرائي العملية[1] في السودان وعدم خروجي للاحتماء أو الالتجاء في الوقت الذي يذهب فيه أعيان القوم إذا مسهم صداع إلى الخارج، وفي الوقت الذي تطايروا فيه زرافات ووحداناً يلتمسون الملاجئ خارج البلاد والإعانات. كان ذلك التصرف ذا أثر في نفوس المحايدين مما يجعلهم يعرفون لي الوطنية. الوطنية ليست نظريات بل مواقف عملية تؤكد معاني الالتزام بالوطن والإيمان بمصيره والثقة في أهله).

هذا هو تقييم الحبيب الصادق للسبعة أشهر التي قضاها خارج السجن، وكان من

(١) هذه العملية كانت مستحقة قبل ذلك بفترة، وقد أشار لها جراهام توماس بقوله إنه تحدث إلى اللواء محمد الباقر نائب النميري في نوفمير ١٩٧١م الذي كشف له إنه أرسل شخصاً إلى مدينة بورتسودان ليتحدث مع الصادق المحبوس هناك وزعم أن الصادق يتمتع بصحة جيدة، ولكنه قال إنه لا يمكن أن يصدق ذلك (إذ أنني سمعت أن الصادق كان معتل الصحة وأنه كان بحاجة إلى إجراء عملية فتق Hernia)، غراهام توماس، سابق ص ١٣٨

أبرز أعماله فيها المشاركة في انتفاضة شعبان، وسوف نفصلها في الأسطر التالية.

انتفاضة شعبان ١٣٩٣هـ/ سبتمبر ١٩٧٣م

جاء في كتاب المصالحة حول الانتفاضة التالي:

(لم تسفر النصوص عن الحريات في الدستور عن تحول ملموس مما جعل المعارضين داخل السودان وخارجه يتأهبون لمواجهة سياسات النظام الأحادية. ففي مجال التربية والتعليم أقدمت السلطة علي ثورة في التعليم والسلم التعليمي الجديد علي عجل، وغيرت الكتاب المدرسي مما جعل الميدان التعليمي حاشداً بأسباب التظلم.

ولم تتمكن السلطة من علاج مرضٍ للمشكلات المزمنة والمستحدثة في الجامعة الإسلامية وفي معهد المعلمين العالي، وفي المعهد الفني وفي الكلية المهنية العليا. وفي معهد شمبات الزراعي. فأطلت تلك المشكلات برأسها وبرزت إلى جانبها مشكلة حرية الرأي في الأوساط الطلابية العليا وخاصة في جامعة الخرطوم، حيث أدى الاختلاف علي حرية الرأي واستقلال الجامعة لاحتكاكات متكررة بين السلطة والطلاب، وتصدي التيار الإسلامي الوطني المتحالف لقيادة الجامعة، وذلك منذ أن ساند اليساريون محاصرة الجامعة بالدبابات في مارس ١٩٧١م، وصارت الجامعة منبراً لنقاش مستمر للقضايا السياسية. وبرزت في المجتمع قضايا نقابية مع العمال ومع الأطباء الذين طالبوا برد الحقوق المهنية التي عطلها النظام الجديد.

ومنذ يناير ١٩٧٣م بدأت مواجهة بين النظام وقطاعات عمالية، ففي ندوة بيناير ١٩٧٣م تحدث ثلاثة من العمال وأشادوا بزملاء لهم كانت الحكومة قد اعتقلتهم ثم أطلقت سراحهم وأعلنوا أنهم لا يعترفون إلا بثلاث ثورات في تاريخ السودان الحديث: الثورة المهدية، ثورة الخريجين التي حققت الاستقلال، وثورة أكتوبر التي حققت الديمقراطية. واستمر هذا التوتر حتى قاطع العمال الاحتفالات الرسمية بأول مايو من عام ١٩٧٣م.

ومنذ منتصف عام ١٩٧٢م تتالت الأخبار من الريف السوداني عن ضيق الحال، فوقعت مجاعة في دارفور. ونصح الخبراء الدوليون بأهمية إصلاح الموازنة فشرعت الحكومة تحقق ذلك عن طريق زيادة الإيرادات بزيادة الضرائب، فأعلنت في ١٩ مايو

١٩٧٣م زيادات في ضرائب السكر والوقود وغيرها من المواد الاستهلاكية. وانتظمت البلاد تعابير الرفض لتلك الإجراءات فسارت المظاهرات في عطبرة ضدها.

وفي اجتماع النميري بالاتحاد الاشتراكي وجد اعتراضاً شديداً على تلك الإجراءات، مما جعله يهدد بالاستقالة ثم سحبها وسحب الإجراءات المالية.

مع هذه الخلفية عاد طلاب جامعة الخرطوم من إجازة عام ١٩٧٣م، وشرعت التيارات الفكرية تتنافس استعداداً للانتخابات الطلابية المقرر أجراؤها في أكتوبر ١٩٧٣م، واتفقت الحركة السياسية المعارضة مع الطلاب على تنظيم ندوات تعبوية تتناول الحديث عن الوضع الاقتصادي في السودان، عن المجاعة في دارفور، عن قانون أمن الدولة، عن الاتحاد الاشتراكي وهكذا.

قال السيد الصادق يصف أحداث ذلك الزمان مؤخراً:

(بعد إطلاق السراح بدأنا نفكر في التغيير، وفكرنا بالطريقة التي يستخدمها الشباب اليوم، وهي عمل تعبوي يؤدي لتعبئة حقيقية ومظاهرات تعم السودان كله، وقبل ذلك نتكلم مع القوات المسلحة ونقنعها بمساندة الشعب. وبالفعل مضينا في الخطة، وتحالفنا نحن وجبهة الميثاق الإسلامي في تنفيذها، واتفقنا على أن نقيم سبع ندوات في جامعة الخرطوم، وبعد الندوة السابعة نكون بلغنا الذروة ونطلع الشارع، إلا أن الخطة جهضت تماماً.. خلال الندوة الأولى كان المتحدث زكريا بشير إمام من قيادات الإسلاميين والذي دفعه الحماس فكشف كل المخطط المتفق عليه)[1].

استمرت التعبئة في الجامعة، وفي يوم الأربعاء ٢٩/ ٨/ ١٩٧٣م أذاع السيد مهدي مصطفي الهادي محافظ الخرطوم بياناً هاجم فيه الطلاب وتوعدهم. فقرروا أن يخرجوا في موكب صباح الخميس ٣٠/ ٨/ ١٩٧٣م، وهو موكب فرض موعده البيان المشار إليه بينما كان الاتجاه قبل ذلك أن ينسق التحرك ليكون سياسياً طلابياً شاملاً[2].

قال السيد الصادق: *(كانت الغالبية في اتحاد طلاب جامعة الخرطوم للإسلاميين، واثنين أو ثلاثة من طلاب حزب الأمة أذكر منهم خضر مكي. وجاء عدد منهم وعقدوا*

---

١) حلقات شاهد على العصر مع الإمام الصادق المهدي

٢) كتاب المصالحة الوطنية

معي اجتماعا في منزلي بالملازمين، وكان وقتها د. حسن الترابي يسكن معنا في بيتنا، وأنا وحسن الترابي والطلاب اجتمعنا، وأذكر كان من بين الطلاب الإسلاميين محمد المكي، وقالوا نحن قررنا الخروج غداً، سألناهم هل هذه الجلسة للتشاور أم لتبلغونا قراركم فقط؟ وقلنا إن كان الأمر للتشاور فقراركم خطأ، فنحن يجب أن نختار متى نطلع، وكيف نخفي الأثر على الخطة التي كشفها زكريا بشير، فتمسكوا بالخروج فقلت لهم إذن تتحملوا مسئولية ذلك، وقلت لهم رأيي إن الأمر يحتاج لترتيب. وبالفعل خرج الطلاب للشارع، وعرفت تلك الانتفاضة بأحداث شعبان من عام 1973).

جاء في كتاب المصالحة:

(قبل الخميس ٣٠ أغسطس كانت مظاهرات قوامها طلاب الثانويات قد سارت في أم درمان وفي غيرها من مدن السودان. والتهب الشارع السوداني بمظاهرات واعتصامات الطلاب ووجهت الحكومة نداء. وقام موكب لمساندتها يوم ١/ ٩/ ١٩٧٣م. وهكذا انقسم الشارع السوداني. وتقدم عدد من النقابيين بمذكرة يساندون فيها موقف الطلبة ويطالبون بجلاء الجيش من الجامعة وبعودة القوات المسلحة إلى الثكنات. فاعتقلت الحكومة مقدمي المذكرة فطالب زملاؤهم بإطلاقهم ولما لم يستجاب لطلبهم اضربوا فدخلت نقابات السكة الحديد، المخازن والمهمات، والنقل الميكانيكي وأخريات في إضرابات.

وفي يوم ٣/ ٩/ ١٩٧٣م تقدمت نقابة المحامين بمذكرة مطالبة بالتحقيق في إجراءات الأمن المتسعة بالعنف ومطالبة بالحريات وسيادة القانون ومهددة بالإضراب. فاعتقلت الحكومة ممثلي نقابة المحامين.

وفي يوم ٤/ ٩/ ١٩٧٣م تقدمت نقابة الأطباء بمذكرة مستنكرة تدخل قوات الأمن في حرم المستشفي ومستنكرة التصرف في جثث الضحايا ومهددة بالإضراب.

وفي يوم ٥/ ٩/ ١٩٧٣م تقدم أساتذة جامعة الخرطوم بمذكرة مستنكرين احتلال الجامعة ومطالبين بإخلائها ومتمسكين بحرية الرأي في الجامعة واستقلالها ومنذرين بالاستقالة فاعتقلت الحكومة عدداً منهم.

وفي يوم ١٠/ ٩/ ١٩٧٣م عاد النميري من رحلته الخارجية للجزائر وتحدث مؤيداً

إجراءات الأمن التي اتخذت في غيبته ومديناً التحركات المعارضة ومتوعداً بمزيد من الردع الثوري.

وفي يوم ١٠/٩/١٩٧٣م قدم السيد الصادق المهدي مذكرة غاضبة لرئيس الجمهورية يرفض تحليله للموقف ويذكر أن التحرك الذي قام تحرك شعبي حركته المظالم وفشل النظام القائم ويطالب بقيام حكم مدني ديمقراطي قومي لإنقاذ البلاد يكفل الحريات الأساسية ويحقق العدالة الاجتماعية.

هذه الانتفاضة التي هزت النظام المايوي هزاً كبح جماحها عوامل عديدة منها عدم التجاوب العسكري. إذ لم يبد أي فريق من القوات المسلحة، قولاً أو فعلاً، تعاطفاً مع التحرك المعارض. ومما أضعف التحرك استعجال بعض شرائح المعارضة في تصرفاتها رغبة في الحصول علي نفوذ أكبر في الوضع الجديد الذي سيقوم إذا نجح التحرك.

واستناداً علي تماسك القوات المسلحة في وجه التحرك، وعلي تفاوت في اندفاع شرائح المعارضة، كسبت الحكومة الجولة، ولم تشأ أن تعترف بأي قصور في أدائها بل قال النميري في خطابه يوم الاثنين ٢٤/٩/١٩٧٣م ما معناه إن التحرك الذي حدث وافد من خارج السودان. وحاول أن يعلقه على عنق الأخوان المسلمين لوحدهم.

بعد فشل انتفاضة شعبان تبادلت أطراف المعارضة اتهامات عن أسباب الإخفاق ولكن ثبت لجميع المعارضين أن النظام سيواجه التحركات السياسية بالقوة الرادعة وأن أي تحرك سياسي ليس مسنوداً بالقوات المسلحة أو بجزء منها لن يجدي فتيلاً، وأن النظام لا يقبل التسليم بأن أوضاعه تعاني من إخفاقات حقيقية مما يفتح الباب لتفاوض يأتي بالإصلاح)[1].

قال السيد الصادق مؤخراً: (قرر نظام مايو ألا يعتبر أن ما حدث مشترك بيننا والأخوان المسلمين، ليعزل الأخوان ويستفرد بهم في الإعلام، مع علمهم بالحقائق لأن الاجتماعات كانت تتم في بيتنا، ومنها كما ذكرت اجتماع الطلبة، وندوات الجامعة التي كشفها زكريا كانت باقتراح مني، وبعد ما وقعت أحداث شعبان وكشف المخطط

(١) من كتاب المصالحة بتلخيص

صادرت مايو هامش الحريات، وعادت إلى مربعها الأول)[1].

أثر الانتفاضة على القوات المسلحة

جاء في كتاب المصالحة الوطنية:

(كان من آثار انتفاضة شعبان إعادة تسييس القوات المسلحة مما خلق تذمراً وسط صفوفها، ومكّن من مخاطبة شرائح داخلها بضرورات تغيير النظام.

فالنظام المايوي كان قد أعلن لدى قيامه أن القوات المسلحة فصيلة من فصائل الثورة، وطليعة للعمل السياسي في البلاد، وهذا المبدأ جاء بتوتر في التوفيق بين الالتزام السياسي والمشاركة السياسية والانضباط العسكري وضوابط الجندية.

وبدأت القوات المسلحة تمارس دورها الجديد عن طريق ظهور الجنود في المناسبات الرسمية، واجتماع الرئيس بقادة القيادات بمناسبة الأحداث السياسية الكبيرة. ولكن هذه المسألة خفت في الفترة ما بين ١٩٧١ و١٩٧٣م حيث شهدت القوات المسلحة العودة لأسس الجندية والانضباط.

فقد كان النظام المايوي في بداية عهده قد اعتمد علي بعض وحدات الجيش دون غيرها هي المدرعات والمظلات، لأنه لم يكن مطمئناً للموقف العام داخل القوات المسلحة، ولكن هذا الإجراء اتضح ضعفه: أولاً لأنه أعطى الوحدات المختارة فكرة أنها مميزة مما شحذ طموحها السياسي. وثانياً: لأنه أثر تأثيراً سلبياً علي معنويات الوحدات الأخرى.

وفي تلك الفترة ساس النظام الجديد الجيش عن طريق إبعاد الضباط المشكوك في ولائهم، ووضع القيادة في يد ضباط موالين، ونشّط الاستخبارات العسكرية، هذا بالإضافة إلي الاعتماد علي الوحدات العسكرية المختارة، وبث التوجيه المعنوي لبناء وتأكيد الولاء السياسي واستمر هذا الحال حتى انقلاب يوليو ١٩٧١م بعد ذلك صار رئيس مجلس قيادة الثورة رئيساً للجمهورية مما جعل موقفه مستنداً للقاعدة المدنية الشعبية.

---

(١) في حلقات شاهد على العصر، نوفمبر ٢٠١٥م

ولما كان من بين الذين اشتركوا في الانقلاب رجال كانوا محل ثقة كبرى (كان حسين أبشيية قائد الحرس الجمهوري)، فقد اتخذت سياسة جديدة للحد من الخصوصيات داخل القوات المسلحة لأنها مدخل للطموح السياسي، وبدأت سياسة ترسيخ الانضباط في القوات المسلحة. فتمت إعادة الضابط القدامي إلي مواقع الثقة، والرجوع إلي نظام التسلسل العسكري، وصار طابع الفترة الجديدة العودة للضبط والربط العسكري. واستمرت هذه الفترة حتى شعبان ١٩٧٣ م وأثناءها اختفت الإشارة للالتزام السياسي، وأسدل الستار علي تسييس القوات المسلحة.

ومن الإجراءات الواضحة في الفترة المشار إليها أي ما بين يوليو ١٩٧١ م وسبتمبر ١٩٧٣ م الآتي:

- حصر نشاط التوجيه المعنوي في نطاق ضيق جداً.
- إخضاع ضباط الأمن في الوحدات إلي قادتهم المباشرين.
- تبعية كل القوات لرئاسة الجيش وإخضاعها للتسلسل العسكري (حيث كانت بعض الوحدات، المدرعات والمظلات، تتبع لوزير الدفاع رأساً أي لا تخضع لرئيس هيئة الأركان أو هيئة الأركان إلا في الأمور الادراية والروتينية. وكانت قيادة القوات لا تعلم ما يجري داخل هذه الوحدات. فيومية التمام والاستعداد، مثلاً، كانت ترسل مباشرة لوزير الدفاع ولا يحق لهيئة الأركان أو فرع العمليات معرفة قوة الاستعداد، مثلاً، عدد الدبابات المجهزة).

ولتطبيق هذه السياسة عينت لجنة من بعض الضباط المؤهلين لإعادة تنظيم الجيش بما يتناسب مع واقع البلاد، مستفيدين في ذلك مما نالوا من خبرات ومعارف من النظم الشرقية والغربية. وفعلاً تمت إعادة تنظيم القيادة العامة علي أساس جديد، كما تم تنظيم كثير من الوحدات الأخرى بناء علي توصيات اللجنة.

استمرت السياسة الجديدة حتى سبتمبر ١٩٧٣ م.

وعندما تأزمت الأحوال أثناء انتفاضة شعبان دعت رئاسة الأركان قادة القيادات للتنوير، ووصف نائب رئيس الأركان الحالة بأنها سيئة، والموقف خطير جداً، ورمي

اللائمة علي القيادة السياسية وتهاونها بكل ما كان يجري من ندوات واستعدادات في جامعة الخرطوم.

وفي اليوم التالي لهذا الاجتماع استغلت القوات فرصة تحرك الطلبة من مباني الجامعة لمهاجمة دار الاتحاد الاشتراكي، واحتلت القوات مباني الجامعة، الأمر الذي أدي لتكسير اعتصام الطلبة. وفي اليوم التالي لهذا الإجراء وجهت الدعوة للقادة للتنوير، وفي الاجتماع قيل إن الموقف قد تحسن، وجرت اللائمة مرة أخرى علي الجهاز السياسي، وأوضحت القيادة أنها سوف ترفع الأمر للرئيس عند عودته من الجزائر ليعمل ما يراه مناسباً.

وهنا حاول بعض القادة إبداء رأيهم وقال أحدهم: «ما دام الأمر كذلك أحسن ننتظر عودة الرئيس برأي»، ولكن القيادة رفضت الاستماع لتلك الآراء وأنهت الاجتماع بحجة أن الجيش محكوم بقوانين عسكرية وغير مسموح له بالخوض في الأمور السياسية. ويجب علي القادة حصر كلامهم في الأمور العسكرية المذكورة فقط.

بعد هذه المداولات بأسبوعين اجتمع النميري بالقادة العسكريين في حوار سياسي لبحث السلبيات التي أدت لحركة شعبان. وفي الاجتماع وجه له بعض القادة سؤالاً: ما هو موقف الجيش في نظركم. أيكون سياسياً فكيف يتم نقل محتويات الحوار السياسي للوحدات وهي ملزمة بالضبط والربط؟ أجاب بأن الجيش سياسي وعسكري في آن واحد، وأضاف أنه أحد فصائل الثورة السياسية ولكن لا يعمل كالفصائل الأخرى فهو يعمل بالضبط والربط. وقال: إنني أري ألا يحبس الضباط والجنود آراءهم في صدورهم، بل الأفضل أن يذكروها ويتم ذلك بالتسلسل العسكري والضبط والربط القائم علي تنفيذ الأوامر الصادرة من القائد العسكري.

بعد ذلك عادت القيادة السياسية إلي سياستها الأولي تجاه القوات المسلحة. فبدل أن تؤدي انتفاضة شعبان إلي إعادة النظر في النظام السياسي ومعالجة سلبياته معالجة تمتص النقد الذي وجهته المعارضة، فإنه أدى إلي مزيد من الإصرار علي الخط السياسي، وكان من نتائج ذلك العودة بالجيش إلي سياسة الالتزام السياسي.

وصار الاتجاه الجديد هو: توسيع نشاط التوجيه المعنوي داخل القوات، وإلزام

القادة العسكريين بالتحدث للجنود من موقع الالتزام للسلطة القائمة ومعارضة خصومها مرة على الأقل كل شهر، والتحدث عن الاتحاد الاشتراكي والتنظيمات السياسية، وتأمين عضوية كل العسكريين في الاتحاد الاشتراكي وحملهم لبطاقته، وتنشيط الاستخبارات العسكرية بكتابة تقارير عن سلوك قادتهم، وإلزام القادة بعمل برنامج يوضح زمان ومكان إلقائهم لمحاضرات التوجيه المعنوي والدعاية السياسية للنظام وذلك لتمكين وزير الدفاع أو من ينوب عنه للقيام بزيارات مباغتة للوحدات لحضور محاضرة القائد دون سابق إنذار، ولتمكين ممثلين من الاتحاد الاشتراكي من حضور تلك المحاضرات وتقويمها.

كان هذا الاتجاه الجديد متعارضاً تماماً مع السياسة الانضباطية، ومن أسباب تذمر بعض العسكريين واشتراكهم واستعدادهم للعمل السياسي المضاد للنظام القائم.

هذا الاستعداد كان متجاوباً مع توجه المعارضة للعمل داخل القوات المسلحة بعد حوادث شعبان. وكانت هنالك قضايا سياسية عديدة يمكن أن يتفق عليها المعارضون المدنيون والعسكريون: فهنالك قضية الحريات السياسية والديمقراطية وما توجبه من إبعاد الجيش عن الالتزام السياسي، وتمكين الضبط والربط والتسلسل العسكري من تسيير شئونه)[1].

وبالتالي فإن انتفاضة شعبان كانت قد ألقت دروساً عديدة على ساحة المعارضة السياسية، وأثرت تأثيرات هامة على الساحة العسكرية، تفاعلت فأثمرت الانتفاضة المسلحة في يوليو ١٩٧٦م، وهي الانتفاضة التي بنت أساساً على الكتلة الأنصارية المهاجرة والتي سوف نتتبع بدايات مساراتها، قبل أن نعود للسيد الصادق وملابسات اعتقاله بعد سبعة أشهر من إطلاق السراح.

هجرة الأنصار لأثيوبيا

منذ ضربة أبا عام ١٩٧٠م كان الأنصار قد بدأوا يهاجرون في إثر الإمام الذي اتجه نحو أثيوبيا زرافات ووحداناً.

---

(١) من كتاب المصالحة بتصرف

وقد تعرض الأنصار في أبا لمجزرة فوق الخيال كما رصدنا، وبعدها تعرضوا للاستفزاز. مثلاً طريقة أبو القاسم محمد إبراهيم بتصوير نفسه كقائد منتصر في فتح الجزيرة، وقوله: إنني أبصق على قيادة الأنصار! ونميري قال إنه سيلحق بأسرة المهدي والأنصار نكبة البرامكة، وولج الإعلام في اغتيال شخصية الإمام بشكل مستفز لا يرعى حرمة ولا يخاف رباً، وقد أورد الأستاذ محجوب باشري بعض ذلك السفه من أنهم اتهموا الإمام الهادي بمنكرات وزيفوا صورته و«أقروا ذلك في كتاب أصدرته وزارة الإعلام حينذاك وبثوا على شاشة التلفزيون صورا مزيفة لقصر الإمام الهادي»[١]. وكان يقال الإمام الهارب وليس الهادي، وحذف منه اسم المهدي فكان يقال الهادي عبد الرحمن، وإعلام مايو كان يروّج لأن السرايا كانت تمارس فيها ممارسات غير أخلاقية، وكان الإعلام نشطاً في تشويه صورة الإمام الهادي وأسرة المهدي والأنصار، وكان هذا سبباً في تشجيع كثير من الأنصار للهجرة والاستعداد للمواجهة. أيضا كان هنالك انتقام هائل ومصادرات شحنت الناس بشحن هائلة من البغض والغبن وإحساس بضرورة الثأر.

هذه العوامل والأحداث عبأت النفوس وجعلت الأنصار في كل مكان مشحونين، معبأين، ومتطلعين لنقاء بالإمام في الهجرة. وأخبر بعض الأحباب في غرب السودان أن الحكامات[٢] في القرى لعبن دوراً كبيراً في دفع الشباب للهجرة، كانت الحكامات تمدحن المهاجرين وتهجين العائدين من الهجرة. مثلاً في قرية المهاجر الشيخ يوسف (غربي كوستي) قالت الحكامة:

أنا بتكلم بالحروف

رصاصتك بتحرق الجوف

الشيخ المهاجر الدنيا للسمع والشوف

برسل في قرآنه

(١) محجوب عمر باشري، ص ١٧

(٢) الحكامة (وجمعها حكامات) هي سيدة مهيوبة في قرى غرب السودان تنشد شعراً تنظمه للحكم على الأحداث والأشخاص في القرية، فتلعب دوراً أساسياً في تكوين الرأي العام.

الرجالة مكانة

الشيخ المهاجر

في الهجرة عدى أيامه

بينما ذمت أحد العائدين من الهجرة ونصحته أن يلبس لبس البنات ويترك لبس الرجال قالت:

حماد العمدة أبو روحا مضاريها

فصّل جبون لباسة العيال خليها

ونحن سنترك هنا همّنا القديم الجديد في كيف أن المنطق الذكوري يتلبّس الحكامة أو الشاعرة التي تعيّر بالأنوثة بهذا الشكل، ونواصل سردنا.

وقد قال لنا الحبيب الشيخ إن هذه الأبيات تسببت في هجرة ثلاثين شاباً دفعة واحدة من تلك القرية في ظرف أقل من سنة واحدة فقط!

انخرط في هذه الهجرة غالبية حفظة القرآن والراتب من الأنصار في جميع قرى السودان، وتسبب ذلك في إفقار جانب التنشئة الأنصارية بالقرى في مقبل الأيام وهو ما ظللنا نعاني منه بعدها وحتى الآن.

وجاء في كتاب المصالحة الوطنية حول الهجرة التالي:

(تكونت بالخارج مباشرة بعد الانقلاب المايوي جبهة للمعارضة اشترك فيها حزب الأمة ومندوبه الدكتور عمر نور الدائم، والحزب الوطني الاتحادي بقيادة الشريف زين العابدين الهندي، وجبهة الميثاق الإسلامي ومندوبها السيد أحمد سعد عمر.

لعب الشريف زين العابدين منذ أيام المواجهة في أبا وبعدها دوراً في تسريب السلاح لجزيرة أبا من الخارج، وكانت أثيوبيا والسعودية آنذاك يدعمونها، أي الجبهة، دعماً لا محدود بالسلاح والمال رداً على النظام الشيوعي ومعاداةً له، وكانت الصلة عبر الهندي وعمر نور الدائم وأحمد سعد عمر.

من الداخل لعب كل من حسين شايبو وعلي الهادي المهدي دوراً في تنظيم الهجرة.

ولكن كما أكدنا فإن الغالبية ذهبوا غاضبين ولدوافع الغيرة على الدين والوطن.

المناخ الإقليمي في ذلك الوقت كان مرتبطاً بالمناخ العالمي في ظل الحرب الباردة. أيام ضربة أبا كان النميري مرتبطا بالمعسكر الشرقي معه مصر الناصرية وليبيا وقد وقع ثلاثتهم ميثاق طرابلس، وكانت السعودية مرتبطة بالمعسكر الغربي، ولكن بعدها تحول النميري مع السادات نحو المعسكر الغربي. وبعد التحول في ١٩٧١م حدثت جفوة بين النميري والسادات لفترة قصيرة وبعدها تحول السادات نفسه للمعسكر الغربي والناتو ودخلا في عداء مع ليبيا، والمعسكر المضاد لهم كان مرتبطاً بالمعسكر الشرقي وهو حلف عدن المكون من ليبيا واليمن الجنوبية وأثيوبيا).

المعسكرات في إثيوبيا كان فيها آلاف من المهاجرين، وكانت مثالاً للانضباط، قال الإمام الصادق المهدي: *(موظفي غوث اللاجئين قالوا لي: هذا صنف فريد من البشر أو هذه معسكرات لاجئين لم نشهد لها مثيلاً!)*

المعسكرات داخل إثيوبيا لم يكن فيها سلاح. وقال المهاجرون إنه بالرغم من ذلك وجدت تدريبات (بالعصا).

وبالرغم من أن الأنصار خرجوا من هجرتهم علي درب الإمام، فإنهم عندما استقروا شرعوا في تأسيس كيان للأنصار قوي الأركان، وكان نبأ وفاة الإمام قد بلغهم ولكنهم لم يصدقوه ولم يرتبوا علي وجود الإمام أو وفاته أمورهم، بل توجهوا لممارسة بناء كيانهم تحت إرشاد قادتهم المباشرين، وكان متوقعاً أن تساعدهم الحكومة الأثيوبية في تحقيق أهدافهم ولكنها وقفت منهم موقفاً سلبياً، ومنعت تسليحهم، بل أخذت السلاح الذي كان معداً للتسريب داخل السودان ومنعت التدريب والحركات العسكرية.

قال السيد الصادق: *(هؤلاء المهاجرون في أثيوبيا أقاموا ما يمكن تسميته بدولة مهدية ثانية فيما يتعلق بالصلاة والقيام والتعليم ومحو الأمية فكان مستوى رائعاً جداً من الأداء).*

واستمر المهاجرون يتقاطرون لهذه المعسكرات حتى جاء القرار بنقل المعسكرات لليبيا فتم نقل الأنصار من أثيوبيا لليبيا (عبر السودان) بكفاءة عالية. وهذا ما سوف نتابعه لاحقاً كرحلة على أوصال الغول!

العلاقة بليبيا

جاء في كتاب المصالحة الوطنية:

(القفزة التي حدثت في هذه الهجرة هي العلاقة مع الليبيين لأنه في المعسكرات الأثيوبية كان المهاجرون كلاجئين بدون سلاح. ومنذ أواخر عام ١٩٧١م بدأت المعارضة المغتربة تشعر بتوتر علاقاتها مع المملكة العربية السعودية التي كانت مسرورة جداً لما لقيه الشيوعيون علي يد النظام السوداني بعد انقلاب هاشم العطا في يوليو ١٩٧١م.

وفي مارس ١٩٧٢م كتب السيد الصادق المهدي خطاباً من المعتقل ببورتسودان يقترح علي الدكتور عمر نور الدائم فتح حوار مع القيادة الليبية باعتبار أننا نتفق على انطلاق الالتزام القومي العربي من قاعدة إسلامية، وعلي أهمية العلاقة الأفريقية العربية، وعلي اشتراكية المؤمنين وضد الاشتراكية الملحدة. وكتب يقترح علي الدكتور عبد الحميد صالح القيام بإجراء مماثل. وقد قام د. عمر بالاتصال بالليبيين.

كان السيد بابكر كرار من المؤسسين للحركة الإخوانية في السودان وقد اختلف مع الحركة وأبعد، وكانت له علاقة وطيدة بالليبيين عن طريق علاقته بالناصريين، توطدت علاقته بليبيا وصار له دور كمفكر في الثورة الليبية، وكثيرون يقولون إنه من كتب (الكتاب الأخضر) الذي كان بمثابة الدستور للعهد الليبي المباد أو على الأقل له دور كبير في تأليفه.

كان لبابكر كرار رأي إيجابي في الأنصار وكتب مذكرة للقذافي فيها كلام أساسي حول كيان الأنصار، ومفاده: إن هذه فرصة ممتازة لك وللثورة الليبية أن تخلق علاقة مع الشعب السوداني لأن الأنصار هم الأصل والبقية ردود فعل. واعتبر بابكر كرار أن لقاء ثورة الفاتح (البائدة) والأنصار كما لو كان لقاء الثورة الليبية بالثورة المهدية أي كفتح كبير. إذ كان يرى أن ما يحدث في ليبيا فتح جديد للعروبة والإسلام، ويرى أن الأنصار هم العمود الفقري للكيان العربي الإسلامي في السودان، ولذلك سعي بكل الوسائل لإحداث تقارب بين المعارضة السودانية وليبيا.

ونتيجة للحوار الذي دار سافر د.عمر نور الدائم لطرابلس حيث التقي بالقيادة

الليبية، ولكنه لم يشأ أن يكون الاتفاق بين الأنصار وليبيا بل أن يتسع ليشمل كل جبهة المعارضة، فأرسل للسيدين حسين الهندي وعثمان خالد.

وتم اجتماع في طرابلس ضم ممثلين للقيادة الليبية هم: صالح الدروقي، جمعة الفزاني، وعمر الحامدي الذي كان سفيراً بالسودان في الفترة الماضية. وممثلي المعارضة السودانية المذكورين، واتفقوا علي الآتي:

(أ) تعاون بين السلطة الليبية والمعارضة السودانية لإسقاط النظام الحاكم في السودان بكل الوسائل.

(ب) بعد إسقاط النظام تقوم وحدة اندماجية سودانية ليبية.

(ج) يقوم تنظيم سياسي واحد في البلدين يسمي المؤتمر الشعبي الاشتراكي.

(د) تطبق في الوطن الجديد الشريعة الإسلامية.

وقع الطرفان علي هذا الاتفاق في نوفمبر ١٩٧٣م وذهب وفد يمثل الطرفين إلي مصر لمباركة الاتفاق وأخذ العلم بما فيه.

وأرسلت نسخة من الاتفاق إلي داخل السودان لتأييدها. أما الاتحاديون فلم يُطلب تأييدهم لأن الشريف حسين الهندي اعتبر نفسه مفوضاً عن مؤيديه في الداخل، الأخوان المسلمون قرروا قبول الاتفاق وشجب تصرف السيد عثمان خالد بالدخول في اتفاق مصيري دون تفويض محدد، أما السيد الصادق المهدي وزملاؤه بالداخل فرفضوا الاتفاق، وأبلغوا الأطراف المعنية بذلك ورفضوا كل ما يترتب علي الاتفاق من مساعدات ليبية، وأرسلوا اقتراحاً باتفاق بديل، أدي هذا إلي تجميد الاتفاق حتى النظر في الأمر.

من جهة أخرى وبعد أن علم السادات بالاتفاق أعطى النميري علماً به وكانت المياه بينهم قد عادت إلى مجاريها. وتسرب الخبر للنميري. مما حدا به لاعتقال السيد الصادق من جديد)[1].

(١) من كتاب المصالحة الوطنية بتصرف

الاعتقال من جديد

قال السيد الصادق: (*وفي يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣م*[١]*، أي يوم عيد ميلادي، أرسلوا ضابطين إلى المنزل وتم اعتقالي مرة ثانية، واعتقلوني هذه المرة في سجن كوبر، ثم رحلوني إلى بورتسودان إلى السجن الأسود الذي كنت فيه سابقاً، وبعد ثلاثة أشهر، في فبراير ١٩٧٤ تقريباً تعرضت لمشاكل في المعدة وتهيجت علي جداً فعرضوني على جراح في السجن، فقرر الطبيب أن أجري مزيداً من الفحوصات، فسألوني عن طبيبي الذي أثق فيه فطلبت الدكتور الجراح أحمد عبد العزيز. فقال لهم د.أحمد بعد أن كشف علي بأن حالتي حرجة ومن الضروري أن أسافر خارج السودان للعلاج، فأطلقوا سراحي وسمحوا لي بالسفر للخارج. وأمضيت في الاعتقال الثاني بعد أحداث شعبان ثلاثة أشهر تقريباً، وكنت سلفا قد توصلت لقناعة بأن العمل المعارض من داخل السودان لم يعد مجدياً، وفي أبريل ١٩٧٤ سافرت إلى إنجلترا*)[٢].

وبينما هو في المعتقل نجده من جديد يتساءل حول أثر الاعتقال. وفي ١٩ يناير ١٩٧٤م كتب:

مرت علي هنا هتافات من طلاب مدرسة مجاورة للسجن وقوبلت بتصفيق حاد، قالوا:

ألف شهيد لوضع جديد

لن يحكمنا الأمن القومي

عاش كفاح الطلبة

وفي اليوم التالي كتب:

اليوم يتم على خروجي من هذه الغرفة في سجن بورتسودان في يوم ١٦/ ٩/ ١٩٦٩م

---

(١) اعتقل الحبيب في الحقيقة في اليوم التالي لعيد ميلاده. وجدت في أجندته لسنة ١٩٧٤م التالي: اعتقلت يوم ٢٦/ ١٢/ ١٩٧٣م الساعة ٤ عصرا، وأخذت إلى كوبر حيث مكثت حتى يوم ٣٠/ ١٢ وفي ذلك اليوم الساعة ٥ مساء نقلت بالطائرة إلى سجن بورتسودان.

(٢) حلقات صحيفة الأخبار التوثيقية، أغسطس ٢٠١١م

٤ سنوات و٤ أيام و٤ أشهر!

الآن الساعة ٥:٣٠ ما أوحش السجن!! إن ظروف الحياة العادية في السجن لا بأس بها بل هي محتملة ولكن نفسياً تدخل المعاناة: الأسوار، والأقفال، والحراس. تقيم هيئة إذلال وكذلك افتقاد الأنيس. حقاً إن الإنسان إنسان من الأنس. لولا طمأنينة الإيمان والانشغال بأهداف محددة لكان للوحدة والوحشة أثراً مدمراً، ويحضرني بيت العقاد:

كم وحشة للنفس يخشى اقتحامها أخو غمرات ليس يخشى الفيافيا!!

وفي يوم الجمعة ٢٥ يناير ١٩٧٤م كتب: زارتني اليوم الوالدة والخال بشير والجنة وبناتهما[1] وكانت هي الزيارة الرابعة للوالدة هنا. والخامسة منذ الاعتقال. هذه الأمور ترهقها وأحاول تطمينها أن حالي ليست بالسوء الذي تتصوره! أ. ه.

وتقفز إلى ذهني أبيات شاعر الشعب (محجوب شريف) الذي قضى في سجون مايو مدداً طويلةً وله قصيدة (مساجينك، تغرد في زنازينك، عصافيراً مجرّحة بي سكاكينك) أما لوالدته فالقصيدة الشهيرة التي بعثتها برأسنا كلمات السيد الصادق حول قلق أمي رحمة:

يا والدة يا مريم يا عامرة حنية

أنا عندي زيك كم يا طيبة النية

بشتاق وما بندم اتصبري شوية

يا والدة يا مريم

ما ني الوليد العاق لا خنتّ لا سراق

والعسكري الفراق بين قلبك الساساق

وبيني هو البندم والدايرو ما بنتم

يا والدة يا مريم

(١) خال الحبيب المرحوم بشير عبد الله جاد الله، وزوجته العمة الجنة وبناتهما حينها أم سلمة وعرفة ومنى وصفاء ومروة. أما فاطمة ومحمد فقد ولدا لاحقاً.

ونعلم من دفتر اليوميات أن عدداً من أفراد الأسرة زاروه في أيام متفرقة في فبراير ومارس ١٩٧٤م، منهم أمي رحمة والخال بشير وأمي شامة وحاجة السارة، وأمي سارا وأمي حفية، كما زاره مرتين د. أحمد عبد العزيز.

وفي ١١ مارس كتب: *خبر وفاة عبد المجيد عبد الحميد صالح وعبد الرحيم بدوي مصطفى، ويحضرني قول أبي تمام:*

على حين شمتُ الخير في لمحاته	*وآنست في أفعاله آية الرشد*
طواه الردى عني فأضحى مزاره	*بعيدا على قرب قريبا على بعد*

إطلاق السراح أبريل ١٩٧٤م

كان السيد الصادق يعاني من حموضة في المعدة وهي علة استمرت تؤرقه بين حين وآخر، وإن كان تعايش معها بالزانتاك تلك الأقراص التي تقرمش لا تبلع، وبتحاشي الأكل ليلاً أو قبل الاستلقاء، بل إنه مع الزمان قلل الطعام فهو يتعاطى معه كالزهاد. وحينها ثارت معدته بشكل مؤلم ومتكرر، وفي زيارات الدكتور أحمد عبد العزيز رحمه الله التي ذكرها في مدوناته أعلاه قرر الدكتور أحمد ضرورة أن يخرج لعمل فحوصات وتلقي العلاج بالخارج، وبالفعل كتب تقريراً طبياً قال فيه إن السيد الصادق في وضع صحي يتطلب علاجاً بالخارج، وبالفعل تم إطلاق سراحه والإذن له بالخروج في أبريل ١٩٧٤م.

لقد كفر السيد الصادق بإمكانية العمل السياسي بالداخل، فمنذ انتفاضة شعبان اتجه النظام لتكميم الأفواه وسحب الحريات التي منحها دستور ١٩٧٣م، فكان اتجاهه للعمل المعارض من الخارج.

في الفصل القادم نتابع نشاط السيد الصادق بالخارج، وسعيه لمأسسة معارضة الخارج وتفعيلها، ومن ثم تنفيذ الانتفاضة المسلحة بتاريخ ٢ يوليو ١٩٧٦م..

الفصل الرابع

ديل أولاد حشاك لا ارتزاق لا زيف!

في هذا الفصل تتداخل رواياتنا بين مناشط عديدة.

فحركة السيد الصادق بالخارج كان بعضها سياسي حركي، وبعضها فكري، وبعضها دبلوماسي، ولكن أهم ما في الفصل روايتنا للانتفاضة المسلحة في ٢ يوليو ١٩٧٦م، والمأخوذة نقلاً عن كتاب المصالحة الوطنية الصادر عام ١٩٧٨م. تلك الحركة التي كان قوامها الأكبر المهاجرين من الأنصار وهم جماعة فذة من زهاد الدنيا قصاد الآخرة، استقوا من راتب الإمام المهدي عليه السلام روحاً فدائية مسبلة (في شأن الله)، ومن تاريخهم استبسالاً (في شأن الوطن).. هؤلاء الزهاد العباد أطلق عليهم السفاح وإعلامه الخاطيء لفظ (المرتزقة)، لذا فنحن نقتبس من رائعة الشريف زين العابدين الهندي بيتاً يلقم الكاذب حجراً: ديل أولاد حشاك..لا ارتزاق لا زيف!

ولنواصل سردنا لرحلة الصادق، في مواجهة سعالي الخرطوم.

قلنا إنه ثارت عليه بنت المعدة، وقال طبيبه بضرورة سفره للخارج للعلاج، فتم إطلاق سراحه.

وفي ٢٤ أبريل ١٩٧٤م، بعد الخروج من الاعتقال مباشرة، سافر السيد الصادق المهدي إلي لندن مستشفياً وكانت بصحبته أمي رحمة ومريم أختي[1].

هناك قابل السيدين حسين الهندي، وعمر نور الدائم وتفاكروا حول الموقف، واتفقوا أن يتم اجتماع مع القيادة الليبية التي أرسلت وفداً للحوار مكونا من السادة: أبو زيد درده، صالح الدروقي، وبشير سعد وآخرين.

ونحن ننقل الآن من كتاب المصالحة:

(١) كتب ذلك في دفتر اليوميات: سفري والوالدة ومريم للندن

(انعقد اجتماع تم الاتفاق فيه على الآتي:

(أ) ليبيا تساعد الجبهة السودانية في نشاطها المعارض للنظام السوداني على أن تقرر الجبهة السودانية وسائل المعارضة ولا تدخل ليبيا طرفاً مباشراً،

(ب) مبادئ المعارضة السودانية مبادئ عربية إسلامية اشتراكية وهدفها أن تحقق الوحدة العربية وتكون العلاقة بين السودان وليبيا داخل إطار ميثاق الجبهة السودانية،

(ج) الخطوات الوحدوية المحددة يقررها الشعب السوداني باستفتاءات حرة، وتلتزم الجبهة السودانية بمناشدة الشعب السوداني أن يقبل بإرادته الحرة الوحدة العربية، وأن يطرح للشعبين السوداني والليبي نوع الوحدة ومراحلها لاتخاذ قرار شعبي حر لا فوقي مفروض.

(د) أن تساعد ليبيا في تدريب وتسليح قوات المعارضة السودانية[1].

وبعد الاجتماع تقرر انتداب السيد حسين الهندي ليكون حلقة الوصل بين الجبهة السودانية والقيادة الليبية).

وفي لندن أيضاً قابل السيد الصادق السيد غراهام توماس الذي قال إنه اتصل به في وقت متأخر من ليلة السبت ٢٧ أبريل ١٩٧٤م (لمقابلته غداً)، ووصف غراهام اللقاء بقوله: (تحدثنا لسبع ساعات، حاولت جهدي أثناءها أن أقنعه بوجوب تفاهمه مع نميري. والحقيقة أنني رجوت نميري بذلك الخصوص كما رجوت وزراءه أيضاً، وطلبت إجراء مصالحة. كان الصادق الآن قد نضج، ولم يكن يحمل مرارة أو شعوراً بالحقد حول احتجازه في مصر أولاً ثم في السودان طيلة حوالي خمس سنوات دون محاكمة، بل دون توجيه تهمة أياً كانت، وكان مقتنعاً أن نظام نميري يتحطم، وهذا ما شككت فيه في ذلك الوقت).[2]

يبدو أن حسابات السيد غراهام كانت تحتاج لترتيب.. النميري ذبح نحو ألف من

---

(١) كل هذه التفاصيل والتي سترد لاحقا مأخوذة من كتاب المصالحة الوطنية الذي صدر عام ١٩٧٨م ونشرته صحيفة الرأي العام في سنة ٢٠٠٠ في حلقات

(٢) توماس، مرجع سابق، ص ١٥٢

الأنصار في أبا وودنوباوي والكرمك على رأسهم الإمام الهادي، هذا طبعاً يفوق مرارة الاعتقال، حتى أن السيد الصادق حينما تحدث عن فكرة الانتفاضة المسلحة لاحقاً ذكر أن النميري أوقف كل منافذ العمل السياسي والحريات بعد انتفاضة شعبان، كما أنه لاحت فرصة للانتقام مما حدث في الجزيرة أبا،[1] مرارة حبسه لم تكن ضمن الحسابات وما كان الصادق ممن يحمل المرارات الشخصية في الشأن العام.. وحتى بالنسبة لمجزرة الأنصار، فإن مطالب الأنصار لم تكن انتقامية بقدر ما هي عدالية لأنه وكما يقول المثل (الفش غبينتو خرب مدينتو).. لكن أحلام المصالحة التي حملها السيد غراهام يومها ما كان لها أن تتحقق مع صلف النظام وجبروته واستهانته بالأنصار والمعارضة عموماً. وكانت خطى جبهة المعارضة حثيثة نحو الانتفاضة المسلحة.

أحاديث الغربة ومحاضرة كانتربري

صدر للحبيب الصادق في هذه الفترة كتاب «أحاديث الغربة» وهو كتاب صغير الحجم مكون من مجموعة محاضرات ألقاها في جامعات بريطانية، وبحسب الناشر فقد «قوبلت باهتمام بالغ من الذين تابعوها أو استمعوا إليها وهم في معظمهم من جمهرة من المفكرين والأكاديميين والمستشرقين وطلاب العلم»، حيث «مارس الصادق المهدي رياضة فكرية في رحاب جامعات بريطانية عريقة، واستعاد ذكريات أيام الدراسة في جامعة أوكسفورد التي تعتز بأنه واحد من خريجيها. ونلاحظ أن الخط البياني للصادق المهدي في المحاضرات يبدأ بالإسلام والبعث الإسلامي وينتهي بالأمر نفسه مروراً بالقضايا الراهنة التي أصبحت مترابطة بشكل لا مثيل له وهي: الثورة والعروبة والنفط وأفريقيا وروح العصر.

أحاديث الغربة عبارة عن ثلاث من المحاضرات التي ألقاها الصادق المهدي خلال صيف ١٩٧٥م وهي بالترتيب: الفكر الإسلامي والدولة الحديثة[2]، والثورة العربية المعاصرة[3]، وآفاق عربية إفريقية[4]، ومحاضرة رابعة ألقاها في جامعة أوكسفورد في

(١) شاهد على العصر مع الإمام الصادق المهدي، الحلقة الحادية عشر، بثت في ٤ أكتوبر ٢٠١٥م

(٢) ألقيت هذه المحاضرة في يوليو ١٩٧٥م في مؤتمر جمعيات الطلاب المسلمين في جامعة مانشستر.

(٣) ألقيت هذه المحاضرة بدعوة من الجمعية العربية في جامعة درهام يوم ١٣ أكتوبر ١٩٧٥م

(٤) ألقيت هذه المحاضرة في سمنار في كلية سانت أنتوني بجامعة أوكسفرد في نوفمبر ١٩٧٥م

مارس ١٩٧٦م»[١].

وفي ذلك الوقت كذلك شارك بإلقاء محاضرة عن الإسلام في مؤتمر للأديان عقد بمدينة كانتربري المسيحية التي تمثل عاصمة البروتستنتية مثلما الفاتيكان عاصمة الكاثوليكية، حيث تحدث مترافعاً عن أن الإسلام هو الأجدى بالمرتبة الأولى في التنافس بين الأديان، ففي الجزء الأول من المحاضرة قدم تصوراً لمشاكل الإنسانية في عالم اليوم، وفي الجزء الثاني من المحاضرة تعرض لحلها من منظور إسلامي. قال رئيس الجلسة: (أنا أوافق على البيان المذكور في الجزء الأول من المحاضرة، وعلى المشاركين في المؤتمر، وقد كانوا يمثلون كل الأديان العالمية: المسيحية، واليهودية، والبوذية، والهندوسية.. إلخ، أن يقدموا من مرجعياتهم الدينية الحلول ما استطاعوا). كانت هذه المحاضرة نصرة للإسلام في محفل للمقارنة بين الأديان.

والتعليق الذي يحضرني هنا، هو ما درج بعض شانئي السيد الصادق على ذكره من أنه كان (يحضّر) الماجستير في جامعة أوكسفرد. فهذه الفترة التي قيل إنه عكف فيها على الدراسة فوق الجامعية كانت في الحقيقة فترة للعمل السياسي والدبلوماسي والفكري، فكان يزور الجامعات البريطانية كمانشستر ودرهام وأوكسفرد، محاضراً وليس طالباً للماجستير كما توهموا. وقد نال درجة الماجستير بشكل تلقائي بعد عامين من تخرجه كما ذكرنا.

محاولة اغتيال رابعة

وفي هذه الفترة تعرض للاغتيال للمرة الرابعة في العهد المايوي[٢]، قال: (*أثناء وجودي في بريطانيا منفياً قرر رئيس النظام تصفيتي، ولكن مدير الأمن العام آنذاك علي نميري اعترض بأن الاغتيال السياسي إذا دخل الساحة السودانية سوف يصبح تقليداً، ثم أسند النظام الأمر لأيدٍ أجنبية ووصلنا الخبر كما وصل لسلطات الأمن البريطانية*

(١) مقدمة الناشر (دار لقضايا) في: الصادق المهدي أحاديث الغربة دار القضايا، بيروت، نوفمبر ١٩٧٦م. المحاضرة الرابعة بعنوان (قضايا العصرية والهوية) وقد ألقيت في مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة أوكسفرد. والملاحظ أن المحاضرات التي ألقيت في ١٩٧٥م لم تكن إلا واحدة منها في فصل الصيف.

(٢) المرات الثلاث مذكورات آنفا، الأولى يوم الانقلاب، ومرتان بعد الاعتقال في جبيت.

فاتخذت إجراءاً وقائياً وأرسلت ضابطاً ليقيم معي في منزلي للحراسة).

من مدونات ١٩٧٥

وقد تنقل السيد الصادق في تلك الفترة بين العواصم، وهذه هي الفترة كان الصادق يغشى القاهرة في غدوه ورواحه كما لاحظ الصحفي المصري الأستاذ يوسف الشريف: (الصادق المهدي كان قد وقع في هوى مصر خلال إقامته في أكاديمية الشرطة حيث عقد صداقات حميمة مع الضباط والجنود والمعلمين والمدرسين.. وجرت بينه وبينهم حوارات طويلة وعميقة و مثيرة حول مصر وأوضاعها الاجتماعية وحول علاقة مصر والمصريين بالسودان والسودانيين وحتى أصبح تردده على القاهرة قادماً من لندن وبالعكس كما لو أنها رحلة الشتاء والصيف)[١]. وفي السنوات الأربعة التي ظل فيها في الخارج (١٩٧٤-١٩٧٨م) كان يحرص أن يلاقينا في الإجازات في مصر «في رحلة الصيف».. لكنه بعد كامب ديفيد قاطع القاهرة فصرنا نبحث عن موئل آخر كما سوف نفصل لاحقاً.

ونجد في مفكرة العام ١٩٧٥م تدوينه في يوم الأربعاء ١٥ يناير للتالي: *(وصولي والوالدة إلى مصر حيث سكنا في ١٥ أبو الفدا، تلفون ٨١٥٩٩٥).*

وفي يوم الأحد ١٩ يناير ١٩٧٥م: *(وصول حفية من جدة حيث وصلت من السودان يوم الجمعة).*

في تلك الفترة كانت امي سارا نفساء حيث ولدت محمد أحمد في ٢٤ ديسمبر ١٩٧٤م، وكانت قد ولدتني في ٢٨ ديسمبر قبلها بسبع سنوات. علق أحدهم مازحاً: قدرما حاولتي أن تلدي طفلاً في يوم السيد الصادق فشلت، فالسيد الصادق كما ذكرنا من مواليد ٢٥ ديسمبر!

اتجه الحبيب الصادق بعد ذلك للسعودية للعزاء في الملك فيصل، وكتب في يوم الأحد ٣٠ مارس التالي:

(قابلنا بالرياض الشيخ محمد أحمد النعمان وذلك أثناء زيارتنا للعزاء في الملك

---

(١) يوسف الشريف – الوطن المصرية ٢٧/ ٨/ ٨٩

فيصل، حيث لقينا الملك خالد واجتمع بنا الأمير فهد ثم لقينا أبناء الملك فيصل..الخ.
وفي لقاء النعمان ذكر قصة واستشهد بهذه الأبيات التي ألفها محمد محمود الزبيري شاعر اليمن:

قضيت عمرك ملدوغا وها أنذا	أرى بحضنك ثعبانا تربيه
تشكو له ما تلاقي وهو منبعث	الشكوى وأصل البلا فيما تلاقيه
لا عنقك الراكع المذبوح يشبعه	بطشا، ولا دمك المسفوح يرويه
أحلى أمانيه في الدنيا دموعك تج	ريها ورأسك تحت النير تحنيه
وجرحك الفاغر الملسوع يحقنه	سماً.. ويعطيه طبا لا يداويه
فلا تضع عُمُر الأجيال في ضعة	الشكوى ويكفيك ماضيه، ويكفيه

عاد السيد الصادق للقاهرة في يوم الأربعاء ٢ أبريل ١٩٧٥م. وأجرى عددا من اللقاءات منها لقاء المرحوم د. عبد الحميد صالح في ٩ أبريل، ثم سافر لطرابلس في يوم الجمعة ١١ أبريل.

وتروي الأجندة بعد أنه تنقل بين القاهرة والرياض وطرابلس، ولندن وروما في ذلك العام.

ميثاق الجبهة الوطنية

كانت جبهة المعارضة قد تكونت منذ وقت باكر كما روينا، ثم تمت مداولات بينها وبين ليبيا للوصول لاتفاق معين حول أسس التعاون بينهما وقد أبرم ممثلو المعارضة بالخارج اتفاقاً في نوفمبر ١٩٧٣م، ولكن ذلك الاتفاق تعثر لرفض حزب الأمة في الداخل بقيادة السيد الصادق المهدي الشروط المملاة في الاتفاق والتي تجعل على الشعب السوداني الدخول في وحدة مع ليبيا إذا تحقق النصر.

ولكن بعد خروج السيد الصادق في أبريل ١٩٧٤م تم تفاوض جديد مع القادة الليبيين أشرنا له، أمن على أن مباديء المعارضة السودانية إسلامية عربية وتسعى للوحدة العربية وأن (الخطوات الوحدوية المحددة يقررها الشعب السوداني باستفتاءات حرة، وتلتزم الجبهة السودانية بمناشدة الشعب السوداني أن يقبل بإرادته

الحرة الوحدة العربية، وأن يطرح للشعبين السوداني والليبي نوع الوحدة ومراحلها لاتخاذ قرار شعبي حر لا فوقي مفروض).

حتى ذلك الوقت كانت الوثائق والأدبيات تشير لجبهة المعارضة أو المعارضة فلم تكن قد تأسست باسم (الجبهة الوطنية) وهو الاسم الذي صار يعرف به تحالف المعارضة فيما بعد. وحينما خرج السيد الصادق عمل على إكمال مأسسة المعارضة ووضع ميثاق وهيكل لإدارتها بشكل مؤسسي.

جاء في كتاب المصالحة الوطنية حول تلك المجهودات التالي:

(وبعد العديد من الاتصالات والمداولات تم الاتفاق على ميثاق الجبهة الوطنية في يناير ١٩٧٦م، حينما جمع السيد الصادق المهدي المكتب السياسي للجبهة الوطنية وعرض عليهم المسودة النهائية للميثاق الوطني للجبهة الوطنية، وأوراق العمل المرفقة بالميثاق لدراستها وإقرارها، وكان قد أعد مشروع الميثاق بعد أن تداولته أطراف الجبهة لمدة عامين، كما أعد أوراق العمل التي شاركت في تحضيرها لجان متخصصة. فناقش المكتب السياسي المسودات المقدمة له عبر جلسات عديدة وأجازها وصدر كتيب يحمل نص الميثاق وخلاصة الميثاق:

(أ) تصفية الاستبداد في السودان.

(ب) توحيد الإرادة السياسية السودانية في تنظيم سياسي شعبي ديمقراطي اختياري جامع.

(ج) الالتزام بالإسلام وتنظيم الحياة الخاصة والعامة بموجب إرشاداته وشرائعه.

(د) توفير الحريات العامة والحقوق الديمقراطية للمواطنين في ظل التنظيم السياسي الجامع.

(ه) نظام اقتصادي اشتراكي.

(و) إصلاح تربوي تعليمي.

(ز) تحرير المرأة واستنهاضها.

(ح) دعم القوات المسلحة ومشاركتها في المسيرة السياسية للبلاد.

(ط) الحكم الذاتي الإقليمي للجنوب.

(ي) مشاركة أبناء الأقاليم في كل مستويات الأداء مشاركة عادلة وإعادة النظر في برامج التنمية والخدمات لإنصاف الأقاليم وتحقيق حكم لا مركزي فعال.

(ك) سياسة خارجية عربية وحدوية وأفريقية تحررية ودور للسودان واصل بين العروبة وأفريقيا وتوازن في العلاقات مع الدول الكبرى.

واشتملت أوراق العمل علي المواضيع التالية:

أ) كيفية تصفية الاستبداد.

ب) كيفية التطبيق العصري للإسلام.

ج) النظام الاقتصادي الاشتراكي المنشود.

د) النظام السياسي الجديد.

ه) الإصلاح التربوي المطلوب.

و) استنهاض المرأة.

ز) الإصلاح الإداري.

ح) الإصلاح الإقليمي.

ط) الإصلاح الجنوبي.

ي) برنامج السياسة الخارجية الجديدة.)[1]

الهجرة إلى ليبيا[2]

ذكرنا آنفاً وضع 'الأنصار غير المريح في المعسكرات بأثيوبيا، وكيف تقرر أن ينقلوا

(١) كتاب المصالحة الوطنية (بتصرف)

(٢) هذه الفقرة تم تحريرها بناء على: كتاب المصالحة الوطنية، مقال (الهجرة الفدائية للإمام الصادق المهدي ١٩٩٩م، والحلقة التوثيقية مع المهاجرين في ٢٠٠٨م)

منها في هجرة جديدة إلى ليبيا.

هذه الهجرة تمت (بتدقيس) الغول النائم بعين مفتوحة، والسير على أوصاله! هجرة من أثيوبيا إلى ليبيا عبر الأراضي السودانية، رغم كل أجهزة الأمن!!

منذ عقد الاتفاق مع ليبيا في مايو ١٩٧٤م بدأ مشروع ترحيل جزء مختار من المهاجرين من أثيوبيا عبر السودان لاستلام الأسلحة الليبية وللاستفادة من التدريب علي يد مدربين ليبيين.

ومنذ أواخر عام ١٩٧٤م قام معسكر مسلح في ليبيا قوامه الأنصار الذين هاجروا في الأصل إلي أثيوبيا. وكان المشرف المباشر علي حركة المعسكرات السيد حسين الهندي يعاونه السيد أحمد سعد ثم يعاونه السيد الصادق يعقوب أبو نفيسة وكان الجميع يعملون تحت قيادة الأنصار يباشرها السيد الصادق المهدي.

لعب كل من الهندي وأحمد سعد عمر وعمر نور الدائم دوراً أساسياً في نقل المهاجرين من أثيوبيا لليبيا.

في ليبيا بدأت معسكرات جدية.

الأنصار المهاجرون لم ينقلوا كلهم بل تم اختيار أفضلهم، وتم ترحيلهم من أثيوبيا لليبيا براً حتى ليبيا، وكانت رحلة صعبة جداً. من المشرفين عليها الحبيب محمد علي جقومي والمرحوم إبراهيم عمر الذي شنق بعد انتفاضة يوليو ١٩٧٦م.

نظمت الهجرة من إثيوبيا لليبيا بكفاءة عالية. أول دفعة ذهبت لليبيا من الحبشة استغلت الجمال، ووصلت ليبيا وتدربت على السلاح وكانوا ٢٥، وحملوا سلاحاً معهم وعادوا للمعسرات بأثيوبيا ودربوا المهاجرين بأثيوبيا على استخدام الأسلحة.

كانت هذه المجموعة الأولى بقيادة الحبيب عبد الرحمن محمد علي (جقومي) وكان كما ذكرنا مسئولاً من تنظيم الهجرة عبر الأراضي السودانية، بتحضير أفواج المهاجرين، وشحن المهاجرين في العربات في نقاط متفق عليها، وتحضير العربات، ومواعيد التحرك، وأماكن (التخزين) للمهاجرين في الخيران، وتزويدهم بالماء والطعام. وكانت العربات المستخدمة عن ليبيا، وكانت الرحلة تمتد من يومين إلى ثلاثة أيام.

كانت الأفواج في البداية ٢٥ فرداً للفوج، وفي النهاية زادت الأعداد حتى وصلت مائة شخص للفوج الواحد.

التفويج من الحبشة كان يتم بالأرجل حتى دوكة (جنوب القضارف)، ومن هناك بالعربات حتى القضارف، ومن القضارف عبر القطار حتى نيالا، ومن نيالا عبر العربات حتى الفاشر، ومن الفاشر عبر العربات حتى مليط، ومنها بالأرجل ليلاً، ويمشون شمالاً مسافة طويلة جداً، وفي وادي شمال مليط تلحق بهم عربات الكومر وتشحنهم وتحملهم حتى ليبيا للعوينات على الحدود السودانية، ومنها للكفرة، ثم للمعسكر خارج الكفرة مسافة ٧٥ كيلو منها.. وكان هذا هو المعسكر الأول للأنصار، وبعد ذلك تحركوا لمعسكر (الروبيان). هذا المعسكر كان كله أنصار.

بعد ذلك تحول المهاجرون لمعسكر (٢٧ أبريل) خارج طرابلس. وفي هذا المعسكر كان هناك حوالي ١٢٠٠ من الأنصار، وحوالي عشرة من الأخوان المسلمون. أي حوالي ٠.٨٪.

ولكن القيادي الأخواني إبراهيم السنوسي كتب قبل بضع سنوات متهماً قيادة الأنصار بأنها لم تعطهم القيادة وهم أولى بها!! حقاً إنها مساخر!

تم تدريب الأنصار هناك على أنواع التدريب المختلفة: المدرعات، الأسلحة المتوسطة (الثقيلة بتعريف المهاجرين) ١٠٦ وم ط المضاد للطيران (أول مرة يدخلان السودان)، والأسلحة الخفيفة: الرشاشات جيم٣، الكلاشنكوف، وغيرها.

والملاحظ حول أداء المهاجرين الأنصار في المعسكرات أنه كان مذهلاً، وغالبيتهم كانوا غير متعلمين، يقول عن ذلك السيد الصادق: (*وعندما انخرطوا في التدريب العسكري كان استيعابهم للتدريب أعلى من تعليمهم لأن العزيمة وقوة الإرادة وصدق الإيمان جعل استيعابهم للأسلحة وللتنظيم العسكري وللتدريب متفوقاً. كانوا يحفظون تفاصيل الأسلحة كما يحفظ «الحوار» لوحه، ويؤدون تدريباتهم كمن يؤدي واجباته العبادية. قال لي مدربوهم في ليبيا: لقد دربنا كثيراً من المناضلين. لم نشهد انضباطاً ولا حماسة ولا حرصاً على استيعاب السلاح واستعماله والتدريب العسكري مثل هؤلاء.*)

ونستطيع القول إن الهجرة كعملية عسكرية كانت ناجحة يشاد بها لأن الناس

خرجت ووصلت المعسكرات في أفواج كبيرة، ولم يحس بها أحد، كذلك الهجرة الثانية من الغرب للشرق من إثيوبيا لليبيا عبر الأراضي السودانية كانت ناجحة وتستحق أن تدرس فقد كان فيها إنجاز عظيم.

المعسكرات بليبيا كان الأداء العسكري فيها ممتازاً جداً. وأشاد بها الليبيون أنفسهم. وكانوا يقولون إن ناسكم هؤلاء نسيج وحدهم، وكانوا يحذقون السلاح أكثر من المحاربين من الإخوان والاتحاديين مع أنهم كانوا متعلمين وبعضهم أساتذة جامعات، وقيل إن القذافي مرة أشار للمهاجرين الأنصار وأنشد بيت الشعر:

نصيبك من فقيه أو سفيه ... ففي هذا وذا حصن وحسن

فإن سالمت فالفقهاء حسن ... وإن حاربت فالسفهاء حصن

ثم علق قائلاً: غريبة هؤلاء فقهاء ولكن يحاربون أشد من السفهاء!

كانوا رهبان ليل فرسان نهار.

التحضير للانتفاضة المسلحة

جاء في كتاب المصالحة الوطنية حول الانتفاضة المسلحة والتحضير لها التالي:

(وقعت بعض الاختلافات بين شرائح الجبهة ثم سويت مما جعل بعض الأخوان المسلمين ينضمون للمعسكر الغربي، ويصبح السيد مهدي إبراهيم مساعداً في إدارة المعسكر الغربي، وفي أواخر ١٩٧٥م راجعت قيادة الجبهة الموقف فوجدت أنها تملك السلاح والرجال والمال ولكن ليس معها قيادة عسكرية جيدة، ولا معلومات كافية عن الأوضاع داخل السودان إذا أرادت أن تتحرك. فلم يكن هناك عساكر مهنيين. وتم اختيار الشهيد محمد نور سعد كقائد عسكري للانتفاضة.

الشاهد أنه جاء في تقرير السيد الصادق المهدي للمكتب السياسي للجبهة الوطنية في أغسطس ١٩٧٦م والذي نشره في كتاب المصالحة الوطنية حول التحضير لهذه الانتفاضة، التالي:

(في أوائل عام ١٩٧٦م وضع هيكل حركة يوليو علي أن يكون من ثلاثة شعب:

شعبة شعبية: وفحواها أن يتم استقطاب للقوي الشعبية والفئوية والمهنية

والجماهيرية لتتحرك لصالح المعارضة.

شعبة عسكرية وفحواها أن يستقطب جزء من القوات المسلحة لمساندة الحركة.

شعبة فدائية: وفحواها أن يقوم المهاجرون المدربون بعمل فدائي منظم منسق مع الآخرين للإطاحة بالنظام القائم في السودان.

الشعبة الفدائية

اختلف كل من محمد نور سعد وحسين الهندي في كيفية مشاركة القوة الفدائية.

كان محمد نور سعد يري أن احتلال جزء من السودان أسهل فيحتل مديرية دارفور، وهذا سيفجر التناقضات الموجودة في النظام ويخلق مواجهة تمكن الجبهة من تعبئة الشعور والعمل لإسقاط النظام وكان رأي حسين الهندي أن تكون المعركة في الخرطوم وذلك بأن يقتحم المهاجرون المواقع العسكرية مسافرين عبر ناقلات مصطحبين معهم السلاح الثقيل ومواجهين الموقف بهجوم حاسم خاطف وأحيل الأمر للسيد الصادق المهدي فكان رأيه:

أولاً: موضوع احتلال جزء من أقاليم السودان إذا نجح عسكرياً سيفيد النظام سياسياً ودبلوماسياً لأنه سيكون المدافع عن وحدة البلاد، وسيظل علي المعارضة شبهة موقف انفصالي ضار لذلك أرى ألا نأخذ به.

ثانياً: التحرك الاقتحامي معرض للاكتشاف عبر رحلة صحراوية طويلة، فإذا انكشف أبيدت القوة في طريقها. هذا التحرك يفقد المرونة لأنه متى ما تحرك لا يمكن تأجيله وإعادة النظر في مواقيته.

ثالثاً: لا يتيح مجال التنسيق مع الجهات الأخرى وخاصة القوات المسلحة.

واقترح السيد الصادق المهدي استبعاد الاقتراحين واقترح خطة أخرى: بتسريب القوي الفدائية وكمونها داخل العاصمة وتوفير سبل المواصلات لها عن طريق لوارى وعربات تشتري داخل السودان، وتسريب الأسلحة الخفيفة اللازمة للتحرك الأول ودفنها لتكون في المتناول بالداخل، وإدخال القائد العسكري للحركة ليتولى التنسيق مع القوات المسلحة، فلا يتم تحرك معزول منها ولينسق مع القوي الشعبية أيضاً، فتقوم

بدورها، وبعد مناقشة اتفق علي هذا الاقتراح وصار قاعدة خطة الثاني من يوليو.

الشعبة العسكرية

في عمر النظام حدثت العديد من الانقلابات سوف نفصل بعضها لاحقاً. الضباط وضباط الصف الذين اشتركوا في هذه الانقلابات خاصة انقلاب حسن حسين ونجوا من الإعدام أو الحبس، كانوا قوام العسكريين في انتفاضة يوليو. وعلى رأسهم محمد نور سعد.

كان محمد نور سعد ضابطاً مميزاً تخرج مهندساً وعمل فترة بسلاح الأسلحة، وقد عاش في ألمانيا وتزوج بألمانية، وعاد للسودان واتهم بتدبير محاولة انقلابية فحكم عليه بالطرد من الخدمة والتجريد من الرتب العسكرية والسجن المؤبد، ثم رأى النميري بعد فترة إطلاق سراحه وسمح له بالخروج لألمانيا.

يحكي الحبيب عبد الرسول النور قصة مفادها أن محمد نور سعد كان يخطط لتحرك أجهض في مهده في أغسطس ١٩٧٤م، وأنه بعدها تعرض للاستفزاز من قبل النميري الذي قطع علامات العميد من على كتفيه وألقى بهما في سلة المهملات. وأنه بعدها التحق بقوات المعارضة بالخارج.

والحقيقة هي أن الاتصال بمحمد نور سعد تم عبر السيد الصادق المهدي الذي قرر أن يسد النقص العسكري في موقف المقاومة بالآتي:

(أ) عرض القيادة العسكرية للحركة للعقيد (المرحوم) محمد نور سعد واستشارته في جدواها بصفته صديق وعالم عسكري.

(ب) بناء تنظيم للعمل الداخلي يتخطي كل المسئولين السابقين ويقوم علي أساس كادر غير معروف للأمن.

(ج) الاستفادة من الخلايا الموجودة داخل القوات المسلحة لتوفير المعلومات عن الأوضاع الأمنية والدفاعية بالداخل.

ونتيجة لذلك سافر محمد نور سعد إلى المعسكر الغربي ومكث شهراً وعاد يشيد بما رأي ويوافق علي القيادة ويحدد بعض النقائص وكيفية علاجها. هذا كما أقيم تنظيم

داخلي لا صلة له بالقادة السياسيين المعروفين وأقيمت شبكة لجمع المعلومات داخل السودان.

الشعبة الشعبية

الحقيقة هي أن المعارضة التي نشطت في الخارج حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في سرية تامة لم تكن تجد نشاطاً مماثلاً داخل السودان، بل أدت الإجراءات التي أعقبت حركة شعبان ومحاولات الانقلاب العسكري إلى تضييق الإجراءات في الداخل تضييقا فائقاً، مما دفع المعارضة في الداخل إلى حالة يأس تام وبدأت تفكر في الاغتيال الفردي كوسيلة وحيدة لمواجهة الموقف، ولكن الجبهة الوطنية لم تستجب لهذا التفكير.

بالداخل كان الدكتور الفاضل الجاك شريف مسئولاً عن التنسيق مع القياديين السياسيين ومعه مجموعة منهم السادة مهدي الطيب الحلو ومبارك عبد الله الفاضل، وعبد الرسول النور، والفاضل عبد الله الفاضل، وتبيرة إدريس هباني، وعمر إدريس هباني، وسارا الفاضل، كما كان هناك نقابيين في مجال العمال كصديق يحي عبد الله وصديق شريف ومحمد شريف حسن وعبد الحميد صالح. هذه الكوادر القيادية، بالإضافة لمجموعة كبيرة من الطلبة في الجامعات مثل إبراهيم تيمس وسعيد نصر الدين ورحمي إدريس أبروف وشيخ الطاهر النذير ومحمد أحمد منصور وحماد تاور وأيضاً: محمد مكي الشيخ ومحمود أبشر أبو سعيدة المسئول الإعلامي، وكان الفاضل الجاك المسئول الرئيسي من التنسيق مع الأحزاب الأخرى.

هذا العمل لم ينجز لأنه ضبط وتم اعتقال جزء كبير من كوادر الحزب بالداخل مما أعاق التحرك الشعبي أو شله تماماً. وقد حدث ذلك في عام ١٩٧٥م.

بعد ذلك أبعد الفاضل الجاك من العمل لأنه انكشف، ولم تكن له بالتالي أية صلة بالترتيبات التي تلت والتي انتهت بالانتفاضة المسلحة في ١٩٧٦م.

انقلاب حسن حسين:

في الفترة ما بين (١٩٧٣م ١٩٧٦م) تعددت محاولات الانقلاب العسكري على النظام القائم، وكان الإقبال من العسكريين والمدنيين علي هذه المحاولات كبيراً لدرجة شجعت علي التسرع أو اللامبالاة في التجنيد للحركة والوقوع في فخ المخابرات. ومن

أهمها كانت حركة العميد عبد الرحيم شنان في ٥/ ١/ ١٩٧٣م، وتململ العميد محمد نور سعد في أغسطس ١٩٧٤م، وحركة العميد أنس عمر في يناير ١٩٧٦م، وانقلاب حسن حسين في ٥/ ٩/ ١٩٧٥م، وحركة العميد عبد الله محمد آدم بعده مباشرة.

نظمت انقلاب حسن حسين الجبهة القومية السودانية التي تكونت من عدة أحزاب هي: جبهة غرب السودان برئاسة الدكتور عز الدين المهدي، واتحاد عمال جبال النوبة برئاسة القس فيليب عباس غبوش، والقاضي حسين خرطوم درافور، وجبهة نهضة دارفور بزعامة أحمد إبراهيم دريج، وحزب وحدة غرب السودان برئاسة معتصم التقلاوي المحامي، وكانت قد عقدت مؤتمراً وتوحدت تحت الجبهة القومية السودانية في ١٩٧٠م.

كان أغلب أعضاء هذه الجبهة من العسكريين داخل وخارج الخدمة، وكثير منهم ممن ساهم في دحر انقلاب هاشم العطا ١٩٧١م وإعادة النظام المايوي الذي رأوا أنه خذلهم وصار التفكير الجدي في إزالته وإرجاع الديمقراطية للبلاد.

وقد شكلت هذه الحركة تحدياً قوياً للنظام، ولم تكشف إلا في الساعات الأخيرة لأن أحد أعضاءها (حامد فتح الله) والذي عقد اجتماع ساعة الصفر ببيته كان مشكوكاً في تحركاته مع الجبهة الوطنية. وكان في قيادة هذه الحركة كثير من قيادات وكوادر الجبهة الوطنية، أمثال الشهيد عباس برشم الذي كان سكرتيراً لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم الذي اشترك في انتفاضة شعبان وكان من قيادات حزب الأمة، والأستاذ كمال الدين عباس المحامي وكان من قيادات حزب الأمة.

البيان الذي تلاه المقدم حسن حسين على الناس عبر الإذاعة كان مقتضباً ومرتجلاً وقد أمر نيابة عن الشعب بحل الاتحاد الاشتراكي، وحل مجلس الشعب، وحل مجلس الوزراء، وحل جهاز الأمن القومي، وحل جهاز توتو كورة! كما أعلن المبادئ الآتية: استقلال الجامعة، استقلال القضاء، حرية الصحافة، حماية البلاد ضد الفاشية، وإقامة ديمقراطية سليمة)[1].

ولأن الاستخبارات ضبطت التحرك في إطار شكها في تحركات الجبهة الوطنية،

(١) من كتاب المصالحة الوطنية، بتصرف

ولمشاركة عدد من قياديي حزب الأمة بالانقلاب فقد اعتبرت السلطات المايوية أن للحزب ضلع كبير فيه، فتم اعتقال السيدة سارا الفاضل في المطار حيث كانت قادمة من لندن، واتهموها بأنها جاءت ببيان الانقلاب من السيد الصادق، فاعتقلت لمدة شهر في مقر الأمن مع كثيرين منهم الشهيد عباس برشم والسيدة سعاد زوجة السيد أحمد زين العابدين، وكان قد حضر للإذاعة حينما احتلت وتبرع بإذاعة بيان يضمن استمالة الجماهير للانقلاب، باعتبار أن البيان الأساسي فقد والذي أذيع كان مرتجلاً، وإن كان الانقلابيون لم يسمحوا له بذلك فاختفى وسافر للخارج فوراً. فتم اعتقال زوجته بدلاً عنه!! وذلك تقليد مضى فيه النظام المايوي بانتظام مثلما سوف نرى!

الشاهد، بعد اعتقالها شهراً في مقر الأمن في ظروف سيئة، تم تحويل أمي سارا بعدها لسجن أم درمان. بينما السبب الذي جاء بها وقد كانت في المملكة المتحدة برفقة زوجها، هي ترتيب ختان الابنين الأكبرين (عبد الرحمن، ٩ سنوات وصديق، ٧ سنوات حينها)، فقد كبرا ووالديهم بين السجون والمنافي وانتبه الوالد إلى ضرورة أن يجرى الختان في أقرب وقت، فعادت الحبيبة من لندن متعجلة لذلك الغرض ولكنها اتهمت بأنها جاءت مشاركة في انقلاب حسن حسين، ثم كان ما كان![1]

كانت تجربة قاسية علينا، فأمي برغم بعدها كثيراً عنا كانت حنونة عطوفة محبة شفوقة، وكانت فكرة سجنها خلف أسوار ذلك السجن الضخم الذي نمر به يومياً في طريقنا للمدرسة صعبة جداً، ولم يكن يسمح لنا بزيارتها، والصلة الوحيدة كانت ملابسها التي ترسل لتغسل في المنزل، وكنت استرق معها لحظات بعيداً عن أعين المراقبين أعبّ فيها من عطرها، وأبكي.. كنت في السابعة من عمري تلك الأيام، ولكني كنت أخشى جداً أن أضبط متلبسة بذلك الانهيار!

أين القبور؟

كان العدد الكلي الذي اشترك في الحركة من العسكريين ١٩٢ منهم ١١ ضابطا و١٨١ ضابط صف وجندي، مع عدد من المدنيين. أقيمت ثلاث محاكمات لهم جرت بسلاح النقل وسلاح المدفعية بعطبرة ونفذ الإعدام بعطبرة، فأعدم ٢٣ منهم من

(١) سارا الفاضل، كتابات وأقوال في الفكر والسياسة والحياة، تحرير رباح الصادق، ٢٠٠٩م

العسكريين والمدنيين منهم المقدم حسن حسين عثمان، والرائد حامد فتح الله، وعباس برشم ومجذوب النميري من المدنيين، وآخرين، أعدموا ودفنوا وما زالت أماكن مقابرهم مجهولة حتى اليوم.

والحقيقة هي أن مسألة القبور المجهولة هذه هزت ضمير الشعب السوداني لتكررها بيدي المايويين والإنقاذيين من بعدهم. حتى قامت (الحملة القومية لرد قبور الشهداء لأهلها) تحت شعار: أوقفوا ثقافة مصادرة الجثث! وأصدرت الحملة مطبقاً ذكرت فيها أنها تهدف للكشف عن قبور الشهداء الذين تمت مصادرة جثثهم منذ الاستقلال وحتى الآن وتذكر منهم: قبر الشهيد مكي محمد مكي رئيس تحرير جريدة الناس ١٩٦٩م، قبر الشهيد د. محمد صالح عمر الحركة الإسلامية الجزيرة أبا (يا حسرة على مئات الأنصار استشهد معهم كلهم دفنوا بالكراكات في قبور غير معلومة وهم معلومون لكن لم تشر لهم بعبارة!)، قبور شهداء الانقلاب العسكري ١٩ يوليو ١٩٧١م، قبور شهداء انقلاب مناهضة الجبهة الوطنية (أي انتفاضة يوليو المسلحة في ١٩٧٦م)، قبر الشهيد محمود محمد طه ١٩٨٥، قبور شهداء ضباط حركة ٢٨ رمضان، وقبور شهداء ١٠ مايو (أحداث أم درمان) ٢٠٠٨م. وأضاف لهم الدكتور أمين مكي مدني قبور شهداء ما سمي بالمحاولة العنصرية في ١٩٧٥م بقيادة حسن حسين، مشيراً لأن ما حدث في كل تلك المرات لا يُقبل على أسس قانونية ولا أخلاقية ولا إنسانية ولا دينية، وأمّن على ضرورة كشف قبور الشهداء لأسرهم في كل تلك الحالات: في الشجرة في ١٩٧١م، وفي انقلاب حسن حسين ١٩٧٥، وفي حركة يوليو ١٩٧٦م، وفي ٢٨ رمضان، وفي ١٠ مايو ٢٠٠٨م، مؤكدا أن المسألة تخرج عن البعد السياسي ولا تعنى بالدفاع عن خط القائمين بتلك الحركات بقدر ما تعنى بأسس العدالة وحقوق الإنسان[1].

لقد أشار السيد الصادق لحقيقة انتهاكات حقوق الإنسان في السودان بتفصيل كبير في ورقة قدمها في مؤتمر (حقوق الإنسان في فترة الانتقال) والذي نظمته منظمة (جستس أفريكا Justice Africa) في كمبالا في فبراير ١٩٩٩م وكانت ورقته بالإنجليزية بعنوان:

(١) لمزيد من التفاصيل انظر رباح الصادق هل نستيقظ في بيت أم اليقظة؟ عدالة للجميع مقال نشر بصحيفة حريات الإلكترونية

المولد الثاني للسودان في مهد حقوق الإنسان المستدامة[1]. في ذلك الكتاب قال: خلال السنوات التسع التي قضتها الحكومات الديمقراطية في السودان كانت انتهاكات حقوق الإنسان هي الاستثناء، بينما انتهاكات حقوق الإنسان هي القاعدة في سنوات الحكومات الاستبدادية. ثم قدم قائمة من ٤٣ انتهاكا لحقوق الإنسان مرتبة ترتيباً زمانياً ليست شاملة ولكنها تحوي أحداثا بقى تأثيرها في الذاكرة الوطنية على حد تعبيره، ثم دعا لسياسة فعالة وصحيحة تجاه انتهاكات حقوق الإنسان تهدف إلى:

أولا: إظهار الوقائع كما هي حتى يمكن تأسيس الحقيقة على إقرار رسمي وبصورة متفق عليها ولتكوّن رواية رسمية للأحداث تعلو على الاعتبارات الحزبية، وثانيا: يجب أن تعبّر هذه السياسة عن رغبة الشعب بطريقة صحيحة، وثالثا: لكل قطر ظروفه الخاصة التي تؤثر على تعامله مع هذه القضية، لا سيما بين الظروف التي تحتم اتخاذ إجراءات رحيمة وتلك التي تتطلب إجراء المحاكمات والعقوبات. وقال: إن لبيان وتثبيت الحقائق أثراً علاجياً، وبحسب كلمات روجيه إيريرا، عضو مجلس الدولة الفرنسي فإن «الذاكرة صورة قصوى للعدالة» كما أن لها دوراً رادعا لأن «قول الحقيقة حول الماضي يقوّض الأساس الفكري لانتهاكات حقوق الإنسان». ودعا لأن توضع تشريعات تحكم تكوين لجنة الحقيقة والاتهام ونصوص مرجعيتها وإجراءاتها والإطار الزمني، داعياً لأن تطال التحقيقات كل الانتهاكات منذ الاستقلال[2].

نعم، نحن لا زلنا نبحر في عهد السفاح، حيث الانتهاكات تمطت فوق جسد كل عام، وحيث جرّحت أرواحنا وعذبت ضمائرنا نحن الذين شهدنا. لا بد من أن يعرف الناس، كل الناس، ماذا جرى؟

ولنواصل سردنا حول أولئك الذين تحدث باسمهم الشريف زين العابدين الهندي رحمه الله وهم يخاطبون عزة الوطن قائلين: (**أبشري؛ أبشري نحن لسع في الخلا مرابطين ..ونحن عقاب عهود، أنصار مع مهاجرين.. ونحن سهارى ما بنعرف غمضة العين ..ونحن فداك ، نذود عنك بقالنا سنين**).

---

(١) Second Birth in Sudan in the Cradle of Sustainable Human Rights ١٤٠

(٢) وقد ترجمت الورقة الطويلة للعربية ونشرتها دار الأمين (القاهرة) في كتاب بعنوان: حقوق الإنسان في السودان (١٩٩٩م) ترجمة د عبد الرحمن الغالي.

الاستعداد للانتفاضة المسلحة

وسوف نتابع ما حدث من كتاب المصالحة الوطنية:

(حدد العقيد الشهيد محمد نور سعد العمل اللازم للحركة، واختار الأفراد، وحدد نوع السلاح اللازم وكميات العتاد والأجهزة اللازمة لتدفن في موقع قريب من العاصمة.

وعبر الأشهر الأولى من عام ١٩٧٦م تسربت القوة إلى داخل السودان، وبدأ إدخال الأسلحة لدفنها بالداخل.

وفي إبريل ١٩٧٦م عقد مؤتمر حربي أول ببنغازي، واتخذ المؤتمر القرارات الآتية:

(أ) أن يدخل قائد الحركة إلى السودان متسرباً عبر الحدود الشرقية.

(ب) أن يدفن السلاح والعتاد علي بعد ٧٠ كيلومتراً من العاصمة.

(ج) أن يلبس الفدائيون ملابس مدنية عادية زيادة في أسباب المفاجأة.

(د) أن يتولى جهاز الإشراف الداخلي مراقبة الأمور لتغطية تحركات إدخال السلاح وكذلك تحركات المهاجرين بالداخل منعاً لانكشاف الأمر. هذا تولاه المرحوم إبراهيم أحمد عمر.

(ه) إلحاق أكبر عدد ممكن من المهاجرين بالشرق بالحركة ليساهموا فيها وليكونوا احتياطياً للحركة. وهذه المهمة أوكلت للسيد نصر الدين الهادي.

(و) أن يكون السيد مبارك الفاضل حلقة وصل بين القيادة في الخارج وبين العقيد محمد نور.

(ز) أن يحضر السلاح الثقيل ليصل إلى مكان المعركة في ظرف ثلاثين ساعة.

(ح) أن تفتح القيادة في الخارج جهاز اللاسلكي ما بين الثامنة والتاسعة كل مساء للاستماع لأنباء التحرك في شكل رموز: أخضر معناه التحرك في ٧٢ ساعة. أصفر في ٤٨ ساعة. أحمر في ٣٦ ساعة. أبيض معناه انتظروا، أسود معناه لم نتفق مع القوات المسلحة بالداخل ولذلك يؤجل التحرك إلى فرصة أخرى ويخرج القائد للتفاكر.

(ط) أن يعقد مؤتمر أشمل في لندن قبل دخول القائد العسكري للسودان.

مؤتمر لندن

عقد مؤتمر لندن في ٢٠/٤/١٩٧٦م، وحضره كل أعضاء المكتب السياسي للجبهة الوطنية، ومعهم الشهيد محمد نور سعد واستعرض المجتمعون الموقف، وقرروا الآتي:

- *إكمال ترتيبات دخول محمد نور سعد لداخل البلاد ووضع خطة لدخول القادة السياسيين.*
- *أن يقوم محمد نور بعد دخوله بإجراء اتصالات مع عسكريين لضمان مشاركة جزء من القوات المسلحة، فإذا لم يتوفر هذا العنصر عليه تأجيل الحركة لموعد آخر والخروج للتفاكر مع القيادة السياسية.*
- *أن يقوم محمد نور بإخطار ثلاثة من قادة العمل الشعبي بالداخل بمواعيد تحركه ليضمن المشاركة الشعبية.*
- *عندما يتأكد القائد في الداخل بأن جميع أموره تسير علي ما يرام يخطرنا لاسلكياً بواسطة الجهاز لتتحرك القوة المزودة بالسلاح الثقيل، وعليه ضماناً لوصول الخبر أن يرسل تلغراف لعنوان بلندن لينقل الخبر بصورة رمزية.*
- *وأجمع المجتمعون على البيان الذي سيلقيه محمد نور، واتفقوا عليه، وأدخل محمد نور تعديلات في البيان كلها في اتجاه ضمانات ديمقراطية في النظام الجديد، وضمانات عدالية في محاسبة رجال العهد القائم.*
- *إذا دمرت الإذاعة (الحالية) العادية يستخدم إذاعة سوبا ويحضر له ما يكرفون لذلك وإذا تعذر استعمال هذه يستخدم إذاعة أهلية كانت قد قويت لتتمكن من البث في نطاق ٣٠ كيلو متراً.*
- *في اللحظات الأولى من الحركة يقوم القائد بفتح سجن كوبر، وإسناد مهام قيادية لعدد من العسكريين الموجودين بداخله، والاستعانة بضباط الصف والجنود المحبوسين فيه لتأمين الموقف وإتاحة الفرصة للقادة السياسيين المحبوسين أن يقودوا الشارع السوداني لصالح الحركة.*

وما بين آخر إبريل ١٩٧٦ وأواخر يونيو ١٩٧٦ جرت التطورات الآتية:

(أ) دخل محمد نور الخرطوم، واستقر هناك، وشرع يراسل القيادة في الخارج بتطورات الموقف. فأكد أن المهاجرين وصلوا جميعاً وهم بخير، وانه متأكد من تجاوب جزء كبير من القوات السودانية المسلحة مع الحركة.

(ب) محمد نور لم يتصل بالأفراد المعنيين لتنظيم العمل الشعبي لأنه وجد تنازعاً بين الاتحاديين. فواحد عينه حسين الهندي مسئولاً هو علي محمود حسنين، وآخر عينه أحمد زين العابدين مسئولاً هو حسن حضرة، ولم يجر تفاهم بين الهندي وأحمد زين العابدين، فتضاربت التصرفات، واشتد النزاع الداخلي مما جعل محمد نور يخشى انكشاف الأمر، ولذلك ترك أمر التجاوب الشعبي للإذاعة.

(ج) أفاد إبراهيم أحمد عمر أنه استطاع مراقبة كل تحركات الأمن، مما ساعد على إدخال الأسلحة بسلام، ودفنت حوالي ٣٤٠ كيلو متراً شمال غرب أم درمان.

(د) وصل تقرير يفيد أن العربات التي كلف الفاضل عبد الله وآدم وعمر بشرائها قد اشتريت وسيكتمل عددها في يوم ٣/٦/١٩٧٦م لتكون ٢٠ سيارة ولوري و٦ سيارات صغيرة وستزود بالوقود والزاد والمياه للركاب.

(ه) عملية تسريب المهاجرين من ليبيا وزراعتهم داخل السودان وداخل العاصمة كانت عملية عظيمة وناجحة من الطراز الأول، وقد قام بتنظيمها بالداخل عدد من كوادر الحزب منهم السيدة سارا الفاضل وعمر الشهيد وعبد اللطيف الجميعابي وعبد الرسول النور وآخرين، حيث تم تقسيم العاصمة لمناطق وأحياء مسئوليتها لدى أشخاص مفتاحيين، يقومون باختيار البيوت لإقامة المحاربين مع أسر باعتبار أن السكنى في بيوت منفصلة ستلفت النظر، فكان أغلبهم مع أسر مع الحرص لأن يكونوا يكتمون السر، وتمت العملية بسرية تامة. كان عدد المجاهدين الذين تسربوا أكثر من ثمانمائة، وكلهم دخلوا واستقروا وأقاموا فترة وبعدها خرجوا لمناطق استلام السلاح وتجمعهم في منطقة جبال كرري ورجعوا لمناطقهم داخل الخرطوم.

وقبل الحركة وقعت بعض المشاكل الهامة:

(أ) حاولت القيادة بالداخل التعرف على موقع دفن السلاح، فوجدته على بعد ٣٤٠

كيلو متراً شمال غرب أم درمان، فقررت حمله إلى نقطة تبعد ٧٠ كيلومتراً وقررت أن العربات بالداخل غير مضمونة، فأرسلت للقيادة بالخارج فأرسلت لهم ناقلتان مرسيدس وسيارة تويوتا ومزيداً من الأسلحة والذخائر في حملة يقودها أحمد والصادق وإبراهيم والمرحوم يوسف نصر ووصل هؤلاء وقاموا بالمهمة واشتركوا في الحركة.

(ب) وقعت خلافات بين أطراف الجبهة داخل السودان مما يوضح قلة التنسيق والتعاون بينهم، وأهمها اتخاذ علي محمود حسنين موقفا قيادياً غير متفق عليه. وإصدار قيادة الإخوان توجيهاً لكوادرها بالابتعاد باعتبار أن قيادتهم بالخارج مختلف عليها.

ساعة الصفر

تشكيلة التحرك في ساعة الصفر كانت كالتالي:

القائد العام للجيش محمد نور سعد.

محمد عبد المولى نائب محمد نور سعد، ليتجه نحو منطقة الشجرة، المدرعات.

أحمد حماد، لمنطقة وادي سيدنا.

عبد الله عربي، الإذاعة.

نمر آدم أحمد، القيادة العامة (نائبه آدم إسماعيل إبراهيم، سلطان)

عبد الرحمن، سلاح المظلات بشمبات

إبراهيم جفون، سلاح المهندسين

وفي الحقيقة كان أداء المهاجرين وقيادتهم في مرحلة الأداء عظيماً:

- تسربوا في العاصمة بانضباط شديد.
- دفنوا سلاحهم في مواقعه بصورة رائعة.
- ويوم التجمع خارج أم درمان خرجوا جميعا في سرية تامة.
- وقاموا بالمهام العسكرية المحددة لهم بدرجة عالية من الكفاءة والفدائية.

في يوم الخميس ١/٧/١٩٧٦ تحركت القوات إلى خارج العاصمة وتجمع

المهاجرون والقائد والسلاح و١٨ ناقلة و٧ عربات بوكس في منطقة بالقرب من ام درمان وكان مقرراً أن يوزع وتعطي التعليمات الأخيرة ويتم التحرك ليتم الاستيلاء حوالي الساعة الثامنة مساء، ولكن لأسباب ليست واضحة لم تتحرك القوات إلا بعد الساعة الثانية صباحاً، وأخذت القوة الرئيسية طريقاً أطول وأكثر وعورة فوصلت أمبدة الساعة ٤:٤٥ صباح الجمعة هذا بينما أخذت القوة الموجهة للشجرة طريقاً أقصر وأفضل فوصلت هدفها في الشجرة عندما وصل الآخرون أمبدة. وفي أمبدة سمعوا صوت نيران الشجرة ومن أمبدة تحرك الجميع نحو أهدافهم فاحتلوها جميعا واجدين مقاومة في الوادي والمهندسين والشجرة والقيادة العامة ومتغلبين عليها وفي الشجرة كسرت ثلاث دبابات الحظيرة وخرجت لتقاوم من مسافة تفوق مدي القاذف واستطاع المهاجرون أن يعطلوا إحداها وحاول بعض المهاجرين الاستفادة منها ولكن تدريبهم كان عاجزاً مما حال دون استخدامها.

ومن الهفوات الهامة:

(أ) لم توجه قوة لبحري وكان ذلك هاماً لفتح السجن والاستفادة بمن فيه.

(ب) لم يذهب قائد الحركة لرئاسة القوات كما كان مقرراً وانشغل بعطل الإذاعة وبمقاومة المهندسين حيث أبدي بطولة وإقداما فائقين وجرح جرحاً بسيطاً.

(ج) لم تقم وحدات من القوات المسلحة بدور في التحرك كما كان مقرراً ومتوقعاً ومؤكداً، ولعل السبب هو انتظارها للإذاعة .علي أي حال عدم قيام هؤلاء، وعدم فتح السجن جعلا القائد وحيداً مما شتت جهوده واتعبه تعباً شديداً. هذا كما أن عدم اكتمال أجهزة الاتصال أفقد القوات حلقات الوصل ببعضها البعض.

(د) وكان القائد العسكري يري أن الوحدات خارج العاصمة لن تقدم علي الحضور لمقاومته ولكن هذا التقدير لم يصح لأن صمت الإذاعة وعدم معرفة هوية الحركة أتاح الفرصة لرجال الحكومة أن تشغل إذاعة احتياطية من بحري (إدعت أنها من جوبا) وتصف الحركة بأنها حركة مرتزقة أجانب مما ضاعف همة القوات السودانية للقضاء عليها.

(ه) الإذاعة لم تنطق وكان مع محمد نور ميكرفون لاستخدام إذاعة سوبا فلم يذهب

لاستعماله ولعل السبب أنه لم يعثر علي المهندس الذي كان سيعاونه ... سوبا ولسبب ما لم يشأ استخدام الإذاعة الأهلية المشار إليها آنفاً. (وي... المهاجرين أن مقتل زميله اللواء طبيب حسين عبد الرحمن الشلالي، وكان متفقاً معه على المشاركة في التحرك مع بعض العسكريين ولكنه لم يعرّف نفسه لقوات المهاجرين فقتلوه، أن حادثة مقتله تسببت في هبوط الروح المعنوية للشهيد محمد نور سعد بدرجة كبيرة وبعدها لم يعد متحمساً كما يجب)[١].

الشاهد، كل هذا جعل هوية الحركة غامضة وساعد علي القضاء عليها وشل أنصارها الذين كانوا يتوقعون الإذاعة للتجاوب معها. وحينما فشلوا في استلام الإذاعة بثت الحكومة أن هذا غزواً أجنبياً، وخرج الناس لمساندتها، وأدى هذا للاشتباك في الشوارع مما أدى لأحداث دامية ومؤسفة.

(و) كانت القوة حاملة السلاح الثقيل بقيادة السيد الصادق المهدي تنتظر الخبر عن طريق لاسلكي في عوينات لتصل إلى ميدان المعركة في ثلاثين ساعة، وعلمت القوة أن اللاسلكي لن يستخدم خشية الرصد، وبقيت تنتظر الإذاعة للتحرك فتحركت الساعة الثالثة من عصر يوم الجمعة عندما تأكدت أن أمراً ما قد أخرس إذاعة أم درمان، وأسرعت نحو العاصمة حتى سمعت إذاعة بيان الحكومة عصر يوم السبت، وكانت علي مقربة من العاصمة فعادت أدراجها مقدرة أن الحركة قد أصيبت بنكسة)[٢].

دِيلْ أوْلاَدْ حَشَاكْ لاَ ارْتِزَاقْ لاَ زِيفْ

رحم الله الشريف زين العابدين الهندي، فقد أنصف في أوبريته الرائع المهاجرين والهجرة:

(أَرْجِينَا؛ بِنْجِيكْ مَوَحَّدِينْ صَادْقِينْ.. شَايْلِينْ المَدَافِعْ وبِالسَّمَاءْ طَايْرِينْ.. صَوَارِيخْنَا بْتَسَكِّلْ تَطْرِشْ اللَّضْنِينْ.. وفِي الجَّاسِرْ نَقِيفْ لِيكْ .. بالنَّصُرْ هازِينْ.. دِيلْ أوْلاَدْ حَشَاكْ لاَ ارْتِزَاقْ لاَ زِيفْ.. ودِيلْ الكُلُّهُمْ صِنْدِيدْ وأَصْلُو شَرِيفْ).

(١) في الحلقة التوثيقية التي عقدت بدار هيئة شئون الأنصار، ٢٠٠٨

(٢) نقلاً عن كتاب المصالحة الوطنية بتصرف، مع إضافة مخرجات الحلقة التوثيقية مع المهاجرين وفقما تم التنويه في الهامش السابق

لم تحقق انتفاضة ٢ يوليو أهدافها لضعف الضلع العسكري، وتخلف الضلع المدني في الشارع الذي تسربت عنه معلومات أدت لتعطيل الكوادر السياسية، وعدم تشغيل الإذاعة حجب طبيعة الحركة وأعطى النظام المايوي المدعوم خارجياً فرصة تشويه الحركة بعبارة «المرتزقة» التي حركت القيادات العسكرية السودانية خارج العاصمة ضد الانتفاضة.

وقد قال عنها السيد الصادق: (*عبارة مرتزقة هذه من أسماء الأضداد، فهؤلاء الذين تحركوا كانوا من أشرف المواطنين الذين دفعتهم الغيرة الدينية والوطنية للعمل الذي قاموا به وكان الأحرى بهم أن يسموا صفوة المؤمنين وأبناء السودان البررة. لقد اقترحت علينا القيادة الليبية أن تساهم بدور ما: كالطيران مثلا، ولكن حرصنا أن يكون الجهد سودانياً خالصاً. نظام مايو هو الأحرى بأن يسموا مرتزقة لأنه أول نظام حكم سوداني كان معتمداً على جهات أجنبية. دعمه المعسكر الشرقي ومصر الناصرية في عهده الأول ثم دعمه المعسكر الغربي ومصر الساداتية في عهده الأخير!*)[1]

وقال عن الانتفاضة إنها (*هي التي أقنعت النظام المايوي أن دعواه أنه قبر القوى السياسية المعارضة له دعوى باطلة فعرض شروط صلح أدت إلى إطلاق سراح المعتقلين وإلى حريات فتحت الطريق أمام انتخابات نقابية وطلابية فتحت الطريق للانتفاضة التي كانت طرقها مقفولة. العيب الوحيد الذي يؤخذ على تجربة ذلك النفر الفدائي الرائعة هو عدم النجاح في إدارة المشروعات الزراعية التي خصصت لهم بالمستوى المطلوب. وبعد عودة الديمقراطية حدثت معاكسات من كثير من الأطراف لعدم معاملة المهاجرين بالمستوى المطلوب. ولكن مهما كان يحق لكياننا أن يفخر بهذا النفر الفدائي وأن تضاف سيرتهم لسيرة الثورة المهدية والدعوة لأن تجربتهم تمثل فصلاً حديثاً ممتازاً من فصول الدعوة والثورة.*)

وبرأيي أن هذه الانتفاضة من أبرز جروح التاريخ على جسد الأنصار. فقد لصق عليها الاسم ولم يمح حتى الآن (المرتزقة) كدليل على قدرة الإعلام المضلل، وعلى عجز إعلامنا وحركة تاريخنا.

(١) في مقاله الهجرة الفدائية، ١٩٩٩م

وكما يقول المثل الأفريقي: (ستظل القصص تمجد الص[illegible]
الكتابة)!

إن المتأمل للنفر من المهاجرين الذين خبرناهم عن قرب إذ ظلوا بين ملازمي الحبيب الإمام على مدى عقود، وهم عينة تمثيلية لذلك النفر العجيب، أمثال العم فضل، رحمه الله، والعم محمد عبد المولى، والعم حسين سلامة، والعم تيراب تندل، والشباب منهم أمثال محمد عبد الله والشيخ وأبكر إبراهيم طويل القامة وقصيرها، ونمر، وبشير، وعبد الرحمن وغيرهم يجد فيهم أخلاقاً ملائكية، قمة في الإيثار والانضباط والتعفف، حقاً صدق العم عابدين إذ امتدحهم..

المهاجرين.. المهاجرين يا الله

المهاجرين أكرمهم بي الدارين يا الله

أما بالنسبة للتجربة ككل، فإن إراقة الدماء التي ارتبطت بها برغم المحاذير التي اتخذت، هي برأيي الكابح الأساسي والمستمر للحبيب الإمام من الدخول في أية مواجهات مسلحة. صحيح إنه مرة أخرى جرّب العمل العسكري في التسعينات، ولكني أعتقد أن حماسته له كانت أقل بسبب تلك التجربة المرة، وقد ساهمت عوامل أخرى سنتطرق لها في أوانها لتقلل من حجم الهجرة الثانية، لكنه في جميع الأحوال ظل يجنح السلم بسرعة أكبر من غيره.. وها هو الآن في كل مواجهة يحجم والناس يدفعون، ويقول إذا دفعنا الناس لمواجهة بدون تحسب عواقبها، وأريقت الدماء فإنها مسئوليتنا أمام الله.

أما بالنسبة لنا في بيت السيد الصادق، فقد كان منزلنا، مرتعاً للرصاص الطائش لسكنانا قرب الإذاعة، أو سكنى الإذاعة قربنا بالأحرى، فقد كانت أمي رحمة رحمها الله تكرر كل ما قالت أمي عرجون: «خلت، خلت، من الأول السكن جنب الإذاعة» أي (غلط) السكنى قرب الإذاعة، وكانت أمي رحمة رحمها الله ترد بالقول: نحن لم نسكن قربها هي التي جاءت قربنا فحينما سكنا هنا لم تكن الإذاعة موجودة!

وقيل إن أحد سكان منزلنا فقد عقله لأن طلقة دوت قرب رأسه، ثم لما اشتد الضرب رحّلونا جميعا لنسكن لدى جداتنا بودنوباوي، أمي عائشة وأمي شامة بنتا الإمام

عبد الرحمن وهما جارات هناك.

وعلى نهجه المذكور في اعتقال قريبات المناضلين الذين يعجز عن الحصول عليهم، وهو نهج يدك قواعد العدالة سواء لدى الشرائع السماوية (لا تزر وازرة وزر أخرى)، أو لدى النظم القانونية الوضعية، فقد قام نميري هذه المرة باعتقال زوجتي الحبيب الإمام وأخته، وقيل إنه كان ينوي اعتقال والدته السيدة رحمة ولكن ردعه البعض من أن عمرها ووضعها سوف يجران عليه سخطاً ضخماً لو اعتقلها.

واعتقلت بالتالي أمهاتنا سارا وحفية ووصال في سجن أم درمان. وكانت سارا لم تخرج من سجن الاتهام الباطل بالاشتراك في انقلاب حسن حسين لأكثر من شهر، فأعيدت وهذه المرة قدمت لمحكمة عسكرية ولاقت أهوالاً أصابتها بالجلطة، وكادت تودي بحياتها.

قالت: (بعد انتفاضة يوليو تعرضتُ للتعذيب النفسي والإرهاب المعنوي أثناء التحقيق وأوقاته وأساليبه الغريبة عنا كسودانيين، وذلك ضمن غيري من النساء في حزب الأمة اللائي تعرضن للإرهاب والسجن والتجويع والنوم على الأرض لعدة أيام. شملت هذه المجموعة معي وصال المهدي، حفية مأمون ليلي عبد الحميد صالح، والتومة شنوبه). وقالت إنها هي وليلى عبد الحميد صالح والتومة شنوبه كن (أول نساء سودانيات يحاكمن في محكمة عسكرية، ولم تحاكم قبلهن امرأة عسكرياً في منطقة العالم العربي إلا جميلة بو حريد الجزائرية التي حاكمها الفرنسيون)![1]

وفي لقاء صحفي لها روت تفاصيل المحاكمة العسكرية قالت: (حوكمت محاكمة عسكرية فهي محاكمة صارمة انعقدت لمدة «٤٠ يوماً» في مقر القوات المسلحة القيادة العامة، وكنا ندخل من سجن أم درمان «بالكومر» وقوفاً وعسكري من كل جهة واضعاً بندقيته إلى أن نصل تلاحقنا أعين الناس من كل إتجاه في الشوارع كأننا أشياء غريبة وأذكر أن «سفنجتي» قد انقطعت فاضطررت أن أذهب إلى المحاكمة برجل حافية إلى أن قامت مسجونة معنا بربطها.. كانت تلك المحكمة محكمة التجار بعد أن كانوا يريدون محاكمتي في محكمة المهندسين وهي محكمة إعدام.. ولكن عدداً من

(١) سارا الفاضل، مرجع سابق

المحامين على رأسهم السيد الصادق الشامي قالوا إن تلك التهم التي وجهت لي: تجنيد أشخاص وإرسالهم إلى الخارج، لا ترقى لأن تحكم في محكمة المهندسين لذا رحلت إلى محكمة التجار، فالتحري في هذه صعب جداً وكانوا يتحرون معي ليلاً في مقر الأمن بشارع البلدية أو في القيادة العامة)[1].

وكنا صغاراً نذهب لنشهد المحاكمة، وهناك نراها وراء قفص الاتهام، نشاهد الشهود الذين جاءوا ليشهدوا عليها أو معها، ولا أنسى أبداً منظر عمي السيد أحمد في منصة الشهادة كشاهد ملك. ولا ما سمعته بعدها وحفظته من أنه قال في المحاكمة الغيابية التي أجريت للحبيب الإمام الصادق المهدي: إذا لم تطله عدالة الأرض فسوف تطاله عدالة السماء!

وقد حكم عليه -أي السيد الصادق- بالإعدام غيابياً في تلك المحكمة.

وكانت أجهزة الإعلام والصحف تدبج له أوصاف النميري المسيئة.

وصرنا كأننا منبوذين بين الناس العاديين، فالناس يخافون مغبة العلاقة بنا، وحينما تلج باب المنزل لا تجد من أثر على الأرض الرملية إلا (أرجل الطير) وأرجلنا الصغيرة ونحن نحرث الأرض في لهونا اليومي.

وقد وصف منزلنا السيد غراهام الذي زار السودان في مهمة أعاد فيها مجاري العلاقات بين حكومة نميري وحكومة بلاده، ولكنه لم ينس أن يزور أصدقاءه حتى وهم أعدى أعداء الحكومة، توجه أولاً إلى قبة الإمام المهدي. وقال: (عندما دخلت تأثرت جداً بما رأيت.. لم يكن الضريح يلقى أي عناية، كان الغبار مكدساً والرمل يلف رايات الإمام الكبير. وكانت البيارق والشعارات وضريحا الإمام السيد عبد الرحمن وابنه الإمام الصديق، قد ركبهما التراب.. وقمت بالدعاء هناك ثم وقعت باسمي في سجل الزيارات وقد وجدت السجل مفتوحا لكنه لا تواقيع منذ ثورة مايو سنة ١٩٦٩م).. (وبعد مغادرتي القبة قمت بزيارة أرملة السيد الصديق السيدة رحمة وكانت لا تزال تعيش في بيت العائلة، في ذلك القصر الذي كان يشع تألقاً في الماضي، وهو الآن قد تقشرت قصارته وتكسرت شبابيكه وبات الأثاث فيه مهترئاً. هناك كانت السيدة رحمة ترعى جميع

(١) لقاء صحفي معها في: رباح الصادق سارا الفاضل كتابات في الفكر والسياسة والحياة، ٢٠١٠

أطفال العائلة لأن معظم نسائها ورجالها قد أُلقي بهم في السجن. وقد رأيت في وجه تلك السيدة وحضورها شيئاً من الجلال والوقار، فهي حفيدة المهدي ذاته، وقد أخبرَتْ زوجتي بعد ذلك بعام قائلة: أنا ولدت أعرابية (بدوية) فحاجاتنا قليلة، وأنا لا زلت من البدو، وسنقاوم ما نحن فيه ونعيش.. نعم إننا سنبقى)[1].

كنا صغاراً، وحينما كبرنا علمنا أنه مرت ظروفٌ قاسية، اضطرت معها أمنا عرجون، القائمة على تربيتنا والعناية بنا، أن تبيع بعض الأثاث أو الأواني القيمة التي كانت أمي تحرص على اقتنائها، كي تسد رمقنا.

الجوع لأيام ممتدة والحاجة القاسية عشناها كذلك في عهد (الإنقاذ)، فالسيد الصادق في رحلة الأهوال كان دائب الجهاد بالمال، وحورب به في خططٍ لئيمة. لكن تخويف الناس منا لم تستطعه أبداً حكومة «الإنقاذ» مهما فعلت، فحتى حينما كان منزلنا محاطاً بالدبابات ومحروساً بالكتائب في أيام «الإنقاذ» الأولى كان الناس يأتون ويسألون عنا، ويصرون على استدعاء أحدنا ليبلغوه السؤال! ومهما طالت لحظات حاجتنا ظللنا كما نحن لا يغيرنا لبس الدلقان! فسلطان الصادق لم يستطع أحد من الجبابرة أن يجرده إياه، لأنه ليس ممنوحاً من قبل أحد، بل من قبل الله الذي ألقى عليه محبة الناس! ولا يستطيع أحد مهما بلغ سلطانه الفاني نزع ما أعطاه الله.

الملاحقة في بريطانيا وفريق للاغتيال

في هذه الفترة سعت الحكومة لملاحقة السيد الصادق في بريطانيا، في أغسطس ١٩٧٦م احتج نميري لدى الحكومة البريطانية (على وجود الصادق في بريطانيا)[2] فاتصل أحد موظفي الحكومة بالمستر غراهام توماس وطلبوا منه أن يبلغ السيد الصادق كي يتصل بهم لدى عودته لبريطانيا. وقالت وزارة الخارجية البريطانية إنها تطلب تعهدات معينة من السيد الصادق، وحينما عاد لبريطانيا وعلم بالأمر من السيد غراهام قال له (إنني لا أرغب في البقاء في بريطانيا إذا لم يكن مرغوباً في بقائي هنا)، ثم قصد وزارة الخارجية البريطانية حيث قابل اثنين من موظفيها طلبا منه عدم الاتصال

---

(١) توماس، سابق ص ١٣٢

(٢) توماس، مرجع سابق ص ١٥٨

بالصحافة، يقول غراهام توماس: (وسأل صادق ما إذا كانت الرقابة على الصحف التي يمارسها نميري في السودان قد غدت تنطبق على الصحف في بريطانيا)، وطالب بأن يُعطى الشروط كتابة و(ذكّرهما الصادق أن زوجته وعائلته ما زالت محتجزة منذ أربعة أشهر من قبل نميري دون محاكمة)[١]. يبدو أن هذا كان في نوفمبر من عام ١٩٧٦م حيث اعتقلت أمي سارا وأمي حفية وأمي وصال وعدد آخر من أفراد الأسرة والمئات من الأنصار وحزب الأمة منذ يوليو.

وكان نميري بصورة مستمرة يضغط على الحكومة البريطانية ويرسل منصور خالد إلى رئيس الوزراء البريطاني يرجوه ألا يمنح حق اللجوء السياسي إلى الصادق[٢].

يقول السيد غراهام توماس: استمر الضغط على الصادق من قبل وزارة الخارجية البريطانية، فزاد قلقي عليه، وذهبت أنا وأزماي إلى شارع (١٠) داوننع ستريت لمقابلة توم ماكليني، وهو صديق قديم يشغل الآن منصب مستشار سياسي لجيم كالاهان، وللتحدث إليه عن قضية الصادق، فأكد لي توم أن منصور خالد قد أثار المسألة مع رئيس الوزراء، وعند ذاك سلمت توم مذكرة كان الصادق قد وقعها ليتم رفعها إلى المستر كالاهان، فيما كنت أنا وأزماي نغادر المكان. وقد وعدني توم أنه سيبحث القضية برمتها مع رئيس الوزراء وأضاف: أنا متأكد من أن صاحبك الصادق لن يتم ترحيله من بريطانيا أبداً.

ثم روى السيد غراهام كذلك كيف وصلت أنباء إلى الدكتور عبد الحميد صالح أن ضابطاً اسمه عثمان ورقيبين آخرين في الجيش (سيف الدين عبد الله، وعوض جاهية[٣]) سيرسلان إلى بريطانيا (لتصفية الصادق وآخرين)، وقال: هذا (ما أكده منصور خالد الذي قال: لقد أمر نميري بإرسال فريق اغتيال إلى هنا)[٤].

---

(١) نفسه ص ١٥٩

(٢) نفسه، ص ١٦٠

(٣) هكذا تُرجم الاسم، ولكنا لسنا متأكدين من أن هذه هي الترجمة الصحيحة، فالمترجم مثلاً قام بترجمة اسم أمي السيدة حفية بهيفاء، وترجم عمر نور الدائم بعمر نورالدين، والجزولي دفع الله بغزالي ضيف الله، وهكذا.

(٤) السابق، ص ١٦٣

حول الجبهة الوطنية

في ذلك الظلم والظلام، انهالت علينا عبر الصحف ووسائل الإعلام مقولات تسيء إلى سيرة السيد الصادق ومن معه من رجال ونساء مخلصين انتظموا في صفوف الجبهة الوطنية، وفي الحقيقة لم يكن من داعٍ لترديد تلك الأقوال، لأن بعض قائليها هم لحمنا ودمنا وتربطنا بهم صلة العقيدة والمودة. ولكني وقد حاولت القفز على تلك الأيام الكالحات، لتطوى مع مخازيها، وجدت ألا مناص من التعرض لبعض تلك الأقوال وتوضيح ملابساتها.

ذلك أن كتاباً نشر حديثاً للأستاذ صديق البادي حول الجبهة الوطنية، أعاد نبش تلك الأقوال فجعل أحاديثهم مخلدة، ومتاحة للباحثين في التاريخ بشكل ميسر. نفس المنطق الذي جعلنا مضطرين أن نتصدى لأقوال السيد محمد أحمد محجوب لأنها صارت مخلدة ومتاحة للباحثين يجعلنا مضطرين أن نتصدى لهذه الأقوال التي أتاحها وأزلفها للباحثين الأستاذ البادي.

ذلك الباحث، له ولهٌ عجيب بالقضايا والأحداث المتعلقة بالأنصار، بدون انتماء لهم. وكان كتابه حول أحداث الجزيرة أبا وودنوباوي قد امتلأ بالأقوال والأشعار المنشورة يومها وكلها في سب الأنصار وقيادتهم وإمامهم. وقال إنه لم يجد غير الرواية الرسمية المسيئة في مضابط دار الوثائق القومية، مع أن الأشعار المؤازرة لموقف الإمام ومن معه موجودة لمن أراد التقصي. أما في كتابه الثاني فلا يمكن لأحد ادعاء أن الرواية الأخرى غائبة فهناك كتب وإفادات وأشعار كثيرة متاحة حتى لسابلة الأسافير.

أورد البادي قصيدتان في البذاءة الشعرية للإساءة للسيدين الصادق المهدي والمرحوم الشريف حسين يوسف الهندي، فلماذا لم يورد أوبريت الشريف زين العابدين الهندي الذي يمجد فيه الرجلين ومن كان معهما وهو أوبريت أشهر من علم على رأسه نار؟ أوبريت كما قال صاحبه (فداء الذين خرجوا من أجل أوطانهم) وفيه:

أبشري ؛ أبشري نحن لسع في الخلا مرابطين..

ونحن عقاب عهود ، أنصار مع مهاجرين..

ونحن سهارى ما بنعرف غمضة العين..

ونحن فداك ، نذود عنك بقالنا سنين..

حالفين بيك قسم ، غالي وعزيز ويمين..

مانضوق راحة ، لانشوف زوجة لا والدين..

ولا ندفن رؤوسنا على الرمال خايفين..

حتى نودي من أشلانا ، أعلامك على القصرين..

وحتى نسوي للقصفوك مقبرتين..

زي ما صنع تارا ، علي الألف ألفين..

وحتى نكسر السد ، وينقسم نصين..

ويكون عيدنا الكبير، في مقرن النيلين.

***

وفي النهاية يقول:

أَرْجِينَا ؛ بِنْجِيكْ مَوَحَّدِينْ صَادْقِينْ..

شَايْلِينْ المَدَافِعْ وبِالسَّماءْ طَايْرِينْ..

صَوَارِيخْنَا بْتَسَكِّلْ تَطْرِشْ اللِّضْنِينْ..

وفِي الجَّاسِرْ نَقِيفْ لِيكْ .. بالنَّصُرْ هازِينْ..

***

دِيلْ أوْلاَدْ حَشَاكْ لاَ ارْتِزَاقْ لاَزِيفْ..

ودِيلْ الكُلَّهُمْ صِنْدِيدْ وأَصْلُو شَرِيفْ ..

دِيلْ دُخْرِيكْ لِسْنِينْ الجَّفَافْ والحِيفْ..

ودِيلْ دَفَقَةْ يَنَابِيعِكْ .. شُهُورَ الصِّيفْ..

***

دِيلْ نِيلِكْ وكِتْ قَطْعَ البِرَكْ والقِيفْ..
ودِيلْ دِيَمَ السَّوَارِي الأَصْلُو مَا بِتْقِيفْ..
دِيلْ الرَّضْعُوا حُرْ لَبَنِكْ بِدُونْ تَحْرِيفْ..
ودِيلْ البِقَعُوا فِي نَارِكْ .. بِدُونْ تَكْلِيفْ..

***

دِيلْ إتْبَاشَرُوبِكْ إِنْتِ دَرَقَةْ وسَيفْ..
ودِيلْ بَفْدُوكْ بِي أَرْوَاحُمْ نَقِيبْ وعَرِيفْ..
دِيلْ أَخْوَانْ صِدِقْ ، فِي اللّه دُونْ تَحْرِيفْ..
ودِيلْ يَاهُمْ .. عُيُونِكْ ، وقَلْبِكْ الوِلِّيفْ..

***

خَائِضِينْ فِيكْ صَحَارِي تَقِيدْ لَهِيبْ وشَرَارْ..
وطَالْعِين فِيكْ جِبَالْ عَالْيَاتْ عَلِى الطَّيَارْ..
ونَعْرِفْ أَرْضِكْ المَحَدُودَة بالأَشْبَارْ..
ونَنْزِلْ فِي رِبُوعِكْ لِينَا مَلْيُونْ دَارْ..
ونَدْخُلْ فِيكْ ضُحَى ونَمْرُقْ مَعَ الأَسْحَارْ..
مَا حَجَبُوكْ عَلِينَا حَيَارَى .. أَوْ أَغْرَارْ.

***

نَارِكْ مَا انْطَفَتْ ؛ مِنْ يُومْ رَمَاكِ الغَادِرْ..
وسَجْنِكْ مَا فِضَى وأَهْلِكْ عَلِيهُو تدَافِرْ..
ولِلمُوتْ كَمْبَلُوا ولاَدِك مُغَنِّي وشَاعِرْ..
وكُلْ عَامْ لِيكْ عَيدْ بِالدَّمْ مَوَشَّحْ وظَافِرْ..

خِلِّي عَدُوك مجْهجَه فِي حَكُومْتَه وحَايِرْ..
وقِيدِكْ هَسَّه بِنْكِسْره .. ونْجِدْلُوضَفَايِرْ..

***

نِحْنَ أوْلاَدِكْ العَارْفَانَا دُونْ تِذْكَارْ..
نِحْنَ الجِّينَا فِي نَسْلِكْ مِنْ الأبْكَارْ..
نِحْنَ اللَّيلَه شَمْعِكْ فِي الَّضلاَمْ سَهَّارْ..
ونِحْنَ الفَجْرْ لِي اللَّيلْ كَانْ قَعَدْ كَانْ طَارْ..
ونِحْنَ نَضَرِّي وَرَتَابْتُو ونَشِيلَها عُصَارْ..
ونِحْنَ بَلاَبِلْ الحُرِّيَّة .. تَصْدَحْ حَتَّى فِي الأوكَارْ..

***

أَقُولْ فِيكْ تَانِي يَا سِتَّ الشَّرَفْ والطُّولْ ؟
وعِزِّك فِي الأرِضْ تَرْيَانْ فُرُوعْ وأُصُولْ!!
أَرُقْدِي قَفَى بِنْجِيكْ ، مَهْمَا زَمَانَّا يطُولْ..
وَمَهْمَا الدَّهرْ يَرْدِمْ ، فِي حِمُولنَا حِمُولْ..
وَمَهْمَا نَمُوتْ فِدَاكْ ،نِترامَى زُولْ فِي زُولْ..
بَرْضو مَنِيعَة إنْتِ .. عَلِي القَدُرْ والصُّولْ.

***

وانْتِ كَبِيرَةْ ؛ أكْبَرمِنْ صَغَارْةَ العَسْكَرْ..
وانْتِ عَظِيمَة مَا بْذِلَّكْ سِلاحَ البِقْهَرْ..
وانْتِ عَزِيمَة لا بِتْنِينْ ولا بْتِتْكَسَّرْ..

وانْتِ أُنوفْ .. أَشَمْ مِنْ بِيلَه ، مَا بِتْعَفَّرْ..

****

قُودِيْلنَا الرُّسُتَّة وخَلِّفِي الأَشْتَامْ..

خَنِّقِي لِي دَلاَلِيكِكْ وصَحِّي النَامْ..

أَرُقْصِي الفَاشِرْ الهضْلِيمُو كَبَّ ونَامْ..

وقُولِي اللِّيلَة شَبَّالْكُمْ عَلَيَّ حَرَامْ..

لمّا تْكَسِّروا القِيد أبْ عَشَرْ أَعْوَامْ..

ولمّا تْقَنِّعُوا الكَاشْفَاتْ وَرَاء وقِدَّامْ..

ولمّا تْجِيبُوا سَجَّانْكْ مُخَزِي ومِنْضَامْ..

ولمّا اولادي يبقوا جنود .. ومُشْ خُدَّامْ.

وهي قصيدة طويلة جداً تصف السودان وعزته وسهوله ووديانه وبقاعه ولغات أهله وتنوعهم، اقتبسنا فقط مقاطع منها تصف قضية المرابطين في ٢ يوليو (عقاب عهود، أنصار مع مهاجرين)، وتنفي عن الحركة الارتزاق: (أَرْجِينَا ؛ بِنْجِيكْ مَوَحَّدِينْ صَادْقِينْ..) و(دِيلْ أَوْلاَدْ حَشَاكْ لاَ ارْتِزَاقْ لاَ زِيفْ.. ودِيلْ الكُلَّهُمْ صِنْدِيدْ وأَصْلُو شَرِيفْ). وقد لحنها وغناها الفنان عبد الكريم الكابلي. ولكن البادي لم يورد هذه الملحمة الرائعة التي صارت جزءاً من كلاسيكيات أدب الوطنية الباذخ، مفضلاً أن يورد السباب القراح، ويحاول الاعتذار عنه بكلمات لا تغطي سوءة الغرض.

وأورد البادي كذلك خطاباً طويلاً للسيد أحمد المهدي موجها للنميري كله قدح في ابن أخيه المحكوم عليه بالإعدام.

كما أورد أقوال المرحوم السيد الفاضل الجاك الذي وسّع من شهادته ليقول أقوالاً وجدت في مذكرات العميد يوسف بدري استنكاراً لبعضها.

كتب العميد في ١٥/ ٨/ ١٩٧٦م: أخبرني محمد بدري أن السيد الحسين الحسن رئيس القضاء العسكري قال: السبب في طلبي من الأمن أن د. الفاضل الجاك أخبر

المحكمة أني قدمت مساعدة لسفر الصادق المهدي عن طريق السفارة ... لعمري كيف حصل ذلك؟ والصادق وهو مسافر بإذن من الدولة، مع العلم بأني لم أ... بسفره إلا بعد أن سافر ولم أره قبلها. وقد كنت غير مسرور في عدم استجابته للتعاون ... أشجعه سياسياً ولا عملياً[1].

أورد البادي كل اتهامات السيد أحمد المهدي للسيد الصادق من أنه خلو من الوطنية، ويعمل من أجل مصلحته والوصول للسلطة غير آبه لما يحدث للوطن والمواطنين وحتى أسرته الخاصة، وأورد اتهامات الفاضل الجاك بتعاون السيد الصادق مع الأمريكان، وقبضه أموالاً منهم في زمان الديمقراطية، وقال إنه مسئول الجبهة المالي، وأدخل في شهادته قصصاً كثيرة على نهج القصة التي استنكرها العميد يوسف. ولم يكلف البادي نفسه أن يورد الرواية المقابلة، مما يفت في منطقه، ويثير التساؤل حول هدفه من التأريخ لتلك الحقبة، لأن ذلك الهدف ليس كشف الحقيقة بأية حال. إذ لو كان يبحث عن الحقيقة لوجد كتاب المصالحة الوطنية الذي نشر برمته في صحيفة الرأي العام عام ٢٠٠٠م. وغيره من المدونات والوثائق.

وفي المقابل كتب الأستاذ إبراهيم السنوسي القيادي الأخواني المعروف، في الصحف السيارة وفي الأسافير، مؤخراً متهما للأنصار أنهم كانوا ينوون الغدر بالأخوان والاتحاديين الذين كانوا يحالفونهم وحمد الله أن فشلت الانتفاضة ذاتها!

كل هذه التهم التي تنشر الآن كانت جزءاً من خطط نظام النميري لتشويه صورة المعارضة وحزب الأمة والأنصار على وجه الخصوص، ولكنها تهم تبعث في كل حين وآخر، يبعثها أعداء الحزب والكيان عن علم أو غير علم بكنهها، وسوف أورد جانبا مما دونه السيد الصادق حينها تعليقاً على تلك الأحداث والاتهامات تحت عنوان (الجبهة الوطنية)[2]:

السيد الصادق يفند شبهات حول الجبهة الوطنية ١٩٧٧

(إن جماعتنا كانت تهب للاستجابة لنداء الوطن في كل مرحلة من مراحل حياته، ففي

(١) مذكرات العميد، سابق ص ٣٥٣

(٢) من أوراق الحبيب الإمام، ورقة مصوّرة بخط يده صفحتها الأولى ضائعة كتبت على الأرجح عام ١٩٧٧م قبل إمضاء المصالحة الوطنية.

وجه الحكم الثنائي تم تكوين الجبهة الاستقلالية ... ...كري الأول تم تكوين الجبهة القومية بقيادته، وفي وجه الحكم ... ...الك تم تكوين الجبهة الوطنية بقيادته. وتكوين الجبهات هذا ليس إجراء ... ...كياننا بل هو خطة سار فيها أئمة الأنصار في كل مرحلة من المراحل العصيبة التي ... ...بنا. وهو إجراء راجع لكلمة الإمام عبد الرحمن الصادق الشهيرة: لا شيع ولا ... ...ولا أحزاب، ديننا الإسلام وطننا السودان.

وبصعوبة شديدة استطاعت الجبهة الوطنية أن تتفق على ميثاق وطني يخط بناء السودان وبعث الإسلام وتوحيد إرادة السودانيين. وواجه العمل الجبهوي صعوبات كثيرة خارج السودان وأكثر داخل السودان ولكن قاعدة العمل الجبهوي كانت ولا زالت القاعدة الأفضل في مواجهة الاستبداد العسكري الحالي وفي بعث الإسلام وبناء السودان بعد ذلك.

ويعاب على الاتحاديين أن معظم جماهيرهم ورجالهم انخرطوا في النظام المايوي ولم يعد لهم وجود كبير كما كانوا، ومهما ضعفوا فإن زعيمهم السيد حسين الهندي كان ولا زال قوة صامدة مع المقاومة وكان ولا زال وسيظل يلعب دوراً كبيراً هو ومن يستطيع تجنيده من الاتحاديين في المقاومة.

يعاب على الأخوان المسلمين أنهم يحاولون انتزاع مكانة في الجبهة فوق حجمهم، وأنهم يظهرون التعاون مع الجبهة ويبطنون عدم الانخراط فيها مستقبلاً، وأنهم لم يستطيعوا إخراج جامعة الخرطوم لمساندة الانتفاضة الأخيرة، إما لأن قيادتهم للطلاب ضعفت أو عدمت. ومهما كانت حقيقة تلك المآخذ فإن الأخوان قوة سياسية وقوة صدامية وهم ونحن متفقون في مبدأ أساسي وهو بعث الإسلام. ومن الفشل الذريع أن نخفق في التعاون في هذه الأهداف مهما كانت المشاكل العرضية.

ويعيبون علينا أننا نحاول الانفراد بالأمر ويستشهد بعضهم بكشوفات الأخ ميرغني ضيف الله، وبشهادة الأخ محمود أبشر وما إلى ذلك من شهادات الشهود. إن كشوفات الأخ ميرغني ضيف الله هي عبارة عن كادر حزب الأمة الذي طلبنا تجهيزه وطلبنا أن تجهز كل الأطراف الأخرى كوادرها للعمل المشترك. أما عدم وجود تنسيق بين هذه

الكوادر وعدم إبلاغ الجهات الأخرى بالمواعيد فهذا ليس بتدبير منا بل إننا أمرنا العقيد الشهيد محمد نور سعد أن يبلغ جميع الأطراف السياسية بمواعيد تحركه قبل ست ساعات على الأقل. كما كتبنا للجهات أن تنسق بينها، فإن وقع تقصير في هذا الصدد فهو من باب الأخطاء التي يحاسب عليها مرتكبوها لا عمداً تعمدناه.

أما شهادة الأخ محمود أبشر فالحقيقة هي أن الأخ محمد نورهو الذي طلب دخول الأخ محمود أبشر ليستعين به في اتصالاته، ولا يوجد أي توجيه أن يستفاد منه في إبعاد الاتحاديين والأخوان، بدليل أنني عندما أرسلت القوة التي أوصلت السلاح إلى قرب أم درمان أوصيت الأخ إبراهيم السنوسي (أحد الأخوان) أن يقول للأخ محمد نور أن تلتزم الإذاعة عدم الخروج من سياسة الميثاق الوطني، وأن يقوم إشراف عليها لهذا الغرض، وفعلا أبلغ الأخ إبراهيم الرسالة وقال إن الأخ محمد نور وعده بأن يتولى الأخ إبراهيم الاشراف منفرداً أو مع آخرين (لا أدري) على الإذاعة. وشهادة الأخ محمود أبشر وغيرها من الشهادات انتزعت تضليلاً أو كرهاً منه ومن غيره بهدف واضح في سياسة الأمن وهو تصوير الأنصار بأنهم أرادوا الانفراد بالأمر.

وكتب الأمن كشوفات نشرها توضح أننا كنا سوف نقتل فلان وفلان... الخ، وهكذا استفاد الأمن من الشهادات لنشر الانطباعات التي يريدها، ووقع بعض السذج خاصة من بعض أطراف الجبهة في حذاء سياسة الأمن. إننا لم نخطط للانفراد بالأمر، ولن نفعل، لأننا أكثر الأطراف إيماناً بقيمة وأهمية العمل القومي (والدليل على ذلك أننا قبلنا دائماً أن نتحرك بأقل من حجمنا في الجبهة الوطنية).

ومن أساليب الأمن ضدنا محاولة تفرقة صف الجبهة الوطنية، وهذه المهمة من أولى واجبات الرشيد الطاهر بعد تعيينه رئيساً للوزراء.

ومن الأساليب شهادتا السيدين الفاضل الجاك وأحمد المهدي.

أما السيد الفاضل الجاك فقد استغلوا خوفه من التعذيب ومن السجن ليملوا عليه أنهم على علم بعدد كبير من رجالنا لكشفهم، وليجعلوه يرمينا بالتهم الصحيحة والباطلة، وليستعينوا به وبغيره في إضعاف صفوف الأمة والأنصار ذاتها. والحقيقة هي أن الفاضل الجاك مجمد منذ سبتمبر ١٩٧٥م وذلك أولا لأنه وغيره من الكوادر

القيادية كشفوا لدى السلطات بواسطة شهادة محمد نجيب، وثانياً لأنه ظهر لنا أنه بالذات صار عقبة في سبيل النضال بما تملكه من مخاوف. فالفاضل الجاك لا يعلم من حركة يوليو ٧٦ شيئاً على الإطلاق، وكل معلوماته لا تتجاوز ما قبل ١٩٧٥م، وحتى تلك المعلومات قالها بطريقة مشوهة باطلة ليرضي الأمن وسياسة التشويه والتفرقة.

أما السيد أحمد المهدي فقد كان يرى منذ البداية أن نستسلم للحكومة المايوية لنحافظ على مصالحنا المالية ومكانتنا الاجتماعية كما فعل السيد محمد عثمان الميرغني. وقد أرسل إلي بهذا الرأي وأنا معتقل في جبيت، ثم جاءني به وأنا معتقل في بورتسودان، وذهب به إلى السيد الإمام في الجزيرة أبا، وفي كل حالة قوبل بالرفض، وعندما لم يجد شريحة من الأنصار يساوم بها فاروق حمد الله وزير الداخلية اتفق معه على الخروج من السودان إذ سمح له بتحويل أموال كانت مجمدة. فوافقوا وسمحوا له فسافر وأقام خارج السودان متخذاً موقفاً سلبياً من الأنصار في الهجرة ومن المعارضة في الخارج.

وكان السيد أحمد يخشى القيام بأي شيء ضد مايو لأن خطابات منه للسيد الإمام وجدت في حقيبة الإمام كانت تدل على أنه استلم أموالاً من الإمام ولم يردها وأنكرها، فكان يخشى أن تفضح الحكومة ذلك، وعندما قرر أن يرجع إلى السودان رجع باتفاق مع بعض رجال الحكومة ليتعاون معهم سراً. ونحن إذ كنا نعلم موقفه الحقيقي وسلبيته من كل حركة المعارضة منذ البداية وشماتته على حوادث الجزيرة أبا لم نشركه في الأمر بل عاملناه بالمجاملة والاحترام دون المشاركة في أمور يخشى أن يبلغها للحكومة رغبة أو رهبة.

إن موقف السيد أحمد من تأييد الحكم المايوي ومناهضة المعارضة موقف قديم بدأ منذ البداية وليس فيه من جديد إلا أنه اليوم وجد الجرأة لإعلانه. ونفس الأمر ينطبق على آخرين كانوا جواسيس لمايو في صفوف بيت المهدي وحزب الأمة والأنصار. وخطة الحكومة هي الاستعانة بهؤلاء والاعتراف بكيان للأنصار موجه لتمزيق المعارضة ولتدعيم حكم نميري)أ.هـ[1].

(١) نقلاً عن الورقة المذكورة بتصرف

مدونات عام ١٩٧٧م

في أجندة مكتب عام ١٩٧٧م هناك الكثير من خطط وملاحظات وأنباء وردت للحبيب، واقتطفت منها بعض المشاهد التي رأيت مناسبتها للسيرة والمسيرة.

فقد كان ضمن ما شغله نبأ إطلاق سراح بعض السيدات والسادة..

ففي ٢/ ٤/ ١٩٧٧م كتب السيد الصادق: (*سمعت نبأ إطلاق سراح سارا ووصال وحفية وصلاح، فلله الحمد، عقبى إطلاق سراح الآخرين وتفريج كربهم. لقد كان للخبر وقعاً عظيماً في نفسي فقد كان اعتقالهن يؤرق مضجعي كل يوم ساعات*).

لكن الأجندة تخبرنا أنه (يا فرحة ما تمت)، فبعد أربعة أيام، أي في ٦/ ٤/ ١٩٧٧م كتب السيد الصادق: (*علمت اليوم أن نبأ إطلاق سراح سارا وأخواتها ليس صحيحا، فعالٌ لما يريد*)..

ليس إلا بعد نحو عشرين يوماً من ذلك التاريخ حينما أطلق السراح فعلاً، ودوّن السيد الصادق في ٢٥ أبريل ١٩٧٧م: (*سمعت اليوم نبأ إطلاق سراح السيدات الحبيبات سارا، وصال، حفية والعم الحبيب عبد الرحمن النور، هذا الرجل الوفي الحبوب، فكم أنا سعيد بإطلاق سراحه، لعله يجد بعض الراحة في هذه السن والمرض، حفظه الله. أما إطلاق السيدات فإنه يزيل جمرة من مرقدي أرقت وتؤرق مضجعي كل يوم حفظهن الله، وكتب لي لقاء بهن فليس ذلك على الله ببعيد*).

استشهاد الشباب الأربعة

ومن المدونات المؤثرة في تلك الأجندة ما كان بشأن استشهاد بعض شباب المهاجرين في يوم الخميس ١٢ مايو ١٩٧٧م، ويبدو بعد كل تلك المقتلة التي حدثت العام السابق فإن الحادثة كانت مؤلمة للحبيب للغاية، فكتب التالي:

(*ذهب عبد الله أبكر يختبر سيارة بعد تصليحها فوقع حادث استشهد فيه الأحباب: علي محمد علي، أحمد الشفيع حمد، حسين إبراهيم، الصادق إسماعيل، موسى فضل المولى (الجاك)، رحمهم الله ورحمنا الله، فقد آلمني موتهم ألماً شديداً جداً. وجرح عبد الله أحمد فضل المولى، الطاهر أحمد مختار، وجرح جراحاً بسيطة جداً أرباب آدم إدريس*

وعبد الله أبكر. تم دفن الشهداء الأربعة في مدخل الرباط ورقدوا كل اثنين في قبر يوم الخميس. لله ما أعطى ولله ما أخذ:

ايموت مثل أبي شجاع فارس ويعيش شانئه الخصي الأقلع

هذا الشباب الطاهر المجاهد المهاجر المرابط الذي زهد الدنيا وما فيها، عرسان دنيا كأحسن ما يكون الفتيان، وهبوا حياتهم لمرضاة الله وإنقاذ الوطن.. هم زين شباب الجنة ذهبوا رضي الله عنهم ورضوا عنه، ف ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾. اللهم وفقني لأنقذ هذا الشباب الطاهر وأمكنه أن يوجه طاقاته الباهرة في عمارة السودان الروحية والمادية فهل إلى ذلك من سبيل؟ إن العين لتدمع وإن القلب ليتوجع، وإن الأمل في الله أوسع، و﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾.

هكذا إذن مرت على السيد الصادق وزملائه أيامٌ مرة بطعم العلقم. لقد شمروا وكبروا للجهاد، فأريقت دماء عزيزة، ثم كانت النتيجة مزيداً من القهر والإذلال للشعب، ولأهلهم على وجه الخصوص. ولكنهم إذ أظهروا تلك القوة وتلك المقدرة هزوا عرش الفرعون فلم يعد يستخف بهم كما كان.. الصفحات التالية تكشف كيف أن حسابات الخسارة لدى الطرفين جعلت موائد الحوار ممكنة.

الفصل الخامس

المصالحة الوطنية

جاء في كتاب المصالحة الوطنية التالي:

(كانت حركة الثاني من يوليو حدثاً ذا آثار كبيرة في صفوف الحكومة والمعارضة، إذ أدرك الطرفان أن احتداد العنف بينهما يولد موقفاً يجعل كل طرف أكثر اعتماداً علي جهات غير سودانية فتتآكل السيادة الوطنية.

أدركت الحكومة الآتي:

***أولاً:** أن النظام في السودان لا يمكن أن يضمن الاستقرار حتى إذا استطاع أن يسيطر علي القوات المسلحة وأجهزة الأمن سيطرة تامة، فالمدنيون إذا دفعوا بحوافز عدائية كافية يستطيعون استيعاب السلاح الحديث والتدريب الحديث والتصدي للقوات المسلحة.*

***ثانياً:** أن حدة النزاع الداخلي تجبرها علي صرف أموال طائلة لأغراض سياسية وأمنية وهذا بدوره يزيد التوتر ويرفع درجة عدم الاستقرار النفسي في البلاد.*

وأدركت المعارضة الآتي:

***أولاً:** أن العنف وإن توفرت وسائله ليس مأمون العواقب ولا يمكن التأكد أن مباشريه سوف يلتزمون بالخطة المتفق عليها.*

***ثانيا:** أن جبهة المعارضة ليست موحدة بالقدر الذي يكفي لعمل ثوري مشترك.*

هذه القناعات لم تبرز للسطح عقب الثاني من يوليو مباشرة، بل ساد الموقف غضب ومرارة وروح عدائية وانتقامية لم يشهد السودان لها مثيلاً من قبل، واستعد الطرفان وأعلنوا أنهم في طريق الصدام حتى النهاية فإما قاتلين وإما مقتولين. وشهد النصف الأخير من عام ١٩٧٦م مظاهر عنف وقهر ومرارة وغضب وتحفز ووعيد لم يشهدها

السودان في تاريخه الحديث.

بعد الثاني من يوليو اتخذت الحكومة إجراءات أمن مكثفة ودقيقة، ووسعت الاعتقالات لتشمل كل من حامت حوله تهمة أو ذكر اسمه المتهمون المنهارون أمام ضغوط المحققين، وعقدت اتفاقية دفاع مشترك مع القاهرة. وجعلت التحقيقات والمحاكمات مادة لمحطة إعلامية شاملة ضد المعارضة، حملة قامت بها أجهزة الإعلام السودانية ورددتها الأجهزة المصرية، وكان من أوضح معالم المحطة أن الأجهزة الرسمية قد فاجأتها الحركة مفاجأة تامة واذهلتها سريتها واقترابها من النجاح التام لولا هفوات بسيطة.

أما المعارضة فبعد أن أفاقت من الصدمة عقدت اجتماعا في لندن في أغسطس ١٩٧٦م وقررت الآتي:

أ) احتواء الآثار الضارة لحملة الحكومة الإعلامية التي استخدمت التحقيقات لبث الفرقة بين أطراف الجبهة. ومن وسائل الاحتواء كتابة تقويم لحركة الثاني من يوليو يوضح الحقائق ويركز علي وحدة الجبهة.

ب) تكوين لجنة للقيام بعمليات داخل السودان تحافظ علي سخونة الموقف.

ج) إسناد إعلام الجبهة لمكتب برئاسة السيد أحمد زين العابدين لإصدار صحيفة نصف شهرية والاستفادة من إذاعات البلاد الصديقة.

د) يعاد تنظيم المعسكرات ويعاد التدريب ويوجه الاستعداد للعمليات الهجومية المتكررة التي وعد بيان الجبهة الوطنية بالقيام بها في بيان السيد الصادق المهدي رئيس الجبهة في ٨ يوليو ١٩٧٦م.

الوساطة للحوار

وأثناء هذا التأهب الصدامي والتراشق تقدم وسيطان هما السيدان خالد فرح وعصمت زلفو للسيد الصادق المهدي في لندن وقالا له إنهما كمواطنين سودانيين لا يرضيان عما يدور في السودان من عداء واستعداد لصدام وأن أحدهما صديق للسيد مأمون عوض أبو زيد وزير الداخلية وأنهما علما منه استعداده لإجراء حوار للتوصل لحل سلمي وأنهما يريدان أن يعرفا إن كانت الجبهة أيضا علي استعداد لذلك؟

فقال لهما إننا دائما مع الحل السلمي فنحن أصلاً مدنيون ولم نلجأ للعنف إلا اضطراراً. واستطاع الوسيطان أن يعقدا اجتماعاً بين السيدين الصادق المهدي ومأمون عوض أبو زيد في فندق هيلتون بلندن في يناير ١٩٧٧م، ودار حديث خلاصته تأكيد السيد الصادق بتوجه المعارضة السلمي، وموقفها الملتزم بالحريات والديمقراطية، والرجوع للشعب، عارضاً أن يكون ذلك عبر الاستفتاء الحر، ووعد السيد مأمون ببحث الأمر مع النميري.

وفي منتصف فبراير ١٩٧٧م كان موقف الجبهة الوطنية داخلياً ملئ بالسلبيات وأسباب الاختلاف والعجز، فالقرارات التي اتخذت في أغسطس ١٩٧٦م لم ينفذ منها إلا الخاص بالمعسكرات وتنظيمها والتدريب، أما خطة التسخين (مسؤولية السادة حسين الهندي ومهدي إبراهيم) وخطة الإعلام (مسؤولية السيد أحمد زين العابدين) وخطة التقويم الوفاقي (مسؤولية السيد عثمان خالد) فلم ينفذ منها شيئاً سوي إصدار عدد واحد من المجلة الدورية كان ضعيفاً مما جعل قيادة الجبهة تأمر بعدم توزيعه.

وأما موقف الجبهة الخارجي فقد كان قويا جداً. وفي النصف الأخير من فبراير انعقد اجتماع مهم للمكتب السياسي للجبهة قال فيه السيد الصادق المهدي إن التضحية ليست موزعة بين فصائل الجبهة بالتساوي، فرجال حزب الأمة في المعسكرين الشرقي والغربي هم المعرضون لخطر الهجوم من القوات السودانية والمصرية، وغالبية الذين سجنوا في الداخل كذلك، وقد اتسعت حركة الاعتقالات بسبب عثور السلطة علي كشوفات كاملة عن طريق الصدفة (كشف عبد اللطيف الجميعابي) أو عن طريق الاستسلام (كشف عز الدين عثمان صالح) أو عن طريق الانهيار (شهادة الفاضل الجاك) مما عرض للعقاب والمساءلة جماعة حزب الأمة داخل السودان.

أما الآخرون في الجبهة فلا يتعرضون لبطش مماثل و(الجمر يحرق واطئه)، ونحن لا نستطيع أن نتأمل الأمور ببرود النفس الذي يستطيعه غيرنا، ولا أن نعبأ بالخلافات الجانبية والمماطلات، ولذلك لا بد من تحرك حاسم يبدل الموقف في السودان وأمامنا ثلاثة سبل لذلك: إما القيام بحركة عاصفة حاسمة للإطاحة بالنظام، وإما القيام بإضراب سياسي شامل داخل السودان، وإما الاتفاق والصلح علي أساس وسطي بيننا وبين النظام. وقال إنه سائر في هذه الاتجاهات الثلاثة، واتفق أنه لا بد من حد أدني من التنسيق

والتزام كل طرف مهما كانت الظروف بميثاق الجبهة.

وبعد ذلك الاجتماع اجتمع السيدان الصادق والهندي وقال الأول إننا نستطيع القيام بحركة عاصفة خاطفة تعتمد علي وجود مدربين علي الدبابات والمدرعات وتقوم بخطة استيلاء علي الدبابات والمدرعات وتعطيل ما لا يستولى عليه واحتلال المواقع والإطاحة بالنظام علي أن يتم التحرك من الشرق في فترة قبل ٢٥/٥/١٩٧٧م طالباً رأيه في المسألة، وقد وافق عليها وبدأ التنفيذ في مارس ١٩٧٧م.

أما موضوع الإضراب السياسي فكان لا بد من إحصاء احتمالاته داخلياً وإجراء اتفاق مع اليسار لأن له جيوباً في القطاع الحديث.

أما موضوع الاتفاق مع النظام فقد كان السيد الصادق المهدي يرى أنه سيكون مشغولاً بالإعداد للخطة العاصفة وربما اتصل السيد مأمون عوض أبو زيد أو الوسيطان لمواصلة البحث ولذلك وضع ورقة عمل لمن يهمه الأمر وتركها في لندن مع الدكتور عبد الحميد صالح لكي يناقش علي أساسها إذا اتصل به وسيط أو ممثل للحكومة ونص الورقة المؤرخة ٢٠/٢/١٩٧٧م هو الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نظام مايو خلق ظروفا سياسية شاذة في بلادنا فصار العنف والتآمر والتدخل الأجنبي سمة ملازمة للحياة فيها. والراجح الآن أن يتصاعد العنف والتآمر والتدخل الأجنبي إلى أقصى درجاته مضافاً إلى غيره من الشرور والإخفاقات التي نكبت السودان الحبيب. وقد خطر ببال أهل بلادنا أن يجدوا مخرجاً من هذا التعقيد الرهيب.

نقاط مقترحة لاتفاق قومي شامل

١) قفل الطريق نهائيا أمام التفرق الحزبي بصورته القديمة.

٢) اتفاقية الجنوب تستمر مبرأة من مداخل النفوذ الأجنبي.

٣) تكريس الجهود لتنمية مخططة وعاجلة وعادلة بين الفئات والأقاليم.

٤) العدل والإنصاف الناجز لأقاليم البلاد وخاصة الغرب تنموياً والمشاركة في كل مستويات الأداء.

٥) المؤسسات السياسية تكون ديمقراطية مع قيد علي التفرق الحزبي والمؤسسات السياسية هي التي تتخذ القرار النهائي في كل الأمور.

٦) المؤسسات الاقتصادية اشتراكية.

٧) القوات المسلحة رافد مشارك في الأداء السياسي مشاركة توازن بين الالتزام بالخط السياسي القومي وضوابط الجندية.

٨) الإسلام هو المنطلق الفكري للأداء العام والخاص.

٩) للسودان دور قومي عربي ودور تضامني أفريقي وواجب في إبعاد البعث الإسلامي والعربي والافريقي من سيطرة الدول الكبرى.

الاختلافات الواردة

١. طبيعة مؤسسات النظام السياسية ومدى الحريات.

٢. مدى الإلتزام الفكري والنقاط المحددة المختلف عليها تصاغ لإجراء استفتاء عليها.

الإجراءات الأولية:

أن يعترف الطرفان بالواقع السياسي الماثل وأن تصاغ نقاط الاتفاق والنقاط المختلف عليها صياغة نهائية. وإلى حين قيام النظام البديل يقوم وضع انتقالي لزمان محدد مهامه:

(١) تلطيف المرارة ببيانات وإجراءات تمحو المستطاع من الخلفية الدموية.

(٢) التزام الحكومة تكويناً وخطاً قومياً.

(٣) العفو والمعافاة.

هكذا تحرك الحبيب السيد الصادق المهدي في الاتجاهات الثلاثة وقد ساعد علي تقوية موقف الجبهة أن ليبيا سمحت للجبهة أن تذيع من ركن إذاعة الوطن العربي بعد أن كانت قد تمنعت عن ذلك. كما أتاح الأثيوبيون للسيدين حسين الهندي وعمر نور الدائم إذاعة أحاديث من إذاعة صوت الإنجيل سابقا.

في مارس ١٩٧٧م بدأت تتسرب بعض المعلومات عن نشاط السيد الصادق، ودون تحريات تبنى السيد أحمد زين العابدين هجوماً علي قيادة الجبهة الوطنية بأنها تفاوض الحكومة وتفاوض الشيوعيين من وراء ظهر أعضاء المكتب السياسي.

وللمساءلة في هذا الأمر انعقد اجتماع للمكتب السياسي في طرابلس في ٢٨/٣/١٩٧٧م فتداول الاجتماع الأمر وقرر الآتي:

أ) العمل لتوسيع المعارضة وإشراك الشيوعيين دون تعديل لميثاق الجبهة.

ب) الموافقة علي إجراء أية اتصالات لوضع حل سلمي لقضية البلاد علي ألا يرتبط أحد ببرنامج أو اتفاق إلا إذا اتخذ قرار بذلك.

ج) الأقاويل والاتهامات المنسوبة لأحد أطراف الجبهة أو قادتها لا يتداولها الآخرون إلا إذا جرت تحريات عنها في أجهزة الجبهة.

وساطة فتح الرحمن البشير

اتصل بالدكتور عبد الحميد صالح السيد إبراهيم منعم منصور في أبريل ١٩٧٧م وحدثه عن اتجاهات للتوسط بين النظام والمعارضين، ثم اتصل به السيد فتح الرحمن البشير وأطلعه على ورقة الاتفاق أعلاه، فناقشها معه وعدل بعض بنودها وأخذ صورة منها وذهب بها إلي باريس في منتصف مايو ١٩٧٧م لمقابلة النميري. وبعد مقابلة النميري في ١٧/٥/١٩٧٧م عاد السيد فتح الرحمن إلي لندن يحمل تعليقاً منه على بنود الاتفاق المقترحة نصه: «علمت بما دار بين الأخ فتح الرحمن والسيد الصادق الصديق المهدي وبهذا أفوضكم تفويضاً كاملاً في الاستمرار فيما بدأته، وأرجو أن تكون نهايته وضع حد نهائي لما حصل بين السلطة والصادق وأعوانه. لا نريد أن يكون هذا عملاً مرحلياً بل نهائياً لكل النشاطات التي كانت دائرة في خارج السودان، والله ولي التوفيق».

لم يكن السيد فتح الرحمن قد قابل السيد الصادق المهدي والإشارة لذلك في تعليق النميري تخص مقابلته للدكتور عبد الحميد صالح. وكان السيد الصادق المهدي في ليبيا وعاد منها إلي لندن في يوم ٢٠/٥/١٩٧٧م لكي يقابل شخصاً ذا دور في التحرك العسكري المزمع، فقابله السيد فتح الرحمن البشير في لندن، وعرض عليه تفويض النميري له لإجراء حوار معه. واتصل الحوار عبر خطابين مقتضبين بين السيد الصادق

والنميري.

كان السيد الصادق المهدي قد أطلع السيدين حسين الهندي وعثمان خالد علي الأسس المذكورة المقترحة للاتفاق فوافقا عليها.

وفي أواخر مايو ١٩٧٧م دعا السيد الصادق المهدي جميع الأعضاء القياديين للجبهة الوطنية الموجودين بلندن وضم الاجتماع عشرين شخصاً من كل أطراف الجبهة، وانعقد في فندق مايلستون، وهناك أطلعهم علي جوهر مشروع الاتفاق فناقشوه، واقترحوا تعديلات طفيفة، وقرروا إجراء مزيد من الاتصالات لمعرفة مدي جدية الحكومة.

ثم ذهب السيد الصادق إلي ليبيا في آخر يوم في مايو ١٩٧٧م، وهنالك قابل السيد حسين الهندي وبحث معه تطورات خطة الحرب، وتطورات خطة السلام، وكان رأي السيد الصادق المهدي أن مشروع السلام الحالي جاد ولذلك ينبغي إلغاء الخطة الحربية العاصفة، فوافقه السيد حسين الهندي على ذلك، وتم إلغاء سفريات الطائرات التي كانت معدة لسفر القوات إلي الشرق، على أن يسافروا للبقاء في المعسكر الغربي. حيث زارهم السيد الصادق في أوائل يونيو وأطلعهم على جميع تطورات الموقف فأيدوا مبدأ المصالحة إذا سلمت النوايا، ثم عاد إلي طرابلس.

وفي ٩/٦/١٩٧٧م جرت مقابلة بين السيد الصادق المهدي والعقيد معمر القذافي والسيد أبو بكر يونس وأطلعهما علي تطورات موضوع المصالحة، وأبدت القيادة الليبية ترحيباً، وتم الحديث عن مشروع المصالحة المصرية الليبية، وأكد القذافي أنها مبادرة أتت من مصر وليست مربوطة بمصالحة النميري للمعارضة السودانية.

ثم عاد السيد الصادق المهدي للندن بعد أن أبلغ السيد حسين الهندي في طرابلس بأنه يتوقع تطورات مهمة في موضوع المصالحة مما يقتضي لقاءهما في لندن للتفاكر حول الموقف، وكان السيد حسين الهندي بصدد السفر إلي باريس للعلاج، فتواعدا على أن يتم الاتصال بينهما حال وصوله لباريس ولكنه حينما وصلها لم يقم بالاتصال لمعرفة عنوانه.

كان السيد الصادق المهدي قد رد علي خطاب رئيس النظام المايوي بخطاب يذكر

فيه استعداده للقاء النميري لبحث الأسس التي يمكن أن يقوم عليها الصلح والوحدة الوطنية الشاملة في أي مكان في السودان في يوم الاثنين ١٢ رجب ١٣٩٧ الموافق ٢٧/٦/١٩٧٧م. وتلقى رداً منه مقترحاً تغيير التاريخ للخامس من يوليو لارتباطه بمؤتمر القمة الأفريقي حتى الثالث من يوليو بالجابون.

حاول السيد الصادق حينها البحث عن مكان السيد حسين الهندي للتفاكر حول هذا التطور المهم فلم يجده، وفجأة اتصل به الهندي هاتفياً من مطار لندن في يوم ٢٣/٦/١٩٧٧م وقال إنه مع الأخضر الإبراهيمي في المطار ولم يعثرا على غرفة خالية بالفنادق، وأخبره السيد الصادق أنه كان يحاول الاتصال به لشرح تطورات مهمة، وأنه يرحب به هو وضيفه في شقته فبها غرفة إضافية، واتفقا على ذلك، ولكنه لم يصل ولم يتصل ولم يظهر إلا بعد أسبوعين.

وفي يوم ١٠ رجب الموافق ٢٥/٦/١٩٧٧م كتب السيد الصادق للرئيس نميري الرد بالموافقة على المكان والزمان المحددين: بورتسودان في ٥/٧/١٩٧٧م.

وكان السيد الصادق وعد الوسيط السيد فتح الرحمن البشير بأن يلتقي بجعفر نميري في أي مكان شاء إذا هو قبل شروط المصالحة) أ. ه.[(١)]

يقول السيد الصادق: (وجاءني الرد بالإيجاب وأنه يدعوني لمقابلته في بورتسودان، وبينما نستعد للسفر جاءتني رسالة من أحد الناس، دون توقيع، من داخل السودان. فحواها: اتق مصير المماليك، واللبيب بالإشارة يفهم. (الإشارة هنا للغداء الذي أعده محمد علي للمماليك في القلعة في القاهرة ثم أحاط بهم هناك وقتلهم عن آخرهم) وكان زملائي منقسمين حول ذهابي للسودان لمقابلة نميري ولكن بعد وصول تلك الرسالة اتفقوا على رفض السفر. وكنت قد أعطيت كلمة فما العمل؟ رأيت أنه لا سبيل لحسم الأمر عن طريق البحث العقلي فاستخرت الله.. جاءني في المنام أن رأيت نفسي منتعلاً حذاءً أخضر ناعماً وماهلاً. إن لي في الرؤى رموزاً فإن رأيت نفسي منتعلاً حذاءً مريحاً فهو رمز أمان وخير، وإن رأيت منتعلاً حذاءً ضيقاً فهو رمز شر آت لذلك قررت أن السفر آمن وسافرت وكان بالفعل آمناً).

(١) نقلاً عن كتاب المصالحة الوطنية بتصرف

لكن الرسالة التي تركها السيد الصادق والتي تجعل احتمال غدر النميري به وارداً تؤكد أنه كان يغامر بالذهاب ويعتقد أنه لا ضير طالما أن دمه سوف يكون مهراً لحرية بلاده.

السيد غراهام توماس من جهته عارض اللقاء أولاً لأن الصادق كان لا يزال خاضعاً للحكم عليه بالإعدام، وثانياً لأن ذهابه للسودان سيبدو كأنه استجابة لمبادرة نميري نفسه، وفضل أن يتم اللقاء في مكان حيادي كسويسرا أو على سفينة في البحر، وأن يحضر اللقاء شخص حيادي، وقال: ولكن الصادق (قال إن عليه أن يجرب صدق نميري، فإذا ما اقترح هو طريقاً بديلاً أو فرض شروطاً لإجراء ذلك اللقاء فإن الأمر سيترك انطباعاً بأنه خائف أو متهرب)..(لم اتقبل جداله هذا لأن شجاعة الصادق لا جدال فيها).. (لقد غادر الصادق بريطانيا إلى السودان وترك خطاباً وتعليمات محددة فيما إذا لم يعد،..، كان قلقاً من أن نميري قد يكون مخادعاً، ومع هذا فقد قرر أن يعرف الحقيقة لأن هذا من مصلحة السودان)[1].

في كفي قفصة زيتون وعلى كتفي نعشي!

وجاء في كتاب المصالحة:

(في يوم ٤/ ٧ توجه السيدان الصادق المهدي وفتح الرحمن البشير إلي مطار هيثرو بلندن للسفر إلي أثينا، وفي المطار سجل الأول رسالة صوتية بالكاسيت ليسمعها أعضاء المكتب السياسي والمهاجرون في المعسكرات نصها كالآتي:

(١) في يناير الماضي اتصل بي بعض الوسطاء من المواطنين وطلبوا أن يبحثوا إيجاد مخرج للصراع الدامي في السودان الذي صار مدخلا لنفوذ أجنبي وحوار دموي لا تؤمن عواقبه. ونتيجة لاتصالاتهم هذه رتبوا اجتماعاً حضره معي الرائد مأمون عوض أبو زيد، وتداولنا الأمر، ولم يتجاوز ذلك الاجتماع مرحلة تذويب الجليد وتأكيد أننا سنمضي في نضالنا ما دام النظام في السودان يقوم علي الظلم والقمع.

(٢) وفي مارس الماضي اتصل بنا الأخ إبراهيم منعم وسيطاً مشتركاً معه في الوساطة

---

(١) توماس، سابق ص ١٦٦

اللواء عمر محمد الطيب، وبعده اتصل بنا الأخ فتح الرحمن البشير وسيطاً متصلاً مباشرة بالرئيس جعفر نميري. وقد أكد اتصاله هذا بأن حمل رسالة من الرئيس عندما كان في زيارته الأخيرة لباريس.

(٣) أكدنا لجميع الوسطاء أننا نقبل مبدأ الوصول لوفاق سلمي إذا كان هذا سيتم علي مبادئ تتلخص في سبع نقاط هي:

***أولاً:** أن يكون التنظيم السياسي واحداً ديمقراطياً اختيارياً جامعاً لكل عناصر الحركة السياسية.*

***ثانياً:** أن يكون الاقتصاد اشتراكياً موجهاً بهداية الإسلام.*

***ثالثاً:** أن يكون الدستور ديمقراطياً بمعنى أن تنال المناصب بالانتخاب الحر المتنافس عليه وأن تكفل سيادة القانون والحريات الأساسية وأن يكون التشريع إسلامياً.*

***رابعاً:** أن تراجع اتفاقية أديس أبابا لسد الثغرات التي كشفت عنها الممارسة، وأن تراجع الخطط والسياسات لإشراك أبناء الأقاليم وإنصاف المناطق المتخلفة في السودان غربه وشرقه.*

***خامسا:** أن تكون القوات المسلحة قومية سلوكاً وتكويناً، وأن يراجع ما يتنافى مع ذلك كله وأن تستمر مشاركة في الأداء الوطني في إطار قومي.*

***سادساً:** أن تتجه سياسة السودان الخارجية لحياد حقيقي بين المعسكرين الدوليين، وفي اتجاه وطني في الصعيد العربي والأفريقي مع معاملة جيراننا العرب في اتجاه الوحدة العربية وجيراننا الأفارقة في اتجاه ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية وحسن الجوار.*

***سابعاً:** أن تراجع نتائج النزاع الداخلية والخارجية وخاصة تصحيح الموقف من تاريخ الإمام الهادي والأنصار، موقفهم الذي أدى بطريق غير مباشرة لتعديل مسار البلاد. وطبعاً يشمل التعديل إعفاء الأحكام وإطلاق سراح المحبوسين السياسيين وفتح صفحة جديدة يحترم فيها الإنسان السوداني وتكفل حقوقه الأساسية.*

هذه النقاط تداولها الوسطاء وجاءوا بما يؤكد قبول الطرف الآخر لها أساساً

للحوار، وكنت أؤكد للجميع بأننا نبحث هذه الأمور من ناحية أننا جبهة وطنية متحدة، وأطلعت الأخوة حسين الهندي وعثمان خالد علي الأمر وأطلعت أيضا جميع أجهزة الجبهة وكانوا جميعاً مع الملاحظات موافقين علي أن نحاول بجدية التوصل لاتفاق لا تقاعساً عن الجهاد ولكن تحقيقاً لأهدافه بوسائل أخرى إن أراد الله ذلك، كما أطلعت أشقاءنا قادة الثورة الليبية الذين وقفوا معنا دائماً موقفاً عربياً صادقاً وعاملونا معاملة إسلامية أخوية كريمة.

لقد قبلت الدعوة للاجتماع في السودان مدركاً أن في الأمر مخاطرة كبيرة، وانتظر إحدى نتيجتين فإما اتفاق عادل، واما التعرض لغدر لن يفيد النظام في المدى البعيد وسيكون دمي أو جسدي داعياً للجهاد وحركة التحرير الديمقراطي في السودان. وقد تركتُ جميع وثائق الاتصالات التي تمت لدي طرف أمين لنشرها إن لزم، وسينوب عنا في مواصلة العمل لجنة مسؤولة فوضتها.

تحياتي لجميع من شاطرنا العمل في المرحلة الماضية داخل السودان وخارجه وخاصة اخوتي المهاجرين المرابطين المجاهدين الذين أجبرني صبرهم علي المشاق أن أحاول جاهداً أن أحقق الممكن من أهدافهم، فإن وفقت فبالله التوفيق.

الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي)

حمل الصادق المهدي إذن نعشه على كتفه وذهب لبورتسودان، ولم يشترط حتى أن يرفع عنه حكم الإعدام الذي حكمته عليه المحكمة غيابياً! موقف تعبر عنه بصدق كلمات مارسيل خليفة الشهيرة.

منتصبَ القامةِ أمشي

مرفوع الهامة أمشي

في كفي قصفة زيتونٍ

وعلى كتفي نعشي!

ولنستأنف السرد من كتاب المصالحة:

(سافر السيدان الصادق المهدي وفتح الرحمن إلي أثينا وهنالك ركبا طائرة خاصة

يصحبها الدكتور بهاء الدين إدريس، واتجها نحو بورتسودان حيث انعقد الاجتماع التاريخي بين الصادق والنميري في يوم ٦/ ٧/ ١٩٧٧ م واستمر حتى صباح ٧/ ٧/ ١٩٧٧ م مستغرقاً عشر ساعات.

في ذلك الاجتماع بدأ النميري بالإشادة بشجاعة السيد الصادق للقدوم لبورتسودان وهو محكوم بالإعدام بدون أن يطلب رفع الحكم عليه، وقال إنه تناغما مع هذا الموقف سيعلن عفواً عاماً ويطلق جميع السجناء السياسيين ويرفع الأحكام عليهم.

وذكر السيد الصادق الأسباب التي دعتهم للتجاوب مع نداء المصالحة، ومنها الحفاظ على السيادة الوطنية وسد منافذ التدخل الأجنبي في الشئون السودانية، والتجربة التي أثبتت أن العنف لا يحقق دائماً الأهداف المرجوة، والسعي لتحقيق الوحدة والسلام والاستقرار وجذب الأموال العربية للاستثمار والتنمية في السودان، بالإضافة لتحول خطاب النظام الحاكم في السودان واتجاهه للهدي الإسلامي.

ودار حوار حول الاتحاد الاشتراكي إذ أشاد به النميري بينما ذكر السيد الصادق مثالبه، وتحدث عن الإصلاحات الضرورية فيه ليكون ديمقراطياً جامعاً بحق للسودانيين، وكذلك الإصلاحات الديمقراطية الواجبة للدستور، كما تم التطرق لوضع الأنصار وضرورة رد الاعتبار لهم والتعرف على قبر الإمام الهادي المهدي، وإعادة دفنه في المكان المناسب بقبة الإمام المهدي، واستيعاب المهاجرين بعد عودتهم في أنشطة مدنية وعسكرية مناسبة.

وفي النهاية تم الاتفاق على ضرورة مواصلة الحوار ولم يخرج بيان رسمي عن اللقاء.

ما بعد بورتسودان

عاد السيد الصادق المهدي إلى لندن، ثم واصل سيره إلى طرابلس في طريقه إلى المعسكر الغربي. وفي طرابلس قابل العقيد معمر القذافي والسيد أبو بكر يونس وذلك في يوم ١٠/ ٧/ ١٩٧٧ م. واستمعا إليه وكان تعليق القذافي: هذه صفحة جديدة وربما أدت إلى تطورات إيجابية، وأضاف: أما العلاقات فأنا مستعد لإعادتها غداً.

وكان هذا التعليق متمشياً مع سياسة ليبيا في تلك الفترة فقد كانت ليبيا قد حسنت

علاقاتها بتونس والمغرب والأردن.

وواصل السيد الصادق المهدي سيره للمعسكر الغربي حيث أطلع المهاجرين علي نتائج اجتماع بورتسودان وأيدوها بحماس بالغ.

ثم عاد إلى لندن حيث عقد اجتماعا للمكتب السياسي للجبهة الوطنية حضره جميع أعضائه في فندق براون في يوم ١٤/٧/١٩٧٧م واتخذ الاجتماع القرارات الآتية:

(أ) أخذ علماً بما دار في بور تسودان وشكر السيد الصادق علي إقدامه وتفويضه لمواصلة الحوار؛

(ب) مراجعة أوضاع الجبهة وإيقاف التجنيد والتدريب؛

(ج) الحرص علي وحدة الجبهة من كل الوجوه؛

(د) عقد اجتماع يشمل ممثلين داخل السودان لتفصيل الخطوات المقبلة؛

وكان السيد حسين الهندي، الذي عرف عنه فيما بعد بمعارضته للمصالحة بشكل مبدئي فيما أبدت تصريحاته، كان حاضراً هذا الاجتماع ومتحمساً لنتائجه.

الشرخ داخل الجبهة الوطنية

الشرخ الذي حدث داخل الجبهة الوطنية لم يكن لأسباب داخلية، بل صدى للسياسة الخارجية وانحياز أطراف داخل الجبهة لليبيا، وهذه هي الحقيقة المرة التي حاول البعض إلباسها لبوس مواقف مبدئية من المصالحة.

في يوم ١٩//٧/١٩٧٧م وقع تصعيد للمناوشات في الحدود المصرية الليبية واعتدت القوات المصرية علي مواقع ليبية في حركة سماها الرئيس السادات تأديبية.

فاتصل السيد الصادق بالسيد فتح الرحمن البشير ورجاه أن يتأكد أن يلزم السودان الحياد، وهم السيد الصادق أن يسافر إلى ليبيا يوم٢١/٧/١٩٧٧م للاطمئنان علي الموقف وخاصة في المعسكر الغربي، واتصل بالسيد حسين الهندي يوم ٢٠/٧/١٩٧٧م وأبلغه بذلك، وقد استحسن السيد حسين الهندي اتصال السيد الصادق بالسلطات السودانية وسفره لليبيا، ونصح بأن يذهب لها بنتيجة موقف

السودان، فاقتنع برأيه وأخّر سفره حتى يأتيه رد على الرسالة. بينما سافر السيد حسين الهندي بشكل مفاجئ لليبيا بدون إبلاغ السيد الصادق وهناك فتح هجوماً على السادات ونميري، وشكك في المصالحة الوطنية، وأعلن في حديث مذاع ومتلفز أنه اكتشف أن وراء المصالحة دول كثيرة، وأنها ليست سودانية بل مفروضة علي السودانيين من جهات أخرى، وقد أذيع ذلك الحديث في يوم ٢١/٧/١٩٧٧م.

ثم عاد للندن يوم ٢٢/٧/١٩٧٧م. وفي لندن اتصل به السيد الصادق (ولم يكن يعلم شيئاً عن حديثه في ليبيا)، وأخبره بأن رد النميري كان إيجابياً، ثم أخبره بأن الأستاذ إسماعيل طه من هيئة الإذاعة البريطانية اتصل به يطلب برنامجاً حوارياً حول المصالحة الوطنية وطلب منه مشاركته في ذلك البرنامج فوافق.

لقاء الإذاعة البريطانية ٢٣ يوليو ١٩٧٧

بالفعل استضاف الأستاذ إسماعيل طه كل من السيدين الصادق والهندي يوم ٢٣/٧/١٩٧٧م (وكانا قد التقيا قبل ساعة من وصوله واتفقا على النقاط المقترحة لحديثهما)، وكان خلاصة ذلك البرنامج المذاع كالتالي:

إسماعيل طه: السيد الصادق المهدي أرجو أن تحدثنا عن المصالحة الوطنية التي تمت في السودان.

الصادق المهدي: هنالك ظروف موضوعية وذاتية ساهمت في التمهيد للمصالحة الوطنية ومن تلك الظروف رغبة الطرفين في سد مداخل التدخلات الأجنبية، وتحقيق الاستقرار للتنمية الاجتماعية، ومنها إدارك الطرفين أنهما متفقان علي بعض النقاط الأساسية مثل التنظيم السياسي الواحد واتفاقية الجنوب. لقد أدرك الوسطاء السودانيون هذه الظروف فمهدوا للقاء الذي أدى للمصالحة، فكانت جميع الاتصالات والإجراءات سودانية خالصة. وعندما تأكدت لنا جدية مشروع المصالحة عقدنا اجتماعاً للجبهة الوطنية، فناقشت الأمر، ووضعت الأسس للمصالحة، وفوضتني بالإجماع لإجراء الحوار، وكان آخر اجتماع للمكتب السياسي للجبهة الوطنية في ١٤/٧/١٩٧٧م قد استعرض نتائج اجتماع بورتسودان ووافق عليها بالإجماع وفوضني للسير قدما في اتجاه المصالحة الوطنية.

إسماعيل طه: السيد حسين الهندي أنت نائب رئيس الجبهة الوطنية فما رأيك في هذا الرد؟

حسين الهندي: إنني أوافق علي كل ما قاله الأخ الصادق المهدي والحقيقة هي أن الشعب السوداني شعب متسامح ولا غرابة في أن يتصالح بل الغرابة في أن يمتنع عن الصلح. وهذه المصالحة سودانية لحماً ودماً، وكل ظروفها وتطوراتها تشبه الطباع السودانية.

(هذا الحديث أذيع من لندن القسم العربي لمحطة الإذاعة البريطانية في يوم ٢٤/٧/١٩٧٧م وأعيدت إذاعته من الإذاعة الليبية يوم ٢٦/٧/١٩٧٧م)!!

اتصالات بالقوى الأخرى

في شهر يوليو١٩٧٧ أطلع السيد الصادق المهدي السيد عز الدين على عامر، القيادي الشيوعي، بأن الجبهة الوطنية استجابت للمصالحة الوطنية وأنه يتوقع من اليسار أن يرحب بالإيجابي من المصالحة وخاصة إطلاق سراح المعتقلين والسجناء السياسيين، وكفالة الحريات العامة، والاتجاه لمزيد من الديمقراطية في السودان. ووافق عز الدين علي عامر على بحث الأمر وانعقد اجتماع ضم السادة عبد الحميد صالح، حسين الهندي، خالد التوم، عز الدين علي عامر في لندن أدي للنتيجة الآتية:

أن يعلن الشيوعيون ترحيبهم بإيجابيات المصالحة الوطنية ذاكرين أنهم ليسوا طرفاً في المباحثات ولا في الجبهة ولكن يهمهم إنهاء العنف وتوسيع مجال الحريات. ولكن الحزب الشيوعي لم يقر توصيات مندوبيه وأصدر بياناً سلبياً عن المصالحة الوطنية.

وفي لندن أطلع السيد الصادق المهدي السيد عبد الرحمن إدريس علي موقف الجبهة الوطنية من المصالحة قبل وبعد اجتماع بورتسودان فأكد له أنه متجاوب مع هذا الموقف.

نكسة مسألة قانون العفو الشامل

في أغسطس ١٩٧٧م جاء السيد فتح الرحمن البشير للندن حاملاً نسخة من قانون العفو الشامل وأطلع عليه السيد الصادق المهدي، وقال له إن السيد حسن الترابي قد

اطلع عليه ووافق عليه وكذلك السيد حسين الهندي اطلع عليه في لندن ووافق عليه.

اطلع السيد الصادق على القانون وأبدى عليه بعض الاعتراضات، وعرضه علي السيد محمد إبراهيم خليل الذي أبدى أيضاً تحفظات.

وفي النهاية أخبر السيد الصادق المهدي أنه من غير المقبول أن يقوم المعارضون بالكتابة طالبين العفو، وقال السيد فتح الرحمن بصعوبة تعديل القانون، واقترح أن يتم الوصول لحل وسط هو أن السيد الصادق لا يحتاج لطلب للعفو، ويمكنه أن يكتب خطاباً نيابة عنهم يقول فيه إن العفو العام ينطبق عليهم، ووافق السيد الصادق على أن يكتب قائمة بجميع المعارضين ويذكر أنهم أهل للعفو العام في إطار المصالحة الوطنية، ويقبلون شروط العفو العام والتعديلات المزمعة بموجب المصالحة، وأعد السيد الصادق المهدي القائمة وسلمها للسيد فتح الرحمن واتفقا على أن ينقل هذا الموقف للنميري.

وبعد سفره زار السادة حسين الهندي وعثمان خالد ومحمود صالح السيد الصادق المهدي وسألوا عن موضوع القائمة، فأخبرهم بما جرى، وأنه لم يوافق على فكرة طلب العفو واتفق على صيغة لا يطلب فيها أحد العفو ولكن تقدم قائمة بالمستحقين العفو تفادياً للحرج، ولكن لا مانع من إيقاف تقديم القائمة حتى نعيد التشاور فيها، وطلب السيد الصادق من السيد محمود أن يرسل تلكس للسيد فتح الرحمن لإيقاف تقديم القائمة حتى إجراء مزيد من المشاورات، ولكنه كان قد قدم القائمة فعلاً وعاد للندن وقابل السادة حسين الهندي وعثمان خالد ومحمود صالح وأخبرهم بأن من يريد سحب اسمه فلا مانع، ويمكن الإرسال بسحب اسمه، ولم يشأ أحدٌ منهم أن يسحب اسمه بل طلب السيد حسين الهندي من السيد فتح الرحمن أن يلحق اسم السيد أحمد زين العابدين بالقائمة فأرسل بذلك تلكس للخرطوم.

وبعد أيام نشرت الصحف السودانية القائمة المشار إليها قائلة إن هؤلاء تقدموا بطلب العفو العام، وهو خبر عار عن الصحة والحقيقة، يتمشى مع ما مارسته أجهزة الإعلام السودانية من إعلام سلبي بالنسبة للمصالحة (باستثناء جريدة الأيام التي اتخذت خطاً معتدلاً).

وتصحيحاً لهذا الخبر أذاع السيد الصادق المهدي بياناً في إذاعة لندن، صحح فيه خبر الصحافة السودانية، وهاجم فيه الذين يريدون إظهار المصالحة على غير حقيقتها استفزازاً لأطرافها وانتكاساً بالبلاد للتوتر والنزاع.

الاتصال بالداخل

أرسل السيد الصادق المهدي السادة إدريس البنا وأحمد عبد الله لإطلاع جماعة الداخل على الموقف والاستنارة بآرائهم. وقاما بنقل تعليقاتهم.

وبعد ذلك تتالت تصريحات من قادة النظام في السودان رددتها أجهزة الأعلام فحواها: إن المصالحة تعني العفو وانخراط المغتربين في سلك الأجهزة القائمة. هذه التصريحات أحدثت نكسة في المصالحة فرأي السيد الصادق انتداب السيد عمر نور الدائم لداخل السودان للاتصال بالمسئولين وتقويم الموقف والنصح بالخطوة التالية.

وكان عيد الفطر علي الأبواب فرأي السيد الصادق أن يذهب السيد ولي الدين الهادي للسودان ليؤم المصلين وليوضح لهم خطوات المصالحة ومبدأها العام. وبعد إقامة وجيزة في السودان عاد الدكتور عمر نور الدائم إلي لندن وكان يري أن الانتكاسة في تطورات المصالحة قد احتويت ويوصي بالمواصلة.

واجتمع القادة الموجودون في لندن وقرروا مواصلة الحوار، وقيام جميع الموجودين في لندن أو غيرها من المدن للسودان. وتقرر أن يتولى الحوار عن الجبهة السادة الصادق المهدي وحسين الهندي وحسن الترابي. وقبل الذهاب للخرطوم اقترح السيد الصادق أن يتم اجتماع مع القادة الليبيين.

اللقاء بالقذافي حول المصالحة

سافر السيد الصادق لطرابلس وقابل السيد أبو بكر يونس وفي يوم ٢٥/٩/١٩٧٧ قابل هو والسيد حسين الهندي العقيد معمر القذافي ودار نقاش خلاصته كالتالي:

الصادق: لقد تطورت المصالحة الوطنية في السودان ومواصلة لها سندخل السودان، ونريد أن يكون واضحاً أنكم تؤيدون المصالحة وتتخذون الإجراءات التي ترونها لتأكيد هذا الموقف.

القذافي: كيف تطمئنون لجعفر نميري؟ لقد جربناه كثيراً ونعتقد أنه لا يفي بما يقول: إننا نثق فيكم ولكن لا نثق فيه ولا نعتقد أن خيراً يمكن أن يحدث للسودان بالاتفاق معه.

الصادق: المصالحة تحكمها ظروف موضوعية، فمن ناحيتنا لم تعد أثيوبيا باتجاهها الجديد أرضاً صالحة، كما أن تجمعنا الجبهوي ليس متماسكاً بالقدر الكافي، وانحصرت التضحية في قاعدة ضيقة جداً في صفوفنا وفوق هذا صار التوتر الداخلي السوداني مدخلاً لنفوذ خارجي لا نرضاه، ومن ناحية النظام السوداني فإنه أدرك أن القهر مهما كسب من معارك لا يمكن أن يضع حداً للمقاومة وأن مشروعات التنمية محتاجة للاستقرار في السودان وأن توجيه المقاومة ضده من جبهتي (ليبيا وأثيوبيا) والاستفادة من الإذاعات الصديقة يجعله محاصراً ومضطراً أن ينفق كثيراً علي الأمن دون إزالة لشبح الخطر وللجو النفسي القلق الذي يثيره التوتر. وإن الثاني من يوليو قلب بعض المسلمات فقد كانت السيطرة علي القوات المسلحة النظامية كافية لتأمين النظام ولكن الدرس الجديد هو أن القطاع المدني إذا اندفع بحوافز كافية قادر علي استيعاب السلاح والتدريب وتهديد أمن النظام وربما الإطاحة به، وقد كاد ذلك يحدث في يوليو ١٩٧٦م لولا الصدف، فالنظام يعلم أن الانتصار فاتنا في يوليو بمحض الصدفة. هذه الظروف الموضوعية المدركة لدى الطرفين هي الأرضية التي تقف عليها المصالحة وليس الأمر متعلق بشخصية النميري وحدها. ولكن حتى في نطاق شخصية النميري فإنني لمست تغيرات إيجابية توحي بالثقة فهو ينطلق من فكر إسلامي الآن ولم يكن يعترف به في الماضي، وهو يدرك الوزن السياسي لمخالفيه الآن ولم يكن يعترف بذلك في الماضي، وهو قد احترم معي كلمته إذ دخلت السودان وخرجت دون ضمانات من أي جهة ولم يكن هذا عهدي به في الماضي، لأنني اعتقلت في المرة الأولى مع أنني كنت قد دعيت لاجتماع حوار في ١٩٦٩/٦/٤م. علي أي حال هذه التقديرات الذاتية قابلة للخطأ ولكنها لا تبيح لنا أن نتردد في أمر نرى فيه فرصة لمصلحة وطنية كبري.

القذافي: ولكن كيف الضمان أن يدخل النميري معكم في مفاوضات لأنه لم يعلن أنه بصدد ذلك؟

حسين الهندي: النظام السوداني لا يريد أن يعترف بنا كجبهة، ولا أن يعترف بأنه

داخل معنا في مفاوضات، وقد أعطى وزناً أكبر للأنيانيا، فاوضهم وأعلن ذلك، ويحسن بنا أن نضمن اعتراف النظام بنا واعترافه أنه داخل في تفاوض معنا.

الصادق: النظام يخاطب مجموعة صاحبة رأي وحملت السلاح ولا زالت تحمله، والنظام يعلم أننا نقول إننا نحاوره ونعلن ذلك في إذاعات العالم وجرائد العالم. ولم يلزمنا النظام أن نتخلي عن آرائنا لكي يحاورنا، والحوار لا يعرف أيؤدى إلى نتائج أم يخفق ولا بد للنظام أن يحتاط لأمنه. وموقفنا ليس كموقف الانيانيا، لأن لنا تداخلاً عضويا مع القواعد السياسية والأمنية التي يستند إليها النظام وهذا لا ينطبق علي موقف الأنيانيا. لهذه الأسباب مجتمعة فإنني إذا سمح لي النظام أن أعلن آرائي عن المصالحة وعن أسسها وأن أناقشه بصراحة وحرية فإنني لا أهتم بالشكليات المشار إليها، ولا أعتقد أنها ذات قيمة. إننا لن نبدل آراءنا، وإذا ضاق بنا النظام فأمامه خياران: أن يقتلنا أو يحبسنا. أما قتلنا فهذا ممكن ولكنه أيضا ممكن خارج السودان بل إنه أسهل وأفضل خارج السودان ونحن غير محتاطين لأنفسنا وحركاتنا معروفة وأنا شخصيا ظهرت أربع مرات في منابر علنية منذ صدور حكم الإعدام علي ولم ألحظ مؤخراً متابعة بقصد القتل. أما الحبس فإن صح أن ثمة ظروفاً موضوعية تفرض المصالحة فإن الحبس لا يزيد الأمر إلا ضيقاً والنظام إلا حرجاً والمعارضة إلا تصعيداً.

القذافي: هذا منطق سليم فليكن علي بركة الله، ولكن يحسن ألا يوضع كل البيض في سلة واحدة.

الصادق: إن الذي يهمني أن نتبادل غرس الثقة نحن والنظام السوداني لأنه مفتاح المصالحة الحقيقي، وسنبدأ بإيقاف الإذاعات الموجهة فأرجو أن تصدروا أمرا بإيقاف إذاعتنا من صوت الوطن العربي.

القذافي: مناسب وفقكم الله) [1].

ودع همومك إذ تودع لندنا!

في يوم ٢٦/ ٩/ ١٩٧٧م توجه السادة الصادق المهدي وحسين الهندي للندن

(١) نقلا عن كتاب المصالحة الوطنية بتصرف طفيف اختصارا وتحريراً

للتوجه بعد ذلك للسودان.

أظن الصادق وهو يأمل في غد يشرق عليه داخل بلاده الحبيبة التي لا يحب الابتعاد عنها كان ينشد مع دكتور الزين عباس عمارة:

ودع همومك إذ تودّع لندنا

وارحل إلى السودان قلبا آمنا

واترك على أرض المطار بطاقة

اكتب عليها بئس ذكرانا هنا

إن تذكرونا اذكروا أحزاننا

ستظل أبد الدهر جرحاً كامنا

كم مرة راودت نفسي قائلا

العود أحمد فليكن مستحسنا

وأي أحزان مرت على الصادق في لندن، وفي ديار الغربة! ذهب وفي قلبه جرح أبا وودنوباوي والكرمك، وزاد هناك جرح يوليو ١٩٧٦: الأرواح الطاهرة التي فاضت، والدماء العزيزة التي انسكبت، والأهل والأحباب الذين نكّلوا وحبسوا فحولوا الزنازين إلى ساحات عبادة ومصابرة.

وكنا نسمع من هنا وهناك من يقول لنا إن الصادق هو «حمام الوادي» في الأغنية الشهيرة للفنان حمد الريح وكم كانت تعذبنا كلماتها «صغارك مشتهين ترجع. تضم العش بحنية»، ومن يقول إن الفنان عبد الكريم الكابلي أسرّ بأنه يعني الصادق بأغنيته التي فيها:

غريب والغربة أقسى نضال

غريب والغربة سترة حال

قريب وبعيد حضور وزوال

تروم الأصله ما بنطال

تراقب في المجرة زوال

عيونك ما عيون أجيال

والله أعلم بمدى صحة ما كان ينقل إلينا فيجعل الألحان مُدرّة للدموع!

الشاهد، حول ذهاب الشريف مع السيد الصادق يقول كتاب المصالحة:

(في الطريق اعتذر السيد حسين الهندي للسيد الصادق عن السفر للسودان بأسباب شخصية قبلها السيد الصادق واتفق معه على:

(أ) أن يكتب السيد حسين الهندي للنميري مؤيداً المصالحة ومفوضاً الصادق في الحوار الذي سيدور بينه وبين النميري.

(ب) أن يلتزم السيد حسين بعدم التعليق علي الأحداث السياسية لحين عودة السيد الصادق والاستعراض المشترك والقرار حول الخطوة التالية.

(ج) أن ينتدب السيد حسين الهندي ممثلاً عنه وعن جماعته ليكون داخل السودان.

ووافق السيد حسين الهندي علي ذلك وكتب خطاباً للنميري، نشرته جريدة الأيام كان فيه مؤيداً المصالحة ومفوضا لتكملة إجراءاتها)[1].

أما خطاب الشريف الهندي المذكور فقد أورده الدكتور حسن مكي، وقال إن صحيفة الصحافة نشرته في ٢٧ سبتمبر ١٩٧٧ نقلاً عن الأيام، جاء في خطاب الهندي رحمه الله: «كان الأخ الرئيس جعفر وحده القادر على تحديد الاتجاه بمبادرة منه، ما كان غيره يملك حق طرحها أو يستطيع المناداة بها. ونحن استجبنا للمبادرة لأننا نعلم أن لأخ الرئيس القائد بمبادرته عبر عن رغبة الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية في لوحدة الوطنية الشاملة، ولأننا نثق في الرئيس وفي وطنيته وجديته وصدق نواياه»[2].

وفي النهاية عاد عدد من القيادات على رأسهم السيد الصادق المهدي في يوم الثلاثاء ٢٧ سبتمبر ١٩٧٧م الموافق ١٣ شوال ١٣٩٧هـ.

---

(١) نفسه

(٢) حسن مكي، تاريخ الحركة الإسلامية، سابق ص ٣١٦-٣١٧

عاد السيد الصادق برغم تقارير جاءت تنبه إلى أن الوضع الأمني حرج، وفقما روى السيد غراهام توماس الذي أكد أن السيد أمين التوم قطب حزب الأمة أرسل رسالة للوالدة سارا رحمهم الله أجمعين مفادها (إن الأمن هنا سيء جداً)، وإن حياة الصادق نفسه قد تتعرض للخطر. وقال المستر توماس إن السيد الصادق جادله قائلاً: لقد أعطيت كلمتي بالذهاب، وسأحافظ على هذه الكلمة مهما حدث. إذا كانت مشيئة الله أن أقتل فسيتم ذلك سواء في السودان أو لندن أو في باريس[1].

ملامح من العودة: أقدامي لم تمس الأرض!

يروي توماس بعض مشاهد العودة: (كان استقبال الصادق في مطار الخرطوم مذهلاً: كانت فرقة الاستقبال الرسمية تتشكل من ٤٠٠ رجل كل منهم يود مصافحة الصادق. بعد ثماني سنوات من الدكتاتورية كان الترحيب لا يكاد يُصدق! فقد استغرقت قيادة السيارة عشرة أميال من المطار إلى القبة خمس ساعات. هكذا كانت الجماهير كثيفة في حشودها. وعند القبة كانت الجماهير التي تنتظر هائلة، حتى أن الصادق لم يستطع توجيه الخطاب إليها حتى الساعة الثانية صباحاً. لقد هاتف سارا التي بقيت في بريطانيا في الساعة ٣٣٠ صباحاً يقول لها: إن أقدامه لم تمس الأرض. كانوا يحملونه «حرفياً» إلى كل مكان. وكانت هناك ملاحظة غير سارة من الاستقبال، وهي أن السيد أحمد عبد الرحمن، عم الصادق، لم يذهب إلى المطار للقاء ابن أخيه، بل ذهب إلى بيت العائلة في صبيحة اليوم التالي، ولم يسمح له الأنصار الذين كانوا متجمهرين حول البيت بالدخول، لأنهم لم يكونوا يوافقون على سلوكه تجاه نميري ولا يرتضونه. لذا كان على الصادق أن يخرج شخصياً ليُدخله، لكن أحمد لم ينضم إلى الصادق والمحيطين به ويتحدث معهم بل جلس مع السيدة رحمة وأخذ يحادثها)[2].

قوبل العائدون بترحاب عظيم. وإن كان في المصالحة شيء من حتى، فالبعض وعلى رأسهم والدتي السيدة سارا رحمها الله، وكانت حينها في إنجلترا، لم يكن ينتظر من المصالحة الكثير فقد كانت آيسة من أن يفي الطاغية بوعد ولكنها كما قالت وكررت قد رضخت لرأي المؤسسة القاضي بالسير في اتجاه المصالحة على أساس (الكضاب

(١) غراهام توماس، مرجع سابق ص ١٧٠
(٢) نفسه ص ١٧١

وصله لحد الباب)، وكانت مريم أختي كذلك متوجسة فيما أذكر وحينها كانت في الثانية عشر من عمرها، ولكنها كانت مجاهرة بعدم استساغة مصالحة نظام الغدر. ولكن الأصوات المتوجسة كانت قليلة، والجو الغالب كان هو الفرحة بطي صفحة الطحان الذي إنما كان يقع على رأسنا. لا أذكر أني كطيرٍ من طيور ذلك الزمان كان لي رأيٌ حول المصالحة أسديدة هي أم لا، ولكن موقف أمي ظل مطبوعاً برأسي عن المصالحة بتوجساتها، بيد أن قدوم الوالد الحبيب الذي نتج عنها كان قطعاً أمراً مدهشاً ومستحباً مسح كل ما عداه.

فجأة تغير بيتنا الذي كان خلواً إلا من صولاتنا التي يضبطها العم المرحوم عبد الله مسبل متأكدا من أن كل شيء يجري على ما يرام، ليكون مكانا لزرافات من الناس ووحدانا تلج إليه وتقيّل فيه، وفرق المادحين التي ما كانت تزور إلا لماماً صارت مسألة يومية، فكنا نتحلق كلما جاء العم المرحوم عبد الكريم المادح رحمه الله، أو عابدين أمد الله في عمره.

وكان لمديح الأخير (زين العابدين محمد عبد القادر) طعم مغاير، فهو يتحدث عن همومنا اليومية في مدائحه، ويمدح الأنصار جماعة، والمهاجرين، وكانت أبدع مدائحه تلك التي أنشدت في مهرجان أعد لعودة المهاجرين من ليبيا، وفيها: (المهاجرين.. أكرمهم بالدارين.. يا الله) وهي على لحن أغنية الفنانة عائشة الفلاتية (يجو عايدين)، وقد كان بعض النسوة يغنينها من قبل قائلات: (يجوا عايدين.. الصادق ونصر الدين.. يا الله) ونصر الدين هو عمي السيد نصر الدين ابن الإمام الهادي وكان قد ذهب للهجرة وشارك في انتفاضة ١٩٧٦م وهو في زهرة شبابه، وكان دائماً قريباً من ابن عمه الأكبر، وأعتقد لمجاهداته تلك ولكونه ابن الإمام الشهيد الذي فارقه في حال وصال واتفاق عوض كل ما مضى من شقاق بشكل مدهش كما ذكرنا، فإن نصر الدين حاز لدى الصادق مكانة لا أظن قد حازها مثله أحد، اللهم أعد المياه إلى مجاريها كاملة، وقد بدأت تعود!

أما مدحة الحبيب عابدين بمناسبة عودة المهاجرين ففيها:

جدوا سايرين

الماهم حايرين

فى الله غايرين

بالفرحة طايرين

لامامهم زايرين

فى الحلقة دايرين

الغر النايرين

هم على حق

وأعداهم جايرين

كذلك كانت هناك مدائح وأغنيات النسوة.. فها هي المغنية الشهيرة عشة أم رشيرش تؤلف أغنيتها:

تتعلى فوقو وتزيد .. سنين سيفك زي خالد بن الوليد

وكذلك المادحة بت ود أب شريعة المادح المعروف، ألفت أغنية خاصة بالعودة، فيها:

حمد لله بسلامته الجانا.. ليك الحمدو يا مولانا

جيت لي سارا جيت لي حفية

جيت لي أملك المرضية

هذا كل ما بقي في الذاكرة من تلكم الأغنيات وكنا ندندن بها زمنا طويلاً.

إن عودة نفحات الحرية هذه لا تقدر بثمن.

فقد كان النظام المايوي قبرنا إعلامياً، وسعى لقبرنا اجتماعياً بمنع كافة مناشطنا ومنها حلقات المديح والراتب وكل ما ينعش العقيدة الأنصارية، وذلك بعد أن قبر الآلاف منا حسياً في مجازر أبا وودنوباوي والكرمك على النحو الذي فصّلنا. وكان برأيي فتحا كبيراً مجرد أن نوجد على خارطة الوطن، وأن يتاح لقاؤنا وتسأنف تجمعاتنا وقد منعت حتى تلك الخالية منها من أي عمل سياسي.

لقد كانت التجمعات الأنصارية ممنوعة مثلما فعل كتشنر ومن بعده ونجت وكانوا يحرمون على الأنصار حتى حلقات الراتب، وحينما كان الأنصار يجتمعون في ليالي المولد أسوة بغيرهم من الكيانات الدينية، كان أمن مايو لهم بالمرصاد، كان أي مديح للسيد الصادق يقابل بتنكيل المادحين. وللعم المادح عابدين قصص يرويها حول تلك الأيام. فهو كان دائب التأليف لمدائح السيد الصادق والمهاجرين معه إبان ذلك العهد الظلامي.

ومدائح الحبيب عابدين في الحبيب الصادق كثيرة ورائعة لا تعد ولا تحصى ولكننا محرومون منها ففي المناسبات التي ينشد فيها غالباً ما يكون الحبيب السيد الصادق شاهداً وقد حرّم على المدّاح مدحه بحضرته.

من مدائح الحبيب زين العابدين أحمد عبد القادر: (يا الصادق تعيش)، ومنها (يا أمة هذا معلمّك) وفيها:

الصادق كم كم كلمك	أوعى الكابوس لا يلمك
دا طبيبك اشكى تالمك	إن سلمتيله بسلمك
مظلومة خلى تظلمك	فارقتى دربك وسلمك
ما تطاوعى طاغية يلجمك	الصادق هذا مترجمك
يحسن خلاصك ينجمك	انقادى سبيى تهجمك
مفهوقه خلى يحجمك	قبل الأيام ما تسجمك

ومن أحب مدائح عابدين في السيد الصادق إلى قلبي مدحته (الصادق المصدوق):

الصادق المصدوق.. أنا ناوي ليه

من بلاغته ان شاء الله نضوق..

يا قبلة الأنصار

جده المهدي سيد الغار

الخلانا نقدل احرار

ظلامنا بقى نهار.. ارح نمشي ليه

اليوم الاعتقلوه

معناه ما عرفوه

والله كان خبروه

بالشينة ما بمسوه.. ارح نمشي ليه

الشاهد، لقد صار بيتنا فجأة نادياً وليس منزلاً كما كان، وهي الصبغة التي لازمته منذ ذلك الحين وحتى اليوم.

ومن الأحداث التي لا تنسى في ذلك الزمان، أنه كان لدينا مستخدم أجنبي سرق بعض المال والحلي من والدتي السيدة سارا رحمها الله فأبلغت الشرطة، ولدى التحقيق ذهب بعض العاملين والملازمين من الأنصار بالمنزل كشهود، ولكنهم قبضوا على أحد أخلص الملازمين وهو محمد علي الميدوبي، وكان رجلاً نحيلاً طويل القامة صامتاً تقياً مخلصاً ناير المحيا يحبه الجميع، وفجأة تحوّل من شاهد إلى متهم وحينها ذهبت الوالدة وقالت لهم إن محمداً هذا ابني ولا يمكن أن يكون سارقاً، ولو كان السارق فأنا عافية عنه، وطلبت منهم إطلاق سراحه ولكنهم لم يفعلوا. وقيل إن سلطات الأمن اتخذت الحادثة ذريعة لتسأله عن بعض ما يدور في المنزل تجسساً فأبى الإدلاء بأي شيء وعذبوه حتى قتل بأيديهم.

كانت فاجعة محمد علي كبيرة بحق، وستظل مدرجة ضمن جرائم ذلك العهد اللئيم.

وكان أخي محمد أحمد الصغير حينها في حوالي الثالثة من عمره، واتفق أن ذهب مرافقا للسائق الذي كان يتسوّق في العمارات (شارع ١٥) تاركاً الصغير في السيارة غير مقدّر لمقدراته، إذ استطاع (مدد) أن يفتح الباب ويخرج ووجد صبية صغاراً يلعبون فأتم اللعب معهم حتى إذا صار الزمان عصراً وتفرّق الصغار كل لذويه ظل لوحده، وسلمه أهل المنطقة لنقطة الشرطة ليسلموه لأهله، فتوجّس من الشرطة وكانت حادثة محمد علي لا تزال حية تسعى روايات وحسرات، فقال لهم إن اسمه محمد أحمد وإنه يسكن في الملازمين بجوار الإذاعة (لكن يا ناش البوليش أوعى تكتلوني زي ما كتلتوا

محمد علي)! وكان حينها يقلب السين شيناً!

المفاوضات داخل السودان

قلنا إن السيد الصادق عاد للسودان في أواخر سبتمبر، واستقبل ذلكم الاستقبال الأسطوري، وتحوّل عالمنا إلى مهرجان.

فلننقل تفاصيل ما دار من كتاب المصالحة الوطنية:

(وفي الفترة ما بين ٢٧/٩/١٩٧٧ و١١/١٢/١٩٧٧ تمت اجتماعات عديدة بين السيد الصادق المهدي والنميري استغرقت عشرات الساعات ونتيجة لذلك تم الآتي:

***أولا:** قيام لجنة موسعة قومية لرد المظالم وإزالة آثار النزاع الداخلية ورد اعتبار المواطنين مادياً وأدبياً.*

***ثانيا:** دعمت لجنة مراجعة القوانين لبعث التشريع الإسلامي في النظام القانوني بأسلوب عصري نموذجي.*

***ثالثا:** اتفق علي سياسة البلاد الخارجية في ظل المصالحة*[1].

***رابعا:** مراجعة تكوين الاتحاد الاشتراكي لأنه تكون في حالة انقسام وفرقة، ليكون مفتوحاً وديمقراطياً من القاعدة للقمة، وأن تسقط معالمه الديوانية، وأن تصفى علاقته بأجهزة الأمن، وأن تعطي المنظمات الفئوية والجماهيرية المكونة له استقلالاً أكبر في تصريف أغراضها الخاصة بها، وأن يكون تكوينها ديمقراطياً وشاملاً لكل سوداني أو سودانية مؤهلين. وأن يكون هذا الحزب الحاكم فعلاً لا أداة للجهاز الحاكم، وأن تراجع وتصحح علاقاته بالحكم الشعبي المحلي، وأن يوسع الولاء له ليكون وريثاً لكل إيجابيات الحركة السياسية السودانية الحديثة، ومولوداً شرعياً لكل الثورات السودانية، وأن يراجع أسمه ليكون له اسم يتجاوز مرحلة الانقسام، علي أن يترك للرئيس نميري تحديد متي تتم هذه الإصلاحات.*

***خامساً:** أن يعدل الدستور لإدخال الروح الجديدة فيه (الوحدة الوطنية الشاملة) وأن*

---

١) مذكرة البلاد الخارجية المقترحة منشورة في كتاب المصالحة الوطنية

يوضع فيه ضابط إسلامي للتشريع. وأن يؤكد استقلال القضاء. وأن تلغي المواد المقيدة للحريات. وأن توسع صلاحيات مجلس الشعب، علي أن يتولي الإشراف علي هذه المهام لجنة موزونة التكوين لاقتراح التعديلات الدستورية المتفق عليها من حيث المبدأ، ليكون الدستور أكثر ديمقراطية وأكثر إسلامية، ثم تحال التعديلات لمجلس الشعب.

سادساً: اتفق أن يوكل لنقابة المحامين باعتبارها جهاز قومي مهمة دراسة النصوص الدستورية المقيدة للحريات، والقوانين المقيدة للحريات لإلغائها والاكتفاء بالقانون العادي والجهاز القضائي حامياً ضد الجرائم السياسية.

وقد تقدم المحامون في يوم ٢٧/ ١١/ ١٩٧٧م بمذكرة مفصلة لإلغاء النصوص الآتية:

(أ) إلغاء النصوص الدستورية التي سمحت بإصدار قوانين مقيدة للحريات.

(ب) إلغاء الأمر الجمهوري رقم «٣».

(ج) إلغاء الأمر الجمهوري رقم «٤».

(د) إلغاء قانون العمل السياسي المحظور.

(ه) إلغاء قانون ممارسة السيادة الشعبية وتنظيم العمل الوطني لسنة ١٩٦٩م.

(و) إلغاء قانون أمن الدولة ١٩٧٣ وتعديله ١٩٧٥م.

ورفعت هذه النقاط المذكورة لرئيس الجمهورية فأحالها لجهات الاختصاص لدراستها ودرست وقدمت وأعدت للإرسال للجهات التشريعية المعنية وقدمت في صيغتها النهائية لرئيس الجمهورية.

سابعاً: تمت الموافقة علي إصدار بيان وفاقي عن حوادث الجزيرة أبا وود نوباوي فيه رد اعتبار للإمام والأنصار، وفتح الباب للمصالحة التامة والوحدة الوطنية علي أساس الإصلاح والتوافق. وكذلك تم الاتفاق علي إصدار بيانات لرد الاعتبار لكل من لحقه أذى أثناء سنوات النزاع.

ثامناً: وتمت الموافقة علي فتح باب المراجعة لكل الأداء الوطني كالحكم الشعبي المحلي، التنمية والاقتصاد وغيرها، وذلك لتدعيم الإيجابيات وإطراح السلبيات. ولتحقيق ذلك كتبت لجنة دراسية دراسة للحكم الشعبي المحلي علي ضوء الإصلاحات المزمعة وحولت للجنة مراجعة الحكم الشعبي المحلي.

كما أرسل مشروع للفصل بين السلطة التشريعية والتنفيذية في المديرية. وكتب السيد الصادق المهدي مذكرة عن الإصلاح التنموي والاقتصادي سلمت للنميري.

وهكذا يتضح أن جميع القضايا المطروحة قد تناولها البحث والاتفاق وهذا ما صرح به النميري لرويتر ونشرته الأيام في يوم ١٦/٢/١٩٧٧م إذ قال إنني قد حسمت مع الصادق المهدي جميع القضايا التي طرحها واتفقنا عليها.

ولكن هذه الأشياء لم يخرج بها بيان واضح للناس، فظلت حبيسة مجالسها لدرجة بعيدة).[1]

كذلك تمت لقاءات جمعت عددا من قادة المصالحة، ويروي السيد الصادق طرفة وقعت في إحدى تلك اللقاءات قائلا: (*بعد عودتنا للسودان في ظل المصالحة دعا جعفر النميري لاجتماع تعارف حضره عدد من قادة المعارضة وكان من بينهم المرحوم السيد عبد الماجد أبو حسبو، وفي الكلمة التي ألقاها نميري قال إن المصالحة سمحت لنا أن نتعارف، فأنا قبل هذا اللقاء كنت أظن أن الأخ أبو حسبو «أبيض» اللون (باعتبار أن هذا هو لون البشرة الغالب على أسرة أبو حسبو ولكن عبد الماجد كان شديد السمرة)، تضايق عبد الماجد من هذه الملاحظة ولذلك عندما جاء دوره ليتكلم قال صحيح إن المصالحة أتاحت لنا فرصة التعارف، فأنا قبل أن أقابل نميري كنت أظن انه مبرقع (أي كلون النمر!!))*[2]

نكسة أخرى للمصالحة

أصيبت المصالحة بنكسة أخري عندما ذهب السادات للقدس وقام بمبادرته فأيدها لنميري وكان السيد الصادق المهدي يري أن يتخذ السودان موقفاً مستقلاً مستمداً من

(١) نقلا عن كتاب المصالحة الوطنية بتصرف

(٢) من كتاب الفكاهة ليست عبثاً

التضامن العربي وموجهاً نحو شجب المبادرات الانفرادية لأنها تضر ولا تنفع.

وفي يوم ٨/ ١٢/ ١٩٧٧م تم اجتماع بين النميري والصادق تبادلا فيه وجهات النظر حول الموقف وكان النميري مؤيداً للموقف المصري مبرراً له والصادق مخطئاً له معتبرا إياه هدية للإسرائيلين بلا مقابل[١].

وفي النهاية سوف نرى أن المصالحة التي لم تعلن بشكل رسمي إلا في يوليو ١٩٧٨م، سوف تفجرها اتفاقية كامب ديفيد في أكتوبر من نفس العام.

***

كنا ذكرنا آنفاً المواقف المتذبذبة التي اتخذها المرحوم الشريف حسين الهندي تجاه المصالحة، وارتباطه بمواقف القيادة الليبية. فمع مشاركته في لقاء البي بي سي في يوليو ١٩٧٧م مؤكداً أن المصالحة سودانية لحماً ودماً، وبعد أن أرسل خطاب التأمين على المصالحة مع السيد الصادق لدى عودته في سبتمبر ١٩٧٧م، وبعد أن ضمن اسمه قائمة العفو وطلب إلحاق اسم السيد أحمد زين العابدين، إلا أنه أطلق تصريحات كثيرة مضادة للمصالحة. مشكلة الشريف هي أن القاعدة الاتحادية التي وافقته في الخط الصدامي كانت ضئيلة للغاية، لذا فقد حاول أن يجر معسكرات الأنصار إلى خط مخالف لقيادتها حتى تواصل معه في المواجهة المسلحة. في الفقرات المطولة التالية سوف ننقل ما جاء في كتاب المصالحة الوطنية حول تلك المحاولات، والتطورات التي جرت بعد ذلك من عودة للعلاقات السودانية الليبية، وانتخابات المجالس الشعبية، وتعيين النميري للسيد الصادق في الاتحاد الاشتراكي الذي رفضه، ثم استمرار المفاوضات، وأخيراً اتفاق الهندي مع النظام في فبراير ١٩٧٨:

الهندي ومعسكرات الأنصار

(في ١١/ ١٢/ ١٩٧٧م سافر السيد الصادق المهدي للندن فوجد أن السيد حسين الهندي قد فتح جبهة ضد المصالحة وجند لذلك الصحف وتخلى عن كل التزاماته السابقة للسيد الصادق بعدم التعرض للموضوع الي حين لقائهما واتفاقهما علي الخطوة

(١) كتاب المصالحة الوطنية

التالية. فاجتمع مع زملائه بلندن وقرروا أن السيد حسين الهندي يتصرف تصرفات غير منضبطة والتعاون معه يفقدهم الجدية ولذلك ينبغي عدم التعاون معه.

وفي سؤال وجهه مندوب النهار الديني للسيد الصادق المهدي في ٢٠/١/١٩٧٨م قال المندوب: لحسين الهندي وهو نائب رئيس الجبهة مواقف مخالفة فهل هذا يعني أن الجبهة قد انشقت أو قد أنه عزل منها؟ فأجابه بالآتي: نعم إنه الآن يعارض قرارات اشترك فيها وهذا نوع من السلوك السياسي لا نحب أن نتعامل معه ولا أن ندخل به ساحة العمل السياسي السوداني ولذلك قررنا ألا نتعامل أو نتعاون مع الأخ حسين الهندي وليس الموضوع موضوع عزل، فالجبهة تنظيم اختياري.

قام السيد حسين الهندي بالتنسيق مع أحد قادة المهاجرين وهو السيد حسين شيبون الذي اشترك معه في اتجاه معارضة المصالحة، قاما باختيار مجموعة من الأنصار من الشرق (إثيوبيا) ليحضروا لليبيا كوفد يتفقد أحوال المعسكر الغربي ويعزي رجاله في شهدائهم. أما السبب غير المعلن للزيارة فكان التحرك داخل الأنصار بشكل خلافي.

سافر الوفد من أديس يصحبه أحمد سعد وحسن دندش واتحاديان آخران ووصل إلى طرابلس وهناك قابلهم السيد حسين الهندي ولأول مرة أطلعهم علي المهمة الحقيقية لوفدهم وهو التدخل لتغيير قيادة المعسكر الغربي باعتبارها قيادة منحرفة، وصرف النظر عن المصالحة لأنه «لا مصالحة بعد موت الشهداء والتنكيل بأهلهم» كما قال.

طالب أحد أعضاء الوفد أن يقابلهم السيد الصادق المهدي لتأكيد هذا الاتجاه، فالهندي كان يطرح معارضته للمصالحة كأنها شيء متفق عليه بينه وبين السيد الصادق علي أساس أن يكون واحد مرناً والآخر متشدداً. لم يوافق السيد حسين الهندي علي مقابلة الوفد لرئيس الجبهة وقال لهم إن عليهم تنفيذ ما يؤمرون به، ولكيلا يحدث هذا الشخص وزميلاه ارتباكا للوفد أخّر ثلاثتهم في طرابلس وأعد طائرة خاصة لسفر بقية أعضاء الوفد للمعسكر الغربي.

وكان بعض رجال السلطة الليبية متفق معه في كل هذه الخطوات، ولذلك قاموا باستدعاء الرئيس الإداري والرئيس العسكري للمعسكر الغربي لكيلا يكونا هناك عندما يصل الوفد القادم من الشرق، وفعلا غادرا المعسكر يوم ١٣/١/٧٨ ووصل الوفد إلي

المعسكر يوم ١٤/ ١ / ٧٨ .

هذه التحركات مضاف إليها ما قرأ رجال المعسكر الغربي من تصريحات السيد حسين الهندي بأن المعسكرات تابعه له جعلت رجال المعسكر مرتابين، ولذلك عندما وصلهم وفد الشرق وجدهم في شك كبير من أمره.

وبعد الطابور تقدم السيد حسين شيبون وخطب مقدماً تحيته وتحية زملائه بالشرق وقال إننا حضرنا للتحية والعزاء، ولكي نوضح لكم الحقائق لأنكم هنا في الخلاء لا تعلمون شيئاً عن مجريات الأمور. العبارة الأخيرة أكدت شكوك رجال المعسكر، فاعتقلوا الوفد وكتبوا لحامية الكفرة يؤكدون أن هؤلاء الجماعة منا وإلينا وقد وصلوا إلينا وذكروا أموراً تحدث خللاً في النظام، ولذلك فإننا سوف نحتفظ بهم حتى وصول السيد الصادق المهدي الذي نرجو أن تخبروه بالموقف ليصل إلينا . هذا هو ما جاء في خطاب لجنة المعسكر لأبوبكر سليم المنتدب من حامية الكفرة للتعامل مع معسكر الأنصار بتاريخ ١٥/ ١/ ١٩٧٨ م.

عندما تصرف الأنصار بهذه الطريقة شعرت السلطات الليبية المتعاونة مع الهندي في مشروعاته بتورطها في الأمر، وسعت بكل الوسائل ترغيباً وترهيباً لفك الوفد المعتقل دون جدوى. واستطاع رجال المعسكر أن يوصلوا الخبر للسيد الصادق عن طريق آخر وهو إرسال مندوب بالطريق البري لطرابلس، حيث سلم خطاباً للحاج عبد الرحمن نقد الله وحمله الحاج إلي لندن فوصل يوم ٢٤/ ١/ ١٩٧٨ م وسلمه للسيد الصادق المهدي.

كان الخطاب الذي يحمله من لجنة المعسكر الغربي فحواه: لقد حضر إلينا وفد من الشرق وقالوا حديثاً مريباً، ولذلك أبقيناهم معنا حتى حضور السيد الصادق المهدي والتحقيق في الأمر، وكتبنا بذلك الموقف لحامية الكفرة.

ذهب السيد الصادق لطرابلس لمقابلة العقيد القذافي في أمر العلاقات السودانية الليبية، ولمعالجة الموقف الذي طرأ في المعسكر الغربي، وقابله في طرابلس في ٣٠ يناير ١٩٧٨ م. ونصحه بحسن وفادة الوفد السوداني القادم لطرابلس بشأن العلاقات السودانية الليبية، كما تفاهما حول قضايا أخرى.

أما بالنسبة للمعسكرات، ولكي يخرج السيد حسين الهندي من التورط الذي وقع

فيه وأوقع فيه معه بعض رجال السلطة الليبية دبر معهم خطة إرسال خبر عاجل للسيد ولي الدين الهادي المهدي ليحضر فوراً لحل أزمة ربما أدت لقتال بين الأنصار وحامية الكفرة. وحجزوا لولي الدين في طائرة تقله من لندن إلي بنغازي حيث أقلته طائرة الكفرة، وفي مطار بنغازي سأل عن السيد الصادق المهدي فقيل له إنه بالمعسكر فأرسل برقية للسيد الصادق بطرابلس احتياطاً يبلغه فيها أنه حضر إلي ليبيا وسافر للمعسكر من بنغازي وهي برقية حجبت عن السيد الصادق ولم يطلع عليها إلا بعد فوات الأوان. وفي المعسكر الغربي واجه الموقف وقال له رجال المعسكر إن هؤلاء الجماعة جاءوا في خطة فتنة، ولا بد من محاسبتهم ومقابلة السيد الصادق لعلاج الأمر. فوعدهم السيد ولي الدين بأنه سيحط معهم إلى طرابلس لمقابلة السيد الصادق هناك. وهكذا سافر السيد ولي الدين ومعه الوفد المحتجز من الكفرة إلي طرابلس صباح الخميس ٢/ ٢/ ١٩٧٨م.

كان السيد الصادق قد فرغ من مقابلة العقيد القذافي وود أن يسافر فورا إلي الكفرة لكي يعالج الأمر وقد صار ملحاً بعد أن علم بوصول السيد ولي الدين ومحاولة بعض الجهات الليبية الرسمية استغلاله للخروج من التورط دون محاسبة. ولكن السيد الصادق ارتاب من السماح لسفره للكفرة بعد تعطيله بوسائل غير مباشرة. لذلك حينما جاء وقت السفر في صباح يوم ٢/ ٢/ ١٩٧٨م تأخر من الطائرة في آخر لحظة وتوجه لمكتب العميد أبو بكر يونس وذكر له شعوره بوجود تآمر وتغطية مستمرة، وأنه تأخر لإحساسه أن التآمر يقتضي سفره من طرابلس إلي الكفرة بينما الوفد قادم منها إلى طرابلس، وأنه سيبقى في طرابلس ويلزم العميد أبو بكر أن يحضر له السيد ولي الدين والوفد متى عادوا وحيثما كانوا سواء في بنغازي أو طبرق أو طرابلس فوعده بذلك.

وفي عصر ذات اليوم أي الخميس ٢/ ٢/ ١٩٧٨م وصل السيد ولي الدين حيث يقيم السيد الصادق المهدي وحكي له تطورات الموقف، واستدعاءه علي عجل من لندن، وإبلاغه في بنغازي أن الصادق في المعسكر وقال إنه وعد رجال المعسكر الغربي أن يقابل هو والوفد السيد الصادق في طرابلس ويعالجوا كل الموقف. وقال السيد ولي الدين إنه شعر أن الوفد نفسه مضلل وأنه الآن تفهم الموقف ولن يتعامل مع الهندي أو خلافه.

وحاول الهندي والمتورطون معه من رجال السلطة الليبية الحيلولة دون مقابلة

الوفد للسيد الصادق فباءت جميع خططهم بالفشل واجتمع الوفد بالسيد الصادق في مساء يوم ٥/ ٢/ ١٩٧٨م. وانعقد اجتماع طويل حضره السيد ولي الدين والقادمون من الشرق كلهم وعددهم ١٢ شخصاً وشرح لهم السيد الصادق الأمور منذ بدايتها وجميع مراحل الحرب والصلح بيننا وبين النظام السوداني، وأوضح لهم أن النظام الأثيوبي حال دون وصول وفدنا للمعسكرات الشرقية. وقد كان الأخوة ولي الدين ونصر الدين الهادي المهدي قد ذهبا فعلاً لأثيوبيا، ومنعا في أديس أبابا من مواصلة السير للمعسكرات.

وجرى أثناء الاجتماع تداول في الأمر اتضح من حديث أعضاء الوفد الآتي:

أولاً: أن الجماعة لم تكن تعلم الأسباب الحقيقية لقدومها لطرابلس والمهمة ليست واضحة في ذهنها، وأنه بالرغم من وجود بعض القرائن وهي أن الوفد كان يصحبه بعض الاتحاديين، وقرينة أنهم في طرابلس قد قابلوا الهندي وحده وقال لهم حديثاً معناه أنه سائر في اتجاه منفرد، وقرينة أنهم كانوا يعاملون بتكتم شديد كأنهم مخطئون. بالرغم من هذه القرائن لم تكن المهمة واضحة تماماً لديهم.

ثانياً: إن أحمد سعد وحسين شيبون وحدهما هما العالمان تماماً بالمهمة الحقيقية للوفد وهي حسب تعليمات الهندي كالآتي: المعسكر الغربي منقسم علي نفسه وتقوده لجنة ترفضها الأغلبية وهذه اللجنة ومن يؤيدها مضللة ولذلك علي حسين شيبون بصفته الأمير أن يغير اللجنة فوراً وأن يقدم كشفا بأسماء الذين يخالفون موقف الهندي ليعاقبوا. هذا وأكد الهندي لحسين شيبون أنه يتصرف بصفته وكيلاً عاما مفوضاً بالوثائق من الإمام الهادي المهدي، وردد الهندي هذا الإدعاء أمام عدد من أعضاء الوفد الآخرين وحقيقة هذا الأمر هي أن الإمام الهادي المهدي انتدب ولي الدين الهادي وحسين الهندي لابلاغ رسائل معينة للإمبراطور هيلا سلاسي، وللملك فيصل أثناء وجود الهندي في الجزيرة أبا وقد أجريا تلك الاتصالات في وقتها.

ثالثاً: عند وصول الوفد ألقي حسين شيبون كلمة قال فيها: أنتم في خلاء لا تعلمون الحقائق ونحن جئنا لزيارتكم وتوضيح الحقائق لكم وكان هذا الحديث السبب المباشر لاحتجازه وزملائه كما أوضحنا.

رابعاً: كان واضحاً مما قاله أعضاء الوفد أنهم مع قيادتهم وأنهم ليسوا ضد المصالحة وليسوا مع حسين الهندي، وأكدوا تفهمهم لتصرف أخوتهم معهم في المعسكر الغربي، ورأوا أنه تصرف حاسم ومشروع وكتبوا لهم خطابا جاء فيه: (لقد تكشفت لنا الأمور وأدركنا أن جهات ليست أنصارية روجت الإشاعات عنا، وادعت أننا اتباع لها مما أدى لسوء تفاهم عكر صفو العلاقات القائمة علي الثقة والمحبة بيننا. وبعد ما تكشف لنا فإننا عفونا عنكم وعن تصرفاتكم نحونا فاعفوا عنا ليعود بيننا الصفاء والثقة المستمدة من عقيدتنا الأنصارية التي لا تتزعزع وسيرنا جميعاً تحت قيادة الأنصار، وعدم سماحنا الآن وفي المستقبل لأي جهة خارج كيان الأنصار أن تحاول تصريف شئون الأنصار، فنحن قوم هاجرنا وجاهدنا في سبيل الله وذمتنا فداء الدين والوطن وليست للمساومة والمتاجرة). ووقع على هذا الخطاب كل من آدم محمد اسحق، وعوض ناصر، وحسين شيبون، وعلي إبراهيم حسن، والنور البلولة، وأحمد إبراهيم خير، وأحمد سعيد أبكساوي، وبشارة حامد، وآدم مهدي، وسالم محمود.

وبعد ذلك توجه الوفد إلي أثيوبيا حاملاً معه خطابا من السيدين الصادق وولي الدين مفاده: نحن ماضون في المصالحة الوطنية، وهدفها وضع حد نهائي للعنف والقهر في السودان، وتحقيق الشورى والحرية للمواطن السوداني والتشريع الإسلامي في بلادنا، ورد اعتبار الأنصار واحترام كيانهم الديني. وقالا لهم إن مندوباً مفوضاً قادماً إليهم فلا يسمحوا لأشخاص لا علاقة لهم بمصير الأنصار أن يتدخلوا في شئونهم ويتاجروا باسمهم. وطلبا منهم أن يقرأ هذا الخطاب علي كل المعسكرات.

عودة العلاقات السودانية الليبية

كتب السيد الصادق وكان رئيس الجبهة الوطنية خطاباً للدكتور عمر نور الدائم في السودان يعلمه بالموقف بالنسبة للعلاقة السودانية الليبية. وأرسل له وقائع الاجتماع مع القذافي وطلب منه أن ينقل الصورة للنميري لإرسال وفد إلى طرابلس كما كان متوقعاً لإزالة التوتر السوداني الليبي وعودة العلاقات.

واقترح السيد الصادق المهدي للفريقين السوداني والليبي مشروع اتفاق فدرسه الطرفان، وحضر الوفد السوداني برئاسة أبو القاسم محمد إبراهيم وصحب معه الدكتور

عمر نور الدائم واجتمع الوفد السوداني بالمسئولين الليبيين وأذاعوا البيان المشترك الذي أعاد العلاقات في فبراير ١٩٧٨م.

ثم عاد الصادق للندن حيث قام بنشاط إعلامي لصالح الدور الأمثل للسودان في قضية الشرق الأوسط وكتب مقالاً نشر في مجلة المستقبل عدد مارس ١٩٧٨، خلاصته: إن أسوأ ما في الموقف العربي الآن هو التمزق الكبير، وأن المبادرة التي قام بها الرئيس السادات قد أخفقت في هدفها وهو اختراق التعنت الإسرائيلي وإن كانت قد ساعدت علي كشف التعنت. وإن الرفض العربي عجز عن التصدي للغزو الإسرائيلي في لبنان مما ترك المقاومة الفلسطينية تواجه الموقف منفردة في الساحة. فلا بد من مجهود يتجاوز الظرف الذي أدي إليها ويحول دون التحركات الانفرادية مستقبلاً، ويتجاوز الرفض العربي، ويركز علي علاج أسباب الضعف التي أدت إلى المبادرة، وعلى علاج التمزق الذي طرأ علي الموقف العربي كله.

وجاء في المقال أن السودان بتكوينه وطبيعته ومصلحته والموقف الذي يمر عليه حالياً مؤهل للقيام بدور الوفاق العربي وتجاوز موقفي المبادرة والرفض.

انتخابات المجالس الشعبية

في ١٩٧٧/١٢/١١م استعدت الحكومة لإجراء انتخابات لمجلس الشعب، وكان حزب الأمة يعتبر أن تلك الانتخابات أجريت بغتة ودون التحضير الذي يساعد علي دخول الجميع في الانتخابات، وعندما بدأت الاستعدادات للانتخابات كان الحزب يرى أن من الأفضل أن تؤجل الانتخابات حتى تنفذ إجراءات المصالحة ويُرفع قانون أمن الدولة ويخاطب الجميع بالمشاركة في الانتخابات. ولكن الأمور اندفعت في عجل شديد، فرأى الحزب ألا مصلحة في مقاطعة انتخابات مجلس الشعب، وكذلك لا مصلحة في دخولها بتوجيه لأن ضمان جديتها وحيدتها ليس متوفراً، ولذلك وجهوا الجميع أن يدخلوا الانتخابات إذا توفرت لهم فرص عادلة، وأن يحجموا عنها إن وجدوها تسير في اتجاهات مرسومة، وامتنع الحزب من الإدلاء بأي توجيه مباشر في الموضوع.

جرت الانتخابات أثناء سفر رئيس الحزب في ١١ ديسمبر ١٩٧٧م، وفاز فيها

المرشحون الذين كانوا يرحبون بالمصالحة في الإقليم الجنوبي، وسقط أولئك الذين كانوا يتمسكون بعصبية الماضي سقوطاً مراً.

وعلي طول البلاد وعرضها سقط الذين يمثلون الإبقاء علي الأحوال كما هي وفاز الذين يعتبرون وجوه مصالحة ويطرحونها سبيلا للإصلاح والتجديد، وكانت قراءة نتائج الانتخابات كالآتي:

(أ) كان إقبال المصوتين عليها في العاصمة في حدود ٢٥٪ وفي بقية المدن السودانية ٣٥٪ وفي الأرياف والبوادي أكثر من ٥٠٪. وكان الإقبال علي التصويت من المهنيين كالأطباء والمهندسين ضعيفاً ومن العمال وسطاً ومن المزارعين كبيراً. وكان موقف الممتنعين عن التصويت هو موقف الراغبين في مزيد من الإصلاح والتجديد الذين لا يرون ما تم من إجراءات المصالحة كافياً.

(ب) كان التصويت في الجنوب لصالح الذين رفعوا شعارات الإصلاح ورحبوا بالمصالحة وضد الذين يمثلون الاستمرار بالأحوال كما هي.

(ج) كانت نتائج الانتخابات في غير الجنوب لصالح الذين اعتبروا دعاة إصلاح ومصالحة وضد الذين اعتبروا سدنة الاستمرار بالأحوال كما هي. ولم يفز من وجوه الاستمرار إلا زعماء العشائر الذين فازوا بقاعدة قبلية لا تتأثر كثيراً بالعوامل السياسية.

(د) كان واضحاً من الطريقة التي صوت بها رجال القوات المسلحة في كل مكان انهم يؤيدون المصالحة، ولذلك صوتوا غالباً للمرشحين الذين اعتبروهم وجوه مصالحة.

وبعد إجراء الانتخابات وإعلان نتائجها عاد السيد الصادق للسودان، وجري لقاء بينه وبين الرئيس نميري وقال له الرئيس نميري إنه سعيد بنتائج انتخابات مجلس الشعب لأنها أعطت المصالحة شكلاً مؤسسياً (أي جسدتها)، وأنه يريد أن تكون تعيينات مجلس الشعب مطابقة للنتيجة العامة للانتخابات ،ولذلك فإنه سيعين ال١٠٪ من الأعضاء الذين يسمح له الدستور بتعيينهم بصورة تجسد المصالحة ولذلك فإنه يطلب من السيد الصادق قائمة بالعائدين ليختار منهم فشكره السيد الصادق علي هذا الاستعداد وأرسل إليه قائمة بالآتي:

أ) جميع العائدين من المغتربين.

ب) اسمين يمثلان جماعة حوادث الجزيرة أبا هما خالد محمد إبراهيم ومحمد الحسن إحيمر.

ج) اسمين يمثلان جماعة يوليو ٧٦ هما: أحمد يوسف النصيبة ومريم عبد المحمود.

د) أربعة أسماء تمثل معسكرات الأنصار.

وأوضح للسيد بهاء الدين إدريس الذي حمل القائمة للنميري أن هذه القائمة تجسد المصالحة في كل مراحل الصدام الدامي التي وقعت والهجرة والغربة. وبعد تسليم تلك القائمة سلم رئيس الحزب للنميري حسب الاتفاق المسبق بينهما دراسة وافية أعدتها لجنة فنية برئاسة الدكتور شريف التهامي متعلقة بإقامة كوميونات، أي وحدات إنتاجية زراعية وصناعية، تعمل تعاونياً وتتوفر فيها الخدمات الاجتماعية وذلك لتوطين المهاجرين من الأنصار عند عودتهم في مناطق معينة جنوب النيل الأزرق وجنوب كردفان وجنوب دارفور وجنوب القضارف. أعدت الدراسة بحيث تكون أساساً لاستقرار الأنصار العائدين، وتكون نواة لتعمير وتنمية منطقة السافنا لتنعم بالإنتاج الحديث والخدمات الوافية والمستوي الاجتماعي المتقدم.

وفي أوائل مارس ١٩٧٨م سافر السيد الصادق إلى لندن ثم إلى جنيف لمقابلة المسؤولين في مكتب غوث اللاجئين للحصول علي موافقتهم علي الآتي:

(أ) الاستمرار في تموين المعسكرات الشرقية في أثيوبيا.

(ب) الموافقة علي تحويل الإمكانيات والتمويل المعد لإسكان الأنصار في منطقة جديدة من أثيوبيا بعيداً عن الحدود السودانية.. تحويل تلك الإمكانيات للمساعدة في توطين الأنصار داخل السودان في مشروع الكوميونات المذكورة.

وحصل علي تلك الموافقة، ثم عاد إلى لندن، ثم إلى السودان.

وفي هذا الأثناء قام النميري بتعيين العشرة بالمائة من عضوية مجلس الشعب، فأدخل بعض الذين وردت أسماؤهم في القائمة المقدمة، وبعد اكتمال عدد أعضاء مجلس الشعب دعا لانعقاد الهيئة البرلمانية، وفيها رشح أشخاصاً لرئاسة مجلس

الشعب، ونائبي الرئيس، والرائد، والرقيب، ورؤساء اللجان المتخصصة. وكان غالبية هؤلاء إذا استثنينا أحد رؤساء اللجان من قدامي النظام، ولا يمثلون تجسيداً للمصالحة، ولم يمثل اختيارهم ممارسة لحرية المجلس لأن ترشيح الرئيس لهم وعلنية التصويت حالا دون حرية الاختيار، مما أدي إلى نوع من المواجهة غير المحمودة.

وكانت انتخابات الجنوب قد أتت بأغلبية ضد قدامى النظام هناك، وأعطي الأعضاء الجدد حرية الاختيار فأدي ذلك لاستيلاء العناصر الناقدة القادمة مع المصالحة علي كل المراكز الرئيسية بالانتخاب الحر. فأخاف هذا سدنة الاستمرار. وتدخل الرئيس بتلك الطريقة ليحول دون حدوث ما حدث في مجلس الشعب الإقليمي في جوبا في مجلس الشعب القومي في الخرطوم.

تعيين مرفوض

كانت اجتماعات اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي علي الأبواب، فرأى النميري أن يضع حداً للترقب ويعين السيد الصادق المهدي وآخرين في الاتحاد الاشتراكي. والمدخل لذلك هو عضوية اللجنة المركزية.

لم يكن هذا الموضوع قد نوقش، وفي غياب السيد الصادق بالخارج، وقبل اكتمال إجراءات المصالحة المتفق عليها، قام النميري بتعيين الصادق المهدي عضواً في اللجنة المركزية وأضاف إليه أسماء اختارها من القائمة التي قدمت له لعضوية مجلس الشعب، وأضاف آخرين.

عاد السيد الصادق من لندن في يوم ١٤/٣/١٩٧٨م وكتب خطاباً فور وصوله للنميري يوضح له نجاح مهمته في الخارج، ويعتذر عن قبول أي منصب تنظيمي أو تشريعي أو تنفيذي في الوقت الحاضر، وذلك محافظة علي مصلحة المصالحة، وحرصاً علي تركيز الجهد لتكملة إجراءاتها. وبعد ذلك انعقد اجتماع بين الصادق والنميري تم فيه الاتفاق علي الآتي:

(أ) تعليق عضوية السيد الصادق المهدي في الوقت الراهن؛

(ب) السير في إجراءات المصالحة لتكملتها؛

(ج) يحدد تاريخ المشاركة فيما بعد.

واثناء انعقاد اجتماع اللجنة المركزية يوم ١٨/٣/١٩٧٨م طلب النميري من الصادق أن يخاطب اللجنة المركزية في أمر المصالحة فوافق على ألا يكون ذلك من موقع العضوية، بل تلبية لدعوة الرئيس، وعلى أن يقول رأيه الذي قاله منذ اجتماع بورتسودان حول الاتحاد الاشتراكي.

فقبل النميري وألقى الصادق المهدي خطاباً عدد فيه الدعامات الموضوعية التي ترتكز عليها المصالحة، كما احتوى على رؤاه حول الاتحاد الاشتراكي السوداني وسبل إصلاحه، وقد استقبل الخطاب بروح ودية من غالبية المستمعين فصفقوا عشر مرات أثناءه، ولكن بعض سدنة عصبية الإبقاء علي الأحوال كما هي تشنجوا واعترضوا.

ثم توصلت اللجنة المركزية لتوصيات حول إصلاح الاتحاد الاشتراكي لأن خطابي الرئيس والأمين العام كانا يدعوان للإصلاح والتجديد. وأبلغت توصيات اللجنة المركزية للمكتب السياسي الذي كون لجنة بصلاحيات واسعة للإصلاح والتجديد في الاتحاد الاشتراكي، وكون المكتب لجنة مماثلة للنظر في التوصيات عن إصلاح وتقويم نظام المجالس الشعبية المحلية. وقد قدم السيد الصادق مذكرة تفسيرية ألحقها بخطابه لتكون الإصلاحات المطلوبة في الاتحاد الاشتراكي واضحة[1].

استمرار المفاوضات

استمراراً للمفاوضات الخاصة بإجراءات المصالحة الوطنية، وفي أول أبريل ١٩٧٨م التقى الصادق بالنميري في عشاء خاص رتبه السيد فتح الرحمن البشير وفي هذا اللقاء بُحث الآتي:

(أ) الطور الذي بلغته إجراءات المصالحة وكيفية مواصلة السير لإكمالها،

(ب) مصالحة الأنصار وأهمية عقد اجتماعات بخصوصها لإنجازها،

(ت) استمرار الحوار مع حسين الهندي علي أن تواصل الحكومة مساعيها معه واتفق

(١) نص المذكرة في كتاب المصالحة الوطنية، مع تكرار الملاحظة أن هذا الجزء ينقل نقلاً من كتاب المصالحة.

علي وسائل تساعد علي تأكيد اتجاهه نحو المصالحة.

اتفاق الهندي مع النظام

في يوم ٤/ ٤/ ١٩٧٨م سافر السيد الصادق للندن، وهناك قابله السيد عبد الرحمن النور وحدثه عن مسألة السيد حسين الهندي الذي زاره وسلمه مشروع اتفاق مع حكومة السودان ووعده بدراسته مع السيد الصادق لدى وصوله للندن فأبدى الرغبة في مقابلته للتعاون في الأمر.

ورد عليه السيد الصادق بترحيبه بكل ما يوسع قاعدة المصالحة أو يحقق مزيداً من الحريات لأهل السودان، أما مقابلة الهندي فإنه سبق أن امتنع عنها لموقفه من المصالحة ودخوله في مغامرات ضارة، أما إذا صار موقفه إيجابياً من المصالحة فلا مانع أن يلقاه بالرغم من تخصصه في الفترة الماضية في الشتائم له ولزملائه دون وجه حق.

وفصل السيد الصادق المغامرات المعنية بالتالي:

أ) محاولة شق الأنصار والاستعانة بالمجاهدين في خلق اضطرابات داخل السودان. وهذه باءت بالفشل.

ب) أرسل ١٨ اتحادياً كانوا قد دربوا علي السلاح في ليبيا ليقوموا بأعمال تخريبية داخل السودان. هؤلاء كان بينهم مخبرون أعطوا أسماءهم للأمن السوداني. وبعد اعتقالهم تطوع أحدهم للإقرار بكل شئ فأوضح خطتهم وأسماء من أمدوهم بالمال وهكذا أخفقت الخطة.

ج) وجمع بعض أبناء غرب السودان الموجودين في ليبيا طلباً للرزق وجند بعضهم بحجة أنه يدربهم ويسلحهم ويمولهم للاستيلاء علي السلطة وإنصاف أنفسهم من (ناس البحر) الذين ظلموهم. وكان على رأس الذين جندهم وأرسلهم داخل الخرطوم عبد الله محمد حمدان. ولم يكن موقف هؤلاء في الحقيقة مواليا للهندي فلم يسيروا حسب تعليماته وهكذا فشلت الخطة.

لم يتم الاجتماع المشار إليه بين الصادق والهندي، ولكن تم اتفاق بين حسين الهندي وزملائه وبين أبو القاسم هاشم رئيس مجلس الشعب وزملائه وأعلن في لندن في مؤتمر

صحفي في ١١/ ٤/ ١٩٧٨م وخلاصة الاتفاق:

(١) موافقة السيد حسين الهندي وزملائه علي الاتحاد الاشتراكي علي أن يحل ويكون من جديد ليدخلوا فيه.

(٢) موافقتهم علي دستور البلاد القائم علي أن تلغي التعديلات التي أدخلت عليه وسمحت بإصدار تشريعات مقيدة للحريات.

(٣) حل الجبهة الوطنية.

(٤) حل المعسكرات الخارجية وتسليم الأسلحة في الداخل وفي الخارج للقوات السودانية المسلحة واستيعاب العائدين حسب مؤهلاتهم.

(٥) تكوين لجان لمتابعة تنفيذ هذا الاتفاق.

وأبرزت حكومة السودان هذا الاتفاق إبرازاً إعلامياً كبيراً فدعت لمؤتمر صحفي لنشره في السفارة السودانية بلندن وكررت نشره وإذاعته وتلفزته في داخل السودان.

ويرد في مذكرات المرحوم الشريف الهندي إن ذلك الاتفاق كان بوساطة من اللواء عمر محمد الطيب بسبب علاقة الرحم التي تربط بينه وبين الشريف، ولكن لم يترتب عليه شيء![1]

ملاحظات السيد الصادق علي هذا الاتفاق

أولا : إقرار السيد حسين الهندي وزملائه الواقع الراهن للنظام القائم بأقل تعديلات ممكنة.

ثانيا : مقابل ذلك إعطاء الحكومة له ولزملائه أهمية إعلامية كبيرة واعتراف بأنهم حقا يملكون حل الجبهة والمعسكرات وتسليم السلاح في الخارج والداخل.

ثالثا : إصدار البيان كأن هذا هو أول اتفاق توصلت إليه الحكومة والمعارضة.

لقد كان الطرف الآخر المتفق مع الحكومة اتحادياً لا يمثل أطراف الجبهة الأخرى، والاسم المضاف إلى الاتحاديين باعتباره معهم أي الأخ احمد عبد الله أحمد عمر استنكر

(١) من مقتطفات من المذكرات بالإنترنت

إقحام اسمه، وأصدر بياناً أكد فيه أنه لا يعلم عن الاتفاق شيئاً، ولم يشترك فيه. ونتيجة للاتفاق والضجة الإعلامية التي أثيرت حوله اعتبر الاتحاديون أنهم حققوا نصراً حزبياً كبيراً، وشرعوا ينظمون صفوفهم لاستقبال قائدهم المظفر.

وتساءل الرأي العام السوداني: هل هذا الاتفاق هو أول وآخر المصالحة الوطنية؟ وتساءل إذا كان الهندي من مصلحته الحزبية أن يعتبر اتفاقه هو الأول والأخير وأن يعتبر هو المسئول عن الجبهة والمعسكرات والسلاح دون سواه، فما هي مصلحة الحكومة في التسليم بهذه المغالطات الحزبية وهي تعلم أولاً أنها وعلى مستوى قمتها تبحث المصالحة الوطنية منذ ١٧/ ٥/ ١٩٧٧م وتعلن خطوات في طريقها؛ وهي تعلم ثانياً أن الجبهة مكونة من تجمعات والتجمع الاتحادي هو أحد تلك التجمعات وليس أكبرها حجماً ولا بلاء؛ وهي تعلم ثالثاً أن المعسكرات التي حاربتها والتي صالحتها ليست أي معسكرات خارج السودان ولكن معسكرات المهاجرين المرابطين من الأنصار الذين حاربتهم وحاربوها وصالحتهم وصالحوها ومخاطبتهم بهذه الطريقة العفوية تجرح كرامتهم دون وجه حق. وهي تعلم رابعاً أن السلاح في الخارج والداخل إن وجد فليس بأيدي اتحاديين وعندها معلومات كافية بهذا الصدد اطلع عليها أبو القاسم محمد إبراهيم لدي زيارته لليبيا ومعلومات سرية بخصوص السلاح اطلع عليها عمر محمد الطيب لدي زيارته لليبيا ومقابلته لرئيس الجبهة هناك. والحكومة تعلم خامساً أن اللجان التي ذكرها البيان لتوظيف ورد اعتبار المستحقين ولتحضير مشروع تعديلات قانونية وهمية لأن هذه الأشياء قد قامت لجان وأنجزتها فلجنة إزالة آثار الصراع برئاسة أبو القاسم محمد إبراهيم أنجزت جزءاً كبيراً من مهمتها؛ ومشروع إلغاء قانون أمن الدولة والقوانين الأخرى أحيل لنقابة المحامين فوضعته وقدمته لرئيس الجمهورية ودرسه بواسطة الأجهزة الرسمية ووضعت أمامه نصوص قانونية كاملة لإجراء التعديلات والإلغاءات اللازمة.

وهي تعلم سادساً أن مثل هذا البيان وطريقة إخراجه سيكون له أثر سلبي على قيادة الجبهة وقيادة الأنصار التي أدارت الحوار للمصالحة الوطنية منذ ١٧/ ٥/ ١٩٧٧م وخاضت في سبيله معركة جسورة وحطمت للمعوقين المتفق معهم الآن كل تحركاتهم المضادة؛ والتزمت تلك القيادة بعدم إعلان تفاصيل الاتفاق تسهيلاً لمهمة النظام

ووفاء للوعد فلماذا يعلن علي الناس اتفاق ناقص ومشوه ومنكر لما سبقه؟

اعتبر الصادق وحزب الأمة الاتفاق كله مسرحية رحبوا بالإيجابي منها وهو إقلاع السيد حسين الهندي وزملائه من موقف المعارضة بلا سبب، والمهاترة، وقبولهم الدخول في المصالحة الوطنية والوحدة الوطنية. أما الجوانب الأخرى التي أدخلت في الاتفاق فقد لزموا الصمت حيالها ووجهوا كل من تحدث إليهم ألا يدخلوا في مباريات منافسة أو مقارنة وأن يهملوا المعاني الحزبية التي فاض بها البيان والإعلام الذي صحبه، وقرروا أن مثل هذه الاتفاقات والبيانات تستخف بقضايا القتال والصلح في السودان وتبعث التراشق الحزبي وهم لا يريدون الاشتراك في هذا الاستخفاف ولا في انبعاث الحزبية وهم يعلمون أنهم هم الذين خططوا للمعارضة والمقاومة حربها وسلمها وفكرها وأنهم هم الذين نفذوا تلك الخطط. وقد شاركهم الآخرون مشاركة محدودة). أ.ه.

لقد أورد الدكتور حسن مكي وهو يؤرخ لدورهم كجبهة ميثاق إسلامي في الجبهة الوطنية عدداً من وثائق الجبهة جلها من كتابة السيد الصادق المهدي، ويحمد لمكي ذلك إذ بينما يرصد الكتاب دورهم يؤكد أين كانت القيادة الحقيقية للجبهة الوطنية.

وقد أورد البروفسر مكي كذلك نص الاتفاق بين الهندي والنميري وقال في مقدمة كتابه إنه كان موجها ضد السيد الصادق.[1].

إعلان المصالحة الوطنية رسمياً

جاء في كتاب المصالحة الوطنية:

(في يوليو ١٩٧٨م زار جعفر نميري السيد الصادق المهدي في منزله بصحبة السيد فتح الرحمن البشير. وفي الزيارة طالب النميري بإكمال المشاركة للانطلاق من موقع موحد للعمل الوطني. ولكن السيد الصادق مع تأمينه على بحث كافة القضايا والاتفاق على برنامج المصالحة الوطنية قال إن هنالك ما زالت مغالطات عن ماهية ما اتفق عليه إذ لم يعلن علي الرأي العام السوداني شئ محدد، ولذلك وقبل مناقشة موضوع

(١) حسن مكي سابق

المشاركة يلزمنا أن نحدد برنامج المصالحة الوطنية وأن نعلنه علي الناس وأن نلتزم به ونمنع المغالطات الجارية حينها والتشويه الذي ألحقته أجهزة الإعلام بالمصالحة.

وتم الاتفاق على أن يقدم السيد الصادق النقاط المتفق عليها مكتوبة تقدم للرئيس ليراجعها وتعلن على الرأي العام السوداني.

وعقد حزب الأمة اجتماعا لبحث النقاط المقدمة للرئيس وقرر أنه إذا أعلنت هذه النقاط للرأي العام السوداني يزول كل تحفظ في التعامل مع النظام وتتم المشاركة في أجهزته.

النقاط التي وضعت كأساس للمصالحة هي:

(١) إصلاح الاتحاد الاشتراكي وفق النقاط التسع المقترحة، وحله وإعادة انتخابه من القاعدة للقمة وتوقيت هذه الإجراءات.

(٢) إجراء تعديلات دستورية في دستور البلاد القائم تنص علي إسلامية التشريع، وتحقق مزيداً من الديمقراطية، وتزيل النصوص التي تقيد الحريات.

(٣) إلغاء القوانين الاستثنائية المقيدة للحريات ومؤثرة علي سير العدالة.

(٤) الاتفاق النهائي علي برنامج مصالحة الأنصار وإعلانه.

كان اجتماع الحزب في منزل السيد الصادق المهدي بالملازمين، وحضره مائة وخمسون من قادة الحزب، وقبل انفضاض الاجتماع وصل السيد فتح الرحمن البشير موفداً من النميري ليبلغ السيد الصادق المهدي موافقة الرئيس علي النقاط المرسلة إليه، وإبلاغه بأن الرئيس قد أمر بالدعوة لمؤتمر صحفي موسع ليخاطبه السيد الصادق المهدي أصالة عن نفسه ونيابة عن الرئيس ليعلن للرأي العام السوداني برنامج المصالحة المتفق عليه.

وفي اليوم التالي دعا السيد بونا ملوال ممثلي الصحافة والإذاعة والتلفزيون السوداني ومندوبي الصحافة العربية والأفريقية والدولية الموجودين في الخرطوم لمؤتمر صحفي خاطبه السيد الصادق المهدي بحديث طويل خلاصته:

١/ أن المصالحة الوطنية مبادرة تاريخية أملتها ظروف ذاتية وموضوعية محددة

وأهمها رغبة أهل السودان في إيجاد بديل سلمي صحيح للعنف والقهر ورغبتهم في حماية الإرادة السودانية من التدخلات الأجنبية.

٢/ لقد حققت المصالحة عبر عام من الزمان إيجابيات محددة ذكر منها إطلاق سراح المحبوسين، العفو العام، إزالة أضرار المواطنين، إقامة الجسور بين خصوم الأمس، إفشاء التفاهم بين السودانيين، تمكين السودان من الانطلاق بإرادة مستقلة في السياسات العربية والأفريقية علي نحو ما انعكس في خطاب الرئيس في مؤتمر القمة الأفريقي الأخير، تمكين الأطراف المتنازعة سابقاً من الاطلاع علي أحوال بعضها بعضاً وإجراء انتخابات حرة في مجالات مختلفة، وتعطيل قانون أمن الدولة عملياً، وإتاحة الفرصة لنشر الآراء المختلفة حول قضايا البلاد الهامة بحرية، وأخيرا التوصل لنهج محدد للمصالحة الوطنية.

٣/ وأعلن برنامج المصالحة الوطنية وخلاصته:

(أ) مراجعة أحوال الاتحاد الاشتراكي لإصلاحه وفق نقاط تسع عرضت قبل ذلك وعلى هدي تجربته.

(ب) حل أجهزة الاتحاد الاشتراكي وإعادة تكوينها من القاعدة للقمة عن طريق الانتخاب المباشر، وهذا يشمل أجهزته القاعدية والفئوية والجماهيرية والعليا. علي أن يتم ذلك بعد موسم الخريف والحصاد.

(ج) تعديل الدستور للنص علي إسلامية التشريع، ولتحقيق مزيد من الديمقراطية، ولإزالة النصوص الاستثنائية المقيدة للحريات، على أن تقدم التعديلات المتفق عليها لمجلس الشعب لاتخاذ قرار بشأنها.

(د) تمت الموافقة علي إلغاء القوانين الاستثنائية المقيدة للحريات وسيقدم المشروع الذي وضعته نقابة المحامين السودانيين بهذا الصدد لمجلس الشعب لدى انعقاده.

(ه) تمت الموافقة علي مراجعة الجوانب الهامة من التجربة الحالية وخاصة في مجالات الحكم الشعبي المحلي والتنمية والاقتصاد وغيرهما لدعم الإيجابيات وإسقاط السلبيات.

(و) تم الاتفاق علي الآتي: تمسك السودان بعدم الانحياز في السياسة الدولية، وحرصه علي حسن الجوار مع كل جاراته، وقيام السودان بدور رائد في المجالين العربي والأفريقي، وبدور واصل بين البعث العربي والصحوة الأفريقية. واتفق أن يكون التكامل مفتوحاً بين السودان والبلاد المجاورة له وخاصة السعودية ومصر وليبيا، وألا يكون هذا التكامل محورياً بل موسعا ليكون خطوة عملية في اتجاه الوحدة العربية.

(ز) واختتم المؤتمر الصحفي مؤكداً أن هذا البرنامج سيمكن أهل السودان من العمل معاً لتحقيق الاستقرار في البلاد، ومواجهة الضائقات التي يعاني منها الشعب السوداني، ومؤكدا أن المقياس الحقيقي لنجاح أو إخفاق المصالحة هو في مواجهة وعلاج ما يشكو منه أهل السودان.

لقد وجد برنامج المصالحة الوطنية هذا تجاوباً شعبياً كبيراً، ورحب به المواطنون السودانيون ترحيباً حاراً. ولكن بعض الجالسين علي مقاعد التوجيه والامتياز في الاتحاد الاشتراكي وفي بعض أجهزة الأمن أنكروا هذا البرنامج إنكاراً بالغاً، ومضوا يستغلون أجهزة الإعلام للإدلاء بتصريحات موجهة ضد برنامج المصالحة المعلن مؤكدين أن الأوضاع سائرة كما هي بلا تعديل ولا تبديل ومؤكدين عدم إجراء انتخابات في أجهزة الاتحاد الاشتراكي، وهكذا).

ملف دائرة المهدي ١٩٧٨م

في إحدى لقاءات النميري بالسيد الصادق جاء ومعه ملف (دوسيه) وهم بتسليمه إياه وقال له هذه ممتلكات دائرة المهدي.. رفض السيد الصادق استلام الملف وقال له إنني لم آت للتفاوض معك حول أمر خاص.

قال السيد الصادق: *(في مرحلة لاحقة في التفاوض، جاءني النميري بدوسيه وقال لي هاك هذه أملاكك. أملاك دائرة المهدي، لأستلمها. وأنا قلت له لا استلمها. ما عندي دخل بهذا الموضوع، أنا ما جايي عشان اتفاوض معاك بالنيابة عن ورثة دائرة المهدي، ولا أنا وكيل عنهم، ولكن يا أخي أنتم في عهدكم الشيوعي أطلقتم عقوبات اقتصادية لعدد من الناس، إذا أنت الآن قررت أن ترفع هذه العقوبة كجزء من عملية تغيير موقفكم ما في مانع أن ترفعها من الجميع، وبالنسبة لنا أقترح أن تكون لجنة، لأنه نحن كانت في*

ذلك الوقت المسألة موروثة ما في حد يمثل الناس كلهم، تعين لجنة، تعطي هذه اللجنة صلاحيات قضائية، هذه اللجنة برئاسة المراجع العام السيد حسين عبد الرحيم، وعضوية مندوب من المالية وبنك السودان والنائب العام، وتفوضهم أن ينظروا في هذه الأملاك ويوزعوها على الورثة بحسب أنصبتهم الشرعية. فقط أنا أطالب بأمرين: الجزيرة أبا أصلها مسجلة باسم الإمام عبد الرحمن باعتبار أنه هو كان قد عمرها، هذه الجزيرة أبا لا تورث، تسجل لأهل الجزيرة أبا، أنا ما عايز أي تناقض بين أسرتنا وأهل الجزيرة أبا فهم ناس أوفياء وعندهم معنا علاقات في التاريخ كلها عظيمة. ولذلك هؤلاء تسجل الجزيرة أبا بأسمائهم. كذلك بيت المهدي الذي هو مجمع بيت المهدي الذي فيه قبة الإمام المهدي وغيرها، هذه تسجل وقف للأنصار، وهو وافق على أن الجزيرة أبا لا توزع في الورثة، وأن بيت المهدي لا يوزع في الورثة لكن بقية الأصول توزع على الورثة بحسب حقوقهم الشرعية وأنا لا دخل لي بهذا، هذا يتم بين الورثة وبين اللجنة الفنية)[1].

وكانت دائرة المهدي تتكون من مشاريع هي: دائرة المهدي العقارية والزراعية والتجارية، وتنتظم فيها ممتلكات، وعليها ديون.

بعد وفاة الإمام عبد الرحمن ظل ورثته متحدين متفقين على إدارة الإمام الصديق لمشاريع دائرة المهدي كما كانت أيام الإمام عبد الرحمن المهدي وإن كان ذلك قد كلف الإمام الصديق التخلي عن المزايا الخاصة به في وصية الإمام عبد الرحمن المثبتة بالشهود.

وكان الإمام الصديق أصلاً مدير للدائرة وشريك فيها بالخمس. وكان له على الدائرة دين كبير لأنه لم يكن يخصم خمسه من أرباح لدائرة طيلة سنين إدارته لها. وحينما فتحت وصية الإمام عبد الرحمن أمام الشهود كان فيها أنه أوصى لخليفته وهو ابنه الصديق بثلث تركته، وأوقف له كل ما رآه مستلزمات الخلافة: بيت المهدي (مجمع القبة والمسجد الرابع والمباني الملحقة)، وسرايا الإمام عبد الرحمن في الخرطوم، وكل مقتنياته الشخصية. كما أوصى الإمام عبد الرحمن بأن يخصص (بيت البحر) الذي كانت تقطن

(١) من حلقات شاهد على العصر، أكتوبر- نوفمبر ٢٠١٥م

فيه زوجته السيدة سكينة عبد الله جاد الله (خالة الحبيب الإمام الصادق المهدي) وذريتها، ليكون مستشفى أطفال أو مكتبة عامة.

لدى فتح الوصية أمام عدد من أبناء الإمام عبد الرحمن وشهود آخرين، تلمس خليفته الإمام الصديق عدم رضا أو احتجاج على تلك البنود من أخوانه. وحرصاً منه على وحدة بيت الإمام عبد الرحمن اقترح عليهم أن يأخذوا علماً بالوصية ويوقعوا على صحتها، مع التراضي على عدم الأخذ بما فيها. وقال لهم إنه يتنازل عن الثلث، وفيما أوقفه له الإمام عبد الرحمن من أصول في الوصية، فإنه يعرض أن يشتري تلك الأصول مقابل دينه على الدائرة، وتم الاتفاق على ذلك، وظن الإمام الصديق أن هذا الإجراء المتفق عليه بينهم، وقد تنازل فيه من حقوق أوقفها له والده، ظن أنه سوف ينفذ قطعاً ولذلك فإنه أوصى بالسرايا لابنه الصادق من بعده.

الشاهد، لم تنفذ وصية الإمام عبد الرحمن في ورثة أملاكه، ولم تنفذ حتى التسوية التي بموجبها تنازل الإمام الصديق لجمع بيت أبيه، فلم تسجل له الأملاك المذكورة لقاء الدين.

وبعد وفاة الإمام الصديق المهدي في ٢ أكتوبر ١٩٦١م إثر الذبحة الصدرية التي ألمت به بعد حوادث المولد الدامية في ٢١ أغسطس ١٩٦١م، اختلف ورثة الإمام عبد الرحمن حول إدارة الدائرة، وبالرغم من ذلك لم تتم تصفيتها في ذلك الحين، وظل الوضع كما هو حتى جاءت مايو فصادرت واحتجزت ووضعت يدها على ممتلكات خاصة كثيرة، وأعلنت فرض الحراسة العامة على أملاك دائرة المهدي.. فهي لم تصادرها ءتسجلها باسم الدولة، كما لم تعدها أصحابها.

لقد أراد الله أن تقوم حكومة النميري بإجراء فرض الحراسة، ولو أنها أعلنت تصفية ُصول الدائرة ورد ديونها حينها لما كان بقي منها شيء يورث. فقد كانت أصولها ساوي ديونها تقريباً.

هنالك عدة أشياء جعلت لدائرة المهدي وممتلكاتها قيمة للورثة:

أولا: السيد الصديق كانت له سياسة إبان إدارته للدائرة ألا يتم الاحتفاظ بنقود فإن تبقي من أموال المحاصيل أو غيرها شيئاً فاض عن الصرف السياسي والإعاشي فإنه

يحتفظ به في شكل عقارات. هذا جعل للدائرة قدراً هائلاً من الأصول العقارية.

ثانيا: ديون الدائرة كانت لبنوك عديدة بنسب لسعر الفائدة معينة، وبعد أكثر من ثمانية سنوات (في ١٩٧٨م) حينما تمت المفاوضات لإعادة أملاك الدائرة، كانت الزيادة في أسعار العقارات أضعافاً مضاعفة، مما خلق مساحة كبيرة بين الأصول (التي تضاعفت بنسب مكوكية) والديون (التي تم حسابها بسعر الفائدة البسيط).. أي جعل دائرة المهدي شيئاً يمكن أن يورث!

فرضت السلطات المايوية الحراسة على شركات دائرة المهدي في ١٩٧٠، كما فرضت الحراسة على ممتلكات مواطنين آخرين مثل آل عثمان صالح. اختلف موقف ورثة الإمام عبد الرحمن من العهد الجديد فمنهم من عارضه وتكبد المشاق سجناً ونفياً، ومنهم من آثر الابتعاد عن المسألة برمتها، وقد قام النميري في ظل الحراسة بتخصيص بعض الأملاك للورثة للسكن ولكن لم تجر تصفية للدائرة كما ذكرنا.

كان السيد الصادق المهدي قد نال قسطاً وافراً من السجون والمنافي وترأس الجبهة الوطنية لمعارضة النظام بالخارج وهي الجبهة التي نظمت انتفاضة يوليو المسلحة في ١٩٧٦م كما وصفنا، الانتفاضة التي أقنعت النظام المايوي بجدوى المعارضة ففاوضها للمصالحة. وحتى لما أراد المايوي أن يرفع الحراسة أراد أن يعطي الملف للصادق المهدي كترضية سياسية غير مراعٍ أن الحقوق لا يتم التعامل معها بهذه الطريقة إلا لغير ذوي الذمم..

هكذا رفض الصادق استلام الملف شخصياً كما قلنا ونصح بأن تعم المسألة السياسية (بإرجاع كافة الأموال المصادر لأهليها) وأن يكون ذلك بشكل مسئول ومنضبط عبر أجهزة مالية الدولة المختصة.

هذا الطريق سار لنهايته، فلم يحدث تدخل سياسي من قبل السلطات المايوية في أمر ممتلكات الدائرة بعدها، إلا ما كان من تسليم مجمع بيت الإمام المهدي للسيد أحمد المهدي وتسميته إماما للأنصار عقب رفض السيد الصادق لعرض النميري له بأن يكون نائبه وخليفته وسعي النميري ل(تأديبه) على ذلك.

وبالفعل صدر القرار الجمهوري رقم ٥٩٣ لسنة ١٩٨٠م بتكوين لجنة إعادة

ممتلكات دائرة المهدي، والمكونة حسب توصية السيد الصادق المهدي برئاسة المراجع العام (السيد حسين عبد الرحيم حينها)، وعضوية كل من السادة: وكيل وزارة المالية (السيد عثمان الشيخ)، والمسجل التجاري بديوان النائب العام (السيد علي محمد عثمان يس) النائب العام السابق، ورئيس إدارة التشريع والشئون القانونية برئاسة الجمهورية (السيد أحمد عثمان السباعي) ورئيس الإدارة القانونية للجهاز المصرفي (السيد يوسف عبد الرحمن) وقد اجتمع السيد الصادق المهدي باللجنة طالباً أن يتم استثناء كل من الجزيرة أبا وبيت المهدي (القبة والجامع) من الورثة لحين الاتفاق على كيفية التعامل معها. على أن تقوم بحصر الممتلكات التي وضعت عليها الحراسة، وتصفي ديون الدائرة، وتتفاوض في أمر إعادة ما يتبقى بعد سداد الديون مع ورثة الإمام عبد الرحمن المهدي.

عقدت الجمعية العمومية للمساهمين بالدائرة، أي الورثة، عدة اجتماعات في عامي ١٩٨٠ و١٩٨١م، وفي اجتماع بتاريخ ٣ يناير ١٩٨١م أصدرت الجمعية العمومية عدة قرارات نقلت للجهات الرسمية.

وقد خاطب السيد الصادق المهدي الورثة بعد ذلك الاجتماع فيما يخص الجزيرة أبا بالتالي: «الجزيرة أبا ليست أصلاً عادياً، وقد استثنيت من إجراءات اللجنة الحالية، وينتظر أن يحكم وضعها نظام خاص يقترح أن يكون الآتي:

- تحويل ملكيتها لكيان جماعي يضم أهل الجزيرة أبا بالتحديد الذي يتفق عليه.
- ينص على مشاركة أهل المهدي رمزياً في الكيان المذكور لحفظ الصلة التاريخية.
- يحتفظ باستراحة باسم الإمام عبد الرحمن لتكون منزلاً للعائلة في الجزيرة ابا.
- يمنح الراغبون قطع أرض بالقيمة في الجزيرة أبا لبناء مساكن خاصة إذا أرادوا.

وفي ١٧ مارس ١٩٨١م صدر القرار الجمهوري رقم ٢٠٣ وكان في جملته مستجيباً لما تضمنته قرارات الجمعية العمومية للورثة. فهو يستثني الجزيرة أبا وبيت المهدي من الورثة.

وفي ١٠ مايو ١٩٨١م قدم السيد الصادق مذكرة توضيحية للورثة شرح فيها القراران وأفكار حول تنفيذهما خاصة فيما يتعلق بتمليك أبا لأهلها.

هناك قضيتان أخريتان خاصتنان بالورثة خاطب بهما السيد الصادق أهله راجياً أن يستجيبوا له باعتبار أنهم كأهل ينبغي أن يتضافروا ويتقاسموا خسارة بعضهم الآخر.

القضية الأولى هي أن الإمام الهادي كان قد تخارج من الدائرة بمشروع يسمى مشروع النعيم الزراعي، هذا المشروع اتضح أنه خاسر، ولو تم إنفاذ خطوة الإمام الشهيد لخرج أبناءه بورثة ضئيلة، لذلك رجا السيد الصادق الأهل المجتمعين أن يعتبروا الإمام الشهيد كأن لم يتخارج من الدائرة ويعيدوه كوريث من جديد، ويعيدوا مشروع النعيم للدائرة، وبهذا الشكل يكون هناك نوع من الإنصاف للإمام الشهيد وذريته.

أما القضية الثانية فهي أن بعض أبناء وبنات الإمام الصديق من زوجته السيدة صفية وغيرهم من الأهل كانوا قد استلموا بيوتاً من النميري كما ذكرنا، ولكن بعضهم باع تلك البيوت، فلو تم حساب ما استلموه بحساب الثمانينات فإنهم سوف يخسرون خسارة كبيرة على غرار خسارة أبناء الإمام الهادي.

اقترح السيد الصادق أن تكون هناك صيغة تشاركية معهم، وهو حساب تلك الأملاك التي باعوها بحساب وسطي بين قيمة السبعينات وقيمة الثمانينات وبهذا يكون لأبناء وبنات الإمام الصديق المذكورين نوع من الإنصاف ومشاركة الخسارة.

وللغرابة فإن الأهل بالإجماع أقروا مقترح إعادة الإمام الشهيد كوريث، ورفضت غالبيتهم الساحقة مقترح المشاركة في تحمل خسارة أبناء وبنات الإمام الصديق الذي هو في الحقيقة السبب الرئيس فيما هم فيه من ثروة بجهده وبتخطيطه وبتنازله الدائم عن ربحه لصالح وحدة الأسرة.. فتأمل!

بعد رفض الاقتراح الأول، اقترح السيد الصادق على الأهل صيغة ثانية للتعامل مع أبناء وبنات الإمام الصديق المنكوبين، وهو أنه طالما لم يتم إنفاذ اتفاق الإمام الصديق مع بقية الورثة بشرائه للأصول التي أوقفها له والده من دينه على الدائرة، فهو يقترح أن تخصم قيمة تلك الأملاك التي تصرّف فيها بعض ذريته في السبعينات من قيمة الدين،

وكان حينها مبلغاً كبيراً يشتري عقارات بضخامة بيت المهدي وسرايا الخرطوم وغيرها. ولكن من جديد وبأغلبية ساحقة رفض الأهل ذلك، وأصروا على أن يحاسب أبناء وبنات الإمام الصديق بالحساب السبعيني، وأن يستلم ورثة الإمام الصديق دينه نقداً، ولكن بعد أن قسموه على الشركات الثلاث (العقارية والزراعية والتجارية)، وبما أن الشركة التي تمت استعادة أصولها هي العقارية فإنهم أعادوا ثلث مبلغ الدين الذي وبعد أكثر من عقدين من الزمان كان قد فقد قوته الشرائية وصار شيئاً لا يذكر!

أما السرايا التي كان الإمام عبد الرحمن أوقفها للصديق واتفق الأخير مع بقية الورثة على أن يشتريها هي وبيت المهدي مقابل دينه على الدائرة، وأوصى بها لابنه الصادق متأكداً من إنفاذ الورثة للاتفاق بينهم. هذه السرايا حدثت حولها كذلك تعقيدات. قال السيد أحمد للجنة المشرفة على تصفية الديون وتوزيع الورثة إنه اشتراها، وأحضر مكاتبة من شقيقه السيد يحي الذي كان مديراً لشركة الدائرة العقارية بمبايعة من الدائرة له بها. وبعد البحث في الوثائق وجدت اللجنة أن المكاتبة كانت وفق اتفاق بين يحي وأحمد لأن الأخير وعد أنه سوف يأتي بقرض تطلبه الدائرة ويحتاج للسرايا كضمانة، وبالتالي تمت المكاتبة على أن يأتي بالقرض ولكنه لم يف بوعده، فألغى السيد يحي الاتفاق. وبالتالي ردت لجنة السيد عبد الرحيم طلب السيد أحمد باعتبار السرايا ضمن أملاكه المشتراة.

سوف يلقى الصديق كل ما فاته في ديار الخلود بإذن ربه العادل القادر الكريم. إنما الصديق وآل بيته نوع من الناس أدبه ربه وعلمه أن يتسامى!

وأذكر حينما حدث الزلزلال الشهير في الخرطوم في أوائل التسعينات ولقيت (شهيدة دار الوثائق) حتفها، وكان مبنى دار الوثائق الذي انهار جانب منه هو سرايا الإمام عبد الرحمن في الخرطوم.. كنت في تلك الأيام أزور الدار كثيراً وألاقي الطود الراحل المقيم البروفسر محمد إبراهيم أبو سليم الذي كان مديراً لدار الوثائق القومية منذ سودنت تلك الوظيفة بعد جلاء المحتل.. وحدثني حينها عن مجهوداتهم لبناء دار جديدة للوثائق على طراز حديث يحفظ الوثائق ويؤرشفها إلكترونياً، وعن لجنة شعبية سوف يكونوها لدعم ذلك المشروع. ومن ضمن ما ذكره من أسباب رحيلهم الذي يودون تعجيله قال: (كذلك لأن ناس أسرتكم عذبونا يريدوننا أن نخرج من السرايا بسرعة). حينها تهولت من أن يكون في أسرتنا من يرى مبنى الدار أهم من الوثائق التي تحفظ أعز تراث لهذه

الأسرة، وهي أسرة آباؤها المؤسسون بنوا السودان وصيته بدماهم، والوثائق تحفظ جهادهم وتدحض قول شانئيهم.. وقلت له كيف ذاك يا دكتور؟ نحن تهمنا الوثائق أولاً وأخيراً، فقال لي: أنا لا أعني أبيك، أبوك هذا (راجل مسكين) ولن يقول لنا شيئاً مهما بقينا، ولكني أعني بعض أهله!! والمفارقة هي أن ذلك (الراجل المسكين) بتعبير بروفسر أبو سليم هو الذي كان يفترض أن يكون مالك السرايا لو كان هناك عهد يُحفظ، وحتى مع تضييع العهود فهو لا يزال المالك الأكبر فيها!

ولكن لسان حاله يقول.. إن الذي بيني وبين بني عمي.. لمختلف جداً!

وقبل أن نغادر صرير (الدائرة) فهناك قضية متعلقة بأعمال هذه اللجنة سوف تقابلنا في مقبل الأيام، وستنفجر أيام حكم السيد الصادق المهدي إبان الديمقراطية الثالثة وهي قضية تعويضات أراضي أم دوم الزراعية.

فحينما حسبت اللجنة دين الدائرة بعد إضافة سعر الفائدة المتراكم، وجدت الدين حوالي ٩ مليون جنيه إلا قليلاً. فخصمت بعض الأصول مقابل الدين ومنها أراضي أم دوم (وهي تبلغ ٣٤١٤ فدان)، وقد حسبت اللجنة قيمتها ب٣٤١٤٠٠٠جنيهاً أي باعتبار أن قيمة الفدان ألف جنيه. ووفقاً لذلك ضمت أم دوم إلى وزارة المالية. هذا التقدير كان مجحفاً جداً وفقاً للتحقيقات التالية، وهذا هو ما أثاره الورثة منذ عام الحكم الانتقالي، ثم تسلسلت الأحداث حتى كان ما سوف نحكيه تفصيلاً في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

عضوية الاتحاد الاشتراكي والمداولات الليبية

جاء في كتاب المصالحة الوطنية:

(كان السيد الصادق المهدي قد التقي بالسيد علي التريكي أثناء انعقاد مؤتمر القمة الأفريقي في يوليو ١٩٧٨م، وتحدثا حول العلاقات الليبية السودانية، ونقل له السيد الصادق شكوكهم في حزب الأمة من الموقف الليبي، وتم الاتفاق على مقابلة القذافي للتداول حول هذه القضايا.

وأخبر السيد الصادق النميري بسفره المرتقب لليبيا لمقابلة القذافي، وقال إنه يريد أن يكون ذلك اللقاء خطوة في سبيل تصفية جميع المشاكل القائمة بين البلدين، ووضع

أسس متينة للعلاقات السودانية الليبية.

فاجتمع النميري بالصادق واستعرضا معاً المسائل المعلقة بين البلدين، واقترح النميري أن يؤدي السيد الصادق القسم كعضو في المكتب السياسي لتكون محادثاته مع العقيد لها صفة رسمية، فوافق على ذلك وأدى القسم في أوائل أغسطس ١٩٧٨م.

كان أداء القسم في الاتحاد الاشتراكي، ذلك التنظيم البغيض الذي جثم على صدر الشعب السوداني خطأ اعترف به السيد الصادق في حلقات شاهد على العصر، قائلاً: هذا أحد أخطائي.. وكان قد كفّر عنه بالصيام ثلاثة أيام حينها للتبرؤ من القسم.

لم تكن المشكلة كما رأى السيد غراهام توماس في قبول فكرة التنظيم السياسي الواحد، تنازلاً عن مواقفه ورؤاه، باعتبار أن (هذه هي السياسة)، فقد رأينا كيف اقتنع السيد الصادق منذ زمان بعيد بفكرة التنظيم الجامع لتجاوز الاستقطاب في المجتمع السوداني، ودعا له في مؤتمر أبا إبان العهد العسكري ١٩٦٣، ثم كرر دعوة الأحزاب الكبيرة له عقب ثورة أكتوبر ١٩٦٤م، وظل ينادي بوعاء يجمع أكبر قدر من الأحزاب السودانية التي لها وزن لتتفق على قضايا البلاد الكبرى تحت عنوان (المصالحة الوطنية) إبان عهد الديمقراطية الثانية (١٩٦٤-١٩٦٩م). بل حتى ميثاق الجبهة الوطنية (يناير ١٩٧٦م) كان يتحدث عن (توحيد الإرادة السياسية السودانية في تنظيم سياسي شعبي ديمقراطي اختياري جامع).. لكن المشكلة كانت في قبول عضوية تنظيم مبني على التطبيل لفرد دموي متجبر متسلط يعيد سيرة الفراعين وأحاديثهم (لا أريكم إلا ما أرى).

صحيح إن السيد الصادق تحدث مع الديكتاتور حول ضرورة إجراء إصلاحات ديمقراطية، وأظهر الألعبان له الموافقة، ولكنه كان يبيعه الريح! لقد استدرجه بالحديث عن ضرورة أن تكون له صفة رسمية ليفاوض الليبيين إلى زلة قدم ظلت متناقضة مع تاريخ الصادق الناصع الذي لم يرض الاشتراك في سلطة ديكتاتورية، لا في مقاعدها التنفيذية ولا التشريعية أبداً، إلا ذينك الشهرين اللذين قضاهما في المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي سيء الصيت.

الشاهد، أدى الصادق القسم كعضو في المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي،

وتوجه بعد ذلك إلى طرابلس حيث اجتمع بالعقيد معمر القذافي في ٨/ ٨/ ١٩٧٨ م، واتفق علي الآتي:

(أ) تأييد الجماهيرية الليبية للمصالحة الوطنية السودانية وعملها فوراً علي إزالة كل معوقات أمامها، وتسهيل عودة المهاجرين الأنصار. والمساعدة في استقرار الأنصار في تعاونيات زراعية آلية ومدهم بناقلات وتراكتورات وأدوات زراعية.

(ب) أخذ علم بانطلاق السودان من سياسة خارجية مستقلة، والتعاون مع السودان في علاج مشاكل تشاد، وإرتريا وغيرها من مشاكل البلاد المجاورة،

(ج) إحياء مشروعات التكامل المعلقة بين البلدين والشروع في إنشائها فوراً.

(د) النظر فيما قد يحتاجه السودان من تسهيلات في إحدى موانئ البحر الأبيض المتوسط الليبية لتخفيف الاختناق في ميناء بور تسودان.

(ه) تقديم قرض نفطي للسودان يسدد بشروط سهلة أو عن طريق المقايضة.

(و) تلبية السودان قدر المستطاع لحاجة الجماهيرية لليد العاملة والماهرة والفنية والحل العادل والجامع للمشكلات التي يواجهها العاملون السودانيون في ليبيا.

(ز) على أن تبحث هذه الأمور عبر مندوبين رسميين من البلدين في لقاء يتم قريباً.

(ح) وتمهيد لهذا كله تقدم دعوة للرئيس نميري لحضور احتفالات الفاتح من سبتمبر وبعد ذلك أو أثناء ذلك يجتمع الوفدان لبحث الأمور المذكورة.

وعاد السيد الصادق للسودان في منتصف أغسطس ١٩٧٨ م وقابل النميري فور وصوله، وأطلعه علي ما دار بينه وبين القذافي، وما تم الاتفاق عليه، فأيد الاتفاق ولكنه اعتذر عن حضور احتفالات الفاتح من سبتمبر في ليبيا وقرر إرسال وفد سوداني رسمي لحضورها، وبالفعل أرسل وفداً برئاسة السيد خالد حسن عباس، وأرسل وفداً آخر برئاسة السيد عمر محمد الطيب لبحث ترتيبات عودة الأنصار من ليبيا.

وفي منتصف سبتمبر توجه النميري في رحلة طويلة لأوربا وأمريكا وأخطر الحكومة الليبية أنه سوف يقابل القذافي في طريق عودته للسودان بعد انتهاء رحلته لأوربا وأمريكا.. هذه هي الرحلة التي تم خلالها توقيع كامب ديفيد، وما تلاه من تطورات!)

وقبل أن نتابع ما جرى بعد كامب ديفيد، دعونا نركب ذلكم القطار المشحون بَشَراً وبِشْراً إلى أبا..

مهرجان أبا سبتمبر ١٩٧٨

منذ أن ارتكب النظام المايوي مجزرة أبا حرّم على أي من أفراد أسرة المهدي الدخول إليها. أما ذلك العام وقد حُلّلت لهم، فإن قطار السيد الصادق إلى أبا «شال الخلوق والسوح»، بتعبير الحبيب الأستاذ السر قدور، وهو يحث على الركوب مع الإمام الصادق بعدها بنحو عقدين ونصف: **قامت سفينة نوح، شايلة الخلوق والسوح، يا خلي أوع تروح.. خليك معانا!**

فقد رأى السيد الصادق أن يذهب لصلاة عيد الفطر لعام ١٣٩٨ه في الجزيرة أبا إحياء لسنة الإمام عبد الرحمن المهدي، وكان يوم عيد الفطر موافقا للرابع من سبتمبر ١٩٧٨م، وكان ذلك أول عيد فطر له بعد عودته، ونسبة لحرمان أفراد أسرة المهدي الكبيرة الآخرين من الذهاب إلى الجزيرة أبا طيلة عقد السبعينات بالأوامر السلطانية، رأى أن يصطحب معه كل من رغب من الأسرة الكبيرة، فاستأجر قطاراً كاملا متجهاً من الخرطوم لربك وسافر فيه عدد كبير من أفراد الأسرة ومن الأنصار، وكنا في ذلك القطار وكانت رحلتنا الأولى للجزيرة أبا مهد الدعوة المهدية والثورة التي حررت السودان ووحدته.

كان في تلك الرحلة عدد كبير من أمهاتنا بنات الإمام عبد الرحمن وبنات الإمام الصديق وغيرهن، وعدد كبير من أفراد الأسرة رجالاً ونساء وشباباً وأطفالاً.

وكانت حشود الأنصار التي حضرت لأبا لمقابلته بعد العودة بحراً لجياً متلاطم الأمواج.

وحدثت في المهرجان المقام بأبا أموراً مهمة كثيرة، وقد جمع الحبيب عبد الرسول النور إسماعيل الكلمات التي ألقيت يومها في كتيب بعنوان (الصادق المهدي في الجزيرة أبا) وكتب في مقدمة الكتاب إن الناس خرجوا (تهزهم الحماسة والوفاء وتزمجر حناجرهم بالهتاف والبكاء. الله أكبر الله أكبر، الناس كأنهم في طواف أو في أرض المحشر كأنهم جراد منتشر. لقد كانت الأيام الثلاثة التي قضاها السيد الصادق المهدي

ومن صحبه أياماً خوالد مسحت عن جبين الأنصار ما ران عليه من هم وغم وحزن في أيام المحنة).

وقال الحبيب السيد الصادق في خطبة العيد إنه اتفق مع النميري على أن تكون الجزيرة أبا (أم قرى السودان) ملكاً تعاونياً لأصحابها. وهذه قضية حولها غلاط كثير وليس هذا محل بحثها، لكن هناك من يرمي السيد الصادق بالغموض في أمر أبا، بينما حديثه حولها واضح وموضح من على صهوات المنابر.

واعتلى المنبر السيد ولي الدين الهادي الابن الأكبر للإمام الهادي، وقال: (إننا جميعا لدينا مسئوليات جسام نحو العقيدة والوطن، وهذا ما أراده الله لنا منذ أن جهر الإمام المهدي في هذه البقعة بإعلاء كلمة الله وإصلاح الوطن، ولاستمرارية هذا علينا الالتزام بإحياء الملة والعمل بما أوصى به أئمة الأنصار، وأذكر لكم من بين تلك الوصايا وصية هامة تركها الإمام الهادي في أمر يتعلق بتوضيح المسئولية القيادية لكيان الأنصار، ولقد ذكر الإمام الهادي في هذه البقعة بأنه في حالة غيبته يكون المسئول الأول هو السيد الصادق المهدي، هذا لحسم كل الجوانب والشائعات التي تجوب حول هذا الأمر الهام لكياننا).

ومع أن السيد ولي الدين قد غيّر مواقفه بعدها، ولكن قوة كلماته كانت تنبع من أنها شهادة واضحة يلقيها أمام ذلك الجمع الكبير من الأنصار وهو الابن الأكبر للإمام الهادي، كما كانت شهادته تتطابق مع حديث الشهود كلهم الذين حضروا خروج الإمام مهاجراً. وهذا المعنى جاء كذلك في القصيدة التي ألقاها في نفس المهرجان السيد إدريس البنا (الذي صار لاحقا عضوا بمجلس السيادة وهو الأديب المعروف) وهي قصيدة طويلة، نقتبس منها:

أنا أبا مهد الرجال الشم .. مكناس الظبا

جئنا إليك وعائدون

مقهورة الوقت الحزين

يا غصة حول الوتين

وغضبة ملء العيون

وثورة ملء الجفون

**

وهرعت أبكي من دمي

والماء حولك قد همي

والزرع غذاه الطمي

والقوم في أوج السكون

وفي الضمير يرددون

صحنا نادي أن مولاك ومولاي ولي الله هادي

قال في هذا الخضم

في الناس في جمع أشم

أنا بينكم في غيبة

في أرضكم في غربة

مدوا لصادق بالأكف وبالأيادي

وفي الحقيقة لم يكن الصادق برأيي محتاجاً لتلك الشهادات، فهو قد تصدى للقيادة وقت نبذها الناس وابتعدوا فراراً بأنفسهم وأموالهم وتحبيذاً للسلامة. فلو كان الإمام الشهيد أوصى بغيره لكان هو الأحق بالتصدي، خاصة وأسس القيادة التي وضعها الإمام الصديق تقتضي رأي الأنصار ومشورتهم في المقام الأول، وهذا يطابق وصف الإمام المهدي للقائد: من تقلد بقلائد الدين ومالت إليه قلوب المسلمين.

ولم يكن بالطبع أمر تنصيبه إماماً وارداً، لأن مصير الإمام الهادي لم يكن قد أزيح عنه الستار بشكل قطعي بعد. وكان التحقيق فيما حدث من أهم المطالبات الواردة في التفاوض مع النظام.

أما بالنسبة لنا فقد كانت تجربة فريدة ولأول مرة نقابل تلك الحشود الضخمة ونراها عياناً بياناً. وإن كانت كذلك محفوفة بالمصاعب الجمة.

فقد شاهدنا بعض أفراد الأسرة يتعامل مع الأنصار بتعالٍ استنكرناه جميعنا، فكنا نرفض أن يقبّل أحد يد الواحد منا والواحدة. ومع أن هذا السلوك سائد في سائر بيوتات السودان الدينية، وكان مما يقبله الإمام عبد الرحمن من الأنصار كنوع من التصالح مع المجتمع ومع قيمه، إلا أن رفضه موجود داخل بيته، فكان الإمام الصديق كما سمعنا يرفض أن يقبّل أحد يده بصرامة غير عادية وفي مرة اصطرع مع مصر على التقبيل حتى صرعه قبل أن تمس شفاهه يده. وكذلك كنا نرى أمي رحمة وأمهاتنا يجذبن يدهن قبل أن تمسها الشفاه، أما السيد الصادق فكان يعانق الناس في السلام ويأبى تقبيل يده تماما كوالده.

وكان أدهش شيء مر بي في تلك الرحلة، وقد كنت لا أزال طفلة، أن امرأة جاءت بابنها المريض وطلبتني أن أنفث أو بالأحرى أتفل فيه تبركاً! كان الطلب غريباً ومقززاً، ومخالفاً لفكرتي عن هوان شأني فرفضت بإباء، وأذكر أني حاضرتها بما أفهم من أني لا حول لي ولا قوة وأن الله يقبل الدعاء من كل شخص، وصحيح إن بعض أهلي من الصُلاح ولكني ليس لي صلاح يذكر، فالبركة لا تورث!

وبهذه المناسبة يروى أن جاءت إحدى هؤلاء المتبركات لجدنا دكتور الفاضل البشرى المهدي، وكان ممن أُسروا وتربوا فترة بمصر فيتحدث بلهجة مصرية، فقال لها: اخص عليك يا ولية، هي مية الأحناك بركة؟

والملاحظة الأساسية هنا هي أن عهد التنكيل قد زاد من هذه الممارسات، والأثر الكبير لإزالتها تم أثناء الديمقراطية، حيث اختلط الناس في أسرة المهدي بالأنصار في عهود بريئة من رد الفعل، وحدث التطور بالوعي وبالمخالطة، ولذلك فإن الحديث عن اجتثاث ملامح الطائفية بالقوة هو محض وهم، وكياننا قام على أصل غير طائفي فالمهدية كانت مصححة لكل مفاهيم الطائفية هادمة لها، ولكن تسربت لها هذه الملامح في فترة الهدنة التي عقدها الإمام عبد الرحمن مع كافة ملامح المجتمع السوداني، وأية محاولات لمحو هذه الملامح بالقوة تأتي برد فعل عكسي يوطّد الطائفية ويفرهدها.

كامب ديفيد وإعلان فشل المصالحة

جاء في كتاب المصالحة:

(بالرغم من الإعلان الرسمي للمصالحة ودخول السيد الصادق للمكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي والاستعداد الكامل للمشاركة، فإن خط سير المصالحة تعثر.

وكانت التصريحات الموجهة ضد برنامج المصالحة كما أعلن بالاتفاق مع النميري، بل الإجراءات العملية التي تلغي متنه متكاثرة. مثلاً: تم تنظيم مؤتمرات تنشيطية للاتحاد الاشتراكي وإعلان أنها مؤتمرات لا تسبقها انتخابات.

كان السيد الصادق وقادة حزبه يلاحظون هذه التصريحات والإجراءات ويطالبهم الآخرون بإجلاء الموقف فيتحلون بالصبر أملاً في أن يوجد مخرج من هذا الموقف المحرج، ويقول السيد الصادق للمساءلين والمتشككين: «على أي حال، ولحين جلاء الموقف فإن المؤسسات القائمة حالياً وعلي رأسها المكتب السياسي تكفل للجميع المشاركة في اتخاذ القرار في المسائل الهامة وهذه خطوات للأمام كما أن المصالحة حققت للسودان استقلال الإرادة في السياسة الخارجية وهذه قفزة للأمام أيضاً».

ولكن، وفي ١٧ سبتمبر ١٩٧٨م وبعد مضي نحو شهرين على إعلان المصالحة على أجهزة الإعلام السودانية رسمياً تم توقيع الرئيس المصري أنور السادات لاتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل. وكانت طريقة التعامل مع تلك القضية تبياناً واضحا لسير النظام مكانك سر، ولانعدام أي أمل في الإصلاح، كانت القشة التي قصمت ظهر البعير).

كامب ديفيد كان زلزالاً في العالم العربي، وأول الانهيار التام.. لقد ووجهت الاتفاقية بغضب شعبي عارم في كل البلاد العربية، ومن ينسى أبيات نزار قباني:

كان اسمه

كما يقال أنور السادات

كان اسمه المأساة

والعلم عند الله والرواة

و كان يمشي

خلف عبد الناصر العظيم

مثل الشاة

منحنياً.. منكسراً نصفين

وشاحباً.. وصامتاً.. وزائغ العينين

وكان أقصى حلمه

في أول الثورة أن يهتم بالحقائب

وأن يقول للرئيس آخر النكات

كنا نراه دائماً

يجلس في سيدنا الحسين

يستغفر الله

ويتلو سورة الرحمن

كنا نظن أنه يرتل القرآن

لكنه فاجأنا وأخرج التوراة

كنا نظن أنه

سيدخل القدس على حصانه

ويستعيد المسجد الأقصى من الأسر

ويدعو الناس للصلاة

لكنه فاجأنا

وسلم الأرض من النيل إلى الفرات

كان السيد الصادق قد نظر للاتفاقية باعتبارها خيانة قومية.. إنه ينادي على الدوام بحل سلمي، وينظر للمواقف السرمدية في صف الدم والانتقام باعتبارها تفتقد الحكمة، المواقف على غرار ما نادى به أمل دنقل في قصيدته الرائعة (قراءة جديدة لحرب البسوس):

لا تصالح ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك

وأثبت جوهرتين مكانهما

هل ترى

هي أشياء لا تشترى!

لا تصالح على الدم حتى بدم!

لم يكن ينادي بموقفٍ كهذا، ولكن في أدبياته الكثيرة حول القضية الفلسطينية كان ينادي بسلام عادل، وقد استعرضنا مقاله الذي دعا فيه لنبذ المواقف الانفرادية التي تشق الصف العربي، وكانت كامب ديفيد برأيه سلاماً مذلاً يعمل على شق صفوف العرب.

الشاهد.. وقعت كامب ديفيد وكانت حدثاً هز العالم العربي. وبالطبع اختلفت المواقف السودانية إزاء كامب ديفيد. وكان يرجى أن يتم تداول حر للوصول للرأي بشأنها وهي مسألة شغلت الرأي العام العربي وفرقت صفوفه.

جاء في كتاب المصالحة الوطنية:

(كان النميري حينها في زيارة أمريكا، وحينما سئل عن رأيه قال إنه ما زال يدرس الاتفاقيتين وسيتخذ بشأنهما قراراً عن طريق أجهزته السياسية، وأرسل للأجهزة في السودان لدراسة الاتفاقيتين والاستعداد لعودته، فأجريت لهما دراسة بواسطة لجنة الشئون الخارجية للمكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي، ولجنة الشئون الخارجية لمجلس الشعب، ووزارة الخارجية السودانية. وأعد له خطاب لإلقائه على الجمعية

العمومية لهيئة الأمم المتحدة في نيويورك وكان الخطاب في نصه المطبوع الموزع على الحاضرين خالياً من أية إشارة لاتفاقيات كامب ديفيد وبدا أنه بصفته رئيس هيئة التضامن العربي، ورئيس منظمة الوحدة الأفريقية سوف يتريث وينتظر دراسة الأجهزة ومشاركتها في القرار النهائي.

ولكن لأمرٍ ما أضاف في خطابه الحي الفقرة الآتية عن اتفاقيتي كامب ديفيد. قال: «والآن ولقد لمسنا في مبادرة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الرئيس جيمي كارتر، في اجتماع كامب دايفد مجهوداً لا بد من الإشادة به باعتباره من حيث المبدأ محاولة تاريخية جادة لإحلال السلام. وبالرغم من أننا لا نسعى في هذا المقام لتقييم نتائج هذه المحاولة سلباً أو إيجاباً، إلا أننا نري ألا يكون التسرع سمة تقييم مثل هذا الجهد. ولا بد قبل الحكم له أو عليه من الدراسة الحقيقية المتأنية والتحليل الموضوعي على ضوء قرارات هيئة الأمم المتحدة ومؤتمرات القمة العربية. ولا بد من تسليط الضوء على إيجابيات هذه المحاولة حيث كانت لتكون ركيزة من ركائز السلام، وعلى سلبياتها حيث كانت حتى لا تنحرف عن تحقيق هدفنا الأول وهو السلام العادل الدائم في منطقة الشرق الأوسط».

وكان الجميع في السودان يتوقعون أن يظل السودان متحفظاً في موقفه حتى عودة النميري للبلاد واجتماع المكتب السياسي، وكان السيد الصادق متأهباً للسفر للجزائر خاشياً أن يعود النميري قبل عودته من الجزائر ويعقد اجتماع المكتب السياسي ويفوته الإدلاء برأيه حول الموقف، وقد كان يعتبر الاتفاقيتين بمثابة استسلام للسادات. فطلب من اللواء عمر محمد الطيب أن يبلغه بعودة النميري.

تم حدثت التطورات التالية: السادات لم يشأ أن ينتظر النميري في أمريكا ليطلعه علي أسرار موقفه، ولم يشأ أن يزوره في السودان كما فعل مع الملك الحسن، بل أرسل إليه يطلبه أن يمر عليه في مصر، فعدل برنامج رحلته وذهب للإسماعيلية في ١٤/ ١٠/ ١٩٧٨م، وهنالك قابل السادات ثم عاد للسودان في ١٥/ ١٠/ ١٩٧٨م.

وعاد السيد الصادق المهدي فوراً للسودان لدى سماعه بخبر العودة في ١٨/ ١٠/ ١٩٧٨م.

وفي يوم ٢٠/ ١٠/ ١٩٧٨م بينما الأعضاء ينتظرون دعوة المكتب السياسي للانعقاد أذاع راديو أم درمان بياناً من رئاسة الجمهورية خلاصته: إن السودان مرتبط بمصر روابط أزلية ولذلك فإنه يقف الي جانبها ويؤيدها، وأن مصر ضحت كثيراً في سبيل القضية العربية ولذلك لا يحق لأحد عزلها أو مساءلتها عما تفعل لرد أراضيها المحتلة؛ وأن اتفاقية إطار السلام تشتمل علي إغفال وإبهام ينتظر أن يزالا في المباحثات اللاحقة.

وكان البيان مفاجأة كبري علي الرأي العام السوداني أما بالنسبة للسيد الصادق فقد كان البيان قاصماً، إذ عندما صدر بيان يوم ٢٠/ ١٠ انهدم الركنان اللذان يستند عليهما حزبه في استمرار الأمل في المصالحة، فلا المكتب السياسي اجتمع للمشاركة في قرار مصيري حاسم ولا احتفظ السودان باستقلال موقفه في السياسية الخارجية؛ بل البيان أكد أن الروابط الأزلية بين السودان ومصر توجب تأييد السودان لمصر.

وفي هذا الموقف بحسب ما رأى المعاني الآتية: أن الروابط الأزلية بين السودان ومصر توجب تأييدنا لمصر لا العكس. وأن رأي الرئيس السادات هو رأي مصر دون تحفظ.

بعد هذا الموقف قدم الصادق استقالة مسببة من المكتب السياسي واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي وعرضها على قادة الحزب في اجتماع موسع فأيدوها بعد إجراء تعديلات وقدمها في ٢١/ ١٠/ ١٩٧٨م.

كانت خلاصة مذكرة الاستقالة كالآتي:

أولاً: رفض صدور بيان التأييد الذي يفترض أن الروابط الأزلية بين السودان ومصر توجب تأييد السودان لمصر في كل ما تفعل. ورفض اعتبار موقف السادات هو بالضرورة موقف مصر. ورفض اعتبار التضحيات التي قدمتها مصر دفاعاً عن حقوقها الوطنية والقومية مبرراً لتنصلها عن التزاماتها الوطنية والقومية التي التزمت بها في مؤتمرات القمة العربية.

ثانياً: نقد اتفاقيتي كامب ديفيد نقداً مفصلاً، وبيان أنهما أدتا للحصول علي سيادة ناقصة ومحدودة في سيناء، والتفريط في الحقوق العربية الأخرى كما حددها مؤتمر القمة العربي في الرباط، وإجراء صلح منفرد تحت حماية أمريكية، مما أدي لرفض

العرب الآخرين له، ودعوتهم لحماية سوفيتية مضادة، وتبيان أن دور السودان ليس تأييد مصر ظالمة أو مظلومة بل الالتزام بعهوده واتفاقاته التي دخل فيها في مؤتمر القمة العربية، ومطالبة مصر بالالتزام المماثل والعودة من طريق الانفراد. والعمل علي توحيد الصف العربي للصمود دفاعاً عن الحق العربي والسلام العادل.

ثالثاً: إن كيفية إصدار البيان تدل علي أن المؤسسات السياسية وعلي رأسها المكتب السياسي لا وزن ولا قيمة للاشتراك فيها، لذلك فالسيد الصادق مستقيل منه ومن اللجنة المركزية، ولن يشترك في مؤسسات سياسية إلا إذا كانت منتخبة انتخاباً مباشراً وذات صلاحيات فعالة.

وأطلع السيد الصادق كل من السيدين عمر الطيب وفتح الرحمن البشير على المذكرة قبل تقديمها، وفي ٢٥/ ١٠/ ١٩٧٨م انعقد اجتماع ضم النميري، والصادق المهدي، وحسن الترابي، وتداولوا الموقف من جميع جوانبه ولم يتوصلوا لقرار محدد.

وفي يوم ٢٧/ ١٠/ ١٩٧٨م شارك السيد الصادق في ندوة بدار اتحاد طلاب جامعة أم درمان الإسلامية حول المصالحة الوطنية وأعلن هناك إخفاق مشروع المصالحة الوطنية.). أ. ه.

خرج السيد الصادق إذن من (بيت الغول) المسمى الاتحاد الاشتراكي، والذي يشرف على عوسٍ من طحين آلام وعظام الشعب السوداني، وأعلن على الملأ أن المصالحة قد وصلت إلى طريق مسدود.

وبعد ذلك استمر وحزبه في معارضة النظام المايوي من الداخل والخارج عبر بعض القيادات التي بعثت لهذا الغرض، مع عدم الرجوع لحمل السلاح في الحالين.

واعتبر أن إنجاز المصالحة لم يكن في تحقيق أهدافها فقد تمت عرقلة برنامج المصالحة الوطنية من جهتين: عصبية النظام التي حالت دون إجراء الإصلاحات المتفق عليها وإبقائها حبراً على ورق. والجهات الخارجية التي حالت دون التحرك السوداني المستقل في سياسته.

ولكن إن إنجازها في رأي الصادق تمثل في عاملين:

الأول: إتاحة هامش للحريات للحركة بالداخل بعد أن كانت الأوضاع مصمتة بالكامل. في هذا الهامش انتعشت الحركة النقابية والحزبية وقادت في النهاية للمواجهة التي أطاحت بالنظام في ١٩٨٥م.

الثاني: إتاحة المجال للقيادات العليا لحزب الأمة العودة للبلاد والعمل من الداخل في الهامش الضيق الذي نتج للحريات، وكانوا وعلى رأسهم الصادق يقولون: شبر حرية داخل البلاد خير من ميل خارجه!

أما بالنسبة لنا فقد كانت المصالحة باباً للتعرف على وجه كان غائباً، تلكم الجماهير الحاشدة، وعاطفتها الجياشة، وحماسها الأسطوري. لقد سمعنا كثيراً حكايات عمن يكون الحبيب السيد الصادق، وكم من الناس يمضي خلف راياته، لكن ذلك كان أوان المشاهدة!

الفصل السادس

بين الداخل والخارج

تابعنا في الفصل الأخير ملابسات المصالحة الوطنية التي احتوت على مفاوضات مطولة بدءاً بيوليو ١٩٧٧م ولكن لم تثمر إعلاناً رسمياً إلا في يوليو ١٩٧٨م أي بعد نحو عام من اللقاءات والمداولات والتكهنات التي تخللتها نكسات تابعناها. ثم ما لبث أن وصلت المصالحة إلى طريق مسدود وتم إعلان إخفاقها على الملأ في أكتوبر ١٩٧٨م، أي بعد ثلاثة أشهر من الإعلان الرسمي عنها.

في الفترة ما بين أواخر ١٩٧٨ وحتى ١٩٨٣م والتي يعالجها هذا الفصل سنجد السيد الصادق في حالة تنقل دائب بين الداخل والخارج. وكانت نشاطاته متنوعة، فبعضها تنظيمي، وبعضها فكري، وبعضها دبلوماسي، وبعضها سياسي، وبعضها إعلامي، وكلها تصب رياً للقضايا التي يرفع راياتها دينياً ووطنياً.

بعد إعلان فشل المصالحة الوطنية في أكتوبر ١٩٧٨م، غادر السيد الصادق البلاد متجهاً إلى ليبيا ضمن مجهوداته لتذليل عودة المهاجرين في المعسكرات هناك وقد عرقلت السلطات الليبية إجراءات عودتهم.

في تلك الفترة وفي الرابع من ديسمبر ١٩٧٨ ولد بشرى أخي آخر العنقود، والسكر المعقود.

الشاهد، توجه السيد الصادق من ليبيا إلى بريطانيا، وضمن أوراقه وجدت محاضرة قيمة ألقاها بمعهد الشؤون الخارجية البريطانية في مارس ١٩٧٩م بعنوان (الإسلام والتحول الاجتماعي) وكان ذلك في ١٣ مارس ١٩٧٩م.

هذه المحاضرة مع أهميتها لم تنشر ولكننا وجدناها مكتوبة بين أوراق السيد الصادق. واكتفي بإيراد مدخلها الرائع: (*نهض الإسلام نهضة لم تعرف البشرية لها مثيلاً، ودق باب التاريخ وفتحه على مصراعيه، فتدفق المسلمون حيوية أسمعت العالم المعمور دعوة*

الدين الخاتم، واستوعبت معارف الإنسانية وفلسفاتها استيعاباً جعل آبيلارد الأوروبي «من علماء القرن الثاني عشر الميلادي» يظن أن كلمتي مسلم وفيلسوف مترادفتين. حيوية أحاطت بتراث الشرق العتيق حتى أن مونتجمري و. وات قال: «إن في استيعاب الحضارة الإسلامية لحضارات الشرق الأوسط العتيق وفلسفتها لسحراً». لقد أعاد الإسلام في نهضته بناء النظام الاجتماعي مجدداً حتى أن و.س. سميث قال: «لقد كان البرنامج الاجتماعي الإسلامي أوسع البرامج وأكثرها جدية وتصميماً لتحقيق العدل الاجتماعي بين البشر». لقد نوع المسلمون ووسعوا النشاط الاقتصادي مما حمل م. رودونسون على وصفهم بقوله: «لقد أقاموا أوسع سوق عالمي عرفه البشر قبل قيام النظام الرأسمالي الحديث»).

وفي المحاضرة نقض لأسس التنمية والتحول الاجتماعي الليبرالية، والشيوعية، والقومية، وإبراز للدور الحتمي للإسلام، وأنه الباعث خلف الثورات والتحولات الأساسية في العالم الإسلامي، متعرضا للشبهات المثارة أمام البعث الإسلامي في العصر الحديث.

ويبدو أنه بقي في إنجلترا لبضع شهور. يذكر السيد غراهام توماس أنه كان في زيارتهم في يونيو ١٩٧٩، وبعد ذلك غادر بريطانيا ليقوم بجولة في البلدان العربية: السعودية، الأردن، العراق، وفي إيران. (وقد أمر الملك السعودي خالد بفرش البساط الأحمر إكراماً له)[١]. ثم سافر للأردن حيث قابل الملك حسين وشقيقه وولي العهد حينها الأمير الحسن، وقد ترك الأمير الحسن انطباعاً قوياً في نفس الصادق، وانعقدت بينهما صداقة حميمة. أما بخصوص آيات الله والقادة الإيرانيين، فقد كانت وجهة نظر الصادق أنهم: لا يفقهون الشئون الدولية في العالم وأنهم جيدون ولكن نظرتهم إقليمية صرفة[٢].

فاجعة رحيل الأمير نقد الله

خرج السيد الصادق من الخرطوم في أواخر عام ١٩٧٨م مغاضباً، وتنقل كما ذكرنا بين العواصم، ولكنه اضطر للعودة لأم در، لتشييع ذلكم الطود الأنصاري والرقم المهم

(١) توماس، سابق ص ١٩٣

(٢) نفسه ص ١٩٣

في حزب الأمة. الرجل الذي التحمت خطاهما معاً في مسيرة الأهوال، واقتسم كل أقساط الأذى معه. جمعتهما صداقة ومحبة عظيمتين، هزئت بفارق الأجيال، وقربت المسافات.. وكثيراً.

يقول توماس: وفي أغسطس ١٩٧٩ ذهب الصادق على غير رغبة منه وإنما مضطراً لأن يذهب بحكم وفاة الأمير عبد الله نقد الله. (وكان نقد الله هذا ركيزة عظيمة لحزب الأمة منذ الأيام الأولى، وسيكون فقدانه خسارة كبيرة. وكان الصادق مقتنعاً بأنه قد يسحب النظام ثقته منه أو يقوم بتصفيته، ومع هذا فهو مجبرٌ على أن يقدم احتراماته وعزائه لعائلة نقد الله الفقيد)[1].

قال السيد الصادق في تأبينه:

في ضواحي الخرطوم وجيوش التحرير تطوقها اجتمع الإمام المهدي بالأحباب وطالبهم قائلاً: بايعوني على عتق الرقبة على قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[2] وذلك إعداداً للتضحية الكبرى لخوض معركة تحرير الخرطوم.

وفي تلك المناسبة أبن الأمير عبد الله ود النور بقوله﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾[3] كعبد الله ود النور ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ كعبد الله ود إبراهيم ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾.

نستلهم الوحدة الموضوعية في هذا التاريخ، ونسوق هذه الآية الكريمة في تأبين أميرنا الراحل الأمير عبد الله نقد الله بقوله﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[4].

إن مدخلي للحديث عن الأمير الراحل هي وحدة هذا التاريخ الذي كان تياراً في نهر

---

(١) نفسه ص ١٩٤

(٢) سورة الحديد الآية ٢٣

(٣) سورة الأحزاب الآية رقم ٢٣

(٤) سورة الأحزاب الآية رقم ٢٣

من دعوة قامت على هذا البعد من مصدر الدعوة الإسلامية، لتجسد على فترة من الزمان الشباب الإسلامي وهذا هو المعنى الأول.

والمعنى الثاني أنها دعوة كرست ولخصت ثم ارتقت بتراث الفروسية السودانية إلى القمة، ذلك التراث الذي عرفه أهل هذا البلد وعن طريقه سمع صداهم في كل أنحاء المعمورة.

المعنى الثالث الذي ينقله إلينا ذلك التاريخ هو أنه أبرز وأوضح وحقق عبقرية الرجل العادي: المزارع العادي، والعامل العادي، والرجل العادي، فصار عن طريق تلك الدعوة قائداً يقود الجيوش ويخطط ويهزم كل أولئك الذين درسوا العسكرية والإستراتيجية في معاهدها، وبسم الله وإرادة الشعب يخط حياة جديدة.. تفوق أولئك النفر من الناس العاديين تفوقاً تاماً كما أشعلت الدعوة الأولى بذلك النور في النفوس تحول الرجال العاديين الذين كانت تضحك عليهم الأمم، فأشعلت الدعوة في نفوسهم ما جعلهم يدكون حصون الروم، وفارس، ويغرسون دعوة نورها حتى اليوم يشع ويفيض ويتقدم.

وكما أن الدعوة الأولى في الصدر الأول للإسلام ربطت رباطاً لا ينفصل بين قومية العرب ودين الإسلام، فجعلت للعرب في التاريخ أقوى وأعظم سيرة، وأكبر وأهم دور، وبذلك جعلت كل مفاخرهم بادئةً بالإسلام، فكانت بذلك رباطاً نهائياً لا ينفصل بين دين الإسلام وقومية العرب، كما أن ذلك حدث في السودان ربطت الدعوة المهدية بين الدين الإسلامي و الوطنية السودانية، لأنها أعلت شأن السودان بصورة لم يسبقها إليه أحد في الوطن.

وهذا هو ما يلخص شخصية فقيدنا. فقد كان على تقواه وإخلاصه للإسلام، قوي الوطنية السودانية، وهذا الرباط القوي بين الدين الإسلامي وما غرس، وبين الوطنية السودانية كان بعض ما حققت تلك الدعوة وآثارها.

المدخل الثاني في حديثي عن الأمير الراحل هو أننا كأفراد لسنا أفراداً في الحقيقة، فكلنا جزء من كيان يعيش في تيار أكبر، لذلك فقضيتنا تضيع في ذلك التيار. التيار الذي حركه وتعهده أئمة هذا المشهد الذي نجتمع فيه اليوم.

فالإمام محمد أحمد المهدي جدد شباب الإسلام وسار، في هذا الدرب كما يقول المثل السوداني من الركاب إلى التراب.

وخليفته عبد الله حمى الدعوة والدولة، وواجه الموت مرة ولا حياة مرة. وعبد الرحمن الصادق بعث الدعوة وبعث لاستقلال السودان، وكان إذ أدركه الوهن وهو يناضل في أخريات أيامه يتلمس صحة يغالب بها ويعمل، يقول:

ولي كبد مقروحة من يبيعني　　　غيرها كبداً ليست بذات قروح

اباها عليّ الناس لا يشترونها　　　ومن ذا يشتري ذا علة بصحيح

والصديق، الذي أودت بحياته طعنة المولد: هجوم مدجحين على عزل. فمات يردد: حققوا مطلب الأمة وليس لكم حق في سلبها.

والهادي: الذي كرر حتى آخر اللحظات قد وفيت اللهم فاشهد.

تراث لعب فيه فقيدنا دور الساعد الأيمن في كثير من حلقاته.

تراث عناه أبو تمام في تفضيل الشجاعة على السخاء:

كم بينَ قومٍ إنما نفقاتهم　　　مَالٌ وقَومٍ يُنفِقُونَ نفُوسَا

ومن تلك الحلقات التي لعب فيها أميرنا الراحل دوراً دوره في الحركة الاستقلالية. كان يمثل مع جماعة أخرى من الشباب قوة متحمسة داخل التيار الاستقلالي حتى تكون بتشددها قادرة على دفع التيار العام للحركة الاستقلالية.

وكان له دور آخر أيضاً في بناء قوة وصمود الأنصار تحت توجيه الإمام عبد الرحمن، لأن تراث الأنصار دائماً ينطوي على وجهين: وجه جهادي، ووجه رحماني. لقد كان هو من الذين بنوا الوجه الجهادي في صفوف الأنصار.

وكان له دوره في الوحدة الوطنية لان الحركة الوطنية بمفهومنا كانت تعني أن السودانيين جميعاً تحركوا لإنتزاع سيادة بلادهم من المستعمر الدخيل، وفي لحظة حاسمة من تقدم البلاد وتأريخها أجمع كل من كان يدعو بالاستقلال والاتحاد على الاستقلال، فكانوا بذلك كأنهم حاصروا العدو وانتزعوا حقوقهم بهذه الوسيلة.

كان الأمير الراحل مهتما جداً بالوحدة الوطنية، وعندما قام انقلاب ٢٥ مايو، واعتقل، استدعاه مجلس الثورة بعد أن اعتقله واعتذر له عن ذلك الاعتقال، وتحدث معه حديثاً جاء الأمير إلينا في الجزيرة أبا ليقول قد أتصل بي هؤلاء الأخوة وأنا أرى سبيلاً للتفاهم، فأرجو تفويضي بذلك ولم يكن كما قيل إنه جاء لإقناعي أنا شخصياً بالحضور للخرطوم ليتولى ذلك الدور، وإنما جاء ليفوض. ولكن كان قد سبقه وصول الفاتح عابدون مرسلاً من قادة البلاد آنذاك ليقنعني أن افتح حواراً ودياً للوصول إلى اتفاق. على أي حال رأينا أن أحضر إلى الخرطوم استجابة لهذه الدعوة، وبالطبع ذلك المشروع وعد ولم يحقق ما رجي منه، لكن المهم مسعى الأمير كان جاداً في إيجاد مخرج سلمي للبلاد من تلك المرحلة الحرجة.

ودوره أيضاً أنه كان المتحدث باسم الإمام عبد الرحمن في المناسبات المختلفة. ودوره أيضاً المتحدث باسم الأنصار في المحافل الدولية.

هذا التراث وهذا العمل وهذه الأدوار لا يمكن أن تنسى وقد قام الأمير الراحل فيها بما قام بإخلاص وجد واجتهاد.

هذا التراث الذي نتحدث عنه تراث له قدره في توحيد الكلمة. وإن صيغ هذا القدر في ظروف الزمان المختلفة. فالإمام المهدي كان يقول تحقيقاً لوحدة الكلمة هذه ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ ويحكي قصة إذا ما كان يشرب الناس من زمن متفرق وقد فاض النهر فهل يشربون من تمدهم أم يشربون من النهر؟ يريد بذلك توحد الكلمة لبناء الدين في السودان.

وفي مرحلة لاحقة كان التعبير عنها ما قاله الإمام عبد الرحمن في قولته المأثورة (لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب ديننا الإسلام ووطننا السودان).

لهذا التراث قدر جهادي يثيره ضمن ما يثيره العداوات والاضطهاد، وقدر رحماني إذا ما وجد التسامح والتفاهم ركن إليهما وأطمئن إليهما فكأنما قصده العربي بقوله:

كالسيف إن لاينته لان متنه وحداه إن خاشنته خشنان

والمدخل الثالث في الحديث عن الأمير الراحل: هو أنه كان يؤلف بين متناقضات واضحات في طبعه. كان فقيراً في ماديته غنياً بما في قلبه عفيفاً، جمع بين هذا الفقر وهذه العفة،

فقد رأينا كيف أن كثيراً من الناس عندما تولوا مسئولية نسوا تماما العفة والانضباط.

كان الأمير حازماً كأنه عسكري لم يدخل الجيش، جندياً لم يدخل الجيش، وفي نفس الوقت كان مؤاخياً ودوداً بشوشاً كأنما في تعامله لا يأخذ بالحزم ولا بالعزم ولا بالضغط.

كان قوي الاعتقاد في معتقداته، ولكنه في نفس الوقت مرناً في التعامل مع خصومه. جمع بين قوة الاعتقاد ومرونة التعامل مع الآخرين.

هكذا الفضيلة. فالفضيلة دائماً توفيق بين متناقضات. بين الجبن والتهور تقع الشجاعة، وبين البخل والإسراف يقع الكرم، وهكذا. عندما تحدث سقراط لتلامذته يبحث الخلق القويم ويقول إنما هو توفيق بين متناقضات فقالوا له: أين يقع الحد بين متناقضين فتكون فضيلة لا رزيلة؟ قال: يصعب أن نحددها نظرياً فإذا أردت أن تكون فاضلاً فابحث عن رجلٍ فاضلٍ وقلده.

رحم الله الأمير، فكأنما وصفه أبو محجن:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته	وسائل القوم ما حزمي وما خلقي
قد اركب الهول مسدول عساكره	واكتم السر فيه ضربة العنق

والمدخل الرابع في حديثي عن الأمير الراحل: هو أن بلادنا تواجه محناً كثيرة، وأزماتها تزداد فكم نفتقد في مواجهتها جلد الأمير الفقيد الذي كأنما وصفه السليمي:

تمرست بالآفات حتى تركتها	تقول أمات الموت أم ذعر الذعر

نفتقد تمرس الفقيد الذي واجه حياة مملوءة بالشدائد والمشاق والمعضلات والآفات.

رحم الله الأمير في يوم شكره يوم يوجب الشرع الشكر. سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَةَ، وَهِيَ تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ زُهَيْرِ بْنِ جَنَابٍ الْكَلْبِيِّ:

ارْفَعْ ضَعِيفَكَ لَا يَحُرْبُكَ ضَعْفُهُ	يَوْمًا فَتُدْرِكُهُ الْعَوَاقِبُ مَا جَنَى
يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنَّ مَنْ	أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الشِّعْرُ الَّذِي كُنْتِ تَمَثَّلِينَ بِهِ قَالَتْ: أَنْشَدْتُهُ إِيَّاهُ،

فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ لا يَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى، مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ.

المدخل الخامس في حديثي عن الأمير الراحل: ربما وقف المحزون يقول:

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذي دون الفراق قليل

وإن كل افتقادي واحدا بعد واحد ... دليل على أن لا يدوم خليل

ولكن هيهات!

الصبر علي الشدائد والأحزان في عرف الإسلام طريق للفضائل، والتعرض للمحن دليل خير (أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل) . روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أهدى له بعض الناس بنته ليتزوجها، فقرظها ضمن ما قرظها به وامتدحها ضمن ما امتدحها به قائلاً بين ميزات هذه البنت أنها ما مرضت قط فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه لأن في المرض دليلاً علي هذا البلاء المذكور والمشار إليه. وكما حكيت أن من يواجه النكبات والشدائد تزرف هذه الشدائد والنكبات بقدرتها وقوتها في نفسه أعماق وأغوار تجعله أكثر إنسانية وأوسع قدراً وأكثر رحمة.

القول المذكور في هذا الصدد أن المزايا في طي البلايا والمحن في طي المنن . والله سبحانه وتعالي يقول ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[1] .

إننا في بلادنا اليوم نواجه ظروفا صعبة. نواجهها في ظروف بلادنا الداخلية، ونواجهها في ظروف أمتنا الخارجية. إذ يتصدى الخصم ويلعب بالوطن الأكبر ويتاجر به وبتاريخه كله. هذا هو الذي يجعلنا في حيرة من مستقبلنا. ولكن مهما كانت الحيرة فالعزيمة علي التغلب علي هذه الشدائد والمشاق هي جزء من الإيمان، ولا بد أن نستمد من كل تاريخنا هذا ما يمكننا أن نسير في هذا الدرب أقوياء بالشدائد لا ضعفاء.

وكما ذكر بعض الإخوة فان هناك شمعة تضيء الآن في بلادنا. إن المصالحة الوطنية قد أزالت من وجه بلادنا قدراً عاجلاً. ذلك القدر الذي قد كان فرق بين قاتل ومقتول حتماً، فقد أورثت تسامحاً ومقداراً معلوماً من الحرية. ولكنها لم تبلغ بعد هدفين

(١) سورة يوسف الآية ٨٧

أساسيين هما: أسس ونظام يوحد إرادة أهل السودان، وبرنامج يعالج قضايا البلاد علاجاً جذرياً.

إننا إذ نخاطب روح فقيدنا سنظل جادين في السير مهما طال الطريق لتحقيق ذينك الهدفين، وتوحيد إرادة أهل بلادنا حولهما، حتى نتمكن من بناء هذا الوطن العزيز والعظيم الذي من واجبنا أن نخدمه بكل ما نستطيع وما نقدر.

ختاماً: أناجي روح فقيدنا، يا عبدالله يا فقيدنا، هنالك آيات كان حبيبك الإمام عبدالرحمن الصادق يحبها، يحب أن يتلوها وأن تتلى علي مسامعه، نتلوها ونرجو أن تكون في زمرة هؤلاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1]

رحم الله الأمير نقد الله، ذلك الفارس الذي ترجل من الركاب وإلى التراب، وكانت المعركة لا تزال تحتدم. وسوف تفتقد بدره تلكم الليالي الظلماء.

لتكن نائبي وخليفتي

في وقت ما بعد إعلان فشل المصالحة، ولعل ذلك في عام ١٩٧٩م وفقما يوحي رصد السيد غراهام توماس، أو عام ١٩٨٠م وفقما يرجح السيد الصادق، فإن النميري عرض على السيد الصادق أن يكون خليفته ونائبه، ذاكراً له بأنه ليس هناك ممن هم حوله من يصلح لهذه المهمة مثله.. قال الصادق للنميري: في ظل الدستور الحالي فإن منصبك نفسه لا يناسبني! فالرجل يبحث عن نظام ديمقراطي لا عن كرسي!

السيد غراهام يروي القصة بأن الصادق أكد له أن نميري تحدث معه عن (خلافة مرتبة) ووعد بشكل قاطع بإجراء إصلاحات في السودان. وقال الصادق إنه عرض على نميري شروطه بوضوح، ورغم ذلك فقد ظل لدي انطباع واضح مفاده أن الصادق لا نية له من أن يكون مديناً للرئيس نميري أو نظامه الذي تلطخ بالدم والفساد[2].

---

(١) الآيات (١٠١-١٠٣) من سورة الأنبياء

(٢) توماس، ص ١٩٣

أما النميري فإنه ذكر الحادثة بطريقته كذلك إذ تحدث عن الصادق المهدي قائلاً: (أنا قلت له إذا كنت تريد أن تكون حاكماً قومياً تعال تعاون معي وأنا أعلمك. أنا لا أريدها وقد عرضت عليه أرفع المناصب، وفتحت له باب المساهمة في العمل العام على مصراعيه ولكنه آثر أن يعيش بعقلية الماضي.[1])

أما السيد الصادق فقد روى الحادثة بقوله: (زارني السيد جعفر نميري ومعه السيد فتح الرحمن البشير في منزلي، وقال لي يا فلان، أنا لا أرى فيمن معي من يصلح لخلافتي وقيادة البلاد ولذلك أعرض عليك أن تكون خليفتي وأن تكون نائبي في رئاسة الجمهورية. قلت له يا أخي الرئيس.. أنا في ظل الدستور الحالي ما لم يتغير لدستور ديمقراطي، لا أوافق على منصبك نفسه)[2]!

معارضة من الداخل والخارج

استمرت المعارضة المدنية لحزب الأمة بعد وضع السلاح في المصالحة الوطنية عبر خطين داخلي وخارجي.

أما داخلياً فقد كانت عبر اللقاءات الجماهيرية والمخاطبات خاصة في الأعياد، وعبر العمل الطلابي. فقد بدأت في الفترة (١٩٧٧- ١٩٨٣م) المعسكرات التنظيمية الطلابية التي تم فيها تأهيل الكادر عبر معسكرات عديدة.

وكانت هذه الفترة هي التي وضع فيها أساس الحركة الطلابية لحزب الأمة التي انتعشت لاحقاً، وقبلها كان الوجود الطالبي للحزب ضعيفاً بشكل كبير.

وقام السيد الصادق بتنظيم محاضرات في القضايا الفكرية المختلفة على الكادر الطلابي القيادي. وكان يهتم لدرجة قصوى باللقاءات التفاكرية معهم حول القضايا المختلفة، ويستكتبهم في مناقشة الأفكار تحفيزاً لهم على الاطلاع والتفكير، وزرعاً للثقة في أنفسهم. وكان يشارك في إلقاء المحاضرات في الجامعات ولعل من أهم أعماله الفكرية في هذا الوقت كانت محاضرة (العلمانية الجذور والأبعاد) التي ألقاها على طلاب جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٧٩م.

---

(١) *لقاء أجراه فهمي هويدي ونشر في الوطن المصرية في ١٦/ ١٢/ ١٩٨٤م*

(٢) شاهد على العصر مع الإمام الصادق المهدي، الحلقة الحادية عشرة في ٤ أكتوبر ٢٠١٥م.

وكان السيد الصادق كما قلنا موزعاً بين الداخل والخارج في زيارات لدول أجنبية للمساهمة في بعض النشاطات مثل زياراته المتكررة لطرابلس وجنيف بحثاً لقضايا تموين وعودة المهاجرين، أو نشاطات دبلوماسية، أو لإلقاء المحاضرات أو حضور المؤتمرات.

بينما أبقى السيدة سارا بالخارج وكانت ذهبت لإنجلترا في رفقة والدته السيدة رحمة للعلاج، وحكت أمي سارا أنه قال لها حول تلك الرحلة: إنني لا أئتمن على أمي شخصاً غيري سواك. وبالفعل ذهبا للعلاج، وكانت معهما حاجة السارة بنت باب الله رفيقة عمر أمي رحمة، وعمي بدر إسحق وزوجته الخالة فاطمة بنت رشيد. وهناك افتتحت أمي سارا مكتباً للحزب يدير معارضة النظام. نشط هذا المكتب جداً وكان يشرف على طباعة كافة الأدبيات التي يخطها السيد الصادق وإرسالها للسودان.

كما استمر قادة الحزب يشاركون بالرأي وبالتعبئة في معارضة السياسات القائمة الاقتصادية والاجتماعية والصحية وغيرها. مثلاً في ديسمبر ١٩٨٢م شارك الصادق في المؤتمر الاقتصادي الأول وقدم كلمة فيها نقد لاذع لأداء النظام.

أول خطوات التعرف

ذكرت أن بعضنا –من أبناء السيد الصادق وبناته- كان يزوره أيام المعتقلات في بورتسودان وغيرها. ثم نظّم لملاقاتنا في مصر، ولكن بعد عقد اتفاقية كامب ديفيد قاطع السيد الصادق مصر، وكان مشفقا علينا من الصدمة الحضارية لو ذهبنا أوربا. فخطط ليلاقينا في الإجازة الصيفية عام ١٩٧٩م في المغرب، ومن هناك ذهبنا عبر مضيق جبل طارق بالسفينة إلى أسبانيا، وكانت تجربة مدهشة، فهي أول مرة ركبنا فيها البحر، وفي أذهاننا قصة طارق بن زياد يوم قال البحر أمامي والعدو خلفي فأين المفر؟ ثم كان ركوبه البحر الذي ساق الإسلام إلى تلك البلاد ذات الحدائق الغناء.

قطعنا المضيق في زمن قصير ثم وصلنا أسبانيا.. وقصد الوالد الحبيب أن نشهد فيها قصور غرناطة وقرطبة ونطلع على مجد المسلمين في الأندلس.

لقد كان قصر الحمراء بغرناطة هو الشيء الذي لن أنسى دهشته أبداً، شيء بديع زحم رؤاي بجمال لم أره من قبل، الحوائط والنقوش عليها بخط عربي بديع، وأسوار

القصر بالأشجار الطبيعية الخضراء، وحديقته الغناء. إن الدرس الذي ألقاه عليّ مشهد الحمراء كان أبلغ من كل المحاضرات التي يمكن أن تلقى في تصالح الحضارة الإسلامية مع الفنون. إذ كنت أميل منذ طفولتي للرسم والتشكيل، ولكن مع العاطفة الدينية القوية ظلت هناك أحاديث ومرويات تؤرقني وتمسك يدي أحياناً مما أحب، ولكن مشهد قصر الحمراء، مع كتابات للدكتور محمد عمارة[١] أجهزت على كل شك وتردد في الخوض في الفنون من منطلقات إسلامية. لاحقاً زاد اطمئناني بكتابات الحبيب السيد الصادق نفسه في الأمر والتي أكدت عدم وجود أي تعارض بين الإسلام والفنون الجميلة[٢].

وأنا أقول، بعض الناس الذين لا يشكل الدين سؤالاً محورياً لديهم بسبب النشأة أو بسبب المعتقد يظنون أن تحرر الشباب رهين بلفظ الخطاب الديني، لأن كل القيود تنبع منه. ويضجرون من المنظرين المستنيرين الذي يجهدون لدك القيود المستندة إلى الدين في مجالات السياسة والاجتماع والثقافة باعتبار هذا جهداً لا داعي له. أخطأوا ألف مرة. ما من شيء يعدل رضا المولى بالنسبة للمؤمن، وهو مستعد لترك كل ملذاته في هذه الزائلة لقاء نعيم الخلود، وأنت لن تستطيع إقناعه بالاستناد لأسس وضعية مغايرة لما يراه عقيدته ومقتضياتها. والحقيقة الأبلغ هي أن معظم الناس في مجتمعاتنا هم من هذا النوع. والطريق إلى استنارة مجتمعاتنا إذن ليست العلمانية، ولكن الخطاب المستنير من داخل الدين.

الشاهد، وقبل أن نلاقي الوالد الحبيب في المغرب كان الولدان الأكبر سناً (عبد الرحمن وصديق) قد أُرسلا لمعسكرات الأنصار في ليبيا ولم تكن قد صفيت كلها بعد برغم المصالحة الوطنية فقد حدثت عرقلة لعملية إعادتهم من جانب القيادة الليبية كما لم توف الحكومة السودانية بمستحقات العودة كما تابعنا.

في المعسكر نظّم لهما برنامج قاس من ناحية التعليم الديني والتربية البدنية، فلقنا

(١) مثلا كتابه الإسلام ومشكلات العصر، وقد ناقش فيه قضايا كثيرة حيوية للشباب المسلم منها مسألة القومية العربية، والفنون الجميلة. ثم كتاب (الإسلام والفنون الجميلة) الذي تطرق لقضيتي التصوير والسماع.

(٢) مثلا في كتابه: رؤى في العروبة والديمقراطية والإسلام، ١٩٩٩م، أو نحو ثورة ثقافية، ٢٠٠٦م

نظام العبادات كما اختطه الإمام المهدي، وحينما قابلانا في المغرب حرصا على بث كل ما تعلماه. فكان الانضباط في الصلاة على نهج الإمام المهدي مسألة أساسية، وكان يصحبنا حينها العم الطيب حسن ملازم الإمام الصديق، والذي كان وليّ أمرنا في غيبة الوالد وطيلة فترة طفولتنا. وكانت تعاليم عمي الطيب رحمه الله صارمة جداً، فأية حركة أو انثناءة في الصلاة ممنوعة. كما كان عمي الطيب راوية في شعر المسادير وقد أخذ عبد الرحمن عنه حفظه ولاحقا آخاه بشرى في ذلك.

وأذكر أن تلك الدروس العبادية المكثفة ارتقت بثقافتنا الإسلامية بدرجة بعيدة، ففي السنة المدرسية التالية كنت في أولى عام (بالمدسة الوسطى) وجاءت مدرستنا وسألت إن كانت واحدة منا يمكنها أن تؤدي الصلاة فتبرعت لذلك، وعبّرت عن دهشتها لأن بعضا مما تلوته أو فعلته لم نكن قد درسناه بعد، فقالت لي من علّمك هذا؟ ثم أنها ومنذ يومها (نشّنت) عليّ لاستدرج في تنظيم الأخوان المسلمين الذي كانت منتظمة فيه، ولكن هيهات!

المهم أن السيد الصادق وجه بسفرنا إلى المغرب متفرقين، وله حاجة كتلك التي كانت في نفس يعقوب حينما أمر أبناءه أن يدخلوا من أبواب متفرقة، وأوصى أم سلمة وهي أكبرنا بأن تكون مسئولة من ماليتنا، وألا تسرف، وقد كان يوماً أبيض يوم أوصاها تلك الوصية! فاعتقدت أن عليها أن تصرف كل شيْ بمقدار حتى البرتقال توزعه علينا واحدة لكل منا في يده ويدها! فكنت تراها تحضر كيس البرتقال وتدخل رأسها بكل حرص لتخرج تلك الجوهرة وتسلمها لصاحبها أو صاحبتها في يدها ثم تدخله من جديد.. وحينما حضر السيد الصادق ضحك كثيراً من ذلك النهج الصارم الذي نفذته علينا أم سلمة، وقال لها قلت لك ألا تسرفي ولكن ليس إلى هذا الحد! فذقنا بعد حضوره انفراجاً كبيراً! ذقنا التفاح والعنب، وكانت التحلية قبلها تقتصر على البرتقالة المذكورة خوفاً من الإسراف!

ولكن التعرف كان رهيباً علينا. فاللقاءات السابقة كانت عابرة وفي حضور أمهاتنا، وهذه هي المرة الأولى التي يلتقينا فيها رأساً برأس. وأذكر أنني جرؤت مرة على الجلوس بقربه وأنا أتهيب من ذلك القرب، فوضع يده على ظهري، وكدت أقطع أنفاسي، وصرت مصبّرة في مكاني وتحوّلت ظهراً موضوعة فوقه كف والدي الحبيب!

وحينما رفع يده عن ظهري ظل هذا الشعور باقياً، وظلت رائحة كفه الزكية معلقة في الملابس التي حاولت الاحتفاظ بها قدر الإمكان بدون غسل، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه! ورويداً صرنا نتوخى الجلوس بقربه طمعاً في لمسة كفه على ظهورنا وأكتافنا، وأحياناً كان يبادر بالتقرب فيصطاد المبتعدين بالعصا يجذبهم برفق من أعناقهم، وكان الواحد والواحدة يتمنى أن يكون صيداً لتلك الأيدي الحبيبة.

هذه الدهشة والاستغراب انطفأ رويداً ليحل محله استلطاف مشوب بحذر، وأحيانا رفض كما ذكرت في المقدمة، من أن يتعدى هذا الأب الغائب حدوده ويحاول أن يفرض علينا رؤاه وما أكثرها.

المعادلة العادية تقول إن طاعة الأبناء للوالدين مشروطة كما في الآية بأنهما (ربياني صغيرا) فإن انتفى الشرط تنتفي الطاعة، هكذا كان يقول عقلي الصغير في تمرداته الكثيرة!

ولكن كانت التوجيهات التي يصدرها في خطاباته لنا وهو بعيد لا تتعدى المحافظة على الصلاة وعلى الرياضة البدنية (فالعقل السليم في الجسم السليم)، واستذكار الدروس وذلك أمر معروف أنه من الواجبات. وبعد اللقيا كانت التوجيهات محدودة ومقدرة من قبلنا. مثلا، وجهنا بأن نتناوب أولاد وبنات على نظافة الغرف التي كنا نسكنها، وتنظيف الحمام. وأن يقوم كل منا بغسل ملابسه الخاصة وكيها. فكانت الرحلة عبارة عن كشافة. وبالطبع لم يتح لنا قبلها أن نغسل ملابسنا ونكويها كواجب، ولا تنظيف البيت. ولم أطق الكي بينما أجدت الغسل وكان موقف صديق أخي عكسياً فصرت أغسل ملابسي وملابسه، ويقوم هو بالكي لي وله في معادلة كسبية للطرفين. ولذلك فإننا حينما عشنا الواجبات المنزلية لم نمارسها باعتبارها أمراً خاصاً بالنساء، إذ كان أخوانا عبد الرحمن وصديق يشاركانا تلك الأعمال، والحقيقة لم نشعر يوماً بهذه النمطية في تقسيم الأدوار. وكان عبد الرحمن أخي يقول إن الطريقة التي يعاملنا بها الوالد سوف تجعلنا نصطدم بالواقع في المجتمع لاحقاً لأننا لن نجد أبداً ما تعودناه من احترام كإناث يوازي ما يجده أخواننا الذكور.. ومع الزمن اتضح بالفعل أن ذلك الفردوس كان كالعالم الافتراضي.

المرة التالية للقاء المنظم كانت في أوربا، في المملكة المتحدة، حيث كنا مضطرين

للذهاب هناك للالتقاء بأمينا الحبيبتين رحمة وسارا رحمهما الله في الإجازات، وفي إحداها، وأظن ذلك كان عام ١٩٨٢م أو نحوه، نظّم لنا الوالد برنامج حصص لحلقات دراسية: الأولى عن السيرة النبوية والثانية حول سيرته الذاتية، وكانت الحلقات تجري بحضورنا كلنا وأمّيْنا معنا: حفية وسارا.

أما الحلقات حول السيرة النبوية فكانت مصورة بكاميرا فيديو جلبت لذلك الغرض، وكتب لنا أبياتاً من همزية الإمام البوصيري، صاحب البردة، وعلّم لنا مواضع الطلوع والنزول في الإنشاد، فكنا في بداية كل حلقة ننشد تلك الأبيات حسبما لقننا اللحن، والأبيات المختارة هي:

صلّ يا رب ثم سلم على من ... هو للخلق رحمة وشفاء

لعلا الرسل عن علاك انثناء ... وأولي العزم يوم شأوك جاءوا

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء

سر إيجاد عالم الذر أنت

مضمرٌ بين الكاف والنون كنت

منذ قالوا بلى إلى أن ولدت

لم تزل في ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء

وكان ينشد لنا من الشعر العربي على صيغتين: الصيغة المعروفة للإنشاد، وصيغة قال إنها كانت خاصة بالشيخ الطيب السراج، كانت فيها فتوة وحماسة، ولا زال إنشاده لقصيدة المتنبي (كفى بك داء) يطوف بذاكرتي، وكنت أراه رائعاً، ولكنه لا يتشجّع للإنشاد ظاناً بصوته الظنون، وهو نفس الموقف الذي يتخذه من خط يده. فهو ينفر من كتابته ويعتقد أن خط يده ليس متناسقاً! وكثيرون يرون خطه عسيراً على القراءة، وأذكر منهم الحبيب محمد عبد الرحمن حسين وكان يعمل في مكتبه أيام الديمقراطية الثالثة، فكان خط السيد الصادق بالنسبة إليه كالألغاز، وكان يستعين بي في فك طلاسمه! بينما برأيي هو من أفضل الخطوط التي رأيتها في حياتي ليس من رشاقة الحروف وتنسيقها، ولكن وضوحها واتساقها مع بعضها، وبراحها وما تنبيك به عن كاتبها وجلاء خطوه،

وقد قيل إن بعض الخبراء يقرأون دواخل الناس من خطهم. وإني قد أتوهم فيما خطت يدي ويصعب عليّ قراءته ولكني لا أتوهم أبدا في كتابة السيد الصادق، من جلاء حروفها وسهولة قراءتها سواء كان ذلك بالعربية أم بالإنجليزية. ولكني اتخذت هذا الرأي بعد أن كبرت وتعرّفت على خطه عن قرب، ولا أخفي إننا كنا نضحك كثيراً على أمي رحمة رحمها الله في صغرنا لأنها كانت تقول إن خطه جميل، وإنه مثل خط الإمام المهدي عليه السلام، ويغيظها عبد الرحمن وصديق بقولهم عكس ذلك يغالطونها كل مرة، وما كانت أمي رحمة رحمها الله تحتمل في بكرها المحبوب كلمة واحدة سالبة، وتعتبر ذلك قلة أدب!

في الحلقات الخاصة بسيرته الذاتية حدثنا الوالد عن طفولته وتأثير من حوله وعلاقته بهم وعن زواجه والفترة القصيرة التي تقلد فيها الحكم، ورؤاه وأفكاره، وحرص في كل يوم والآخر على أن يعيد علينا ما قاله الإمام المهدي حول (أبناء المراتب) محذراً إيانا من الركون لاسمنا، فحفظنا في تلك الأيام شعراً من أمثال:

ليس الفتى من يقول كان أبي ولكن الفتى من يقول ها أنذا!

ومن الأحاديث التي كان يركّز عليها: اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم! كان يخاف جداً أن ننشأ كأولاد وبنات الذوات، وكانت النتيجة برأيي أن الخشونة غلبت بجرعة زائدة! فالأولاد كانوا لا يجتمعون إلا ويحولون المكان إلى حلبة مصارعة، وقد يدفع الأثاث الثمن!

فبسبب الحث على الاخشوشان جرى التدبير لعبد الرحمن أخي ليدرس المدرسة الثانوية بخور طقت، فتم نقله من مدرسته الخرطومية إلى تلك المدرسة الإقليمية بحثاً عن الخشونة وربما للتعرف على بقاع السودان، كان ذلك إبان موسم الهجرة إلى الخرطوم أي كانت هجرته عكسية. فبسبب انهيار الخدمات التعليمية في الأقاليم كان كل من يملك وسيلة للمجيء للخرطوم يحضر للحصول على نتيجة أفضل في الشهادة السودانية.

وقد حذت طاهرة حذوه بعدها بسنوات، ففي سنتها الثالثة الثانوية وكان ذلك إبان الديمقراطية الثالثة، ذهبت للدراسة في مدرسة سنجة الثانوية.. وهي أمور لم نشهدها لا في أسرتنا الكبيرة ولا في معارفنا.. كانت بعض (محن) بيت الصادق! طاهرة حينما ذهبت

لسنجة اتضح لها مدى التدهور المريع في مستوى التعليم فقفلت راجعة، وسددنا الفرقة، صديق وأنا، تقسمناها في المواد العلمية والتي تحتاج شرحاً وألحقناها بالركب لتمتحن!

وفي لقاءاتنا تلك، كان الوالد السيد الصادق يخصص أوقاتاً لتنظيم مسابقات رياضية، فكان الأولاد خاصة عبد الرحمن وصديق هم الأسبق في الجري وكان يتسابق معهما، كان أداء عبد الرحمن الأفضل في المسافات الطويلة وأداء صديق الأفضل في المسافات القصيرة بسبب الأزمة التي تقطع أنفاسه. وكان أيضا يُجري سباقاً بيننا نحن الأبطأ ربما باستثناء طاهرة التي كانت سريعة في عدوها، وكان هذا مجالاً خارج اختصاصي حيث أكون من المتأخرات.. وقد كان يوماً مشهوداً حينما سبق بشرى، أصغرنا وكان عمره ربما ثلاث أو أربع سنوات، أمي حفية فصار مجال تندر كبير! وأظن أمي سارا رحمها الله قد نأت بنفسها عن تلك المنافسات إدراكاً أن ذلك (شعراً ما عندها ليه رقبة)، بينما كانت أمي حفية ولا زالت بحمد الله تحب المشاركة في التمارين البدنية ولها أداء مميز بالنسبة لبنات جيلها.

كما كان الوالد الحبيب يلعب معنا تنس الطاولة (بينج بونج) وفي هذا كنت الأفضل أداء في المجموعة بسبب لعبي إياه بمدرسة الشاطئ المتوسطة، وكنت ممن يشارك في منافسات البطولة، لكن الوالد الحبيب كان الأبرع والأصعب أن يُغلب.

ومن بين هذه الدروس وتلك، فإن أهم درس برأيي يتعلمه الواحد والواحدة حينما يقرّب من السيد الصادق هو أنه لا وقت للدموع! أو بالأصح: أن الوقت ثمين جداً، ويجب أن تستثمر كل ثانية فيه بطريقة ممنهجة كنت فكرت فيها ووازنت واخترت، فلا تدع ثوانيك ودقائقك تذهب سداح مداح! وكذلك أن كل شيء في الحياة ينبغي أن يؤدى بإتقان فلا تترك الأمور تأتي كما اتفق.

هذه هي الذهنية التي نفتقدها بالطبع حتى نخرج من حالة:

إيه الدنيا غير

لمة ناس في خير

أو ساعة حزن

التي صدح بها الراحل المقيم مصطفى سيد أحمد في رائعة صنوه محمد الحسن سالم حميد (عم عبد الرحيم).. لأننا لو تابعنا ذهنية التراخي والتضييع المجتمعي للوقت بتعريف للدنيا محصور في تلك المناشط، فلن نتطور من الحالة التي انتقدها ذلكم الشاعر الأمامي الراحل المقيم إبراهيم العبادي، وهو يعلق على أول رحلة لبشر للقمر قائلاً:

ورجل العلم حلّق في سمانا وطار

وفي تصميمو في المريخ يسوّي مطار

ولسع نحن في العرضة ورقيص الطار!

الشاهد.. لعل موقف السيد الصادق هذا من أثر المهدية وحزمها وصرامتها، وهذه الدروس تعمقت لاحقاً حينما أتيحت لنا الخطوة الأهم في التعارف بالوالد السيد الصادق، ألا وهي أثناء الاعتقال المنزلي في عهد «الإنقاذ» الأول.

في تلك الفترة قربنا منه أكثر، وأخذتنا طريقته الآسرة في التقرب إلينا، فهو خفيف الظل يحب المزاح، ولكنه كذلك يقف إلى جانب ذلك الذي تكثر عليه السهام، وكنت هدفاً مركزاً لسهام عبد الرحمن وصديق الذين كانا يشكلان تحالف الشغب المقدس، كانا يحبان عمل المقالب والإغاظة (المكاواة)، وكنتُ وطاهرة لقماً سائغة لهما ربما لأنه كان يبدو علينا الغيظ أكثر، أما قائمة وجعي فكانت بلا نهاية وعلى رأسها: لثغة في اللسان في حرف الراء، وعجز أساسي في تتبع أكثر من موضوع.. أما صديق وعبد الرحمن فقد عذباني لدرجة لا تطاق. وأذكر في مرة بينما كنا كلنا مجتمعين وكنت أتابع موضوعاً تم فتحه سرحت معه بينما الجماعة ظلوا يلجون المواضيع ويخرجون منها بدوني، انتبهوا لحالتي المعتادة فتحلقا حولي يعذباني بأني (ارعى بغنم إبليس)، ويقولان: كم يعطيك في الشهر نعطيك أكثر منه لتبقي معنا! وبينما صدري يضيق بتلك الاتهامات جاءت النجدة من الوالد محرفاً بيت الشعر المعروف: العبقرية أن تحلق في السماء بغير قصد! فدعوها.. ههنا تركا ذمي، وصارا يتظاهران بالتحليق بغير قصد، ويتطلعان للسقف!

لقد اقتربنا منه في جو من الدروس المبرمجة والمكثفة التي هضمناها بذلك الود

والمحبة واللطف غير المحدود.

والآن، فلنر كيف عمل السيد الصادق على مأسسة وتوسيع أبوته لتشمل آخرين كثيرين، هم الشباب والأطفال في ذلكم الكيان المليوني الذي يعترف بعلاقات الروح أكثر من علاقة الرحم والنسب؟

فالإمام المهدي عليه السلام حينما كتب إليه بعض أهله ممن ارتهنهم جيش بريطانيا الغازي بلبب، وطلبوا مبادلتهم بالأسرى الأوربيين في أم درمان اعتبر أن أولئك الأسرى أعز وأقرب إليه منهم، قال لهم في خطاب بتاريخ ١١ شعبان ١٣٠٢هـ: (هذا وليكن في علمكم أن جوابكم المحرر بتاريخ ١٥ رجب ١٣٠٢ قد وصلني وفهمت جميع ما احتوى عليه من مكر أعداء الله بكم، ورهنكم في القديسين والفرنج والأقباط الذين بطرفنا،...، وقد فعلوا بكم ما هو أقل من جزاكم فإنا قد دعوناكم إلى إجابة دعوتنا مراراً فلم تعملوا بقولنا،..، فحيث أنهم أنابوا إلى الله وخرجوا من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان وصاروا بذلك من أعز أحبابنا وأصحابنا فهم أعز علينا منكم الآن،..؛ وأنهم الآن أقرب إليّ منكم، ولهم علي الولاية دونكم لو كنتم مؤمنين بي، فضلاً عن عدم تحقق إيمانكم)[1].

كما أنه، أي المهدي، عرّف أسرته بأنها تشمل ذريته وخمسة رجال آخرين هم: خليفة الصديق (أي خليفة المهدي)، وخليفة الفاروق (الخليفة علي ود حلو)، وخليفة الكرار (الخليفة شريف)، وأخويه حامد ومحمد. بعض هؤلاء لا تجمعهم به إلا رابطة الروح التي تحولت إلى قربى أسرية في مفهومه.

ويقول الدكتور روبرت كريمر في بحثه لنيل الدكتوراة بعنوان (أم درمان: مدينة مقدسة على النيل) إن القرابة في عرف الأنصار في المهدية «روحية» بتعبيرهم، لدرجة اختلطت على مخالطيهم، لذلك فإن الكثير من الأمراء الذين ذكرهم نعوم شقير وسلاطين مثلا على أنهم أقرباء لخليفة المهدي ويتحدث عنهم أبناؤه أو أحفاده على أنهم «من العائلة» لم يكونوا ينتمون له بالدم ولا بالنسب. وذكر أنه في جواب من خليفة

(١) انظر/ي محمد إبراهيم أبو سليم، الآثار الكاملة للإمام المهدي، وعبد المحمود أبو شامة، من أبا إلى تسلهاي

المهدي الى أحد الأنصار كان قد خطب ابنة الأمير النور عنقرة (من الدناقلة) يشترط الخليفة منه أن يثبت كفاءته واستحقاقه لها فذاك الأمير قريبه! والأعمق دلالة هو أن البعض نصح المتقدم أن يوسط الزاكي طمل.[١]

نعم العلاقات هنا روحية، وقربى الروح قوية الأواصر ولا تفلها الأعاصير. فكيف سعى الحبيب السيد الصادق لجعل الدماء تسري في أواصر الكيان الذي استهدفه الطاغية وحاول دكه وتفكيكه؟

تكوين هيئة شئون الأنصار

ارتبط قيام كيان الأنصار بالدعوة المهدية وثورتها ثم دولتها في السودان في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث سمى الإمام أتباعه بأنصار الله مصداقاً للآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾[٢]، وصار أتباعها داخل السودان وخارجه، في نيجريا والكمرون والسنغال وتشاد وغيرها، يسمون بالأنصار.

لم يجر إحصاء دقيق للأنصار بعد، ففي نيجريا يظن المهندس فاروق أبو بكر سعيد حياتو حفيد الشيخ حية الدين الذي آمن بالإمام المهدي ونصبه أميراً على خلافة سكوتو أن الأنصار هم أكبر التنظيمات الدينية في نيجريا، ويقول إن التجانية هم الأظهر ولكن ذلك لتنظيمهم وتمويلهم وربطهم بقيادتهم ويعتقد (فاروقو) أن الأنصار لفقرهم وتفشي الأمية بينهم وعيشهم المشتت في قراهم، وبعدهم عن تنظيم مركزي وقيادة موجهة فإن صوتهم منخفض وهم بالتالي قليلو الأثر.

أما في السودان فإن الأنصار أفضل حالاً كونهم دائماً لهم قيادة مرموقة، ولكن لديهم ذات المشاكل من وجودهم في أحزمة الفقر والأمية. ولكنهم دائما يقدرون أعدادهم تقديرات كبيرة تدل عليها تجمعاتهم الجماهيرية. ولا يمكن الاستشهاد بصناديق الاقتراع في الانتخابات الحرة لأن كثير من المصوتين لحزب الأمة ليسوا أنصاراً، كذلك كثير من الأنصار لا يصوتون بسبب مشاكل الترحيل وعدم الوعي وغيرها.

---

(١) Kramer, Robert A Holly City on the Nile: Omdurman 1885- 1898 PHD Thesis 1991

(٢) سورة الصف الآية رقم (١٤)

أقام الإمام عبد الرحمن للأنصار تنظيماً محكماً يقوم على الوكلاء (وهم يمثلون قبائلهم ومناطقهم)، والمناديب (وهم يبعثون لقبائلهم ومناطقهم دورياً)، وشيوخ الأنصار (وهم يمثلون أحياء العاصمة المثلثة)، وشباب الأنصار (وهو تنظيم للشباب حاول تكوينه الإمام في ١٩٤٢ ولكن السلطات أمرت بحله في عام ١٩٥٠م، ثم سمح بتكوينه من جديد في ١٩٥٢م)، وهيئة الملازمية (وهي تنظيم يجمع الأشخاص المحيطين بالإمام مباشرة يساعدونه في أنشطته المختلفة). وكان عمل الأنصار ذلك يتبع للإمام شخصياً، ويخضع لمكتبه الخاص إذ يشرف عليه قسم منه يسمى مكتب شئون الأنصار.

لقد جعل الإمام عبد الرحمن كيان الأنصار التكوين الشعبي السوداني الأول، يظهر ذلك في مقدرته المتفوقة على حشد جماهيره في المناسبات والأعياد المختلفة. وهي خاصية احتفظ بها الكيان رغم أن الأنظمة الديكتاتورية المتعاقبة على السودان بذلت كل ما تستطيع من وسائل وإمكانات لتقويض كيان الأنصار، بلا جدوى.

لقد اتخذ الإمام عبد الرحمن موقفاً واضحاً ضد أسلوب الثورة المسلحة، ونأى بالكيان منه تماماً شارحاً مفهوماً للجهاد في الإسلام أوسع من الجهاد القتالي وحسب، هذا مع الاحتفاظ بالروح الفدائية، وبدرجة عالية من التدريب البدني والانضباط. كما أنه في التعامل مع الآخر الملي والوطني نقل الكيان نقلة نوعية من موقف العداء والمواجهة إلى التسامح والتعايش، هذا بدون التخلي عن العقيدة المهدية قيد أنملة.

لقد كانت اجتهادات الإمام في أقلمة المهدية لزمانه ونقل كيان ثائر مقاتل رافض للآخر، إلى وضع الجهاد المدني والتعايش مع الآخرين بدون فقدان الحماسة، ولا التشويش على نقاء العقيدة أو المساس بالعبادات، كلها انجازات ضخمة.

واستمر عمل الأنصار في عهدي الإمام الصديق والإمام الهادي عليهم رضوان الله يتبع مكتب الإمام الخصوصي عبر مكتب شئون الأنصار.

وبعد قيام نظام مايو واستشهاد الإمام الذي لم يثبت رسمياً إلا في العهد الديمقراطي اللاحق، حل النظام المايوي جميع أجهزة الأنصار واحتل دورهم ومساجدهم واعتقل عدداً كبيراً من قياداتهم ومن المناديب ووكلاء الإمام.

ولما خرج السيد الصادق من المعتقل أول مرة في مايو ١٩٧٣ وجد كل مؤسسات الأنصار ومساجدهم تحت احتلال السلطات الحكومية، وأن كثيراً من الأنصار استفزوا وهاجروا شرقاً في ذات الدرب الذي سار فيه الإمام كما روينا تفصيلاً. وخرج هو نفسه في أواخر أبريل ١٩٧٤م، وقاد بهم الانتفاضة المسلحة التي هزت النظام ولم تفلح.

وفي تلك الأثناء كان مهتماً بما جرى للأنصار، وكيفية تدارك ما حلّ بهم، وقد وجدت بين أوراقه ورقة تتحدث عن التخطيط للإحياء الأنصاري برغم النكبة والذي تقوده خمس لجان: لجنة الوكلاء، لجنة التبصرة، اللجنة الاقتصادية، اللجنة المالية، واللجنة الاجتماعية. وسوف نورد هنا جانباً منها للأهمية:

(عهد أنصار الله هو اتفاق القول واتحاد الكلمة انتصاراً لعقيدتهم وهي بعث الإسلام وإحياء ما اندرس من الكتاب والسنة، مبرأين من تفرقة المذاهب والطرق، مدعمين بالاجتهاد والتجديد لمراعاة ظروف الزمان، مصحوبين بإرشادات قيادة مؤهلة مطاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وصاحب البيعة في دعوة الأنصار في الأصل هو الإمام المهدي عليه السلام ثم انتقلت إلى خليفته خليفة الصديق عبد الله بن محمد، ثم تعرضت (الدعوة) للمحنة الأولى على يد الغزو الأجنبي، ثم تجددت البيعة بعد زوال الدولة على يد الإمام عبد الرحمن الصادق، وانتقلت بعده إلى خليفته الإمام الصديق، ثم إلى الإمام الهادي الذي ظل حاملاً الراية حتى هاجر في مارس ١٩٧٠م وهو اليوم غائب، وفي غيبته يمارس مهامه نائبه الذي اختاره وأعلنه في خطابه بتاريخ ٨ مايو ١٩٦٩م.

ونحن الأنصار لا ننكر احتمال وفاة الإمام الهادي فإنك ميت وإنهم ميتون، ولكننا لا نعتمدها بالظن وروايات الخصوم، بل لا نقرها إلا بعد أن نشيّع ونصلي ونواري.

ونحن إذ ننتظر جلاء الحقيقة في أمره سندل عليه حيث وجد حياً أو في الآخرة، وسنحمل الراية التي حملها موحدين متماسكين، فإن عاد وجدنا كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وإن انتقل وثبت لنا ذلك يقيناً فنحزم أمرنا ونختار من يحمل الراية في كرسي الإمام المهدي عليه السلام، ويجدد بيعته والله ولي التوفيق.

وسوف يقوم فينا النظام الآتي:

١- كل وكيل عينه الأئمة: عبد الرحمن، الصديق، الهادي، يستمر وكيلاً في مكانه. وكل إمام جامع عينوه سوف يستمر إماماً في مكانه.

٢- ولما كانت تنظيمات الشيوخ والشباب الجماعية محظورة الآن تقوم تنظيمات سرية لشيوخ وشباب الأنصار تتيح للأنصار مجالات اللقاءات السرية لتلقي الإرشادات الدينية، ولعمارة المساجد، ولإحياء شعائر الدين، والتعاون على تحقيق مصالح الأنصار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- إن كيان الأنصار اليوم في حاجة لبناء روحي، وتوعية بالتراث، وإزالة آثار البطش والعدوان، ولذلك وجب الانصراف لتحقيق هذه الأهداف، وقد اختارت القيادة لجاناً تمثل قبائل الأنصار وأجيالهم وكافة أصنافهم لتعمل هذه اللجان جماعياً، وتعاون القيادة في تحمل المسئولية في ظروف المحنة الثانية التي وقعت علينا بعد كرري والتي حلت بنا في مارس ١٩٧٠م.

٤- ونحن الأنصار نعمل بكل ما عرف عنا من إخلاص وتضحية لمساعدة القيادة وأعوانها على اجتياز ظروف المحنة الحالية، صامدين صابرين رافضين لكل أباطيل مايو، موحدين صفوفنا، مكثفين جمعنا في كل المناسبات الدينية كالصلوات وحلقات الراتب والاجتماعية كالمآتم، وذكريات بدر وأبا[(١)]، و٢٧ رجب[(٢)]، والأعياد، والمولد وغيرها من المناسبات.

٥- أما دورنا الوطني في إنقاذ البلاد وعلاقاتنا بالمنظمات الدينية الأخرى فتحدده القيادة على ضوء مبادئ الأنصار المعروفة، وتراثهم الموروث، ومقتضيات الزمان الحاضر، ومصالح الجماعة ويعاون القيادة اللجان الآتي بيانها، ونحن نعاهد الله والالتزام بهذه الأسس ومعاونة اللجان المذكورة.)

وتمضي الورقة مفصلة اللجان الخمس ومهامها. فلجنة الوكلاء عليها تسجيل

(١) يحتفل الأنصار سنوياً في ١٧ رمضان بذكرى واقعة بدر في صدر الإسلام وأبا الأولى في صدر المهدية.

(٢) يحتفل الأنصار سنوياً في ٢٧ رجب بعدد من المناسبات هي: الإسراء والمعراج، ومولد المهدي، وعيد الأسرة بعقد القران الجماعي، وصار الاحتفال يسمى بـ«الرجبية».

الوكلاء الذين عينهم الأئمة واختيار وكلاء حيث لا يوجد ليعمل الوكيل على إزالة الخلافات بين الأنصار ويوصل إرشادات القيادة لهم ويحث على أداء الشعائر وصلاة الجماعة، ويشرف على الزكوات وصرفها على مستحقيها، ويدون الوارد والصادر بدقة وأمانة (حتى تراجع أعماله عندما يفتح مكتب مركزي للزكوات).

وتتولى لجنة الوكلاء أمر منزلة لضيافة الأنصار الذين يفدوا العاصمة، وتجمع التبرعات لبناء مساجد الأنصار.

أما لجنة التبصرة فتسجل أئمة المساجد من الأنصار، وتشرف على تأليف كتيبات تتناول عقائد الأنصار والعبادات والتاريخ وخطب الجمعة وتبحث كل وجوه الإرشاد والتوعية، وتشرف على توزيع تلك المؤلفات بالقيمة أو مجاناً، وتتخذ مجموعة من أبناء الأنصار المتعلمين ليكونوا مناديب إرشاد لأهلهم، وتصدر نشرة إرشادية دورية.

أما اللجنة الاقتصادية فعليها معرفة أحوال الأنصار الذين يعانون من سوء الأحوال في بعض المناطق كالجزيرة أبا، أو الرحل، أو مناطق الزراعة الآلية أو النازحين أو في مناطق السافانا أو في الهجرة بالخارج أو حول الأسواق والبنادر الكبيرة، ودراسة كيفية مساعدتهم.

واللجنة المالية تجمع تبرعات من الأنصار لتنفيذ عمل اللجان وتتولى القيادة تدبير الناقص. واللجنة الاجتماعية تشرف على الاحتفالات الاجتماعية والدينية وتوحيد طابعها في الأقاليم وتطبع وتبيع ما يقال في المناسبات الاجتماعية.

هذه الورقة كتبت أثناء المواجهة القصوى مع النظام، وكان النظام في ذلك الوقت قد قام بمجهودات ضخمة لتفتيت الأنصار ما أسماه (استئناس الأنصار)، هذا البرنامج عاد فيه بخفي حنين ولم يدرك منه شيئاً[1].

وقد لاقى الأنصار نكبة ثالثة بعد فشل الانتفاضة المسلحة في ٢ يوليو ١٩٧٦م، ففي تلك الانتفاضة خسر الكيان مئات، جزء كبير منهم من حفظة القرآن والراتب، كما بلغ التضييق عليهم مبالغ عظيمة.

(١) حديث الحبيب الإمام في برنامج شاهد على العصر، الحلقة الحادية عشرة

وحينما عاد السيد الصادق المهدي بعد المصالحة الوطنية، كان من بنود المصالحة رفع يد الحكومة من مؤسسات الأنصار ومنحهم حرية العمل الديني والاجتماعي والاقتصادي. وكانت تلك أول مرة يتاح فيها، منذ قيام حكم مايو، للأنصار بعض الحرية في تنظيم صفوفهم واستئناف عملهم الديني والدعوي، ولكن ذلك لم يدم طويلاً.

رأى الصادق بعد التشاور الواسع ألا يقوم تنظيم الأنصار على ما كان عليه في الماضي بإشراف مكتب خصوصي. بل أن ما يناسب الظروف الجديدة هو أن يقوم تنظيم الأنصار على أساس هيئة ذات شخصية اعتبارية تسمى هيئة شئون الأنصار.

نص دليل تلك الهيئة التأسيسي على الآتي: وتعين هيئة شئون الأنصار الإمام (أو نائبه) في تصريف مسئولياته بمفهوم يحقق قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

الدليل التأسيسي لهيئة شئون الأنصار:

صدر الدستور الحاكم لكيان الأنصار على النهج الجديد في عام ١٣٩٩هـ في ١/ ١/ ١٩٧٩م. وأطلق عليه عنوان (الدليل التأسيسي لهيئة شئون الأنصار).

واشتمل ذلك الدليل التأسيسي على منشور (دليل التأسيس) وهو موجه «من المفتقر إلى مولاه الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي إلى أحبابه في الله»، وطبع وجعلت له ملاحق خمسة هي:

١) الصلاة: مختصر منشوري العقيدة والمصافاة في صفة الصلاة.

٢) الصيام: منشور الإمام المهدي عليه السلام في الصيام.

٣) الزكاة: منشور الإمام المهدي في أنصبة الزكاة.

٤) منشور الأوجه الشرعية لتصريف الزكاة.

٥) خيارات الراتب.

جاء في مطلع دليل التأسيس التالي:

(اعلموا، أحبابي، أن دعوتنا هذه مسئولية حكم علينا رب البرية أن نقوم بأعبائها

(١) سورة الشورى الآية رقم ٣٨

وواجباتها ونتحمل تكاليفها في النفس والمال والولد إلى أن نلقى الله وهو راضٍ عنا).

وذكر جهاد الإمام المهدي وخليفته من بعده في سبيل الله، والبعث الذي قاده الإمام عبد الرحمن المهدي، وجهاد الإمام الصديق وقيادته للمسيرة لتحقيق الشورى والديمقراطية ثم ذهابه إلى ربه راضياً مرضياً، وحمل الإمام الهادي للراية في مواجهة الإلحاد يوم تسلط في بداية هذا العهد *(فكانت التضحيات التي بذلت عن طيب خاطر والسجون التي تحولت إلى بقاع يذكر فيها اسم الله. وكانت الهجرة إلى المشرق والمغرب. وجعلني واقع الحال مسئولاً عن شئونكم يعاونني رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه طوال السنوات القاسية الماضية، باذلين النفس والنفيس إلى أن تمت المصالحة الوطنية التي أحلت الحوار والحرية محل الاقتتال والقهر، وانفتح باب جديد للسعي لتحقيق وحدة البلاد واستقرارها. وبفتح الباب الجديد انتهت دواعي الهجرة لأن الهجرة مفهوم ديني يصبح واجباً في وجه تسلط إلحاد أو اضطهاد، نسأل الله أن يتقبل جهادنا وشهداءنا منذ أبا الأولى إلى أبا الثانية وما بينهما وما بعدهما، ونسأل الله ونحن في نهاية هذا القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الهجري أن يوفقنا لبناء صفوف أمتنا لتواجه متطلبات مسئولياتها الفكرية والجهادية من أجل مثلها الإسلامية.*

والآن، أحبابي، وبعد هذا العناء الطويل أقيمت تنظيمات الأنصار الدينية والاجتماعيا بعثاً للدعوة وتنشيطاً للهمة في مرضاة الله، وشكلت هيئة شؤون الأنصار لقيادة هذه التنظيمات وفي قمة الهيئة مجلس شورى الأنصار الذي يؤدي، الآن، عمل الهيئة إلى حين اكتمال قيامها. ويقود هذه الهيئة إمام الأنصار أو من يقوم مقامه. وستقوم هي بمعاونة الإمام أو من يقوم مقامه في تصريف مسئولياته بمفهوم يحقق قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

ويمضي دليل التأسيسي يشرح أهمية الشورى في الإسلام، ويصف الهيئة بأنها تتبع وسائل سلمية، وتهدف لإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما، وإحياء تراث المهدية، وأنها ستعنى بشئون الأنصار الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وستستعين بلجان: للدعوة والإرشاد، لشئون الوكلاء، للشئون الاجتماعية، لشئون المرأة

(١) سورة الشورى الآية رقم ٣٨

الأنصارية، لشئون الاتصالات الخارجية مع الهيئات والحركات الإسلامية ومع جماعات الأنصار غير السودانيين في نيجريا والكمرون وغانا وبريطانيا وأمريكا وغيرها.

ويمضي السيد الصادق في الدليل يفصل مهام مكتب شئون الأنصار كحلقة وصل بين القيادة والقاعدة، ومهام الوكيل، وأسس الوكالة، مبقياً على الوكلاء الذين عينهم أئمة الأنصار، ويجعل من مهام الوكيل جمع الزكوات.

ويمضي الدليل مبينا أحكام الزواج والطلاق، وحكم غيبة الزوج، والأحوال المتعلقة بها، وهي تفاصيل كانت مطلوبة يومها لقسم كبير من المهاجرين الذين عادوا بعد غيبة سبع سنوات وما كانوا يتصلون بزوجاتهم وبأهلهم، فوجدوا أحوالاً مختلفة. ويتحدث الدليل عن مختلف التوجيهات في العبادة والتلاوة والصلاة وتعلم القرآن مهتماً بأمر النساء فيها.

ويؤكد: (*ولستم حزباً سياسياً. فأنتم أنصار الله تدعون إلى الله على بصيرة، وتدلون الناس إلى الكتاب والسنة على سكة مهدي الله الذي قال: أنا عبد مأمور بإقامة الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما. واعلموا إنما سماكم الإمام المهدي الأنصار لا أنصاراً لأسرة ولا لشخص وإنما أنصار إلى الله على حد قوله تعالى:* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾[1]*. فالأنصارية دعوة من الله لكل الناس أن ينخرطوا في مرضاة الله ويدافعوا عن كلمة الله*).

ثم يقول في النهاية: (*أحبابي: سيكون في قيادتكم مركز رئاسي في أم درمان، وآخر في أبا، ومراكز فرعية في مناطق ثقل الأنصار هي منارات للدعوة والتوجيه والإرشاد وتنظيم شئونكم. وسيكون هنالك مناديب يسعون إليكم، ومناشير تبعث الحياة بينكم، وتجدد شباب دعوتكم، فكونوا على استعداد للعمل والمشاركة والبذل والتضحية في سبيل دعوتكم والله ناصركم. ولن يلتكم أعمالكم، واستعينوا بالصبر والصلاة وصابروا ورابطوا إن ذلك من عزم الأمور*).

بالطبع لم يمكن أن يتطرق الدليل التأسيسي هذا لمسألة الإمامة واختيار الإمام،

(١) سورة الصف الآية رقم (١٤)

فالأنصار كانوا حينها في حالة غيبة الإمام وهجرته والشكوك حول مصيره، وكانوا ينتظرون تحقيقاً حول ما حدث، وقبل ذلك ما كان يمكن فتح ملف الإمامة.

لاحقاً سنرى أن الدليل الأساسي للهيئة نص على أن الهيئة تتكون من مجلس حل وعقد يضع السياسات والتشريعات وينتخب الإمام، وله أن يعزله، ومجلس شورى، ومؤتمر عام مكون من أربعة آلاف عضو منتخب من تكوينات الأنصار القاعدية في المديريات والمحليات المختلفة.

وفي هذه الفترة أصدر السيد الصادق منشوري (العقيدة) التي تبين عقيدة الأنصار وأسسها الصحيحة. و('العادات) الذي يدعو لنبذ العادات الضارة مثل المباهاة في الزواج ومثل ختان البنات.

وكان السيد الصادق يلقي أحياناً محاضرات بعد صلاة المغرب في مساجد الأنصار وأهمها المسجد ببيت المهدي، ومسجد الهجرة بودنوباوي.

كما قدم بعض الخطب في منبر الجمعة وطبعت بعض تلك الخطب ووزعت وهي تخاطب قضايا العقيدة والتجديد الديني والبعث الإسلامي وقضايا فقهية مختلفة.

كما أنه في العهد الجديد تم تنظيم دورات تأهيلية للكادر الطلابي والشبابي، وقد كانت التنظيمات الطالبية في الجامعات والمدارس الثانوية، ولا زالت، تتخذ اسم (تنظيم الطلاب الأنصار حزب الأمة). وهذا ما سوف نتطرق له لاحقاً، ونرى كيف قام النظام بالتغول من جديد على حرية الأنصار ووقف أو عرقلة أعمالهم.

الوساطة بشأن الرهائن الأمريكيين ١٩٨٠م

ضمن نشاط السيد الصادق في ذلك الوقت برز دوره في مسألة الرهائن الأمريكيين لدى إيران، والذين شكلوا أزمة دبلوماسية حدثت بين إيران وأمريكا، فقد اقتحمت مجموعة من الطلاب الإسلاميين في إيران السفارة الأمريكية في طهران دعماً للثورة الإيرانية، واحتجزوا ٥٢ مواطناً أمريكياً في ٤ نوفمبر ١٩٧٩.

وفي أواخر عام ١٩٧٩م زار السيد الصادق المكسيك، وكان متجهاً منها إلى طهران، وهناك قابل صديقاً له مسئولاً باليونسكو طلب منه التدخل في الأمر، هو السيد محمد

مختار أمبو. فوافق على أن يتولى أمبو الاتصال بالإدارة الأمريكية والجهات الدولية ويقوم هو بالاتصال بالقيادة الإيرانية، وبعدها عاد للندن ثم لطهران حيث بقي فيها في الفترة ما بين ١٧-٢٦ ديسمبر ١٩٧٩م، والتقى في واشنطن في يومي ٣ و٤ يناير ١٩٨٠م وفداً من الخارجية الأمريكية.

الاطلاع على محضر الاجتماعين والمداولات بشأن القضية أدناه يظهر مجهودات السيد الصادق وقراءته الصحيحة للأحداث في إيران، وانطلاقه من نصرة التجربة بالنصح المخلص، حيث أكد للوفد الأمريكي أنه أصلاً كان يعمل على زيارة إيران قبل أزمة الرهائن ليبحث معهم عدداً من القضايا، ثم تحدث عن مطالب إيران العادلة، وأن فك الرهائن ممكن بموجب مشروع اتفاق يشمل الاستجابة لهذه المطالب العادلة، مؤكداً أنه وجدا استجابة واسعة للآراء التي أدلى بها بين المسؤولين الإيرانيين، وأن الإمام الخميني لأول مرة يقول إن الاقتراح يستحق الدراسة، وحينما سأله الوفد عن كيفية تصرفهم عملياً إذا أرادوا بحث حل عادل، أشار لهم بأن يقوم بذلك طرف ثالث وسيط، وأن يكون الوسيط إما جهة عربية مثل سوريا والجزائر وفتح، أو جهة إسلامية تشمل باكستان ونيجريا، أو جهة من العالم الثالث تنتصر للشعوب المستضعفة.

ويذكر لنا التاريخ أن أمريكا بعد هذه المداولات وما أبداه بعض مسئوليها من اقتناع بعدم جدوى الحل العسكري قد عملت بالفعل على تجريب الحل السلمي، ولكن التعنت الإيراني حال دون الوصول لحل حينها. ثم حاولت أمريكا محاولة عسكرية فاشلة في 24 أبريل ١٩٨٠م، مما أدى لتدمير طائرتين أمريكيتين ومقتل ثمانية جنود أمريكيين وإيراني مدني واحد.

بعد ذلك اتجهت للحل الدبلوماسي، وجرّبت أول الخطوط التي اقترحها الإمام أعلاه (جهة عربية مثل سوريا والجزائر وفتح) حيث تم حل قضية الرهائن بعد إبرام اتفاق الجزائر في ١٩ يناير ١٩٨١م والذي بموجبه أفرجت أمريكا عن أموال إيران المجمدة مقابل إفراج إيران عن الرهائن، على أن يقدم كل صاحب ظلامة من البلدين ظلامته أمام منابر العدالة الدولية. ولكن الحل الذي تم التوصل إليه كان بصيغة أدنى مما كان يمكن التوصل إليه من شروط لصالح إيران بحسب التفاوض الذي قاده السيد الصادق حينها والذي وجد تجاوباً من الجانب الأمريكي عندئذٍ، لقد أكد أنه سعى

بجدية لحل الأزمة لئلا يؤخذ على بلد مسلم أنه يأسر مستأمنيه، وكذلك لأن *(في حل الأزمة ما يحسن فرص انتخاب الرئيس كارتر أمام منافسه السيد رونالد ريجان وتقديرنا أن انتخاب كارتر أفضل للعالم الثالث. واقترحنا حلاً عادلاً ومناسباً، ولكن للأسف لم نجد تجاوباً من القيادة الإيرانية. ثم حلت الأزمة بشروط أقل كثيراً في حق إيران من الأسس التي اقترحناها.*[1]*)*

وقد دوّن السيد الصادق تفاصيل تدخله في المسألة كالتالي[2]:

(لدى زيارتي للمكسيك، تحدث معي الصديق أحمد مختار أمبو مدير اليونسكو حول إمكانية بحثي موضوع الرهائن الأمريكيين عندما أذهب لطهران، فقلت إن لي رأياً في الموضوع ولن أتدخل إلا إذا قبل الطرفان حلاً عادلاً لا يقف عند حد الشكليات القانونية. قال إنه على اتصال بالحكومة الأمريكية وهو أيضاً حريص على حل عادل، فاتفقنا أن اتحدث أنا مع القيادة الإيرانية ويتولى هو الاتصال بالحكومة الأمريكية وبالجهات الدولية. وقبل مغادرتي المكسيك قال لي: إن الحكومة الأمريكية تدعوني للمرور بواشنطن للاستماع لآرائي حول الموضوع فاعتذرت عن تلبية الدعوة على أن يكون هو صاحب الاتصال المباشر بالأمريكيين. ثم عدت للندن ومنها لطهران حيث بقيت في طهران ما بين ١٧-٢٦ ديسمبر ١٩٧٩م ثم عدت للندن وهناك اتصل بي الأخ أمبو مرة أخرى وقال إن السيد سيروس فانس Cyrus Vance يدعوني للاستماع لآرائي وفي ظل ما حدث في أفغانستان رأيت تلبية هذه الدعوة، فقابلته في يومي ٣ و٤ يناير في واشنطن وحضر المقابلة من الجانب الأمريكي الآتية أسماؤهم:

١. *سيروس فانس Cyrus Vance وزير الخارجية.*
٢. *دافيد نيوسون David Newsom الوكيل الدائم للشئون السياسية.*
٣. *بلماينس Bill Maynes مساعد الوزير لشون الأمم المتحدة.*
٤. *هاك ساندرز Harold Saunders مساعد الوزير لشئون الشرق الأدنى.*

---

(١) الصادق المهدي الديمقراطية في السودان عائدة وراجحة.

(٢) التفاصيل مدونة في مذكرة الخطوط الجوية البريطانية بتاريخ ٦/١/١٩٨٠م، *ويبدو أنه دونها أثناء رحلة طيران.*

الاجتماع الأول في ١٩٨٠/١/٣م

بعد المجاملات والترحيب قال السيد فانس هنالك أزمة نواجهها وعلمنا أن لك آراء حول حل عادل لها ونريد أن نسمع ما ترى وتقترح.

الصادق: أشكركم على هذه الدعوة، وانتهز هذه الفرصة وأذكر أن زيارتي لإيران كانت مزمعة منذ قبل موضوع الرهائن، وذلك لأبحث مع القيادة الإيرانية آراء حول العلاقات العربية الإيرانية ولأبحث أيضا آراء المسلمين خارج إيران حول الدستور الجديد في إيران ولأواصل بحث وساطة كلفني بها بعض الأخوة الإيرانيين حول موضوع اختفاء السيد موسى الصدر. وعندما وقع حادث الرهائن اتصل بي الرئيس نميري طالباً تدخلي في الأمر لفك سراحهم، فاعتذرت قائلاً إن الأمر غير واضح في تلك المرحلة، وعلمت أن غيري توسطوا فلننتظر نتيجة ذلك. وأجلت سفري لإيران لمدة خمسة أسابيع. وعندما تمت الزيارة فعلاً هيأت لي فرصة مقابلة الشخصيات المهمة في الحكومة، وفي مجلس الثورة، وفي قم، وهما الإمام الخميني وآية الله شريعة مداري.

وفي اجتماعاتي مع هؤلاء السادة طرحت رأياً مفاده ألا معنى للحرص على عودة شخص الشاه المخلوع، وأن إصابة الرهائن بأذى سيجر لإيران وللإسلام أذى بالغاً ولكن دون هذين الأمرين يوجد أساس لمطالب إيرانية عادلة هي:

أ. لا بد من محاكمة تصرفات الشاه وإدانتها وكشفها للعالم أجمع، محاكمة للاستبداد وإيذاء الشعوب.

ب. لا بد من إجراء لإعادة أموال الشعب الإيراني التي هربها الشاه.

ج. لا بد من التحقيق حول السياسات والتجاوزات الأمريكية ورفع التظلم الإيراني من هذه السياسات.

إنني اقترح أن يفك الرهائن بموجب مشروع اتفاق يشمل الاستجابة لهذه المطالب الثلاثة العادلة. لقد وجدت استجابة واسعة لهذه الآراء عند جميع من تكلمت معه من المسئولين الإيرانيين. أما الإمام الخميني فإنه قال إن الاقتراح يستحق الدراسة وهذه أول مرة يقول مثل هذا الراي لأنه كان في العادة يرفض بحث موضوع الرهائن أو إذا بحثه ويقول إن إطلاقهم يكون مقابل تسليم الشاه.

إنني اعتقد أن استجابة أمريكا لهذه المطالب يمكن أن تكون أساساً لاتفاق عادل حول الموضوع، ويهمني أن اشير للآتي:

أ. ينبغي أن تأخذ أمريكا في الحسبان أن لها دوراً هاماً في احتجاز الرهائن لأن السماح للشاه بالدخول في أمريكا كان استفزازياً للمشاعر الإيرانية لأن الشعب الإيراني لا يصدق ولا يعقل أن يطلب منه أن يصدق أن العلاقات بين أمريكا والشاه علاقات إنسانية خالصة. إنه ينظر لهذه العلاقات في ظل حقيقتين هما:

- *التجارب الماضية حيث لعبت أمريكا دوراً أساسياً في إعادة الشاه لعرشه في عام ١٩٥٣م واستمرت تدعمه.*

- *التحركات الحالية المضادة للثورة الإسلامية وبعضها يؤيد عودة الشاه لعرشه مما جعل استقبال الشاه في أمريكا بمثابة إشارة لأنصاره لرفع معنوياتهم والتلميح بأن الشاه عاد للميدان.*

فإذا أدركت أمريكا أن لها دوراً هاماً في الظروف التي أدت لاحتجاز الرهائن وأدركت أن الوسائل الآتية لن تؤدي لحل:

- *فلا التمسك بشكلية القانون الدولي تؤدي لحل لأن الإيرانيين وغيرهم لا يغالطون في أن احتجاز الرهائن مناف للقانون ولكن الموضوع لا يقف عند الشكل القانوني.*

- *ولا قرارات مجلس الأمن تفيد ما دامت قرارات تستجيب لجانب واحد من المشادة.*

- *ولا العقوبات الاقتصادية تجدي فإن الأوضاع العالمية الحالية تجعل من الممكن لأي دولة أن تخترق العقوبات الاقتصادية كما فعلت روديسيا لمدة ١١ عاماً.*

- *ولا العمل العسكري المضاد يجدي لأنه إذا قصد به إنقاذ الرهائن سيؤدي لموت الرهائن وستتفرع منه ظروف ستؤذي أمريكا أكثر مما تؤذي إيران.*

إنني اعتقد أن القيادة الإيرانية يمكن أن تقبل اقتراحي كحل عادل. فما هي فرصة قبول أمريكا للاقتراح؟

وإنني اعتقد أن التفكير السياسي في إيران تجاوز الحرص على شخص الشاه كما

اعتقد أنه لا توجد نية لإيذاء الرهائن جسدياً.

وفي إطار هذه الانطباعات أرجو التعرف على استعداد أمريكا لرفع الظلامات الإيرانية بوضوح وجدية.

فانس: هذه أول مرة نطلع على رأي مدروس من جهة جادة، وسندرس آراءك ولكن هناك بعض الأسئلة نود أن نوجهها. السؤال الأول: لماذا تعتقد أنه لن يصاب الرهائن بأذى جسماني؟

الصادق: الإيرانيون يعلمون أن قضيتهم ليست ضد هؤلاء الأشخاص، فالرهائن وسيلة للتعبير عن السخط للسماح للشاه بالدخول في أمريكا، ووسيلة للفت النظر للمظالم الأخرى، وانطباعي مما سمعت أن الرهائن لن يصيبهم أذى جسماني وحتى إذا حوكموا فإن العقوبة التي أتوقعها هي أن يطردوا من إيران. هذا التقدير صحيح إذا لم تقم أمريكا بأعمال تستفز إيران وتعرض أرواح الرهائن لخطر.

فانس: السؤال الثاني: ما هي قدرة أي جهة: الخميني، مجلس الثورة، السيطرة على الأحوال في إيران؟

الصادق: إن ما يجري في إيران اليوم امتداد للموجة الثورية التي أسقطت الشاه، وهذه الموجة لها قيادة وقيادتها هي الإمام الخميني، ومجلس الثورة ذو دور استشاري. الموقف اليوم هو أن في البلاد تيار ثوري عارم يتحرك الشارع الإيراني بموجبه، وهذا التيار مهما كانت تجاوزاته لسياسات الحكومة الإيرانية يعتبر الإمام الخميني قائده.

فانس: إن أمريكا مستعدة أن تتفاهم ولكن كل وزير خارجية حاولنا التفاهم معه سقط فما هي الجهة التي نتحادث إليها؟

الصادق: إن منطق ولاية الفقيه، ومنطق حماس الشارع يجعلان كل وزير خارجية نمرة قابلة للاقتلاع السريع، والصحيح هو أن تدرك أمريكا نوع المظالم التي يعاني منها الإيرانيون وتستعد للتجاوب معها. إذا حدث هذا توجد وسائل تلائم الظروف الثورية الحالية وتكفل الوصول لتفاهم. أما إذا أرادت أمريكا حلاً دبلوماسياً أو قانونياً شكلياً فإنها لن تحصل عليه.

فانس: هل هناك حول الخميني من يؤثرون عليه؟

الصادق: الخميني سيد موقفه، وفي مجلس الثورة شخصيات صاحبة رأي تقوله في المجلس وتنصح به وتعلنه أيضاً، واعتقد أن الإمام الخميني يستمع لهذه الآراء ولكنه يتخذ قراره بنفسه.

فانس: كيف يمكننا أن نتصرف عملياً إذا أردنا بحث حل عادل؟

الصادق: أرى أن يقوم بهذا الأمر طرف ثالث وسيط ويمكن أن يكون هذا الطرف:

أ. جهة عربية مثل سوريا والجزائر وفتح.

ب. أو جهة عربية وإسلامية تشمل باكستان وربما نيجيريا.

ج. أوجهة من بلاد العالم الثلاث التي تنتصر للشعوب المستضعفة.

فانس: كيف يمكننا الاقتراب من الجهات الوسيطة هذه؟

الصادق: إذا كانت أمريكا مستعدة للاستجابة للمظالم الإيرانية فإن عدداً كبيراً من الجهات المقبولة ستتطوع للتوصل لاتفاق عادل. وإن لم تتطوع فثمة وسائل للاتصال بها وتحريكها في هذا الاتجاه.

ساندرز: سؤال: هل نركز على جهة واحدة أو على الجهات التي اقترحتها معاً.

الصادق: لا مانع من توضيح موقفكم لكل الجهات المذكورة للعلم، ولكن لا بد من اختيار جهة واحدة لمنع التضارب.

فانس: سؤال: ماذا تعتقد سيكون أثر أحداث أفغانستان على إيران من ناحية المخاوف على أمنها؟

الصادق: إن أحداث افغانستان فرصة لتنقل أمريكا اهتمامات الرأي العام وقد عبأت ضد إيران، لاتجاه آخر، هو اتجاه العلاقات بين الدول العظمى. أما بالنسبة للعالم الثالث فإن التفاهم أو المواجهة بين الدول العظمى هو الشيء المنطقي الذي يتوقع أن يحدث بدلاً من مواجهة دولة عظمى لدولة صغيرة. أما بالنسبة لإيران فإنه طبعاً يضيف خطراً آخر على ما تواجه من أخطار، والمباراة المطروحة هي أي الدول العظمى تنجح في إزالة

المظالم الراجعة إليها لتكسب صداقة الشعب المعني؟

سؤال: هل قابلت ابن الخميني وما هو أثره على الأحداث؟ وهل لمن حول الخميني من رجال أثر عليه؟ هل يجدون الشجاعة للجهر برأيهم أمامه؟

الصادق: لم أقابل ابن الخميني ولكن قابلت حفيده حسين وهو يمثل جيل الطلاب وحماسهم. إن أعضاء مجلس الثورة يذكرون آراءهم بصراحة وبعضها مخالف لراي الخميني بوضوح.

سؤال: ألا يجوز أن يكون الخميني حريصاً على الاحتفاظ بموقف الرهائن كما هو حتى يفرغ من الانتخابات المزمعة تحت الدستور الجديد؟

الصادق: في رأيي أن أزمة الرهائن ساعدت كلاً من الإمام الخميني والرئيس كارتر فالأول شدت الأنظار ووحدت الرؤية في بلاده أثناء الاستفتاء حول الدستور، والثاني رفعت أسهمه في أمريكا وفي نظري أن موقف الخميني بعد الدستور الجديد قوي، ويمارس صلاحيات ولاية الفقيه وهي صلاحيات بالنسبة لها رئاسة الجمهورية وغيرها من المناصب التي ستقوم بموجب الدستور الجديد ثانوية.

ولذلك لا أعتقد أن هناك ربطاً بين موضوع الرهائن والانتخابات، والذي يعطل موضوع الرهائن هو خطأ المحاولات الجارية لحله الآن لأنها محاولات لا تأخذ موقف الطرف الآخر في الحسبان.

فانس: سؤال: ما هو استعداد الاستمرار في مجهودك هذا؟

الصادق: منذ فترة اقتنعت أنه لا بد لنا كمسلمين وكبلاد تقع في العالم الثالث من الادلاء بدلونا ولذلك بدأت دراسة الموضوع وقررت أن أقوم بحملة لصالح آرائي هذه لتكون تعبيراً عن رأي المسلمين في الموقف الحالي، وسأستمر في دعوتي هذه رضى الطرفان أم رفضا، ولكن طبعاً يساعدنا أن نجد الطرفين مستعدين للتوصل لحل عادل ويسرني أن أعرف موقفكم في هذا الصدد.

فانس: نشكرك على ما تفضلت به وهذه أول مرة نطلع على جوانب صريحة من الموقف ومن جهة إن اختلفنا معها لا نشك في أمانتها فنحن شاكرون لك على بالغ

الاستنارة والبيان في أمر هام وحساس وإنني أريد أن أفكر فيما قلت وأبلغك موقفنا منه فإن كان مناسباً نجتمع غدا الصباح.

وبعد فانس ذكر الآخرون شكرهم على وضوح ما سمعوا وما نوروا به من حقائق وآراء صريحة.

الصادق: لا مانع نجتمع غدا صباحا إن شاء الله.

في يوم ٤/ ١/ ١٩٨٠ وقبل الدخول لفانس التقينا في مكتب دافيد نيوسوم أنا وهو والمستر بل ماينز وقال لي دافيد نيوسوم إن لديه ثلاثة أسئلة يريد معرفة موقفي منها:

أ. ما هو استعدادك للقيام بتوسط في هذا الموضوع؟

ب. هل تعتقد أن الدستور الجديد يخلق نظاماً يمكن أن نتعامل معه؟

ج. ما هي إمكانية قيام علاقة طيبة بين إيران وأمريكا مستقبلاً؟

أ. **الرد على السؤال الأول هو:** إذا كانت أمريكا مستعدة أن تدرك أخطاءها وأن تقبل مظالم الآخرين وأن تتوصل بجدية لحل عادل فإنني على استعداد للتوسط وإلا فلا أدخل في أمر أرفض قيمته.

ب. الدستور الجديد سؤدي لانتخابات رئيس جمهورية ورئيس الوزراء على نمط قريب من دستور فرنسا الجمهورية الخامسة وطبعاً وجود شخصيات منتخبة يعني أن لها سنداً وقواعد ويمكن مخاطبتها.

ج. أما الرد على السؤال الثالث فإنني اعتقد أن ثمة ثلاثة أسباب تجعل البلاد الإسلامية تحب أن تتعامل مع الغرب هي:

- أنتم لستم دعاة إلحاد منظم.
- أنتم مصدر تكنولوجيا مهم للتنمية والعصرنة.
- أنتم سوق قوي لمنتجاتنا.

ولكن ثمة أسباب تمنع تحقيق هذا التفاهم أهمها ثلاثة أسباب:

• أنتم تعملون دائماً لإقامة علاقات ثنائية قوية مع نظم استبدادية مما يفقدكم الشعوب فلا نيل لصداقة الشعوب مع حرصكم على التعامل مع جلاديها.

• أنتم وراء قيام والدفاع عن إسرائيل وعدوانها وهذا يمنع قيام علاقات حقيقية مع شعوب تقع ضحية العدوان الإسرائيلي.

• إن أمريكا هي السند النهائي للنظام العالمي الاقتصادي الراهن وهو نظام تتطلع الشعوب لتغييره بنظام عالمي جديد.

إذا لم تراجع أمريكا موقفها في هذه المناطق الثلاثة فإن رغبة البلاد الإسلامية أن تصادقها وتتعامل معها لن تتحق بالمستوى المطلوب.

أما في موضوع إيران فإنه بالإضافة لتلك المسائل العامة توجد المظالم الثلاثة التي ذكرتها سابقا فإن قبلت أمريكا الاستجابة لرفع تلك المظالم وأظهرت ما يؤكد أنها سوف تفتح صفحة جديدة مبنية على التعامل العادل فإن هذا وحده هو السبيل لعلاقات قوية في المستقبل.

هنالك صحوة إسلامية تتطلب أساساً جديداً للعلاقات الخارجية وأنتم وغيركم أمام تحد؛ أيكم يقبل التعامل مع هذه الصحوة بالشروط والأسس العادلة التي تتطلبها؟

بعد ذلك انضم الينا المستر فانس فلخص له المستر ساندروز ما دار بيننا ثم توجه المستر فانس بالسؤال الآتي: ماذا ينبغي أن تكون صلاحيات الهيئة الوسيطة؟

الصادق: اقترح أن تكون صلاحياتها مقترحاتي الثلاثة.

ما هي ال Mechanics لقيام هذه الهيئة؟

الصادق: الاتصالات المباشرة بينكم وبين الإيرانيين ثم بينكم وبين الجهات المرشحة للاشتراك فيها.

فانس: نحن على استعداد أن تبدأ إجراءات إيرانية ضد ثروة الشاه في المحاكم الأمريكية علماً بأن ٩٨٪ من ثروته ليست في أمريكا فهل هذا يفيد؟

الصادق: النظرة القانونية وحدها لهذا الموضوع لا تفي بالغرض فأنتم عندما

توجهتم بإرادة سياسية جمدتم أموال إيران في المصارف الأمريكية دون إجراءات محاكم.

فانس مقاطعاً: إن ما فعلنا في هذا الصدد قانوني بحت وإذا عرض على المحاكم فستؤيده.

الصادق: على أي حال لا بد من وجود قرار سياسي حول موضوع ثروة الشاه فإن احتماء الشاه وراء شكليات قانونية يجعل إجراءات السلطة الإيرانية غير ذات فاعلية فإن قلتم إن السبيل الوحيد لردها هو المحاكم فإن هذا يعني عدم التوصل لحل. إن الشاه صديقكم ولا يمكن أن يظل خارج هذه الأزمة التي قامت بسببه لذلك عليكم الضغط عليه للقيام بأمرين هما: التخلي النهائي عن عرش الطاؤوس هو وذريته وبيان ثروته في الخارج والتنازل عن كل ما لا يلزم لحياته العادية للشعب الإيراني لرد هذه الأموال لتستخدم في أغراض تعويض وإعاشة ضحايا العنف..إلخ. إذا فعلتم ذلك فإنه يدل على جدية واستجابة لبعض المظالم ولكن إذا بقيتم في حد الإجراءات القانونية وحدها أقول لكم هذا لن يقبله أحد.

فانس: هذه آراء مفيداة جداً.

الصادق: أريد أن أوجه لكم سؤالين؟

الأول: لماذا لا تفرغ أمريكا التأزم الحالي بإعلان الآتي:

- أنها لا تستطيع تسليم الشاه.
- أنها لن تسكت على إيذاء الرهائن.
- أنها تقبل أن لإيران مظالم مشروعة.
- أنها مستعدة أن تعاون على قيام هيئة مقبولة لكل الأطراف للتحري حول المظالم الإيرانية.
- إن أمريكا سوف ترفع تلك المظالم.
- بناء على رفع المظالم فإن أمريكا مستعدة أن تفتح مع إيران صحفة جديدة.

فانس: مستعدون لقبول هذا الاتجاه فيما بيننا ولكن إعلانه سيكون صعباً. كذلك الوقت يضيق بنا لأن الصمت الذي فرضه السياسيون الأمريكيون على أنفسهم حول هذا الموضوع لم يعد قائماً مما يوجب الرئيس عمل شيء يرتضيه الرأي العام.

الصادق: موضوع أفغانستان منحكم مزيداً من الوقت. كذلك ما هو بديل هؤلاء السياسيين؟ إن عدم وجود بديل هو الذي سيفرض عليهم مزيداً من الصمت فإن انطقوا فنطق يؤذيهم سياسياً.

فانس: هذا صحيح.

الصادق: سؤال آخر: هل أنتم موافقون على اقتراحي بصفة محددة كوسيلة لحل الأزمة؟

فانس: لا بد أن أناقش هذا الموضوع مع الرئيس كارتر وأن نستمع لتقرير السكرتير العام للأمم المتحدة بعد عودته ونفيدك برأينا المحدد.

ماينز: ما هو تصورك: أن يطلق الرهائن بعد تنفيذ الاقتراح أم أن يطلق الرهائن قبل ذلك؟

الصادق: التوقيت عرضة لاتفاق الطرفين، ولكن اقتراحي هو أن يكون الأمر في شكل حزمة package يتوصل إليها في وقت واحد.

فانس: نشكرك مرة أخرى على لقاء مفيد للغاية، فقد اطلعتنا على مواقف حضارة لا نلم بها تماماً في إطار إدراكك للصعوبات التي نواجهها نحن أيضاً.

يوم السبت ٥/ ١/ ١٩٨٠ جرت محادثة هاتفية بين المستر ساندرز والصادق.

المحادثة:

ساندرز: لقد قابلنا أنا ووزير الخارجية رئيس الجمهورية وأطلعناه على اقتراحاتك، واستقبلها إيجابيا وقال إنه سوف يستمع غداً لسكرتير عام الأمم المتحدة، ثم يعطيك رده على مقترحاتك، وسوف نتصل بك حيثما كنت لتوصيل ذلك الرد ولا أعتقد أنه سيكون بعيداً من اقتراحاتك.

الصادق: سأكون متوقعاً الخبر منكم، ولكن هل لديكم فكرة عن انطباعات السكرتير العام؟

ساندرز: لقد تحدث معه وزير الخارجية بالتلفون، ويبدو أن تجربته في طهران كانت مروعة مخيفة، وقال إنه وجد الأمر معقداً جداً، وأنه يحمل بعض الآراء الإيجابية نتيجة مقابلته لمجلس الثورة وعندما نعرف هذه الآراء سننقلها إليك.

الصادق: أنا مسافر إلى لندن ثم ليبيا ثم الخرطوم، وأرجو أن يصلني ردكم المحدد لأرى ما أفعل.

ساندرز: حسن ونكرر لك شكرنا.

هذا هو ما دونه السيد الصادق حول تلك الاتصالات.

ودوّن لاحقاً حولها التالي[1]:

(أنا وآخرون من مفكري العالم الثالث أذكر منهم أحمد مختار أمبو رأينا أن نتدخل في أزمة الرهائن لحلها على أساس سليم وكان يهمنا في ذلك أمران:

الأول: ألا يؤخذ على بلد إسلامي أنها أسرت مستأمنيها.

الثاني: أن في حل الأزمة ما يحسن فرص انتخاب الرئيس كارتر أمام منافسه السيد رونالد ريجان وتقديرنا أن انتخاب كارتر أفضل للعالم الثالث. واقترحنا حلاً عادلاً ومناسباً، ولكن للأسف لم نجد تجاوباً من القيادة الإيرانية. ثم حلت الأزمة بشروط أقل كثيراً في حق إيران من الأسس التي اقترحناها.)

اتجه السيد الصادق بعدها وفقما نوّر المسؤولين الأمريكيين إلى لندن، ثم ليبيا، ثم إلى الخرطوم.

أما لندن فقد كان يجعلها محطة يزور فيها الحبيبتين أمي رحمة وأمي سارا رحمهما الله، كما كانت موئلاً للساسة السودانيين المعارضين.

وفي ليبيا كان هناك الأنصار المهاجرين ومعسكراتهم التي لم تتم تصفيتها بعد، ومثلما

(١) من كتاب الديمقراطية في السودان راجحة وعائدة

كتب السيد غراهام توماس فقد استغرقت منه مهمة عودتهم وتنظيمها زيارات مكوكية لليبيا، وجهداً في تلك السنوات.

رحلة الجزيرة أبا ١٩٨٠م

رأى الحبيب الصادق أن يصوم رمضان ذلك العام (يوليو- أغسطس ١٩٨٠م) في الجزيرة أبا ويقضي عيد الفطر هناك كما درج قادة الكيان، ويصحب أسرته معه وعدد من شباب الأسرة الممتدة بالتنسيق مع رابطة شباب أسرة الإمام المهدي وخلفائه. وهي الرابطة التي شجع قيامها بقوة حال عودته للسودان، واجتمع بالشباب كثيراً لحثهم على الاهتمام بصلة الرحم وبالتعرف على إرث المهدية وتعاليمها.

وهناك، في أبا، نظم لنا دروساً حول أسرة الإمام المهدي وحول المهدي ودعوته، وكان ذلك الدرس مطلوبا بالنسبة لنا فغالب أبناء وبنات جيلنا ما كانوا يعرفون عن الأجداد والجدات شيئاً كثيراً.

وفي يوم ١ أغسطس/ ٢٠ رمضان ألقى الدرس الأول وتحدث فيه عن أهمية العلاقة العائلية وصلة الرحم في الدين، وتحدث بعد ذلك عن أسرة الإمام المهدي وتعريفه لها المقتبس من حديث الإمام المهدي نفسه أنها مكونة من ذرية ستة رجال: الإمام المهدي وخلفائه الثلاثة (عبد الله بن السيد محمد وعلي الحلو وشريف بن السيد حامد) إضافة لذرية أخويه حامد ومحمد، وقال لنا: (*إن قصتهم من أحفل قصص التاريخ بل أعتقد أنه في الأدب العربي والأجنبي يصعب أن نجد قصة أكثر تنوعاً ودراما، قصة باهرة ومشحونة بالإنجازات والمآسي! أنتم في صغر سن بعضكم لا بد من الاهتمام بهذه الأمور ففي سيرة الأسرة هذه الدليل على الوعي المبكر: الإمام المهدي اتجه نحو العلم والتحصيل منذ النعومة، والإمام عبد الرحمن بدأ يتصرف كمسئول منذ سن ١٣ عاماً. فالمطلوب منكم الوعي والاستعداد*).

ثم تحدث عن نسب الإمام المهدي وتاريخ أسرته قبل أن يفصل في بيان دعوته وملامحها وأهم المنشورات التي أصدرها.

كانت حلقات مهمة جداً في تكوين وعينا، وفي حقننا بأهم جرعات الأنصارية مباشرة عبر الوريد. فتشربها منا من كان مخ عظمه مخلوطاً بمحبة الإمام المهدي، ومحبته

تتسلل قبل المعرفة والاطلاع عبر مرويات كثيرة سمعناها ورددتها الأمهات.

تحركات خارجية ١٩٨٠م

هذه الفترة من حياة السيد الصادق، أو قل هو ديدن حياته، فيها حركة دؤوبة بين داخل البلاد وخارجها للمشاركة في مناشط عديدة سياسية، وفكرية، ودعوية، ودبلوماسية شعبية كما ذكرنا.. ومن الصعب جداً تتبع هذه الحركة حتى لمتابعها. فنحن في مكتبه الخاص الآن إن أغفلنا الرصد لعام واحد يصعب علينا تتبع كل ما قام به من رحلات خارجية وداخلية، ومشاركة في مؤتمرات واجتماعات وغيرها من المناشط، فما بالك وهذه التحركات قد مرت عليها الآن عقود.. سأكتفي فقط بما وجدت مدونات حوله ضمن أوراق السيد الصادق، أو ما ظهر في كتابات أخرى.

الدعوة في نيجريا، ١٩٨٠م

في فترة وجود السيد الصادق بالخارج أعاد علاقاته بالأنصار بنجيريا بشكل كبير، وخاصة أسرة السيد أبو بكر (قربة) سعيدو حياتو، فكانت علاقته وعلاقة أمي سارا رحمها الله بهم خاصة بنتيه وابنه زينب وأسماء وفاروق جيدة للغاية.

وفي زيارات لنيجريا، صحبته في بعضها الحبيبة السيدة سارا رحمها الله قام الحبيب بالاتصال بالأنصار هناك لربطهم بحركة الصحوة التي انتظمت الكيان، وبالفعل زار قراهم واطلع على تمسكهم بالعقيدة واستمرارهم في حلقات الراتب بانتظام، ولكنهم لا يزالون لم يصلهم التجديد الذي طور في أساليب الدعوة على يدي الإمام عبد الرحمن، فهم مع كثرتهم معزولين عن إشعاع البعث الديني في الطورين الثاني والثالث للمهدية في السودان وفي المشرق عموماً، وجدد العلاقة مع الشيخ أبو بكر (قربة) سعيدو حياتو الذي آلت له القيادة في أسرة الشيخ حياتو.

وكان ابنه فاروق الشاب يدرس حينها الهندسة الكيميائية في إنجلترا، فكان يقضي أيام إجازته الأسبوعية في منزلنا مع أمينا رحمة وسارا وأحيانا يلاقي السيد الصادق، ويلاقينا في الإجازات. بل زار السودان وأقام معنا شهوراً.

وقد وجدت في أجندة السيد الصادق للعام ١٩٧٧م ذكر متكرر للعلاقة بآل الشيخ في نيجريا، وأن (تكون لجنة تتجه لمؤتمر جامع ينظم العمل في نجيريا).

الشاهد، في العام ١٩٨٠م ذهب السيد الصادق لإلقاء محاضرات في نجيريا، في جامعات سكوتو، وكانو، وأحمد بيللو، تفاصيلها كالتالي:

- محاضرة: المهدية في الإسلام Mahdism in Islam، في جامعة كانو في ١٩ أبريل ١٩٨٠م، وكانو تمثل معقل الإسلام في نيجيريا، فيها التجانية والقادرية، والأنصار، في المحاضرة خاطب السيد الصادق فكرة المهدية في الإسلام، ومدارس المهدية في الفكر الإسلامي، والأسس التي قامت عليها الدعوة المهدية في السودان، والمأزق الحالي للعالم الإسلامي وما تقدمه تعاليم المهدية لحله. وهذه تعتبر محاولة لمخاطبة فكرة المهدية بالنسبة لأتباعها الكثر في نيجيريا ولغيرهم للانصراف عن الخطاب العجائبي والنظر للمهدية كدعوة لإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما، أي وظيفة إحياء الدين. هذه الأفكار تطورت لاحقا في كتاب (أيديولوجية المهدية) ثم في ورقة (عبد الرحمن الصادق إمام الدين).

- محاضرة: التغيير الاجتماعي في الإسلام Social change in Islam ، بجامعة سوكوتو في ٢٥ أبريل ١٩٨٠م، وفي المحاضرة أظهر كيف أن الدين الإسلامي على مر التاريخ كان ملهماً للثورات والحركات والقادة المنادين بالتغيير وبرفض الظلم الاجتماعي والاستبداد، وتعرض للجمود اللاحق الذي ألم بالعالم الإسلامي، والدعوة الحالية للتغيير الراديكالي وشروطه الضرورية، والحاجة للهدى الإسلامي، وتعامل الإسلام الإيجابي مع التغيير الاجتماعي. والمحاضرة أساسية لبعث الإسلام واستنهاض الهمم به.

- النظام الاقتصادي في الإسلام The Economic System of Islam ، محاضرة في ٢٩ أبريل ١٩٨٠م بجامعة أحمدو بيللو بنيجريا، وفيها ناقش المسألة نظرياً ثم تاريخياً، وتعرض لطبيعة الإسلام، وفي النهاية ناقش أزمة الاقتصاد في العالم الثالث على ضوء التعاليم الإسلامية.

المؤتمر الإسلامي في طشقند

ومن ضمن ما ذكره السيد غراهام توماس زيارة السيد الصادق إلى روسيا بدعوة من السوفييت، حيث حضر المؤتمر الإسلامي في طشقند في صيف أو خريف العام ١٩٨٠،

(وفي ذلك المؤتمر بشجاعته المعهودة رفض الصادق الموافقة على قرار يخدم مصلحة السوفييت، واستبدله بقرار يدعو إلى حرية المسلمين في أن يزوروا مكة، ومساندة الإسلام في الاتحاد السوفيتي. وكان مما أرضى الحكومة السوفييتية والسوفييت من غير المسلمين أن أجيز كلا القرارين. وقد تأثر الصادق بعمق المسلك العام للموظفين الرسميين في المؤتمر، وأدهشه جداً أن يجد كثيراً من العلماء فيهم يتكلمون العربية ويقرأونها بدرجة من الإتقان. كانت تحيته من قبل هؤلاء تتم بحماسة، وكثيراً من الروس أخبروه بأنهم مسلمون أولاً ثم روس بعد ذلك)[1].

المعسكرات.. ورحيل الشريف الأليم

كتب السيد غراهام توماس: وطوال معظم سنة ١٩٨١م كان الصادق منشغلاً في إعادة توطين اللاجئن السودانيين الذين كانوا لا يزالون في ليبيا وأثيوبيا منذ فر الأنصار إلى هناك[2].. ثم تحدث عن إقامته هو وزوجته الخالة إزماي فترة في السودان، وتأزم الأحوال هناك وحدوث اضطرابات في أوائل يناير ١٩٨٢م انتشرت في طول السودان وعرضه كان فيها مصابين في مدن السودان المختلفة بلغ مجموعها ٢١٨ إصابة في مدني وعطبرة وبورتسودان، وبحسبه أن (الأنصار لم يشاركوا فيه لأن غياب الصادق المهدي أربكهم فلم يتخذوا قراراً بشأن ذلك)[3].

وذكر أنه ذهب لمقابلة النميري في يناير ١٩٨٢م، وأثناء وجوده معه جاء خبر وفاة الشريف حسين الهندي من السعوديين الذين يسألون إذا كان النميري سيسمح بإدخال جثمانه البلاد وقد (توفي فجأة في أحد فنادق أثينا في اليونان قبل بضعة أيام).

توفي الشريف حسين رحمه الله في ٩ يناير ١٩٨٢م..

لقد كانت وفاة الشريف حسين حدثاً مأساوياً فقد كان الشريف أحد رموز المعارضة البارزين ضد التسلط المايوي، وكان النظام المجرم لا يزال جاثماً على صدر الوطن.

وقد تحول تشييع جثمانة في بري اللاماب إلى مظاهرة شعبية ضخمة عبرت فيها

(١) توماس، سابق ص ١٩٧

(٢) نفسه ص ١٩٩

(٣) نفسه

جماهير العاصمة عن تقديرها لنضاله ودوره في المعارضة وتطلعها لإسقاط الديكتاتورية، وواجهت سلطات الأمن الحدث باعتقالات وسط قيادات الحزب الاتحادي الديمقراطي، واتخذت إجراءات أمنية مشددة بإنزال أعداد كبيرة من الشرطة ورجال الأمن والدبابات في المطار وجامعة الخرطوم والبراري[١].

قال غراهام إن نميري أثار أثناء لقاءهم المذكور قضية الصادق المهدي و(بين عدم رضاه بل انزعاجه الظاهر من ذلك. وكثيراً ما كان يكرر سؤاله لي: لماذا ذهب إلى ذلك الرجل؟ يعني القذافي، لم يكن ينتظر جواباً حتى حين قال: لماذا لم يأت الصادق إليّ؟ أنا سوداني مثله وهو سوداني: أنا من الأنصار.. ثم قال بشكل يثير الدهشة: كان المهدي أحد أجدادي)! وقال السيد غراهام إنه قال له إنه يظن أن ميل الصادق إلى ليبيا إنما ليقابل في الميزان (ميل الرئيس الشخصي إلى مصر). وقال إن النميري برر له ميله لمصر بوجود ١٨ ألف طالب سوداني في مصر لو طردوا يمكن أن يسببوا له المتاعب[٢].

الشاهد، إن النميري كان غاضباً جداً بسبب تمنع السيد الصادق عن قبول عرضٍ ظنه لا يرد بأن يكون نائبه وخليفته، وسنرى أنه فكر في كيفية تأديبه بمصادرة مكاتب هيئة شئون الأنصار، ثم مبايعة السيد أحمد المهدي إماماً للأنصار.. ولكن غيظه ما خمد!

المجلس الإسلامي الأوربي

السيد سالم عزام رحمه الله دبلوماسي سعودي (من أصل مصري) كون ببريطانيا عام ١٩٧٣م المجلس الإسلامي الأوربي، وجذب إليه (شبكة فريدة من المفكرين والساسة الإسلاميين الذين اجتمعوا في سلسلة من المؤتمرات والندوات التي عقدت في لندن في أواخر سبعينات وثمانينات القرن العشرين لصياغة وتحديد الموقف الإسلامي حول مجموعة من القضايا المعاصرة)[٣]. بعد أن خرج الصادق من المعتقل ثم سافر للندن عام ١٩٧٤م انضم هناك لمجهودات المجلس الإسلامي الأوربي وكون صداقة حميمة مع السيد سالم عزام.

---

(١) محمد علي جادين تقييم التجربة الديمقراطية الثالثة في السودان ص ٥٣

(٢) نفسه ص ٢٠١

(٣) موقع مجتمع سلام على الإنترنت
http://www.salaam.co.uk/knowledge/muslim_community.php

وقد عقد المجلس مؤتمراً في قاعة ألبرت في عام ١٩٨٠ حول «الرسالة المحمدية»، بعد ذلك تم تكوين مجموعة صغيرة من المفكرين المنضمين للمجلس كاستجابة إسلامية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر من الأمم المتحدة.

انعقدت مناقشات تلك المجموعة العديدة في مكاتب المجلس الإسلامي الأوربي في ١٦ غروسفينور كريسينت، هايد بارك كورنر، وبحسب «مجتمع سلام» ببريطانيا فقد تكونت المجموعة من: رئيس الوزراء السوداني الأسبق الصادق المهدي، واثنين من الخبراء القانونيين الباكستانيين الكبار حينها وهما عبد الله كدباكش بروهي وخالد إسحاق، والقاضي مدحت عزام، والدكتور الخولي من مصر. ونتج عن تلك الاجتماعات ورقتان آسرتان للفكر الإسلامي في تلك الفترة: «نموذج دستور إسلامي»، التي نشرت في عام ١٩٨٣، و«الإعلان العالمي الإسلامي لحقوق الإنسان» التي نشرت قبلها بعامين أي نشرت عام ١٩٨١م[١].

وقد علق مجتمع سلام بأن إصدار تلك النشرات في مدينة أوربية عوضاً عن صدورها من داخل العالم الإسلامي هو أمر ذو دلالة في حد ذاته حيث لم يمكن صدورهما في العالم الإسلامي مع نمط الأنظمة والممالك الاستبدادية المستمرة في السلطة لا على أساس تفويض شعبي، ولكن عبر الشرطة السرية والتحالف مع الولايات المتحدة أو فرنسا. واعتبر المجتمع أن الرؤية لنظام اجتماعي عادل على أساس القيم الإسلامية قد عقدت الأمل في مستقبل أفضل. وإن المفكرين الذين ألفوا وثيقة «نموذج دستور إسلامي» هذه لم يعتقدوا أن هذا التغيير كان أمراً في متناول اليد، ولكنهم اعتبروا من واجبهم ضمان توفر بعض الأسس النظرية. وقال المجتمع في تعريفه بتلك الوثائق إن القانوني الباكستاني الضليع عبد الله كدباكش بروهي كان قد لاحظ أن تحقق الدولة إسلامية رهين بمجتمع متعلم، من خلال تفكير ديمقراطي القلب، يتوخى تمكين جميع الناس من خلال التعليم حتى يتمكنوا من اتخاذ خيارات مدروسة[٢].

الشاهد، إن السيد الصادق كتب لاحقاً كتيب (الدولة في الإسلام) مؤكداً عدم وجود

(١) المرجع السابق

(٢) نفسه

ما يسمى ب(الدولة الإسلامية) ولكن دولة المسلمين، وهذا ما سوف نتعرض له في حينه.

أما عن المجلس الإسلامي الأوربي ومشاركته في أنشطته فقد كتب قائلاً:

(كان العالم الاسلامي منذ ١٩٧٥ م يمر بمرحلة أطلق عليها «الصحوة الاسلامية» وهي مرحلة انصراف عن الأيدلوجيات الوافدة واستقبال للبعث الاسلامي. وكثرت على الساحة الإسلامية نداءات الصحوة الإسلامية ومن بينها منبر عالمي اسمه المجلس الإسلامي الأوربي مركزه في لندن كان الأنصار والأخوان المسلمون السودانيون أعضاء في هذا المجلس. ومساهمة من هذا المجلس في فكر الصحوة الإسلامية وضع بمشاركة واسعة من أعضائه من كل أنحاء العالم الإسلامي وموافقتهم وثائق أساسية توضح النظام السياسي الإسلامي، والنظام الاقتصادي الاسلامي، وحقوق الانسان في الاسلام، ومشروع دستور إسلامي، وكان أمين عام هذا المجلس الأخ سالم عزام وهو مسلم مخلص شجاع ينسق مجهودات الجميع ويدعو المؤتمرات لمناقشة ونشر هذه الوثائق الهامة.

وأهم سمات هذه الوثائق:

أ-أن النظام السياسي الإسلامي يقوم على الشورى والحرية واستقلال القضاء.

ب-أن النظام الاقتصادي الإسلامي يقوم على العدالة وكفالة معيشة الكافة.

ج-أن حقوق الانسان في الحرية والكرامة والحرمات الشخصية والعدالة هبة من الله ولا يجوز لبشر أن يعتدي عليها.

د- أن النظام الإسلامي يقيم الحرية والعدالة الإجتماعية ويحمي الحقوق بالعقوبات الشرعية فالنظام قبل الحدود والحدود لحماية النظام.

وكان أمين عام المجلس الإسلامي يبعث بهذه الوثائق للحكومات الإسلامية مناشدا لها وللمفكرين والدعاة والحركات الإسلامية التجاوب معها.

وهكذا خلق المجلس الإسلامي رأياً عاماً إسلامياً ذا معالم واضحة وقفت جنباً إلى جنب مع أطروحات البعث الإسلامي الأخرى التي زحمت الساحة الإسلامية.)

دار المال الإسلامي ١٩٨١م

شارك السيد الصادق في المجلس الاستشاري لدار المال الإسلامي الذي تأسس في سويسرا عام ١٩٨١م، وقد اشترك فيه للعمل على تطوير صيغ اقتصادية إسلامية حديثة في مجالات الاستثمار والبنوك والمصارف، ولكنه لاحظ أن المؤسسة تنحو نحو إحياء مسميات الدولة الاسلامية التاريخية (كالمرابحة والمضاربة) بدون مراعاة مقاصد الشريعة فاستقال، وكتب نصحه للحركة المصرفية والاقتصاد الإسلامي بعمومه في كتاب «المنظور الإسلامي للتنمية الاقتصادية» الصادر من لندن عام ١٩٨٤م. وما فتيء ينتقد التجربة المصرفية الإسلامية الحديثة وأسسها التلفيقية التي أضرت أكثر من نفعها وتعد الأبعد عن مقاصد الشريعة من سعر الفائدة الذي حرمته باعتباره ربا.

وهو يعتبر هذه الخطوة، أي انضمامه لدار المال الإسلامي، من الأشياء التي ندم عليها فقد قال لي مرة: هي تجربة أود لو أنني ما كنت جزءاً منها، وفهمت أنه غادر دار المال الإسلامي سريعاً، وصار ينظر بغير تفهم للأهداف التي تحرك التجربة.

مؤتمر الجزائر ١٩٨١.. وأحمق ذكرين!

كان السيد الصادق مشاركاً فعالاً في كثير من المؤتمرات الإسلامية، ولا يزال حفظه الله، ومن الطرائف التي يرويها أنه دعي لمؤتمر إسلامي في الجزائر في عام ١٩٨١م فقام *أحد خطباء الوفد اليمني وكان عالماً تقليدياً وألقى خطابه بكل جدية مركزاً على الآتي:*

- *الإفرنج هم أعداؤنا ويريدون إطفاء نورنا وصدنا عن الحق الذي نحن فيه، والدليل على ذلك أن تراثنا يدور حول الجامع وهو مكان خير وبركة وبرهان فضله أنه مذكر، لكن الإفرنج حرفونا عن ذلك ويريدوننا أن نلتف حول الجامعة وهي مكان شر وفساد وبرهان فسادها أنها مؤنثة!!*

- *أننا نخاطب بعضنا البعض بألقاب فاضلة مثل الشيخ، الحاج، العالم، الفقيه وهلم جرا! ولكن الإفرنج حرفونا عن ذلك وجعلونا نتسابق للتسمي باسمي أحمق ذكرين هما الديك والثور فنقول: ديكتور!!*

***

جامعة كاليفورنيا يونيو ١٩٨٢م

ألقى السيد الصادق في هذه الجامعة محاضرة بعنوان: الإسلام والثورة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا [1]، قدمها بدعوة من مركز دراسات الشرق الأوسط ومركز الدراسات الأفريقية بجامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة في يونيو ١٩٨٢م.

في تلك المحاضرة نقض السيد الصادق الفكرة التي راجت لدى دارسين أمثال سيد حسين نصر أن الثورة تتناقض مع الإسلام، وأمثال المستشرق ريتشارد ميشيل الذي كتب عن مجتمع الأخوان المسلمين في الستينات وتوقع أن ينزوي الشعار الإسلامي في مصر وأن تسود القومية الناصرية، وكذلك توقعات خورشيد حيدر المماثلة في باكستان، وقطع بأنه لا يمكن الفصل بين الإسلام والسياسة بدون إفراغ الإسلام لأنه يهتم بحال المسلمين كما يهتم بأخراهم، وفي النهاية ناقش المهددات الفكرية التي تواجه الشعار الإسلامي ولخصها في التقليدية (ما سمي بالأصولية أو العودة لماضٍ معين وهو ما سماه لاحقا بالانكفاء)، والعلمانية (مؤكداً أنها تهدد عقيدة سلبية تجاه العالم بينما الإسلام إيجابي إزاءه)، والشيوعية (مؤكداً التلاقي معها في رفض الإمبريالية والاختلاف في الفكر المادي)، ومشكلة الأقليات (مؤكداً أن الإسلام يبيح التعددية وحقوق الأقليات في إطار الوحدة)، والطائفية التي اعتبرها مهدداً حقيقياً، مركزاً على الانقسام السني الشيعي، ومؤكداً وجود أسس للتلاقي بينهما في كتابات أمثال عباس العقاد بين السنة، وآراء د. علي شريعتي بين الشيعة والذي يركز على مركزية الأمة في مقابل الفقيه أو الإمام.

وهذه من أهم المحاضرات التي شرحت واقع العالم الإسلامي، داعية لفكر مستنير في استنهاض الإسلام ومواجهة تحديات ذلك البعث.

وواضح أن قراءته صدقها الواقع، فالمد الإسلامي ظل في ازدياد وليس انحسار وفقما تنبأ.

***

(١) Islam and Revolution in the Middle East and Northern Africa

جماعة الفكر والثقافة الإسلامية أكتوبر ١٩٨٢

كان السيد الصادق حينها ولا يزال مشغولاً بضرورة البعث الإسلامي، ومهموماً بضوابط له حتى يأتي مستجيباً لتحديات العصر، ومتخذاً سبيل الشورى والحرية، ومراعياً لظروف البلدان الإسلامية المختلفة.

فسعى مع آخرين من زملائه في الهم الإسلامي داخل السودان، لتكوين جماعة الفكر والثقافة الإسلامية لتنادي بهذه المعاني وتعمل لها ببلورة فكر إسلامي مستنير وعصري ومراعٍ لتحديات الشعوب.

وكان تحالفه مع جبهة الميثاق الإسلامي قد امتد نحو عقدين، يلتفون حول الشعار الإسلامي وتطبيقه على أرض الواقع السياسي السوداني. فتداولوا جميعا إضافة لمفكرين إسلاميين مستقلين أمثال الدكتور مدثر عبد الرحيم وكونوا جماعة الفكر والثقافة الإسلامية.

وفي أكتوبر ١٩٨٢م عقدت هذه الجماعة مؤتمرها الأول، وقد شارك فيه السيد الصادق بورقة حول (مستقبل الإسلام في السودان).

سرد السيد الصادق في الورقة تاريخ دخول الإسلام في السودان، ووصف خارطة الجماعات الإسلامية من طرق صوفية وكيان الأنصار وجماعات الأخوان المسلمين وأنصار السنة محللاً دورها ونقائصها، ثم سرد محاولات الاهتداء بالإسلام في السودان وقال:

(هذه المحاولات لم تثمر بعد واقعاً جديداً ولكنها ساهمت في بلورة الرأي العام عن مطلبي الإسلام والحرية وهما في الواقع مطلب واحد، لأن الحرية هي أوثق طريق للإسلام وأضمنه، وتطبيق الإسلام يكفل الحرية ويحميها. ولكيلا تفترق بنا السبل ينبغي أن نؤكد:

- *أن الوسائل الفوقية لا تجدي في تطبيق الإسلام.*
- *وأن الوسائل الانقلابية تأتي بنتائج عكسية.*
- *وأن طبيعة السودان والدرس المستفاد من تاريخه هو أن شعارات الإسلام وبرامجه ينبغي أن ترتفع على قواعد الشعبية والحرية).*

ونادي في النهاية ب: *(التزام المنابر الإسلامية كلها موقفاً محدداً ومرناً تمتنع بموجبه من التعامل مع أي جهة فكرية أو سياسية إلا اذا كان ذلك التعامل يخدم قضية الإسلام ويراعي الوسيلتين المختارتين للبعث الاسلامي: الشعبية والحرية)*.

توجس السيد الصادق هذا من جهة فكرية أو سياسية تضر الدين بفصمه عن الحرية والشعبية كان متصلاً بما جرى حينها في باكستان، حيث عين ضياء الحق في ذلك العام مجلس شورى (بلا صلاحيات للتشريع ولا يمثل الشعب) بادعاء أن مثل هذا المجلس هو الأقرب للإسلام.. وكان كذلك كمن يقرأ المستقبل القريب الآتي في السودان! إذ سرعان ما قام النميري بتبني الشعار الإسلامي بانتهازية قصوى، وسرعان ما أيدته جماعة جبهة الميثاق لأن التبني يعطيها مبرراً لتأييدها للنظام بلا مبرر.

ولا أنسى أن السيد الصادق وصف موقفهم ذلك بقوله «الما عندها تيلة، تسوي الحد حيلة» والتيلة عقد تلبسه النساء، والمثل يصف حال تلك التي تبرر عدم تزينها بأنها في حالة حداد على ميت، بينما هي في الحقيقة لا تملك تيلة تتزين بها أصلاً!

نحن سنأتي على تلك التجربة فدعونا لا نسبق الأحداث، المهم إن هذه الجماعة قد تكونت بأهداف واضحة، ولكن يبدو أن التعثر كان لها بالمرصاد، وفي أول الطريق.

نشاط الهيئة ومصادرة بيت المهدي ١٩٨٢

تحدثنا عن تكوين هيئة شئون الأنصار منذ ١٩٧٩م ببناء تأسيسي جديد، ورصدنا مجهودات الهيئة التنظيمية والدعوية، وعبرها أمكن تنظيم معسكرات دعوية كل عام بدءاً من العام ١٩٧٩. وقد روى لي الحبيب الدكتور دفع الله محمد عبد الله أنه شارك في ثالث معسكر منها في الفترة ١-١٥ مايو ١٩٨٢م والذي نظمته الهيئة، وكان بقبة الإمام المهدي التي تمت إعادتها للأنصار بعد العودة في ١٩٧٨م. وقال إن المعسكرات جرت في ذلك العام في عدد من المناطق في ذات الآن وهي إضافة للقبة أو بيت المهدي: الجزيرة أبا، قرية الخضر بغرب الجزيرة، والقضارف.

وأذكر أنه وغيره من الطلاب الأنصار كانوا كثيراً ما يترددون على منزلنا، فتعرفت على بعضهم منهم الحبيب دفع الله والحبيبة زينب أحمد صالح وغيرهما. وكانت علاقتهم

الأقوى كما روى دفع الله مع المرحومة أمي سارا إذ كانوا يتخذونها معبراً لمخاطبة الحبيب، فإذا أرادوه في محاضرة أو لقاء هيأت لهم ذلك. وقال إنه كان كثيراً ما يحاضرهم في القضايا المختلفة، وفي مرحلة معينة نظم لقاء أسبوعياً بهم كل ثلاثاء. وفي ذلك اللقاء كان يناقش معهم إصداراته الجديدة ويحثهم على نقد رؤاه ومده بالحجج التي يعتقدونها أقوى مما جاء به، والشواهد القرآنية ومن الحديث النبوي التي تبدو برأيهم أقوى مما استشهد به.

وبعد المعسكر الثالث للطلاب، ومع تزايد نبرة الانتقاد للنظام، برم النميري بنشاط الأنصار في القبة وقامت السلطات بمصادرة مجمع بيت المهدي في ٧/ ١١/ ١٩٨٢م وتسليمه للسيد أحمد المهدي.

السيد غراهام توماس يروي قصة أدت للمصادرة شبيهة بما حدث لاحقا عام ١٩٩٧م في عهد (الإنقاذ) بعد خروج السيد الصادق في (تهتدون)..

قال السيد غراهام والذي كان يعمل على سيرة ذاتية مصورة للإمام عبد الرحمن المهدي: (كان السيد أحمد عبد الرحمن، والذي يمتلك معظم الصور الفوتغرافية المطلوبة، على علاقة غير حسنة مع ابن أخيه الصادق المهدي، زعيم المعارضة السودانية، بل كانت علاقاتهما متوترة جداً، إلى درجة أنه حدث يوم الجمعة الماضي أن رفض الأنصار استقبال أحمد هذا وطردوه من القبة عندما حاول أن يقوم بإمامة الصلاة، يومذاك ارتفع بين الأنصار المتواجدين صوت يقول لقد جئنا لنستمع إلى سليل المهدي وهذه إهانة بالغة لحفيد المهدي. كان الصادق وهو أحد أحفاد المهدي عندما سمع أن أحمد في القبة ترك المكان بكل تعقل وأم الصلاة في جامع ودنوباوي، وقد هجر المؤمنون المتمسكون بدينهم، أفواجاً وبالمئات الموقع، تاركين أحمد مع نفر لا يتجاوز عشرين شخصاً. بعد بضعة أيام من ذلك أرسل نميري ١٢ جندياً وشرطياً في الساعة ١:٣٠ صباحاً لاحتلال مكاتب الأنصار في منزل المهدي المجاور للقبة كتصرف منه لاستفزاز الصادق)[١].

يوافق هذا يوم الأحد ٧ نوفمبر. وفي يوم الجمعة ١٢ نوفمبر ١٩٨٢م صلى السيد

(١) نفسه

الصادق المهدي في مسجد الهجرة بودنوباوي وتحدث في الخطبة عن نيته عقد ١٢ حلقة لدروس حول السيرة النبوية في ضوء جديد، وبعدها ستين حلقة حول تفسير جديد لكتاب الله، وذكر الأسباب التي تدعو لذلك، وتحدث عن تاريخ الأنصار وتصديهم للعمل الدعوي حتى مع التضييق، وعن إنشاء هيئة شئون الأنصار وعملها متطرقاً للتضييق الأخير.

قال السيد الصادق:

(شجعنا على تكوين الهيئة ما وجدناه من دلائل متكررة وفي كل مجال لمبادرات الأنصار الذاتية، فالأنصار عندما وجدوا أنفسهم في محنة لم يحتاروا بل باشروا نشاطهم في كل موقع فصانوا وحفظوا بيت الإمام المهدي وصانوا مسجد الإمام المهدي وصانوا وحفظوا مسجد الهجرة بل شيدوا الخلاوى وأحيوا نار القرآن، كذلك فعلوا في جامع الكون بالجزيرة أبا وكذلك فعلوا في أقاليم السودان المختلفة، فشيدوا المساجد وحفظوا أنفسهم دون توجيه مركزي. هذا الوعي الأنصاري كان خيراً وبركة عليهم. وتكوين الهيئة اشتمل على الاعتراف بروح المبادرة والمبادأة في الأنصار وقام بتنظيم جهدهم الذاتي المادي والمعنوي.

وسار هذا العمل ناجحاً متوسعاً ثلاثة أعوام.

وعندما عدت أخيراً من الخارج زارني النائب الأول لرئيس الجمهورية مهنئاً بسلامة العودة. فأوضحت له وجوه نشاطنا في مجال الأنصار، وذكرت له اهتمامنا بالبناء الذاتي للأنصار الروحي والثقافي والاقتصادي، وذكرت له أن ما نزمع إقامته من أنشطة كالمعاهد والمدارس والشركات والجمعيات التعاونية والبنوك ودار النشر تحتاج لترخيص من الحكومة، ولا نطالب بأكثر من حقنا كمواطنين فأرجو أن تصدق بها الحكومة إذا استحقت، فوعد خيراً.

ثم قابلته مرة ثانية رداً لزيارته ولبحث مشكلة طرأت هي مشكلة الحرب بين الرزيقات والمسيرية، وصحبني في المقابلة اثنين من زعماء القبيلتين للاطمئنان على الإجراءات المتخذة لتطويق الحرب واقتراح وسائل ناجعة لتحقيق السلام.

كان اللقاء الثاني يوم الاثنين أول نوفمبر ١٩٨٢م، وقبل وداعنا له قال لي إنه سوف

يرد على مطالبنا يوم الأحد القادم وأن الرد المتوقع إيجابي.

وقبل أن يصل الرد بل وفي يوم الأحد نفسه ١١/٧ احتلت سلطات الأمن مكاتب الأنصار بالقبة).

وفي نهاية خطبته أكد السيد الصادق أن نشاط الأنصار سوف يستمر وخير المسئولين بين أمرين: *(أن يردوا الحق أو أن يوضحوا لنا أن من لا يؤيد الحكومة فلا مكان له في السودان ولا يسمح له بأي نشاط مهما كان مقيداً بلوائح وضوابط).*

ولاحقاً عقد النظام مهرجانا لمبايعة السيد أحمد المهدي إماما للأنصار، مع أن الأنصار كلهم كما سبق وذكرنا كانوا ينتظرون إثبات حقيقة مصير الإمام الهادي رسمياً، ومن ثم تشييعه ومواراته بالقبة مع بقية الأئمة قبل اختيار الإمام الجديد.

قال السيد غراهام إن الأنصار عرضوا على السيد الصادق الإمامة ورفضها (مستشعراً أن انتخاب زعيم روحي لأتباع المهدي يجب ان يكون أساسه صفات ذلك الرجل وقدراته أكثر من ارتباطاته الأسرية وموقعه العائلي)[١].

وهذا صحيح جداً، فالصادق ظل يؤكد أن الإمام لا يشترط أن يكون من آل المهدي، ولكن الحاسم في صد أي حديث عن اختيار إمام جديد حينها كان أن مصير الإمام الهادي لا تزال تحيط به الشكوك، وكان البعض يؤكد وجوده حياً بل ويتحدث عن لقائه في بعض الأماكن بالجزيرة العربية وغيرها.. إذا لم يتأكد الأنصار من استشهاد إمامهم ويصلوا عليه ويواروا فلا تنصيب لإمام جديد.

ولكن البيعة الأحمدية خططها جهاز أمن الدولة يومها، وقد فضح عميد الأمن السابق حسن بيومي في كتابه (جهاز أمن الدولة: أسرار جهاز الأسرار) تخطيطهم مع السيد أحمد للنيل من كيان الأنصار، بل وبرمهم من ضآلة مردود تلك المخططات ومن وعود صاحبهم السراب[٢].

***

(١) توماس، سابق ص٢١٣

(٢) حسن بيومي، جهاز أمن الدولة: أسرار جهاز الأسرار

محاضرة في إسلام أباد ١٩٨٣

لقد تطرقنا إلى رحلة السيد الصادق من لندن إلى إسلام أباد في الجزء الأول من هذا الكتاب (بينج ماريال). وكان قد شارك في لندن بإلقاء محاضرة على اتحاد طلاب جامعة أوكسفرد أثارت ذكرياته عن الدراسة في اوكسفورد فكتب بطلب من السيد فؤاد مطر ورقته (ثلاث سنوات في خمسينيات القرن العشرين) واستغل رحلة الطائرة من لندن إلى إسلام أباد في يوم ١٣ مارس ١٩٨٣م لكتابة تلكم المذكرات.

وفي إسلام أباد التي كانت تتجه نحو استغلال الإسلام لتثبيت حكم الجنرال ضياء الحق، قدم السيد الصادق محاضرة بعنوان: المنهج الإسلامي للتنمية Development: the Islamic Approach، وذلك في يوم ٢٠ مارس ١٩٨٣م، وقد طبعت المحاضرة في شكل كتيب لاحقاً. عرف السيد الصادق في المحاضرة بالتنمية في الفكر العلماني (الرأسمالي والماركسي)، وناقش الإسلام والتنمية، والتنمية في العالم الثالث الآن، وما يقتضيه النهج الإسلامي.

ومن باكستان عاد السيد الصادق إلى السودان، ظل هناك حتى أغسطس حينما توجه إلى بريطانيا التي بقي فيها نحو شهر وعاد في سبتمبر ١٩٨٣م إلى السودان من جديد[1]. في وقتٍ ما بعد يوم ٨ سبتمبر لأنه حضر إعلان قوانين سبتمبر في بريطانيا ثم عاد للسودان، وعارضها وكان ما كان.

لقد عاد السيد الصادق من باكستان وهو مشفق من إجراءات الأسلمة التي اتخذها الجنرال ضياء الحق بدون أن تكون مصحوبة بالحرية والشورى اللتين يعتبرهما من فرائض الإسلام السياسية.

فقد عبر لاحقاً كيف أنه حينما وجد ذلك الاتجاه الضيائي فكر في الكتابة حول أسس التشريع الإسلامي، حتى دهمت التجربة في السودان.

وكان ضياء الحق منذ انقلابه في ١٩٧٧م قد خاطب العواطف الإسلامية لدى الشعب قائلاً (إن الإسلام ألهم المعارضة وأثبت أن باكستان ستبقى ما بقيت متمسكة

(١) توماس، سابق ص ٢١٢

بالإسلام وهذا ما جعلني أعتبر أن تطبيق النظام الإسلامي أمر ضروري للبلاد)، واتخذ العديد من الإجراءات كان آخرها قبل زيارة السيد الصادق لباكستان، ففي عام ١٩٨٢ عين مجلس شورى (بلا صلاحيات للتشريع ولا يمثل الشعب) بادعاء أن مثل هذا المجلس هو الأقرب للإسلام. وبالطبع فإنه لاحقاً وفي ١٩٨٤م أجرى استفتاء على الرئاسة قارناً بين التصويت له بلا أو نعم وبين التصويت للشريعة الإسلامية[1].

نقض السلام وتفجر الحرب مايو ١٩٨٣م

قال السيد الصادق:

(اتفاقية سلام أديس أبابا كانت الإنجاز الوحيد للنظام المايوي، أدت للسلام وقام الحكم الذاتي الإقليمي في الجنوب ومنذ بداية الأمر بدأت تظهر عيوب فيها أهمها:

- *أن الاتفاق كان مع نظام مطعون في شرعيته وفي غياب كلمة الشعب السوداني الحر مما يفتح الباب لنقضه فالشعب هو الضامن الوحيد.*
- *النظام الجديد يقتضي أن يترك الحكم الذاتي الإقليمي يمارس صلاحياته بحرية ولكن الديكتاتورية لا تعرف عضوياً توزيع الصلاحيات لأنها تقوم على وحدانية صاحب أو أصحاب السلطة فكان رئيس الجمهورية يتدخل في شئون الإقليم باستمرار.*
- *أهمل الجانب الاقتصادي في الجنوب وكذلك الجانب المالي.*
- *عدم استيعاب (أنيانيا) بالكامل في القوات النظامية والمدنية كما وعدت.*
- *نكران حق الجنوبيين في المشاركة في السلطة المركزية إلا وفقا لتقديرات النميري.*

ولهذا فإنه قد تتالت المحطات التي خرقت فيها الاتفاقية كالغبن حول عملية الإدماج التي أدت لتكوين أنيانيا الثانية في ١٩٧٥، وتكرار التدخل في شئون الحكم الذاتي، حتى انتهى بقرار تقسيم الجنوب بشكل ينافي الاتفاقية عام١٩٨٣ م.

قبل ذلك مباشرة وفي عام ١٩٨٢ م قام حلف عدن الثلاثي بين ليبيا واليمن وأثيوبيا

(١) د عبد الرحمن الغالي تجارب تطيق الشريعة في آسيا الوسطى، ورقة مساعدة بحثية غير منشورة.

برعاية المعسكر الشرقي وهو مضاد لاتفاقية الدفاع المشترك بين مصر والسودان برعاية أمريكية. هذه الخروقات أدت لتمرد الكتيبة ١٠٥ والتي لجأت لأثيوبيا وكونت في ١٦ مايو ١٩٨٣م الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة المرحوم دكتور جون قرنق وبدعم من حلف عدن.

هذا التمرد عرقل العمل في قناة جونقلي، وعملية استخراج البترول، وهدد الملاحة النهرية بين الشمال والجنوب وكان من أهم أسباب زيادة التذمر الشعبي والعزلة السياسية للنظام)(١).

وقال:

(وبينما لم يزد مقاتلي الأنيانيا الذين وقعوا اتفاقية أديس أبابا عن ثلاثة آلاف مقاتل ولم يستطيعوا الإيقاع بحامية أو مدينة فإن الحرب الجديدة التي دخل فيها النظام استطاعت الحركة حشد مقاتلين بعشرات الآلاف بتدريب وتسليح متقدم. واحتلوا منذ البداية مدنا وحاميات عسكرية، وعطلوا مشاريع التنمية وقطعوا الطرق البرية، والسكك الحديدية، والنقل الجوي،ومنحهم التعامل الأحمق والانحياز السافر الذي تورط فيه نميري حلفاء إقليميين ودوليين سافرين.

صحيح استفاد نميري من تحضيرات النظام الديمقراطي الذي سبق وأبرم اتفاقيات سلام ولكنه اتبع سياسات زودت التراكم الخبيث بين الشمال والجنوب بعوامل أعطت الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب بعدا أيديولوجيا ودوليا غيّر موازين القوى:

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه!) (٢)

إذن وبحلول مايو ١٩٨٣م، كان النظام قد شد حبال القهر ونقض العهود شمالاً وجنوباً. أما في الشمال فقد مزّق أسس المصالحة الوطنية التي تلكأ في إعلانها ثم مضى عكس اتجاهها إلى أن وصل به الأمر إلى مواجهة مكشوفة مع القوى الأساسية في المصالحة في نوفمبر ١٩٨٢م فصادر بيت المهدي من جديد لعرقلة أو وقف نشاط

(١) من كتاب ميزان المصير الوطني في السودان

(٢) نفسه

الأنصار.

أما في الجنوب فقد نقض الدستور وتدخل بتقسيم الإقليم وغيرها من السياسات التي أججت حرباً ضروس لم تضع أوزارها إلا في منتصف العقد الأول من الألفية الجديدة، وأدت في النهاية إلى تقسيم البلاد بانفصال الجنوب. كما تناسلت عنها حروباً أخرى إما بالتقليد في دارفور أو بالتمديد في جنوب كردفان والنيل الأزرق، ولا زالت تنذر بويل وثبور.

السيد الصادق كان حتى وقتها وكما رأينا في خطبة الجمعة في نوفمبر ١٩٨٢م يحاول الحفاظ على الهامش الذي أتيح، ويعارض الاتجاهات الجديدة بتقليصه أو سحبه.. لكنما الأيام القادمة سوف تصل بالأمور إلى مرحلة مواجهة أشد، حيث سيعلن النميري قوانين شائهة يسميها الشريعة الإسلامية، ويعارضها السيد الصادق ومن معه بقوة، فيعود مرتادو السجون إليها!

وكانت عبارة محفوظة لأحد عسس السجن الأسود ببورتسودان تفيد هذا المعنى. إذ يروى أنه في إحدى إحالات السيد الصادق للسجن وكان ذلك في وقت متأخر من الليل، خرج الحارس منزعجاً من الجلبة في وقت سكون، فلما رأى العسكر يحضرون السيد الصادق، علق مطمئناً لأنه لا جديد، وكان من بعض أهلنا ذوي العجمة: (آاا، دة مرددين بتاع سجون!)

الفصل السابع

الشريعة (البطّالة)

ذكرنا أن السيد الصادق أشار لفشل المصالحة في أكتوبر ١٩٧٨م في ندوة جامعة أم درمان الإسلامية، ولكنه وغيره من قادة الحزب والكيان ظلوا بالبلاد مستفيدين من هامش الحرية الذي حققته المصالحة لمعارضة النظام من الداخل، وشهدنا كيف برم النظام بتلك المعارضة فقام بمصادرة بيت المهدي في نوفمبر ١٩٨٢م وسلمه للسيد أحمد المهدي. ثم تدخل بنقض أسس اتفاقية سلام عام ١٩٧٢م فتفجرت حرب الحركة الشعبية لتحرير السودان في مايو ١٩٨٣م.

وسنرى في هذا الفصل أن معارضة حزب الأمة للنظام المايوي قد بلغت أوجها إثر إعلانه لقوانين سبتمبر ١٩٨٣م، تلك التي سماها النظام وأعوانه بقوانين الشريعة الإسلامية، ولكن رئيس النظام فضح مقاصده حينما قال (سنحكم بالإسلام البطال)! فلم تكن شريعة إسلامية ولكنها كانت (شريعة بطالة) بالفعل.

لقد اعتبر الحزب أن النظام سن تلك القوانين للعودة لمربع القهر والعنف السياسي ولكن هذه المرة باسم الدين، ففيها معنيان غموسان يغمسانها في الملعونات الوطنية والدينية: المعنى الأول مصادرة الحريات والانتكاس عن الهامش الجزئي الذي حققته المصالحة الوطنية، والثاني تشويه الدين واستخدامه عصا للجلاد.

ولهذا، وبرغم التيار العاطفي الذي سارع لمؤازرة التجربة الباكستانية تحت قيادة الجنرال ضياء الحق في ثمانيات القرن العشرين، وتعجل لتأييد التجربة النميرية، فقد برز صوت آخر يحذر من تلك التجارب ويؤكد على ضرورة عدم حساب سلبياتها على الحركة الإسلامية المعاصرة. وكان الصادق من بين أعلى هذه الأصوات التي صدعت بضرر الشعار السبتمبري وطنياً ودينياً.

وسوف نرصد هنا تسلسل الأحداث التي أدت إلى قوانين سبتمبر رجوعاً لأوراق

السيد الصادق في المقام الأول، ملخصين أهم التشريعات والإجراءات التي رافقتها، راجعين في المقام الأول لكتاب حرره في ذلك الوقت بعنوان (النظام السوداني وتجربته الإسلامية) كتبه من داخل السجن وتم تهريبه للمكتب في لندن حيث أشرفت الحبيبة سارا وطاقمها على طباعته وتوزيعه ضمن مطبوعات (الحركة الإسلامية السودانية).

وقد نقلنا عن ذلك الكتاب هنا بشكل تلخيصي، فهذا الفصل في سرده لخلفية القوانين وتشريعاتها وإجراءاتها إنما هو في غالبه تلخيص لذلك السفر.

إرهاصات سبتمبر

جاء في كتاب النظام السوداني وتجربته الإسلامية:

(في عام ١٩٨٢م، وبعد آخر انتفاضة شعبية وقعت في يناير ١٩٨٢ أصدر النظام قانوناً قمعياً جائراً سماه قانون الطمأنينة، إضافة إلى قانون أمن الدولة، لتقوية القبضة القانونية على الشعب. وقانون الطمأنينة هذا شبيه بقانون العيب الذي استنه الرئيس المصري أنور السادات. وهو قانون فضفاض ويمكن في نظره أن يكون أي عمل مهما كان بريئاً جريمة تستحق العقاب. ولكن رغم التعديلات الدستورية المتشددة والقوانين القمعية فان تطبيق القوانين بواسطة الهيئة القضائية يضعف من قبضة النظام على الشعب، خاصة إذا كانت الهيئة القضائية تؤثر عليها مفاهيم العدالة وكرامة المواطنين.

وبدا للنظام أن الهيئة القضائية تشكل عائقاً في سبيل فرض استحكاماته الأمنية خاصة بعد أن دخلت معه في نزاع مطلبي خرجت منه منتصرة في عام ١٩٨١م. وكان من بين قضاة الهيئة القضائية السودانية لجنة نظمت مواجهة النظام في النزاع المطلبي المذكور. وعرفت تلك اللجنة باسم لجنة دار القضاة لأنها كلفت بالإشراف على تأسيس دار للقضاة. ووضع القضاة بقيادة اللجنة دستوراً للدار نص على أن من واجب القضاة المحافظة على استقلال القضاء وحماية حريات المواطنين. وكان في ذلك جسارة لا يمكن أن يسكت عليها نظام يريد أن يسخر كل أجهزة الدولة وعلى رأسها القضاء لبسط سلطاته وإسكات معارضيه لذلك لم يكن مستغرباً أن يدخل النظام في مواجهة أخرى مع الهيئة القضائية.

بدأت المواجهة في يونيو ١٩٨٢م عندما هاجم رئيس الجمهورية في خطاب علني

القضاة وحملهم مسئولية تعطيل مصالح الناس وعدم الفصل في القضايا والانغماس في الشهوات. وأعلن أنه سوف يصلح هذا الفساد وأول خطوة نحو الإصلاح طرد ٤٢ قاضياً من الخدمة، سيُلحِق بهم آخرين حتى يطهر صفوف الهيئة القضائية. كان من بين هؤلاء القضاة المطرودين ٢٥ قاضياً حامت حولهم شبهات. ولكن البقية وهم ١٧ قاضياً كانوا هم أعضاء لجنة دار القضاة المقصودين أصلاً بالطرد. لم تمتثل الهيئة القضائية لهذه الإساءة ولا للطرد وواجه القضاة النظام موحدين فأضربوا عن العمل ثم قدموا استقالات جماعية وصمدوا على موقفهم لمدة ثلاثة شهور.

حاول النظام الانقضاض على القضاة كما فعل بنقابة السكة حديد، وأعلن عن قبول الاستقالات وفتح الباب لتوظيف قضاة من أرباب المعاشات من «أفاضل الناس» للحلول محل القضاة المستقيلين. هذه الخطة فشلت فلم تضعف عزم القضاة ولم يتقدم أرباب المعاشات للحلول محلهم. ووقف الرأي العام السوداني مع القضاة وأيدتهم القوى السياسية ودعمتهم نقابة المحامين أدبياً ومادياً.

حاول النظام استجلاب قضاة مصريين للسودان، فوقفت الهيئة القضائية المصرية ضد ذلك وانتشر أمر القضاء السوداني، وصار لموقف القضاة إعلام قوي داخل السودان خارجه، وعقدوا ندوات مفتوحة ومستمرة في دار نقابة المحامين، فأقبل القانونيون السودانيون عليها، وأقبل معهم جماعات من المواطنين. هكذا تكونت نواة نشاط متزايد، ومع ظهور احتمالات الإضراب السياسي قرر النظام أن يتراجع ولكن لكيلا يظهره التراجع بمظهر الضعف فتتحرك ضده النقابات الأخرى قرر النظام أن يغطي تراجعه بافتعال موقف هجومي.

أما التراجع فقد اختار النظام وسيلته بتعيين لجنة للنظر في مطالب القضاة على رأسها أحد القضاة الكبار المعروفين بتأييده للمطالب. فأوكل النظام للجنة مهمة النظر في المطالب لتضع توصياتها فيقبلها، ويكون بذلك قد وضع حداً للمواجهة مع الهيئة القضائية.

أما التحرك الهجومي الذي يغطي التراجع فقد كانت وسيلته كالآتي: كان رئيس الجمهورية قد التقى بالقانوني الأستاذ النيل عبد القادر أبو قرون ذي التوجه الإسلامي

بدون ارتباط بأي تنظيم، فأرسل في طلبه وكلفه بوضع تشريعات إسلامية وإصلاحات قانونية ليصدرها رئيس الجمهورية بأوامر مؤقتة، معلناً بذلك «ثورة قضائية» لتحقيق العدالة الناجزة، ومعلناً تطبيق الشريعة الإسلامية ومتخذاً من التطبيق الإسلامي والعدالة الناجزة منبراً لمحاربة الفساد)[1].

شريعة أبو قرون وعوض الجيد وبدرية

عكف السيد النيل عبد القادر أبو قرون على مهمته العاجلة وطلب الاستعانة بصديق له وصفه بأنه أقدر منه على هذه المهمة هو السيد عوض الجيد محمد أحمد، فسمح له بالاستعانة به، كما أضيفت لهما الأستاذة بدرية سليمان مخيطة قوانين الطغاة الشهيرة. فأعدوا القوانين اللازمة ووضعوا ما اعتبروه خطة لتطبيق الشريعة الإسلامية. وأبلغوا رئيس الجمهورية بما أنجزوا ووضع توقيتاً مناسباً لإعلان قبول توصيات لجنة القضاة، وإعلان الثورة القانونية الجديدة التي ستغطي تراجعه أمام القضاة وتضعه في موقف المبادرة والهجوم.

يقول السيد الصادق:

(هذه القرارات التي أعلن عنها في ٨ سبتمبر ١٩٨٣م باسم (الثورة التشريعية) فاجأت السودانيين جميعا بل فاجأت أعوان النظام أنفسهم، ومنهم قادة جبهة الميثاق الإسلامي (الجبهة الإسلامية القومية، ثم المؤتمر الوطني لاحقاً) والذين كانوا يشاركونه الحكم ولم يستشرهم في الأمر بالمرة. ورغم هذه الحقيقة حاولت أجهزة الإعلام أن تدعي أن ما حدث كان متوقعاً وكامناً في وثائق النظام وسياساته المعلنة ولم يكن وليد لحظاته وظروفه.

هذا مع أن جعفر النميري نشر باسمه كتابين الأول سماه النهج الإسلامي لماذا؟ (١٩٨١) والثاني سماه النهج الإسلامي كيف؟ (١٩٨٢). وفي الكتابين يتحدث عن الإسلام كتراث والإسلام كتربية والإسلام كقدوة حسنة ولا يتناول الإسلام كشريعة وأساس للقانون بل يعتبر ذلك من مسئوليات الأجيال القادمة.

لقد كان التوجه الجديد مفاجئاً لأنه يتعارض مع الدستور الدائم الذي وضعه النظام

---

(١) النظام السوداني وتجربته الإسلامية، بتلخيص وتصرف

والدلائل على ذلك متعددة منها:

أولا: الدستور يذكر الإسلام في المادة ٩ وتنص المادة على أن الشريعة الإسلامية والعرف مصدران رئيسيان للتشريع. فهنا مساواة بين الشريعة والعرف وهما لا يجبان المصادر الأخرى.

ثانيا: الدستور يذكر الإسلام في المادة ١٦ وهذه المادة تجعل السودان قطر ثلاثي الديانة: الإسلام، والمسيحية، وكريم المعتقدات. وتلزم المادة ١٦ الدولة بالتعبير عن قيم هذه الأديان.

وكان التوجه مفاجئاً لأنه لا ينسجم مع وثيقة النظام السياسية الأساسية (ميثاق العمل الوطني)، والنبرة الأساسية في الميثاق أنه اشتراكي ووطني ولا ذكر للإسلام إلا باعتباره تراثاً روحياً: (إن الثورة الاشتراكية الوطنية سوف تحرر المجتمع وتحقق تقدما روحياً وفكرياً ومادياً)[١]. وتحليل الميثاق للأوضاع السياسية والاقتصادية تحليل ماركسي إذ جاء فيه: (ولم تكن الحرية ذات يوم من الأيام ومن الناحية العملية ذات مفهوم مجرد..فقد ارتبط مفهومها في كل العهود بمصالح القوى الاجتماعية السائدة)[٢]. و(إن صورة المجتمع -أي مجتمع- إنما يشكلها في الأساس نمط الإنتاج الاقتصادي). وأهم حدث إسلامي في تاريخ السودان (الثورة المهدية) يعتبرها الميثاق حدثاً وطنياً وحسب.

إن دستور السودان لسنة ١٩٧٣م والذي سنت تحت مظلته قوانين سبتمبر، وميثاق العمل الوطني، والاتحاد الاشتراكي هي مؤسسات ووثائق النظام السوداني الحاكم الأساسية وواضح أنها قليلة الصلة بالإسلام..

التردد بعد الإعلان:

لم يدرس النظام آثار التشريعات الإسلامية على الجنوب، ولا على كيانه الداخلي، ولا على علاقاته الخارجية. فوجد نفسه بعد إعلان القوانين الإسلامية يواجه نقداً شديداً من ثلاث جهات هي: أعوانه في الداخل وأصدقاؤه في الخارج، وقاعدة الحركة الإسلامية

(١) (ميثاق العمل الوطني ص ٧).

(٢) (الميثاق ص ٢٨)

السودانية الأساسية التي استنكرت استغلال الشعار الإسلامي في المناورات السياسية، وانتقدت التطبيق المجزأ لأحكام الإسلام. وكان أوضح موقف لهؤلاء ما اتخذناه في خطبة عيد الأضحى الذي صادف بعد أيام من إعلان القوانين (في ١٨/٩/١٩٨٣م) فاعتقل النظام طائفة منا في ٢٥ سبتمبر ١٩٨٣م. كذلك عارض القوانين اللبراليون والعلمانيون واليساريون السودانيون المعارضون أصلاً لتطبيق الأحكام الإسلامية. واعتقل النظام الأستاذ محمود محمد طه وعدد من الأخوان الجمهوريين إثر بيان عارضوا فيه التطبيقات الإسلامية في العصر الراهن.

قرر النظام التراجع عن التشريعات وظهر التراجع في حادثتين:

أولا: خطاب رئيس الجمهورية في عيد الاستقلال في ٣١/١٢/١٩٨٣م وكان متوقعاً أن يعلن عن التعديلات الأساسية التي سيدخلها تمشياً مع الاتجاه الإسلامي ولكنه صرف النظر عن أية تعديلات قائلاً: « النهج الإسلامي في السودان لن يكون على حساب الدستور روحه ونصوصه. فما تعارض الدستور معه وإنما أعان الدستور على تقدمه» .. «النهج الإسلامي لن يكون على حساب التنظيم السياسي الواحد الاتحاد الاشتراكي العظيم بمواثيقه ورموزه ومؤتمراته ومنظماته».

ثانياً: قرارات اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي السوداني في فبراير ١٩٨٤م حول الخط السياسي للفترة المقبلة وقد تحاشت فيها الإشارة للخط الإسلامي.

التراجع عن التراجع:

في بداية ١٩٨٤م التفت الأزمات حول النظام إثر تذبذبه، إضافة للحركة المطلبية التي انتقلت بعد القضاء للأطباء ثم للمحاسبين والصيارفة والمهندسين وغيرهم.

فراجع النظام موقفه بمواصلة الخط الإسلاموي بنفس الأسلوب الفوقي. فأصدر قانون المعاملات المدنية بأوامر مؤقتة في فبراير ١٩٨٤م، وأصدر قانون ديوان الزكاة والضرائب في مارس ١٩٨٤ بأمر مؤقت.

هذه القوانين صدرت من رئاسة الجمهورية بدون مناقشة مجلس الشعب لها (بالرغم من أنه كان مجلساً باصماً). ورغم كثرة القوانين الجديدة لكنها لم تقنع الرأي

العام السوداني بجدية النظام بل طغت عليها الأزمات الداخلية. وكان أقواها في مارس ١٩٨٤م أزمة إضراب الأطباء الذي استمر لمدة ثمانية أيام ثم قدم الأطباء السودانيون استقالات جماعية في ٢٤ مارس ١٩٨٤. وخوفاً من إعلان السودان منطقة موبوءة من قبل منظمة الصحة العالمية قرر النظام قمع الأطباء واعتقل لجنة الأطباء وعدداً من الأطباء القياديين. وتأزم الموقف، وأيدت القوي السياسية الأطباء وأيدتهم عدد من النقابات المهنية، وبدا أن موقف الأطباء سيكون شرارة للإضراب السياسي العام. وبدأت مواجهة بين النظام ونقابة المهندسين وكانت هنالك مواجهة بينه ونقابة المحاسبين والصيارفة استمرت مدة طويلة وانتهت إلى إضراب نقابة المحاسبين والصيارفة في يوم ٢٣ أبريل ١٩٨٤م، وهي نقابة كبيرة عضويتها ١٤ ألف شخصاً. وقبل ذلك مباشرة تنازل النظام تنازلات أدت لعودة الأطباء للعمل.

في أواخر أبريل ١٩٨٤ كانت أزمة النظام معقدة ومكونة من حركات إضراب مطلبية لها صبغات سياسية، وحركة ثورة في الجنوب أدى إليها تردي الأوضاع الاقتصادية وخرق النظام لاتفاقية السلام بإقدامه على تقسيم الإقليم الجنوبي بالأمر الجمهوري، وزاد من حدتها اندفاع النظام في إصدار قوانين سبتمبر دون مراعاة حقوق الأقليات غير المسلمة. وتقدم عدد من المواطنين للطعن أمام المحاكم في دستورية هذه القوانين.

حاول النظام معالجة هذه المشاكل بوسائل سياسية وإدارية بتعطيل النظر في القضايا الدستورية. وأعلن عن تكوين لجنة لمراجعة الأجور والمرتبات لمواكبة ظروف المعيشة كان المقصود منها التسكين فقط لأنها كلفت بمراجعة هيكل الأجور واقتراح مصادر الإيرادات اللازمة لتمويل الصرف الجديد ولم تكن هناك مصادر إيرادات جديدة. وأخيرا ولعدم جدوى هذه الإجراءات أعلن النظام حالة الطوارئ في السودان في يوم ٢٩ أبريل ١٩٨٤م للخروج من مآزقه المتعددة. ولفرض نظام إيجازي استثنائي على القضاء بواسطة محاكم الطوارئ فتساعد على ترويع لمواطنين وتخدم أغراض النظام الأمنية.

ولكيلا تظهر إجراءات الطوارئ على حقيقتها ألبسها النظام لباس الجدية في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ولباس التصدي للفساد الإداري والمالي والخلقي الذي تردت فيه البلاد خمسة عشر عاماً (هي عمر النظام حتى وقتها) دون حسيب أو رقيب،

وفي خطاب شفوي سمى إجراءات الطوارئ بالشريعة (البطالة)!!

كل هذه الإجراءات كانت لتثبيت حكم النظام وإعطائه قدسية في قهر المواطنين والتنكيل بهم:

❖ أعلن النظام السوداني أحكاما إسلامية في قانون العقوبات بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٨٣م وبعد شهرين اجتمع رئيس الجمهورية بقادة قيادات القوات المسلحة السودانية في نوفمبر ١٩٨٣ وقال لهم بإعلان تلك الأحكام صار الحاكم حاكماً بأمر الله، وصارت طاعته من طاعة الله، ومخالفته في أي أمر مهما كان صغيراً مخالفة لله.

❖ بعد الفراغ من إصدار القوانين والأحكام الإسلاموية وبعد أسبوعين من إعلان حالة الطوارئ أخذ رئيس الجمهورية البيعة لنفسه إماماً للمسلمين. بيعة لم يسبقها تمهيد ولا شورى بل فرضت على الحاضرين في قرية أبي قرون عندما ذهبوا لإحياء ليلة النصف من شعبان ١٤٠٤هـ الموافق ١٧ مايو ١٩٨٤م. ومنذ أن أخذ رئيس الجمهورية لنفسه البيعة بالأمر الواقع وبالإكراه اشتد انفراده بالسلطة وتحويل جميع معاونيه إلى مشاهدين لا يعرفون من خططه ونواياه شيئاً ولا يجرؤ أحدهم أن يسأله. بل صار يعتقد أنه وصل مرتبة الاجتهاد فيطالع المصادر ويقرر في أهم الأمور لا يساهم معه الآخرون إلا بالصياغة الفنية والتنفيذ.

❖ وبعد أن فرضت البيعة على تجمعات مختارة من عمال ومزارعين وقوات مسلحة وغيرهم وفي قمة ظروف الطوارئ أرسل رئيس الجمهورية لمجلس الشعب في العاشر من يونيو ١٩٨٤م مطالباً بتعديل الدستور تعديلات منها ما يلغي الدولة الحديثة والجمهورية في السودان لأنه يقتضي أن يكون السيد جعفر محمد نميري رئيساً وإماماً مدى حياته، وأنه هو الذي يعهد لمن يخلفه وعلى الناس مبايعته هو للحكم مدى الحياة والالتزام بمبايعة الشخص الذي يختاره لخلافته!!

ضوء على تشريعات التجربة المايوية

تتكون التجربة من الأحكام والقوانين والإجراءات الآتية:

قانون العقوبات لعام ١٩٨٣ الصادر في سبتمبر ١٩٨٣م.

قانون أصول الأحكام الصادر في سبتمبر ١٩٨٣م.

قوانين إجرائية وتنظيمية صادرة في سبتمبر ١٩٨٣م: قانون الإجراءات الجنائية، قانون الإجراءات المدنية، قانون مجلس القضاء العالي، قانون الهيئة القضائية، قانون النائب العام.

قانون المحاماة.

قانون المعاملات المدنية الصادر في فبراير ١٩٨٤م.

أخذ البيعة لرئيس الجمهورية إماما للمسلمين في قرية أبي قرون بينما كان يحضر احتفال النصف من شعبان ١٤٠٤ هـ (مايو ١٩٨٤).

تقديم تعديلات للدستور في يونيو ١٩٨٤ لمواكبة الخط الإسلامي). [١]

العلل المشتركة التي لحقت بهذه الأحكام والإجراءات هي تعارضها مع الدستور الذي لم يفكر في تعديله إلا بعد تسعة أشهر، وتخليطها بين الفقه الشرعي والقانون الوضعي بشكل غرابي أعرج. والعجلة المخلة التي صيغت بها نصوص تلك القوانين فجاءت معيبة بشكل كبير[٢].

قال السيد الصادق:

(على أثر وقوع الثورة الإسلامية في إيران ونجاحها وارتفاع راية الإسلام في مجالات مختلفة وعلى رأس حركات تحرير مختلفة فزع الفكر الغربي من الصحوة الإسلامية وصاروا يخشون أن تنجح الصحوة في إيجاد فكر إسلامي مستقل من الفكر والثقافة الغربية وقادر على تعبئة الشعوب الإسلامية في مواقف متحررة من التبعية للغرب فتضع حداً لتغريب الثروة وتقيم كياناً فكرياً وسياسياً أكثر تحدياً للغرب من الكيان الشيوعي نفسه -لأن الشيوعية في نهاية المطاف اجتهاد غربي وإن رأوه منحرفاً.

وكان وارداً في أذهان كثير من مفكري الغرب أن هذه الصحوة يمكن إجهاضها من الداخل وذلك عن طريق تبني الانتهازيين لها فيتخذونها وسيلة لدعم سلطتهم، ويطبقونها بطريقة مشوهة فاشلة فيخبو بريقها مثلما حدث لشعارات القومية العربية

(١) الصادق المهدي، النظام السوداني وتجربته الإسلامية. (بتلخيص وتصرف).
(٢) تفاصيل العلل المشار إليها في الكتاب السابق

ومثلما حدث لشعارات الاشتراكية الأفريقية (على يد الزعيم نكروما وآخرين). لا أحد يعلم على وجه اليقين لماذا تبنى جعفر نميري وضياء الحق في باكستان الحماس للشعار الإسلامي ولكنهما تبنيا هذا الشعار بحماسة وربطاه بتدعيم سلطانهما وربطاه أيضاً بخط لهما في السياسة الخارجية ملتزم استراتيجياً بالتحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كان هنري كيسنجر أثناء أزمة البترول فيما بعد ١٩٧٤م حريصاً على ارتفاع أسعار البترول مع أن الظاهر من سياساته أنه ضد إرتفاعه، لأنه يعتقد أن ذلك في المدى البعيد لمصلحة مستهلكي البترول لأنهم سيجدون له بديلاً، كما أن ارتفاع سعر البترول يؤذي اليابان وألمانيا الغربية أكثر من غيرهما وهما منافسا أمريكا اقتصادياً!

إنني أظن ظنا معقولاً أن جهة ما في الغرب كانت حريصة على تبني هذين الديكتاتورين للشريعة الإسلامية ليحرقا هذا الشعار فيتخذ من تجربتهما البرهان على عدم صلاحية الشريعة والأيام ستكشف الحقائق جلية)..

واستمر يصف ملابسات إعلان النميري للقوانين، وبعد أن أشار لتراجعه أمام مطالب القضاة قال: *(كان النظام مكروهاً معزولاً فأراد ان يغطي تراجعه التكتيكي هذا بهجوم إستراتيجي لكيلا يرمي النظام بالضعف لذلك أعلن في ٨ سبتمبر ما أسماه «الثورة التشريعية» وفي هذه الثورة أعلن اول حلقة من قوانين سبتمبر لتطبيق الحدود وأعلن أنه قد طبق الشريعة الإسلامية وتصور الرئيس المخلوع أنه بهذه الثورة التشريعية قد حقق:*

أ- إيجاد ركيزة فكرية لنظامه المتهاوي، ركيزة لها سندها الأصيل في السودان.

ب- أنه بإعلان تطبيق الشريعة سوف يصبح حاكماً شرعياً طاعته واجبة بأمر الدين ومخالفته بغي يعاقب عليه الدين.

ج- أن احكام الاسلام الحدية ستردع كل المخالفين وأن في اعلانها ما يثير حماسة المسلمين داخل السودان وخارجه فيدعمون نظامه.

ولكي لا يشارك أحد في فضل هذا الإنجاز فإن الرئيس المخلوع لم يشرك حلفاؤه (الأخوان المسلمون) في القرار ولا في وضع القوانين. بل أوكل المهمة لأشخاص يستمدون وجودهم منه (النيل ابوقرون- وعوض الجيد وبدرية سليمان) وترك

للأخوان المسلمين دور التجاوب والتأييد والتعبئة.

الأشخاص قليلو الخبرة والمعرفة الذين أوكل اليهم صياغة هذه القوانين صاغوها فأصدرها بأوامر مؤقتة وألزم لجنة التشريع في مجلس الشعب ومجلس الشعب نفسه رفع لائحة المجلس لإجازة هذه القوانين دون مناقشة وقد كان.

القوانين التي صدرت على التوالي وسميت قوانين سبتمبر تبلغ عشرة قوانين وتلا إصدارها إعلام كبير بأن السودان قد طبق شرع الله وعلى صدى ذلك بويع جعفر نميري إماماً للدين.

كنت خارج البلاد عندما صدرت هذه القوانين ولما قفلت راجعاً اجتمعتُ إلى زملائي فرأوا أن الذي حدث يشوه الإسلام ويعارض النهج الإسلامي الذي خططنا له مع آخرين.

عندما صليت بالناس في عيد الأضحى المبارك في يوم ١٨ سبتمبر ١٩٨٣م أوردت في الخطبة تعليقاً على التشريعات الجديدة ما خلاصته:

أ- أننا نرحب بتطبيق الشريعة الإسلامية في السودان.

ب- تطبيق الشريعة يعني أن يقوم نظام سياسي واقتصادي واجتماعي إسلامي بكل حقوقه وضوابطه ثم تأتي العقوبات الشرعية لحمايته ولكن أن نبدأ بالعقوبات فتشويه للإسلام.

ج- أن السودان يعاني من مجاعة وفي عام المجاعة عطل عمر رضي الله عنه حد السرقة كما عطله في حالة، فلم يقطع يدي غلامي حاطب بن أبي بلتعة لأنه كان يجيعهما.

أما عيبها من الناحية الاسلامية فبيانه:

- لقد اتفق جميع دعاة الشريعة الإسلامية في هذا العصر أن البدء في تطبيق الشريعة بالعقوبات فيه تشويه للإسلام وهزيمة لمقاصده، هذا ما جاء على لسان الشيخ حسن البنا في مصر وما قاله الشيخ أبو الأعلى في باكستان. كلاهما تحدث عن كيفية تطبيق الشريعة وعن الضوابط اللازمة في هذا الصدد. وكلاهما أسس حركة إسلامية. الأول مؤسس

حركة الأخوان المسلمين. والثاني مؤسس حركة الجماعة الإسلامية.

- *وإذا صرفنا النظر عن تلك النقطة فكثير من الجرائم التي نصت عليها الأحكام جرائم أركانها وضعية وعقوباتها إسلامية مثلا:*

○ *السرقة الحدية في الشريعة هي أخذ مال الغير خفية من حرز دون اضطرار على أن يبلغ المسروق نصاباً معيناً. هذا التعريف للسرقة لم يراع في هذه الأحكام فلم تراع شروط الحرز ولا الخفية ولا الاضطرار، وقطعت الأيدي بموجب أركان وضعية للجريمة.*

○ *الحرابة في الشريعة لها أركانها وهي النهب المسلح مع تعذر النجدة. هذه الأحكام أطلقت الحرابة على كل نهب أو كسر لمنزل أو دكان دون ضوابط.*

○ *في الشريعة لا يجوز أن يرمى أحد بتهمة فيها عبارة الزنا إلا إذا جاء معه بثلاثة شهود هو رابعهم. هذه الأحكام نصت على ما سمته الشروع في الزنا- إن مفهوم الشروع في الزنا هو مفهوم وضعي.*

○ *لذلك عندما دعوت جماعة من علماء المسلمين من مصر وباكستان والأردن في عام ١٩٨٧م وكلفتهم بإصدار رأي في قوانين سبتمبر هذه بعد دراستها قالوا انها معيبة في جوهرها وفي صياغتها وقدموا تصويبا لها)*[1].

وقال:

(لذلك ولأن هذه الأغراض مكشوفة لم يستجب أهل السودان للتجربة الإسلاموية المايوية، ولم يؤيدها إلا من كانوا يؤيدون النظام أصلاً.

صحيح أن النظام استقدم بعض المفكرين الإسلاميين من العالم العربي والإسلامي فأيدوا بعاطفة عمياء التطبيقات الإسلامية. ففي سبتمبر عام ١٩٨٤م احتفل النظام بمرور عام على تطبيق الشريعة ودعا ضيوفا من أنحاء العالم الإسلامي المختلفة. لقد هنأ هؤلاء الضيوف نميري على إنجازه ولكن بعد سقوط نظامه دعت الحكومة الانتقالية في فبراير ١٩٨٦م علماء ومفكرين من كل أنحاء العالم الإسلامي ليأتوا ويراجعوا مغامرة

(١) من كتاب الديمقراطية في السودان راجحة وعائدة

نميري الإسلامية.

وبعد أن درسوها قالوا إنها معيبة في جوهرها وصياغتها وتطبيقها. وكان الشيخ صلاح أبو إسماعيل أحد الذين دعاهم جعفر النميري للسودان في عام ١٩٨٤م للمشاركة في الاحتفال بمرور عام على ما سماه بتطبيق الشريعة في السودان، ثم جاء ضمن وفد العلماء الذين دعوا في عام١٩٨٦م لدراسة تجربة التشريع المايوية المسماة إسلامية ولتبيان مدى موافقتها للشرع أو من مخالفتها له وقد شارك في الحكم عليها وإظهار عيوبها حيث خلصت اللجنة إلى أن تلك التجربة معيبة في تنظيرها وفي تطبيقها وأنها شوهت الشرع.. فقلت له: كيف تسنى لك أن تشارك في التهنئة على تطبيقها في عام ١٩٨٤م. قال لي: في عام ١٩٨٤م لم نطلع على أية تفاصيل بل غمرتنا البهجة بتطبيق الشريعة فلم نسأل ولم ندرس ولكننا الآن درسنا وكشفنا العيوب!

وجملة القول إن تلك التجربة كانت معيبة في نصوصها وجوهرها وكأنها محاولة جادة للتلاعب بالدين وتوظيفه لخدمة الأغراض الدنيوية ولقهر المواطنين. كما شكلت خلافاً بين المسلمين السودانيين، وبينهم وغيرهم من المواطنين إبان الديمقراطية الثالثة فزايد حولها البعض واعتبروا الحديث عن تجميدها أو إلغائها تجميداً للشريعة.. عرقلت التجربة المايوية تطور التطبيق الإسلامي في السودان وأرجعته درجات).

وتعرض السيد الصادق للتجربة بالتفصيل في كتاب صدر له مؤخراً بعنوان (ميزان المصير الوطني في السودان). وروى ما سقناه أعلاه حول المواجهة بين نميري والقضاة التي أدت ليهجم عليهم بالثورة التشريعية، وقال إنه حرص على أن تكون التجربة بعيدة عن الأخوان المسلمين، بالرغم من أنه جعلهم على رأس لجنة «إعادة النظر في القوانين لتتماشى مع الشريعة الإسلامية» منذ ١٩٧٨ وسمي الترابي فيها رئيسا للجنة الفنية لصياغة القوانين[1].

وكان الترابي قال في فبراير من ذلك العام إنهم وضعوا خطة متكاملة لتطبيق الشريعة[2]. ولكن النميري حرص حرصاً شديداً ألا تكون القوانين ذات صلة بهم،

(١) المحبوب ص ٤٥

(٢) القدال، سابق ص ١٩٢ ويذكر أن من أعضاء لجنة إعادة النظر في القوانين كان الشيخ علي عبد الرحمن والدكتوران حسن الترابي وجعفر شيخ إدريس.

وربما لأن القوانين أصلاً جاءت كوسيلة قمعية لتثبت أقدامه وتكون سيفاً مسلطاً ليس على أعدائه المعلنين فحسب ولكن على حلفائه الذين اتهمهم غير مرة بأنهم يتاجرون بالدين، مثلا، قال في فبراير ١٩٨٢م: لاحظت أن بعض المتحدثين يحاولون أن يقحموا الدين في أي رأي يريدون أن يطرحوه وينبغي ألا يزج بالدين إلا عن فهم وإدراك. فالحديث عن الدين في كل مرة في غير مكانه المناسب ما هو إلا تملق للجماهير. وأنا كرئيس للجمهورية والاتحاد الاشتراكي ما بتاجر بالدين[1].

وبدلا عن استشارة الترابي وشيخ إدريس وعلي عبد الرحمن وغيرهم من أعضاء اللجنة المكونة لذات الغرض، فقد كون النميري اللجنة الثلاثية المذكورة آنفاً (أبو قرون وعوض الجيد وبدرية). عينهم مستشارين وأوصاهم بالشروع في عملهم بسرية تامة وأن يحرصوا على ألا يرشح شيء لجارهم المستشار. وكان هذا واضحاً لجماعة الأخوان المسلمين ففي تأريخ الأستاذ المحبوب عبد السلام لهذه الفترة يؤكد أن النميري كان يعد لقوانين سبتمبر سراً وأنه اختار (لصياغة قوانينه الجديدة لجنة من ثلاثة قانونيين حرص في انتقائهم أن يكونوا بعيدين عن شبهة الانتماء للحركة الإسلامية وفور تكوين اللجنة أعفى «حسن الترابي» عن منصب النائب المنوط به صياغة مشروعات قوانين الحكومة، ليعينه مستشاراً برئاسة الجمهورية، وفيما جيئ بأعضاء اللجنة إلى ذات المؤسسة مستشارين تجاور مكاتبهم مكتب الدكتور الترابي ولكن مع تحذير شديد ألا يقربوه سراً ولا علناً)[2].

لكن جبهة الميثاق الإسلامي لم تتلق الصفعة الواضحة بل صانعوا النميري وأظهروا له كل تأييد.. ربما كانوا ينشدون خلف زهير بن أبي سلمى:

وَمَن لا يُصانِع في أُمورٍ كَثيرَة ... يُضَرَّس بِأَنيابٍ وَيوطَأ بِمَنسِمِ

وبدلاً عن الاحتجاج على هذا التهميش في أمرٍ يهمها، فإنها كما قلنا اعتبرت أنها قد وجدت أخيراً مبرراً لبقائها في السلطة بعد أن تنكر النظام للمصالحة وتعهداتها.

فاندفعوا في تأييد النظام وبايعوا النميري إماما بشكل لا يناسب ما يعرفونه عنه، وقال

(١) القدال، نفسه ص ٢٠٤

(٢) المحبوب سابق ص ٤٦

أحد أبرز قادة جبهة الميثاق السيد يس عمر الإمام معلقاً على بيعة النميري: «انهمرت الدموع في أبي قرون وهي تستعيد ذكرى السيرة العطرة ومواقف الصحابة في بيعة الرضوان. وتحرك رئيس الجمهورية وسط الناس لا يحيط به الحراس. البيعة عهد سياسي يقوم على ركائز الدين وفعل ديني ينظم أمر المؤمنين في السياسة. وأمر البيعة لا يستوي إيمان المرء إلا به. نحن نبايع اليوم على سلطة متقدمة نحو الدين. واليوم تعود إمامة الصلاة إلى إمام المسلمين. حسمت البيعة الصراع الطويل الذي ظل يدور السنين المائة الماضية. ولأول مرة في تاريخ المسلمين تأتي الشورى واضحة وملزمة في صيغة البيعة للراعي».. «يسري في المسلمين التجديد كل مائة عام أو يبعث الله من يجدد لها أمر دينها. وتأتي هذه البيعة مظهراً وجوهراً ورمزاً ومعنى تزيل الريب من النفوس وتقطع الطريق على النكوص والردة».[1]

أي نصبوه إمام القرن.. فهل استحق النميري حقيقة تلك المكانة القيادية في دفاتر الإسلام؟

لقد أثبت السيد الصادق في كتاباته أن تلك القوانين كانت مفاجئة كذلك لتناقضها مع النهج المعلن في خطاباته وفي الكتابين الصادرين عنه في عامي ١٩٨١م و١٩٨٢م تحدث عن الإسلام كتراث وتربية وقدوة أما كشريعة وأساس للقانون فذلك من مسئوليات الأجيال القادمة[2].

وأعلن النظام بعد ذلك عن إغلاق مصانع الخمور ومحلات التعبئة، وأن يكون يوم الجمعة ٢٣ سبتمبر يوماً لإبادة الخمور في العاصمة ويعتبر يوم ٢٣ سبتمبر مناسبة دينية يحتفل بها على نطاق القطر، ووجه معتمد العاصمة بإقامة نصب تذكاري في مكان إبادتها، وقرر العفو عن جميع السجناء لأنهم حوكموا بغير قوانين الشريعة، ومنح كل

---

(١) نقلا عن محمد سعيد القدال الإسلام والسياسة في السودان ١٩٥١-١٩٨٥ دار الجيل، بيروت، ص ٢٢١-٢٢٢

(٢) كتاباه هما (النهج الإسلامي لماذا؟) و(النهج الإسلامي كيف؟) انظر كتاب: النظام السوداني وتجربته الإسلامية من إصدارات الحركة الإسلامية السودانية ١٩٨٤م، والصادق المهدي ميزان المصير الوطني في السودان

واحد منهم مائة جنيه وخطب فيهم قائلاً: إذهبوا فأنتم الطلقاء![1]

عيد الأضحى ١٤٠٣هـ (١٧ سبتمبر ١٩٨٣م)

درج الأنصار على إجراء صلاة العيد في فلاة فلا تكون داخل المساجد، ويعبرون عن الفرحة بكرنفال يركبون فيه الصافنات الجياد وتحيط بهم الطبول والتهليل والتكبير. كانت تلك المظاهر مع غيرها من مظاهر التجمع ممنوعة أيام البطش المايوي حيث مُنعت حتى حلقات الراتب أسوة بإجراءات ونجيت وسلاطين في التنكيل بالأنصار ربما إيفاءً للطاغية بوعده أن يلحق بالأنصار نكبة البرامكة! ولكن أيام الأنصار استؤنفت بعد المصالحة الوطنية. وفي هذا العيد ركب الصادق فرسه مع عدد من الخيالة وساروا جميعاً في موكب احتفائي بالعيد حتى فسحة المسجد الرابع المعروف بمسجد خليفة المهدي أمام قبة المهدي بأم درمان، يرافقهم ركب ضخم يهلل ويكبر ويحمل الأعلام، بينما النحاس يدوي بالعيد وبالعزة. كان ذلك في يوم السبت الموافق ١٧ سبتمبر ١٩٨٣م.

ثم اعتلى المنبر وكانت الخطبة الأولى حول الحج كالعادة، وفي الخطبة الثانية تعرض لأهمية العدل في الدين ولأسس التشريع في الإسلام وضرورة مراعاته لخمس أسس هي: *(الحرية، والشورى، والعدالة الاجتماعية، والتكافل، وعلاقات دولية مبنية على العدل، وحرية الدعوة).*

وقال إن جماعة من المسلمين سعت لإصدار وثيقة يهتدي بها الذين ينشدون إقامة نظام إسلامي وقفل الباب أمام التطبيق الجزئي الذي يضر بقضية الإسلام مشيراً للدستور النموذجي للدولة الإسلامية والذي أصدره المجلس الإسلامي الأوربي ذلك العام واشترك هو في صياغته.

ثم قال:

(لقد أصدر رئيس الجمهورية في السودان هذا الشهر تشريعات إسلامية، واستناداً عليها قفلت السلطات المعنية حوانيت الخمر، ونحن نرحب بهذه الإجراءات ونرحب بكل إجراء من شأنه تعظيم حرمات الله وقفل أبواب الفساد. ونحن نعتقد أن تنظيم

(١) القدال، سابق ص ٢٠٩-٢١٠

الحياة الخاصة والعامة على أساس الإسلام مطلب شعبي نؤمن به وتؤمن به جماهير الشعب السوداني. ونقول: إن إقامة نظام إسلامي توجب الالتفات إلى القواعد الخمسة التي ذكرناها وتوجب تربية قوية قويمة.

والحدود الشرعية عقوبات قصد بها الشارع أن يحمي النظام الإسلامي بها نفسه. فلا تكون الحدود فعالة إلا كوسائل لحماية النظام الإسلامي لنفسه، وهي عادلة وحكيمة ضمن معادلات وشروط وضعها الإسلام. وقديماً عطل عمر بن الخطاب رضى الله عنه حد السرقة فلم يقمه على غلامي حاطب ابن أبي بلتعة اللذين سرقا ناقة من رجل من مزينة لأن حاطباً كان يعطيهما أجراً زهيداً. وبدل من أن يقيم عمر الحد عليهما فرض على حاطب غرامة أربعمائة درهم أعطاها لصاحب الناقة المسروقة.

إذا لم يكن توزيع الأموال في مجتمع توزيعاً عادلاً، وقفلت أبواب الكسب الحلال على العطالى والفقراء، وكان ثراء الأغنياء فاحشاً ومتحققاً بأساليب مشبوهة فان إقامة حد السرقة في مثل هذا المجتمع تؤدي لحماية الظلم ودعم المظالم الاجتماعية.

إن حدود الإسلام جزء لا يتجزأ من نظامه السياسي، نظامه الذي يعدل في توزيع المال، وفي بث التكافل والإخاء. نظامه الذي يحارب السرقة أصلاً بالكفاية. نظامه الذي يحارب الزنا بالتربية القويمة وبتسهيل الزواج، نظامه الذي يحارب شرب الخمر أصلاً بالتربية الصحيحة، وفي نطاق هذا الإصلاح القوي القويم العادل يضع الإسلام عقوبات رادعة.

هذا هو عين العقل والحكمة، لأن قطع يد السارق في مجتمع يقوم على الظلم والحرمان يكون كمن:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء

علينا أن نتجنب الوقوع في مثل هذا وأن ندرك شمول الطريق الإسلامي وإلا وقعنا في وعيد قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾[1].

(١) سورة البقرة الآية رقم (٨٥)

إلى سجن كوبر

كانت خطبة السيد الصادق والجمع الذي قيلت فيه رسالة قوية معارضة لهذه القوانين الضرار من كيان يعلم النظام قدراته واتساعه وقد ناطحه حتى أعيا قرنه. كان النميري يقضي العيد بين بعض أهله في دنقلا حينما سمع بالخطبة وما فيها وغضب من خطبة العيد ومن الكرنفال الذي صاحب الصلاة، وكيف يقبلها وهي تشكل تحدياً ومعارضة لنظام حبك القيود ونسج الكمامات للأفواه.. ولدى عودته للخرطوم أرسل فرق الاعتقال لكل قادة الأنصار وحزب الأمة المرموقين فتم اعتقال ١٨ منهم في ٢٥ سبتمبر ١٩٨٣م، المعتقلون كان على رأسهم السيد الصادق المهدي ومعه الدكتور عمر نور الدائم، والسيد صلاح عبد السلام، والسيد عبد الرسول النور، والأمير عبد الرحمن عبد الله نقد الله، وآخرون. وفي لقاء صحفي أجري معه قال نميري: «الصادق المهدي يعارض خطوات تطبيق الشريعة وفي خطبته أثناء العيد التي سبقت اعتقاله مباشرة أعلن معارضته تلك، وقال إننا يجب أن نقوى الجنيه السوداني.هل النبي صلى الله عليه وسلم انتظر حتى يقوي الجنيه »بتاعه« الصادق المهدي له طموحات كبيرة ويريد أن يكون هو الوريث الوحيد للسودان»[1].

ولا أنسى أبدا الغارة التي جاءت لاعتقاله فكان جيشاً ضخماً لعله كتيبة مدججاً بالسلاح، أحاط بمنزلنا بالملازمين إحاطة السوار بالمعصم، ودخل قسم منه إلى داخل البيت فزرعه في كل ركن بالجنود. وربما هذا الاعتقال بالذات محفور في ذاكرتي لأنه الأول في سن وعيي. كان الشعور بالقهر مراً، ولو وجدت قنبلة يومها لفجرت نفسي وفجرتهم كما يفعل شباب وشابات المقاومة اليوم.

ألف السيد الصادق ونشر عدداً من المطبوعات التي عرت تجربة قوانين سبتمبر وأثبتت بطلانها وخطأ نسبتها للإسلام. أهم تلك الكتابات هي كتابه «العقوبات الشرعية وموقعها من النظام الاجتماعي الإسلامي» وسوف نتعرض له لاحقاً. وكتاب (النظام السوداني وتجربته الإسلامية) الذي نشر تحت مسمى «الحركة الإسلامية السودانية» وقد لخصنا جانباً منه آنفاً. كما صاغ «المقامة الجعفرية الأولى: رسالة الترويع بالتشريع»

(١) لقاء أجراه فهمي هويدي ونشر في الوطن المصرية في ١٦/ ١٢/ ١٩٨٤م

وكانت كما ذكر انفعالاً بصلب الواثق صباح الخير، روبين هود السوداني! (نص المقامة في ملاحق الكتاب).

في تلك الفترة جدد السيد الصادق عهده مع السجن باعتباره فترة للاطلاع والتفكير والتأليف وتعميق العبادات، ولما كان سجنهم هذه المرة جماعياً فإنه نظم جدولاً ثابتاً يلتزمون فيه بالعبادة والرياضة البدنية والاطلاع وغيره من المناشط في أوقات محددة، كما يحدد أوقاتاً للقاءاتهم التي يستثمرونها في مفاكرات ومحاضرات بحسب مقتضى الحال.

وكنا نزوره مرة كل أسبوع فكان يقضي معنا فترة جماعية، وينفرد بكل منا نحو خمس إلى عشر دقائق، فيسأل الواحد والواحدة عن أحواله ومدرسته ونتيجة امتحاناته وكانت هذه تجربة جديدة علينا جداً فما أتيح قبل ذلك حتى أن يعلم بأي صف نحن ولا شكل أدائنا. وأذكر أنه كان يركز على مادتي التربية الإسلامية والتاريخ ويعتبر الأداء الضعيف فيهما غير مقبول.

وكان يقابله بعض أفراد الأسرة الأقربون أحياناً، وكان يستغل بعض هذه الزيارات للاتصال بالخارج وإرسال رسائل مختلفة. ففي إحدى المرات زاره المرحوم مهدي الطيب الحلو[1] فأرسل معه رسالة للسيد محمد عثمان الميرغني يقول له فيها إن هذا النظام زائل، وإن تجربته الدينية شائهة، وإنه آن الأوان لفكاك حزبهم منه واتخاذ موقف معارض، ولكن لم يستجب السيد محمد عثمان للمناشدة، وأرسل له مع السيد مهدي رسالة مفادها إن أسلوبنا مختلف.

وحينما هممنا للسفر لملاقاة الوالدة في إنجلترا في الإجازة السنوية ذلك العام، أي صيف ١٩٨٤م، وكنا نسافر متفرقين كالعادة، كنت مسافرة مع شقيقي صديق، وحينما قابلنا الوالد السيد الصادق في السجن أعطى كل منا ورقة بخط يده وطلب أن نخفيها من سلطات السجن، ويحفظ كل منا ما في الورقة التي بحوزته عن ظهر قلب، ويمزق الورقة حتى إذا تجاوزنا أمن المطار واطمأننا إلى قيام الطائرة كتبنا ما حفظناه ثم سلمناه للحبيبة أمي سارا. وكانت الورقة التي سلمت لي عبارة عن خطاب للسيد سالم عزام الأمين العام

(١) صهره فهو متزوج من أمي صافية الصديق المهدي، وابن عمته أم سلمة عبد الرحمن المهدي.

للمجلس الإسلامي الأوربي، يقول له فيها بضرورة التحرك لنفي التشويه الذي لحق بالإسلام جراء التجربة السودانية المعيبة، ويؤكد له أن جماعة جبهة الميثاق الإسلامي، وهم زملاء في المجلس ومشاركين في منابره وملتزمين بوثائقه وعلى رأسها (الدستور النموذجي لدولة مسلمة) و(الإعلان العالمي الإسلامي لحقوق الإنسان) والذي صاغوه لدولة تهتدي بالإسلام، لم يشركوا في هذه التجربة من قريب أو بعيد بل صاغ تشريعاتها النظام بعيداً عنهم وبإقصاء لهم لا يليق، ولكنهم اتخذوها ذريعة لتأييد حكم ظالم كانوا أصلاً مشاركين فيه.

أفرغت نص الخطاب الموجه إلى السيد سالم عزام وأنا بالطائرة وسلمته لأمي التي طبعته وناولته بدورها لصاحبه، ويبدو أن الخطاب أثمر، فقد (تم توجيه نداء عام جماعي ومناشدة عامة لصالح أولئك المعتقلين من قبل المجلس الإسلامي)[1]، ولم يكن ذلك بمستغرب من السيد سالم عزام برغم جذوره الإخوانية ومواقف الأخوان مع نميري، فقد عرف بمواقفه الشجاعة قبلها سواء أكان في معارضة كامب ديفيد، أو بعدها إبان الحرب العراقية الإيرانية.

أما جماعة الأخوان المسلمون فقد وقفت في كل الدنيا مواقف مؤيدة للتشويه المايوي للإسلام، فهم كجماعة منظمة يهتمون بمساندة إخوانهم في البلد المعني، وكان أخوان السودان قد أيدوا النميري بحماسة (سيد الرايحة) وقد وجدها في (خشم البقرة).

الشاهد، اتضح لي أن حفظ كلام السيد الصادق مسألة سهلة لأنه يتخذ أسلوباً منطقياً وينتقل في كلامه من نقطة إلى أخرى بتسلسل موضوعي واضح. وكنت قبل ذلك قد حفظت عن ظهر قلب (المقامة الجعفرية) لما فيها من أسلوب أدبي ساخر وممتع، وكنت أتلوها على صديقاتي بالمدرسة ونحن ثلة نتداول الأعمال الأدبية المقاومة، ولطالما حفظت منهم أدبياتهم أمثال: يا والدة يا مريم، والاسم الكامل إنسان، وغيرها لشاعرنا محجوب شريف رحمه الله، وقد تلقفنها بإعجاب.

وقد سجل السيد الصادق عدداً من الرسائل الصوتية، نقلها آخرون غيرنا وقد كانت دائما هناك قنوات تسريب يستخدمها من داخل السجن. إحدى تلك الشرائط كانت

(١) توماس، مرجع سابق، ص ٢١٧

لأمي رحمة التي كانت بإنجلترا كما ذكرنا فقد أقامت هناك منذ ذهبت للاستشفاء، ثم كان من أمر فتح أمي سارا لمكتب المعارضة فظلتا هناك لسنوات ممتدة ربما منذ العام ١٩٧٩م ولم تعدا إلا بعد الانتفاضة.

وكانت هناك رسالة أيضاً للسيد غراهام توماس ضمن الشريط، وقال إن دموعه سالت هو وزوجته أزماي (لسماع صوته والتفكير في أنه كان يشهد عمليات قطع الأيدي)..(استمر الصادق يبعث بالرسائل من السجن كلما أمكن ذلك، وكانت الرسالة هذه المرة شريطاً ترجمته لنا السيدة سارا وقد أبهجنا أن نسمع صوته وأن يكون لدينا دليل حي على أنه قد حافظ على شجاعته وجرأته، وأنه استطاع أن يكيف نفسه مع ظروف السجن السياسي، وإليك نص هذا الشريط: يا غراهام، إنني آمل أن تكون قد أكملت السيرة المصورة للسيد عبد الرحمن، هل تصدق أنني عاكف الآن على كتابة مسودة لرواية سيرة ذاتية سوف ترسم التاريخ المليء بالأحداث والمتعدد الألوان لأسرتنا من أيام لبب حتى هذه اللحظة؟ إنها مغامرة في مجال الأدب وهي سلاح آخر في ترسانة قتل الوقت. على كل حال، إن الأحداث في البلاد هذه الأيام تصور مسرحاً ضخماً يتم عليه تمثيل مسرحية هزلية مخيفة. ليس هناك لحظة مملة. إن أهل السودان الباكين ينزفون دماءهم الآن، يعانون، ويضحكون، ولا معنى لهذه الأوضاع (القائمة) إلا بصفتها فصلاً في عملية نضوجهم السياسي، ونحن جميعاً نأمل ألا يذهب هذا الدرس سدىً، مثل الصمت الذي تتلقاه زهرة تطلع في البرية، وما أكثر الزهور التي تولد ثم تذبل دون أن يراها أحد وتضيع حلاوتها في هواء الصحراء)[1]. وقال السيد غراهام إنه بعد ذلك استطاع اقناع الدكتور كريس تيريل أن يذيع نبذة عن حياة الصادق على الشبكة المخصصة لأفريقيا في نشرة هيئة الإذاعة البريطانية.

حملة المناصرة

لقد قام المستر غراهام توماس وزوجته السيدة إزماي بمجهود جبار ذكر جانباً منه في كتابه في مناصرة السيد الصادق، حتى قال بعد اعتقاله: (كانت الثمانية عشر شهراً التالية أشد فترات حياتنا اضطراباً، أنا وأزماي، لأن كلينا ألقى بنفسه وروحه في حملة محاولة

(١) توماس، سابق ص ٢٣١

إطلاق سراح الصادق، وقلب نظام نميري الشائن. لم يكن هناك أي تفكير في المصالحة معه، ولم يكن في مقدور أي رجل ذي ضمير حي أن يؤيد ذلك الديكتاتور الذي تخطى نقطة اللا رجوع)[1].

وقال إنهم نشروا بمساعدة مارغريت مورغان إعلاناً في جريدة الغارديان في أوائل شهر أكتوبر ١٩٨٣م، كان شعاره: (سجناء الضمير، سجناء نميري. احتجت منظمة العفو الدولية والمجلس الإسلامي إلى الرئيس نميري، رئيس السودان، على الاعتقالات العشوائية وتوقيف الصادق المهدي رئيس الوزراء السابق وقائد وزعيم طائفة الأنصار، وعلى حبس مائة وخمسين شخصية دينية بارزة في السودان، إن إسهام الصادق في الفكر الإسلامي وفي تطبيقه أمر يعرفه الجميع. إن السجناء هؤلاء يناشدون كل إنسان يهتم بمعتقلي الضمير أن يبرق أو يوجه احتجاجاً خطياً إلى: الرئيس نميري، الخرطوم- السودان) السودانيون وأصدقاء السودان، أكتوبر ١٩٨٣م[2].

كما نشرت جريدتا الغارديان والأوبزرفر مقالات عن الوضع في السودان[3].

أما الحبيبة أمي سارا رحمها الله فقد أعادت مكتب لندن كما قلنا (بمساعدة نخبة من شباب الحزب الموجودين آنذاك في انجلترا وهم إبراهيم شلعي هباني، د. عبد الكريم القوني، وصفاء خوجلي هباني، ككادر متفرع، ود. الصادق أبو نفيسة، وفيصل الصديق المهدي وبروف محمد إبراهيم خليل. ود. صلاح عبد الرحمن علي طه كمتعاونين، خلق المكتب علاقات قوية وفاعلة مع كثير من أجهزة الإعلام الأجنبية والعربية والأفريقية المهاجرة في أوروبا أو التي تصدر من بلدانها ولها مكاتب بلندن. إلى جانب المقابلات الصحفية الفردية رتب المكتب مؤتمراً صحفياً نصف شهري يلتقي فيه بأجهزة الإعلام لعرض القضية السودانية وتجاوزات النظام الشمولي)[4].

وقالت إن مكتبهم حصر عضوية الحزب في بلدان المهجر والاغتراب ووصلهم

---

(١) نفسه، ص ٢١٦

(٢) نفسه ص ٢١٦- ٢١٧

(٣) نفسه

(٤) سارا الفاضل دور المرأة في حزب الأمة في رباح الصادق سارا الفاضل: أقوال وكتابات في الفكر والسياسة والحياة

بالمنشورات، وقام بعقد مؤتمرين تداوليين للقوى السياسية المعارضة في الخارج لتنظيم وتوحيد الجهود، كما كان يحرص على مشاركة عضويته بواحد أو اثنين لحضور المؤتمرات العالمية والإقليمية التي يحضرها النظام لإحراجه وفضح ممارساته التعسفية، مما جعل الدكتاتور يضيق ذرعا بالمكتب فعقد مؤتمراً صحفياً خصيصاً لمهاجمة السيدة سارا وقال إنها مجنونة و(مقيدة بالجنازير)، وطلب من الصحفيين من غير السودانيين أن لا يلتقوا بها أو ينشروا ما تقول قارناً ذلك بالحصول على فيزا لدخول للسودان. كما تم وضع أجهزة التنصت في مكتبها، وتعرضت للاختطاف بواسطة المافيا العالمية المأجورة لحكومة السودان، مما حدا بالحكومة البريطانية لاتخاذ إجراءات أمنية مشددة لحمايتها في مكان عملها ومسكنها وفي تسفارها من المنزل لمكان العمل والرجوع إليه.

كان مكتب لندن يسرب كتابات السيد الصادق ومنشوراته للداخل بطرق مختلفة، وبحسب ما ذكرت الحبيبة سارا رحمها الله فإنه كان يتم (إرسالها كطرود عبر البريد الداخل لعناوين مختلفة بل لكل عنوان يقع بأيدينا ومنها عناوين الوزارات الحكومية والموظفين بالدولة، وحينما اكتشف النظام ذلك أصبح يفتش البريد القادم من بريطانيا، فصرت أسافر لدول أوروبية مختلفة وأرسل منها المنشورات.. كما أرسل عبر شخصيات مختلفة شنط ملأى بالمنشورات مع تمويه بأغراض أخرى، وتقوم بتوزيعها بكل كفاءة السيدة مريم أحمد بشارة عبد العزيز الشهيرة (بعرجون) وهي زميلة عمري التي قامت بتربية أولادي في غيابي ومن الأنصاريات الملتزمات، وقد ضبطت إحدى الشنط مع قريبتي السيدة زهراء حامد رحمها الله وكانت تعمل مضيفة، مما عرضهما سوياً للسجن والتنكيل على يدي النظام. وعرض أبنائي الصغار حينها لمحنة غياب عرجون لأكثر من أربعة أشهر، في غياب أمهم المنفية أصلاً)[1].

اعتقال أمي عرجون ومحنتنا الخاصة

وبالفعل كان اعتقال أمي عرجون محنة ضخمة على مستوانا الصغير. فقد كانت هي الثابت الوحيد في حياتنا، وكانت أمي عرجون هي التي تشرف على تربيتنا وتفقد أحوالنا،

(١) السابق

هي التي تلبسنا وتؤكلنا وتسهر على راحتنا وكانت أمي رحمها الله في غاية الاطمئنان إلى أننا في أيد أمينة مع تلك السيدة المضحية الباذلة. انكشفت إذن كل الأغطية من فوقنا: أمي رحمة وأمي رحمهما الله في إنجلترا ولحقت بهم مريم فقد كانت تدرس بإنجلترا في تلك الأيام، ثم غابت أمي عرجون.. انتقلنا بعد ذلك من القسم الذي كنا منذ أواخر السبعينات سكنا فيه في الطرف الجنوبي من المنزل (الاستراحة)، للإقامة في (البيت الثاني) تحت رعاية أمي حفية حفظها الله، وأمي عزيزة رحمها الله، وكان تحويل الإقامة وما استتبعه من عدم استقرار إضافة للمحنة نفسها وقلقنا على أمي عرجون، من أهم أسباب تعثر أحوالي في تلك السنة التي كنت ممتحنة فيها للشهادة السودانية، ومن ثم تأكدي من أنها سنة ضائعة ولا بد من إعادتها، لولا لطف الله.

لم يسمح لنا بزيارة أمي عرجون إلا مرة واحدة طيلة تلك الشهور الأربعة، وجدناها في حال بئيس إذ كانت تقيم في حراسة من حراسات الشرطة، على الأرض، وكان يبدو عليها الإرهاق وقد فقدت من وزنها وتغير لونها، وعلمنا أنها عذبت لتبوح بأسماء الأشخاص الذين يفترض أن يستلموا منها المنشورات ولم تنبس ببنت شفة، بالطبع. هؤلاء القوم لا يعرفون أمي عرجون وإلا لما حاولوا فلن تنطق قبل أن يقول أبو الهول كلمته.

والحقيقة لا بد هنا أن أتوقف وقد ذكرت أمي عرجون حفظها الله، لأذكر أمي عزيزة، رحمها الله وقد توفيت هذا العام إلى رحمة مولاها، وهي التي أشرفت على تربية أخواني مثلما أشرفت أمي عرجون على تربيتنا. كانت أمي عزيزة أصلاً قادمة من أثيوبيا من نواحي قوندر للعمل في السودان حينما جاءت وعملت مع أمي حفية في ١٩٦٢م، وظلت أمي عزيزة على دينها المسيحي ردحاً من الزمن حتى تحولت للمسيحية عام ١٩٩٢م. وأكثر ما يميزها أمومة متدفقة وحرص على الصغار وتمام طعامهم وشرابهم، ثم إخلاص واستقامة وتقوى فذكر الله دائماً في لسانها سواء حينما كانت مسيحية أو حينما أسلمت. ومحبة شديدة للأنصار وللإمام الحبيب الصادق المهدي، ولديها سراط مستقيم تجعل الناس يمرون عليه فهي لا تحب الكاذبين ولا المتكبرين ولا تحب الخوانين، وتجهر بآرائها بكل جسارة ووضوح، رحمها الله.

وأظن عناية الله هي التي بعثت أمي عرجون وأمي عزيزة لهذه الأسرة المنكوبة،

فظروف الوالد وأمينا ما كانت تؤهلهم لتقديم الرعاية التي تحتاجها ذرية زغب الحواصل، وحقاً ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1]. إن السيد الصادق وهو يقدم ما ملكت يداه هكذا لا يفكر في ذاته ولا في أولاده، يرمي بنفسه في كل نار من أجل الدين والوطن، قد أكرمه الله بهاتين الراهبتين كما ظل يكرر، ليسدا ثغرة، ويقدما بنفسيهما قدوة ومثلاً للإخلاص ونكران الذات.

العقوبات الشرعية وأخواتها

كانت أهم منجزات السيد الصادق الفكرية في السجن كما ذكرنا تأليف كتاب (العقوبات الشرعية وموقعها من النظام الاجتماعي الإسلامي) الذي كان فكّر في ضرورته حينما أعلن ضياء الحق خطوات الأسلمة الانتهازية التي تطرقنا لها. ولما قام النميري بالمحاولة الاستغلالية الشبيهة نشط السيد الصادق في ذلك الكتاب الذي أوضح أن العقوبات هي آخر حلقة في النظام الإسلامي أوجبت لحماية نظام هو الأعدل والأرحم، وقد شبهها حديثاً ببستان فيه الورود والثمار والعقوبات بمثابة طبلة ومفتاح لحمايته، فإن بدأت بها تكون قد اهتممت بالقفل قبل أن تزرع البستان!

وشكّل الكتاب مرجعاً أساسياً في موضوعه لأنه لخص الفقه التقليدي فيما يخص الحدود المختلفة ثم أعمل اجتهاداً مستنداً على معطيات واقعنا وأثمر رؤى كثيرة مطلوبة، فتلقفته دار الزهراء للإعلام العربي ناشرة إياه، وكان يشرف عليها السيد أحمد رائف وقدم له السيد محمد فتحي عثمان وكلاهما ينسبان لتيار الصحوة الإسلامية بمصر، وقد أخبر بعضهم أن الكتاب اتخذ مرجعاً في الأزهر الشريف في تلك السنوات.

الأطروحات في الكتاب فضحت زيف الشعار المايوي الإسلاموي بجلاء.

وفي كتاب (النظام السوداني وتجربته الإسلامية) وقد لخصنا جانباً منه آنفاً، نقد للتجربة التشريعية النميرية متتبع ليومياتها ومساقطها. مفنداً القوانين والإجراءات التي صاحبتها بنداً بنداً.

كما ألف السيد الصادق (المقامة الجعفرية الأولى: رسالة الترويع بالتشريع) انفعالاً

(١) سورة يونس الآية رقم ٦٢

بمقتل الواثق صباح الخير كما ذكرنا. وكمعظم كتاباته ذلك الزمان لم تكن تحمل اسم المؤلف، ولكن المقامة تختلف عن بقية الكتابات بأنها لم تكن مطبوعة بآلة بل مكتوبة بخط فنيٍّ جميل. وقد علمت لاحقاً من الأستاذ محمود المطبعجي، وهو أحد الأخوان الجمهوريين الذين زاملوا السيد الصادق في المعتقل حينها وكان أستاذي في الفنون التشكيلية بقصر الشباب والأطفال، أنه هو الذي خط المقامة وحكى لي كيف انفعلوا جميعا بمقتل الواثق وهم داخل السجن.

قضية الواثق صباح الخير:

قال السيد الصادق:

حكمت محكمة العدالة الناجزة بأم درمان برئاسة القاضي المكاشفي طه الكباشي على الواثق صباح الخير (من مواطني الشعبية بحري) بالصلب والإعدام كعقوبة على ارتكاب جريمة النهب بقياس لحد الحرابة، ويلاحظ أن حد الحرابة لا ينطبق على ما اتهم به الواثق، ولم تتوفر في المحاكمة أركان العدالة فلم يتح للمتهم الدفاع عن نفسه، وحكم عليه بناء على تهم سابقة لم تثبت، وكان ما اشتهر به الواثق هو سرقة أموال الأغنياء لتوزيعها على الفقراء والمحتاجين. ومع أن الشريعة تعاقب على أي تعد على أموال الغير إلا أن تهمة الواثق لم تكن إذا صحت حدية، وتطبيق الحدود في تلك الظروف كان معارضاً للعدل الإسلامي فقد جمّد الخليفة العادل عمر بن الخطاب الحدود في عام الرمادة، ولهذا شكلت حادثة صلب الواثق هزة للضمير السوداني وشبهه البعض بروبن هود البطل الأسطوري البريطاني، وشيع جثمانه حشد كبير وبكاه الناس بمرارة وانطلق بعض الفنانين يحاولون رسم فظاعة الحادثة، كما هزتني وكنت بالمعتقل في كوبر فانفعلت بكتابة (المقامة الجعفرية الأولى: رسالة الترويع بالتشريع): وهل أَتَاكَ نبأُ الواثقِ مَسِيحِ الحماقَةِ المَايويّةْ؟ والفَاتِحِ ضحيّةِ المحَاكِمِ الجُزاقيةْ؟ ومَهْدي وزمِيْله اللذَانِ قُطِعَا مِن خِلافٍ في سَرِقةٍ فِيها شُبهةُ الملْكيّةْ؟ دِماءُ هؤلاءِ تَصيحُ اللّهمَ أقتصَّ لنَا مِنْ هَذهِ الدولةِ السَادّيةْ!

حكاية القنبلة الكتمت شواظ في حشاها

في يوم الجمعة ١٦ مارس ١٩٨٤م حينما كان السيد الصادق لا يزال في سجن كوبر،

في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً، في ذلك الوقت كان هناك معسكر مذاكرة في منزلنا فكان عبد الرحمن وزينب ممتحنين للشهادة السودانية.. حدث شيء لا زال ملفوفاً بالغموض، فقد ارتجت أبواب ونوافذ بيتنا وسمعنا صوتاً مدوياً واهتزت الأرض، واتضح أن هنالك طائرة ضخمة حلّقت في مسافة منخفضة جداً وألقت قنبلة في القسم من بيتنا الذي نسميه «البيت التاني» وهو على الجانب الشمالي من المنزل، الأبعد من الإذاعة بعشرات الأمتار. واتكأت القنبلة على حائط لحمام ولكنها بحمد الله لم تنفجر، وألقت الطائرة قنبلة ثانية في بيت جارنا السيد بابكر عوض الله، ومنزله أقرب إلينا من قربه للإذاعة، فهو إلى الجانب الغربي من منزلنا يفصلنا منه شارع فحسب، ويفصله عن الإذاعة شارعان ومبنى. وهذه القنبلة الثانية انفجرت داخل بئر السايفون فلم يتعد تدميرها المنزل ذاته الذي كان مهجوراً، ووقعت شواظ من القنبلتين على شخصين بالقرب من شاطئ نهر النيل القريب فقتلا، وقيل إن مجمل القتلى كانوا خمسة.. وقيل إن أي قنبلة منهما كانت كفيلة بتفجير المنطقة كلها. وبذلك شاءت عناية الله أن الخسائر كانت دون المقصود بشكل كبير!

اتهم راديو النظام ليبيا بأنها صاحبة الطائرة. وجاء رأس النظام وزار بيتنا عصراً ومعه عدد من الناس علمنا أن بينهم المشير المصري أبو غزالة الذي جاء خصيصاً للحادثة، كانا يتجاذبان أطراف الحديث ويتضاحكان، وتفرجوا جميعاً على القنبلة الراقدة بهدوء قبل أن يحضر اختصاصيي القنابل لفكفكتها. وقال نميري في الإعلام إن هذا جزاء الصادق وبابكر عوض الله على ما فعلوه بي إذ ناصر الصادق الليبيين عليّ وها هم ينسفون بيته!

واشتكت حكومة السودان ليبيا في مجلس الأمن، وأيدتها الولايات المتحدة التي قالت إنها صورت الطائرة الليبية وهي في طريقها من الكفرة. وبناء على الاعتداء الليبي المزعوم فإن الرئيس الأمريكي رونالد ريغان أمر بتحويل طائرتي الإيواكس اللتين كانتا بمصر إلى السودان ليكونا تحت تصرف دفاع الجو السوداني لحمايته من أي عدوان ليبي محتمل. بينما نفت ليبيا قيامها بالقصف وقالت إن ذلك مجرد فبركة.

وقال بعض الناس إن هذا من تدبير النظام لتفجيرنا انتقاماً من والدنا، وأظنهم يبالغون مع أن ذلك ليس منكوراً على النظام المجرم.

وقال في المناسبة الحبيب الشاعر حامد عيشاب:

حكاية القنبلة الكتمت شواظ في حشاها

ورقدت ضيفة الأشبال نهار وعشاها

سر المهدي سد خشيمها وفشاها

ونيته سليمة بوامسلمة السلامة مشاها

نزلت غايرة لكن بالعناية محيطة

وحكمة الله لا هبشت جدار لا حيطة

غطست باعتناء ومرقت سديرا شحيطة

كأنو عروسة والحمام مسك في رحيطه

السيد غراهام توماس روى أن السيدة سارا تسلمت رسالة ذكرت أن الرئيس مبارك طار إلى أسوان لمقابلة النميري ووجهه بضرورة التفاهم مع الصادق الذي أُبلغ في السجن بنبأ إطلاق سراحه حالما يتوصل إلى اتفاق مع نميري ولكنه استنجز نميري وعوده ورفض المغادرة (إلا إذا تم إطلاق سراح جميع المعتقلين).. (وقد روي أن نميري حينها استشاط غضباً من مسلك الصادق ومن إجابته هذه، وكان رده أن أرسل قاذفات قنابل انطلقت من مطار سيدنا)[1]. أورد توماس شكوكاً كثيرة أثيرت حول الرواية الرسمية من أن الطائرة أجنبية، وقال إن جريدة التايمز أوردت تقريراً حول تلك القضية كتبه إدوارد مورتايمر[2].

ولكن الغريب لماذا حتى اليوم لم يمط اللثام عن حكاية القنبلة؟!

محاولة اغتيال جديدة ومقتل الأستاذ محمود

يؤرّخ السيد الصادق لإطلاق سراحهم في ١٨ ديسمبر ١٩٨٤م على أنها محاولة اغتيال جديدة تعرض لها في العهد المايوي، ويعتبر أنها جاءت هذه المرة متدثرة بدثار

(١) توماس، سابق ص ٢٢٣

(٢) نفسه ص ٢٢٤

قانوني. ويقول إنه حذر الأخوان الجمهوريين من أن إطلاق السراح شرك، ولكنهم لم يأخذوا برأيه، وفي النهاية راح الأستاذ محمود محمد طه ضحية ذلك الشرك المنصوب.

قال السيد الصادق:

(عارض الأخوان الجمهوريون قوانين سبتمبر انطلاقاً من موقفهم المبدئي ضد الأحكام الفقهية الإسلامية باعتبارها منسوخة ولا تصلح للقرن العشرين، كما عارض غيرهم القوانين وعلى رأسهم الأنصار باعتبارها مشوهة للشريعة الإسلامية التي تصلح لكل زمان ومكان. واعتقلنا جميعا وكنا بسجن كوبر لأكثر من عام. وقرر النظام التخلص من جميع المعارضين وأحكم الطوارئ لذلك الغرض. فأطلق سراحنا في ديسمبر ١٩٨٤م كشرك للتخلص منا.

كان الأخوان الجمهوريون يؤيدون نظام الدكتاتور جعفر نميري تأييداً مطلقاً، ويدعمون بطشه بخصومه باعتباره تصفية للطائفية، وكتبوا في تأييد الطاغية مادة سياسية هائلة. لذلك عندما التقينا بهم في السجن قلنا لهم أنتم تدافعون عن حقوق الإنسان، وجعفر نميري من أكبر المعتدين على حقوق الإنسان ولكنكم منحتموه تأييداً مطلقاً فما حجتكم أمام الله وأمام الناس؟ أما سمعتم أن من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه؟ اعترفوا بأن هذا كان خطأً. بعد أكثر من عام من الاعتقال أطلق سراحنا جميعاً. وكانت قراءتي للأحوال تقول إن إطلاق السراح شرك، فالطاغية قد أحكم قوانين القمع من جهة، ثم أرسل لي السيد شريف التهامي في السجن يستفسرني عن رأيي في «الشريعة» ويطالب بردي مكتوباً. فقلت له إن رأيي قلته في المنابر، وإن أردت نقلته عني شفاهة. غرابة الزيارة والطلب جعلاني أتوجس من أن النميري كان يريد توريطي بمكتوب لاستخدامه بشكل جنائي.

بعد أن قرر النظام إطلاق سراحنا، أطلق سراحنا قبلهم، ولكنني قبل أن أغادر سجن كوبر طلبت الاجتماع ببعضهم وقلت لهم: إطلاق سراحنا هذا شرك، فالطاغية نميري قد استعد لنا بإجراءات قضائية عندما نخرج ونعارض قوانينه، ونصيحتي لكم ألا نصدر لدى خروجنا مباشرة ما يوقعنا في شراكه. وفي تقديرنا النظام يعاني أزمات ستمكننا من التحرك ضده (كان هذا في ديسمبر ١٩٨٤م). قالوا لي: في تقديرنا أن جعفر نميري قرر

التراجع عن برنامجه الإسلاموي، ويطلق سراحنا لنعاونه على ذلك، وتقديركم للأمر ليس صحيحاً! وكان ما كان.

أصدر الأخوان الجمهوريون بياناً يحوي رأيهم المعروف في القوانين، فتم اعتقال الأستاذ محمود محمد طه وأربعة من زملائه في ٥ يناير ١٩٨٥م، وقدموا للمحاكمة التي رأسها القاضي حسن إبراهيم المهلاوي، وحكم عليهم بالإعدام وتم إمهالهم ثلاثة أيام للتخلي عن فكرهم، ورفع الحكم للتأييد بواسطة محكمة الاستئناف التي رأسها القاضي المكاشفي طه الكباشي. قال عن هذه المحكمة الدكتور الطيب زين العابدين: (كانت محكمة عجيبة، في بدايتها اختلف محمود مع القاضي لأنه طلب أن يقدم مرافعته في بداية الجلسة فرفض ذلك لمخالفته للإجراءات القضائية المتبعة، امتنع محمود بعدها من الحديث طيلة المحكمة. حكم القاضي عليه بالإعدام بناء على المنشور وقال له يحق لك الاستئناف فلم يستأنف فاستأنف له القاضي! محكمة الاستئناف كانت من محاكم (العدالة الناجزة) القضاة الثلاثة فيها: حاج نور والمكاشفي طه الكباشي وثالث لم يكونوا قضاة بل مدرسين بالأساس! هذه المحكمة هي التي حولت الحكم للردة وأدخلت في حيثياتها أشياء قديمة خارج نطاق مسألتها، ولم يعط محمود حتى فرصة الدفاع عن التهمة الجديدة! هذه المحكمة عبارة عن (سلطة سياسية) لأن رئيس الجمهورية قصد أن يعدمه بأي شكل). وفي ٨/ ١/ ١٩٨٥م حكم عليه بالإعدام ويوم ١٧ صادق النميري على إعدامه الذي تم في يوم الجمعة 18/ ١/ ١٩٨٥م. ويرى الدكتور أمين مكي مدني أن إحالة القضية إلى محكمة الاستئناف كانت مخالفة صريحة لقانون الإجراءات الجنائية الذي ينص على إحالة أحكام الإعدام للتأييد أمام المحكمة العليا، وأن قاضي الاستئناف أخطأ في تأييد حكم الإعدام عدة أخطاء قانونية خطيرة منها: على الرغم من أن حكم محكمة الموضوع قضى بالإدانة بموجب نصوص قانون العقوبات تغيرت الإدانة في محكمة الاستئناف إلى جريمة الردة وهي تهمة لم تتم بها محاكمة المتهم في المكان الأول. ولم يوجد في قانون العقوبات أو أي قانون آخر ساري المفعول أي تعريف أو عقاب لجريمة الردة التي ابتدعها القاضي اجتهاداً بناء على النص في قانون أصول الأحكام لسنة ١٩٨٣م الذي يخول القاضي أن يجتهد رأيه مما ينافي أبسط قواعد العدالة.

كذلك ينص قانون الإجراءات الجنائية المطبق آنذاك صراحة على عدم تنفيذ حكم الإعدام على أي شخص بلغ من العمر سبعين عاماً وكان الأستاذ محمود حينها يبلغ السابعة والسبعين.

وفي اليوم الثالث لصدور الحكم أذاع رئيس الجمهورية بياناً تلفزيونياً مفصلاً بموافقته على حكم الإعدام الذي تم تنفيذه في اليوم التالي. أما بقية المتهمين فقد تعرضوا لمسرحية «استتابة» مذلة بثتها أجهزة الإعلام آنذاك.

وبعد انتفاضة رجب/ أبريل المباركة وعلى إثر عريضة تقدمت بها ابنة الأستاذ محمود محمد طه وأحد زملائه قضت المحكمة العليا بإبطال حكم محكمة الاستئناف وكل ما ترتب عليه، سوى أن الأستاذ كان قد قضى نحبه اغتيالاً قضائياً باسم الشريعة الإسلامية. وقد شكلت تلك القضية من أبرز انتهاكات العدالة عبر قوانين سبتمبر، كما أعادت الحديث حول ضرورة مراجعة فقه الردة في الإسلام)[1].

هذه الرواية كررها السيد الصادق كثيراً، ولكن هذا العام بالذات أثارت حفيظة بعض الأخوان الجمهوريين، فهجموا هجوماً شديداً عبر مقالات عديدة مستنكرين حديث الإمام عن نصحه للأستاذ وبقية الأخوان الجمهوريين، وقال بعضهم إن النصيحة ذاتها لو حدثت فهي تدين السيد الصادق باعتبار أنه سكت عن قول الحق بينما صدع به الأستاذ.

طبعاً تختلف التقديرات، ولكن مثلما قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ**»، فإنه روي عنه ﷺ كذلك : «**الِاحْتِيَالِ وَالْحَذَرِ مَعَ مَنْ يَخْشَى مَعَرَّتَهُ**»[2] أي شره وفساده. وهم جميعاً كانوا قد قالوا كلمة الحق على أية حال ودفعوا ثمنها سجناً، فلو كان التقدير أن إطلاق السراح لاغتيالهم قضائياً يكون من غير الحكيم تكرار ما قالوه، وهو لن يضيف شيئاً لما قيل، بينما ثمنه جز الرقاب!

على العموم، فقد روى الدكتور مروان حامد الرشيد، سكرتير نقابة أساتذة جامعة الخرطوم أيام الانتفاضة والذي ذكر دور مقتل الأستاذ محمود في تسريع تحركهم

(١) ميزان المصير الوطني في السودان

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري

لإسقاط النظام، ما يفيد بأن الأستاذ محمود ربما كان قبل تحليل السيد الصادق ونصيحته له بأن فك الأسر كان ضمن خطة للإيقاع بهم من جهة، ومن جهة أخرى يعضد التحليل القائل بأن النظام أطلق سراحهم ليوقع بهم فأعاد لهم ماكينات الطباعة المصادرة نصباً للشرك. قال مروان: «وفي تلك الفترة كانت الأجهزة الأمنية وبعد أن اعتقلت الجمهوريين وبعد فترة أطلقت سراح بعضهم وأعادت لهم بعض الماكينات التي صادرتها منهم وذلك في سبيل توريطهم، وذكر لي أحد الجمهوريين أن الأستاذ محمود كان قد توقف لفترة عن كتابة البيانات وأن من كان يقوم بذلك هم تلامذته، ولكن يقال إن البيان المعنون بهذا أو الطوفان كان قد كتبه الأستاذ محمود محمد طه».[1]

الأستاذ محجوب عمر باشري يروي روايات عجيبة حول مقتل الأستاذ، وحول مكان دفنه، لم يقبلها كثيرون. كما يروي العجب العجاب حول النميري ذاته في أيامه تلك وعقدة الذنب التي اعتورته جراء اغتيال الأستاذ[2].. لوثة النميري العقلية في أيامه الأخيرة أو عدم توازنه يشير إليها بشكل مخفف كذلك السيد غراهام في كتابه، ضمن ملاحظاته إبان لقاءاته بالنميري تلك الأيام.

وقد روى غراهام كيف سببت حادثة مقتل الأستاذ هزة في الرأي العام العالمي، وقاد هو الرفض والتصعيد في بريطانيا، وكتب قصيدة متأثراً بالحادثة مطلعها (إنني حزين لك يا طه)[3].

أين أنتم من شرعة الإسلام؟

كان النميري بعيداً جداً عن صفات إمام المؤمنين، وقد كان تلبسه بعباءة هذا المنصب في حد ذاته مثار سخرية، مثلاً جاء في المقامة الجعفرية: (*وحينما بلغ الوالي الستين، اكتشف بعض معاني الدين، وفاته أن السودانيين كانوا يصومون ويصلون*

(١) حوار معه أجراه الأستاذ عبد الوهاب همت في صحيفة أجراس الحرية - الأربعاء ١٣-٠٤-٢٠١١

(٢) محجوب عمر باشري، أإعدام شعب؟

(٣) توماس، سابق ص ٢٣٥

ويزكون، وشيوخهم يبايعون، بينما هو مجندل في الطين![1]

وقال الأستاذ محجوب عمر باشري حوله وحول الثلة التي كانت معه في تلك المغامرة: وأعلن القوانين الإسلامية ونادى به الشيخ الفادني أحد الفقهاء بمدينة رفاعة خليفة للمسلمين، وأدخل النيل أبو قرون الوزارة والسودان كله يعرف أخباره، وضم عوض الجيد، وقلد شابا درس علم المكتبات ديوان الزكاة هو بابكر عبدالله إبراهيم، وضم إليهم امرأة تخرجت في كلية الحقوق من جامعة القاهرة فجعلها مستشارة قانونية هي بدرية سليمان،..، وأمسك مسبحة وأسرع في بناء القباب والأضرحة وادعى أنه يخاطب من وراء حجاب[2].

هذا وقد أمطرونا مع سيرهم الوحلة بأحاديث لا تناسبها، بل تدعي الصلاح والطهر ادعاء باطلاً مكشوفاً. قال عوض الجيد: أخي الرئيس القائد الإمام كان ينتظر في ظل شجرة اليقين حتى إذا رآنا تقدم معانقاً في أدب العلماء وشوق القائد لجنوده. وشد على أيدينا ومضى نحو النور لا يلوي على أحد كما مضى لوط عليه السلام حين أوصاه الله تعالى (ولا يلتفت منكم أحد) وكما مضى علي كرم الله وجهه حين سار لفتح خيبر فأوصاه المصطفى بقوله «سر ولا تلتفت» ومنذ أول لحظة وقبل صياغة قانون أوحد أخذ علينا القائد العقد، وأخذنا منه العهد أن تكون علاقتنا معه علاقة المأموم بالإمام فقبل وقبلنا. ثم بايعناه بيعة كاملة على كتاب الله وسنة رسول الله والبيعة عند الله عهد من خانها فقد خان الله.[3]

وقد جمعت (المقامة الجعفرية الأولى: رسالة الترويع بالتشريع) أطراف الغبن في ثوب ساخر:

(إنَّ القَفْزَةَ الجعفريّةْ، عَلَى قَافِلَةِ السُنّةِ المُحمديّةْ، هِي شَهْوةُ وَالٍ سِياسِيّةْ، اسْتَعَانتْ بخِبْرةِ ثالوثٍ هُم أَبو قُرُونٍ وعَوَضٌ وَبَدْريّةْ، ثالوثٌ فطيرُ المعْرفةِ الشَرْعيّةْ، قليلُ الحصِيلةِ القَانونيّةْ، واسْتَغَلّتْ بَعضَ الطرقِ الصوفيّةِ الفَرعيّةْ، واسْتَخْدَمَتْ هَيْئَةَ تَسْمِيتُها

(١) المقامة الجعفرية

(٢) باشري ص ١٢٩ نقلت كلامه بتصرف وفيه تجريح وسخرية زائدة عن سعة هذه السيرة

(٣) نفسه نقلا عن مجلة الصياد البيروتية عام ١٩٨٤

إسلاميّةٌ، وأفعالُها نَفْعيّةٌ دُنيويّةٌ.

اللّهمَ ارْحَمْنَا مِن هَذِه الألاعيبِ الصِبْيانيّةْ. لَقَد سَمِعَ النَاسُ رَئِيسَ الهيئةِ الثُلاثيّةْ، أَبَا قُرُونٍ يَتَلاعبُ بالمدائِحِ النبويّةْ، تصدّى لقولِ مَادحِ الصُوفيّةْ:

صَلِّ يَا عظيمَ الذاتْ — على صاحب المعجزاتْ

دائماً، الناجَى شَاف الذاتْ

فَنَقَلَ النشيدَ مِن الذاتِ المُحمديّةْ، إلَى عزةٍ وبثينةٍ ورُقيّةْ، قَائلاً:

غنيت للستّاتْ — أنَا قَصْدِي الانبساط،

دائماً، يا خلّي مع البَنَاتْ!

أما قُضَاةُ المحَاكِمِ الإيْجازيّةْ، فَجَماعةٌ مُختارةٌ لإصْدارِ أَحْكام تَرْهيبيّةْ، بَعيدةٍ كُلّ البُعْدِ عَن العدالةِ السَماويّةْ، أَشْهَرُهم الذِي كَثُرَتْ أحْكامُهُ التَعسُّفيّةْ، وطَبّلَتْ لَه الأجْهزةُ الإعلاميّةْ، قَاضٍ مُصابٌ بالأمْراضِ العَصبيّةْ، بذَا شَهِدَتْ دَفَاتِرُ «شيخ إدريس» العِيَاديّةْ!.

إنَّ اللهَ أرْسلَ مُحَمَّداً ﷺ رَحْمَةً للعَالَمِين، أيْنَ عدلُ الشريعةِ ورحْمتُها؟ أينَ رَخاؤها وعزّتُها؟ أيْنَ قولُ مُنْزِلِها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]؟

لَقَد لَحِقَ بالسُودَانَ شَقَاءٌ بالِغٌ، وضيَاعٌ قَالَ فيه القائلُ:

نَحْنُ واللهِ فِي سوءِ حالٍ — لَوْ رَأيْناهُ فِي المَنَامِ فَزِعْنَا

أَصْبَحَ النَاسُ مِنْهُ فِي شَقَاءٍ — حَقٌّ مَنْ مَاتَ منْهُمو أنْ يهَنّا

وانتهت المقامة بالقول:

(إنَّه مَاضٍ للأَمَامْ، يَذلُّ الرِقَابَ ويَدُوسُ الهَامْ، ويُعْلنُ السِياساتِ ويُؤلِّفُ الأَحْكامْ، ويسْتَدِلُّ باسْتِمْرارِهِ عَلَى رِضَا الأَنَامْ، مَعَ أنَّ اسْتِمرارَ النِظامْ، رُغْمَ كُلِّ أَسْبابِ الإعْدَامْ، مَعْنَاهُ فِي لُغَةِ العَارفِينْ: إسْتِدَراجُ الظَالِمِ وامْتِحانُ المَظْلُومينْ. إنَّ مُكابَداتِ الحقِّ امْتحانَاتْ، وانتِصَاراتُ البَاطِلِ إمْهَالاتْ، وقَرِيْباً يَنْتَهِي الامْتِحَانْ، ويَنْتصرُ عَلَى قَاهِرِهِمْ وجلّادِهِم أَهْلُ السُودَانْ، ويَسِيْرُ بِخَبَرِ هَذِهِ التَجْرِبَةِ الرُكْبَانْ، وتَحَارُ فِي وَصْفِهَا أَجْيَالُ

(١) سورة المنافقون الآية ٨

آخِرِ الزَمَانْ، وتِلْتَمِسُ مِنْهَا أصْدَقَ البُرْهَانْ، عَلَى مَقَالِ يُوْسُفِ الصِدِّيقِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1].

أما شاعر الأنصار المجيد مختار محمد مختار فقد كتب قصيدته (أين أنتم من شرعة الإسلام) عام ١٩٨٤م وطبعت ووزعت سراً وكان نقدها لاذعاً، وهي طويلة، منها:

أين انتم من شرعة الإسلام ... يا صغار النفوس والأحلامِ
كالعصافير في العقول ولكن ... تشبهون البغال في الاجسامِ
إن يوماً أباحكم مقود الناس ... لقد كان أحلك الأيامِ
هل حسبتم شريعة الله جهلا ... هي حد الزنا وحد المدامِ
واقتصاص من الضعيف وترك ... لقوى يلج في الإجرامِ
كيف تنجو البزاة من السيف ... وتنحى إلى رقاب الحمامِ؟!
لم حللتمُ التجسس والأمر حرام ... في الدين أي حرامِ
ومنعتم شرب المدام نهاراً ... وابحتم شرابها في الظلامِ
ما أرقتم في النيل ما كان إلا ... جام خمر ارقتموه بجامِ
لو صببتم معشارها أغرق ... الخرطوم بحرٌ مِنْ السلافة طامِ
انهبوها اكابر القوم فالخمر ... حلال للقادة الأعلامِ
إن نسيتم فالشعب ليس بناس ... أين كان التحريم قبل العامِ
إذ فتحتم حاناتها وأبحتم ... بيعها رغم كثرة اللوامِ
قد رميتم ولستمو برماة ... لا تصيب السهام من غير رام
منطق كله كذب وافك ... منطق الرعد في السحاب الجهامِ
كم خربتم ببغيكم من بيوت ... وعفرتم من أوجه في الرغامِ

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٠

قـــد وعـــدتم بجنـــة ونعـــيم عاشـه الشـعب في رؤى الأحـلام!
هـو شـعب غـذاؤه الـذل والضـيم ومـــرُّ الشـــجون والآلامِ
فعجـزتم مـن بعـد عشـر وخمـس فـافتريتم أكذوبـة الإسـلام!
حيـنما غـركم خـداع ذوى العقـل لجـأتم إلـى خـداع العـوام!
عجبـا يبتغـي الشـريعة طـاغ غـارق في الفجـور والآثـامِ!
حاقـد مظلـم الفـؤاد جهـول مسـتبد ذو جنـة وعـرامِ
يسـتحل الـدماء مـا يخـاف الله في الثـاكلات والأيتـامِ
فأحاطـت بـه بطانـة سـؤ كلهـم مـن اراذل وطغـامِ
طـالما سـبهم واوسـعهم صـفعا وركـلاً بـالكف والأقـدامِ!!
إنـما الشـرع في الحقيقـة عـدل يسـتوي عنـده جميـع الأنـام
ولأهـل الكتـاب في ظلـه الممـدود كالمسـلمين خيـر مقـامِ
يجعـل النـاس أمـرهم بيـنهم شـورى ويـأبي تسـلط الحكـامِ
أنـتم القاسـطون لا تعرفـون الله أو دينـه القـويم السـامي
خـدعوكم بـالرجم حكمكـمُ الأسـود فينـا مقـدراه الـف عـامِ!
نحـن نبغـي الإسـلام صـرفا نقيـا خالصـا مـن شـوائب الأوهـامِ
يـرفض الـدجل والـتكهن والطـرق ورقـص الحكـام في الأنغـامِ
والخيـال المـريض يجعـل أغبـى النـاس أهـلا للـوحي والإلهـامِ
حكمـة بالكتـاب والسـنة الغـراء لا بـالأذي وسـخف الكـلام
أيـن أنـتم مـن شـرعة قـد تسـامى وتعـالى عـن همـة الأقـزام
عوجـا تبتغـون للـدين مـن غيـر كتـاب وسـنة وإمـامِ!
عهـدكم جاهليـة مـا يـزال الأمـر والنهـي فيـه لـلأزلامِ
لـيس يمحـو دجـاه غيـر الجهـاد الحـق والبـيض والوشـيج الـدامي!

المرأة وحقوقها في الإسلام

أذكر أن السيد الصادق يومها سألني ما الذي تعتقدينه أشد ما يطعن به الطاعنون الإسلام من ناحية قضية المرأة؟ فقد كنت أثرت أمامه تساؤلات حول تفسير بعض الآيات التي تتخذ كدليل على قصور النساء، وقد روى لجماعة الثلاثاء التي أشرنا لها آنفاً إنه فكر في كتابة كتابه (المرأة وحقوقها في الإسلام) لمخاطبة أسئلة تحوم في رؤوس النساء المسلمات، وقال لهم: أريد أن تقولوا لي ما هي برأيكم أهم القضايا التي تشغل بال المرأة المسلمة والتي تجعلها تجد تناقضاً ما بين كونها مسلمة وكونها عصرية في ذات الآن؟

فكتاب المرأة الذي أكمله أوائل عام ١٩٨٥م كان يرد على الشبهات المثارة. ولكنه لم يكتف بتلك الشبهات التي أوردها الذين تناولوا هذا الأمر بالبحث، بل حرص على إدراك حتى تلك التي تدور في صدور المؤمنين والمؤمنات.

وأظن أن الاطلاع المكثف الذي سبق كتابة الكتاب كان أيام المعتقل الأخير. وفي الكتاب تلخيص لرؤى الأقدمين حول قضايا مختلفة منها الدية والولاية العامة والشهادة أو الإشهاد، والإرث ونقاش مسألة الحجاب وشرح تاريخ النقاب في المجتمعات الإسلامية؛ كما في الكتاب تلخيص لرؤى الحركة النسوية في الغرب وتطورها ومطالبها، وفيه تلخيص للمسألة العلمية والفروقات الفسيولوجية بين النساء والرجال، ثم في النهاية الأطروحة أن الاختلاف بين الجنسين هو اختلاف تكامل لا تفاضل، بتأكيد المساواة بين الجنسين إنسانياً وإيمانياً، وأن ما فات المرأة في بعض الأمور كالإرث معوض بسبقها في أمور أخرى كحسن الصحبة للأم، مع فتح المجال للمرأة في العمل وفي الشأن العام وعدم الحجر عليها.

وبعد كتابته وزع مسودته على عدد من النساء داخل كياننا طالبا منهن تقديم رؤاهن ومناقشة

الأفكار الواردة فيه.

وسنشرح لاحقا كيف تطورت رؤى السيد الصادق في هذه القضية في مقبل الأيام.

وأذكر أنه أعطاني نسخة من تلك المسودة حينما ذهبت إليه فجر يوم من مارس

١٩٨٥م، وكنت أزمع هجر امتحان الشهادة السودانية بعد أن كان أدائي في امتحان الكيمياء في أول يوم للامتحانات رديئاً جداً.

حاول الوالد الحبيب أن يثنيني عن فكرتي ويقول لي إن الهرب من أمام التحديات أمرٌ مذموم، وعلى المرء أن يواجه كل عقبة وكل معركة حتى النهاية، وحكى لي كيف أنه في الامتحانات التي كان عليه اجتيازها لدخول جامعة أوكسفرد كان يواجه مشكلة علم الجغرافيا فهو لم يدرسه وقد هجر التعليم النظامي ولم يسر بالسلم المعهود، وكانت الفترة ضيقة جداً. وقال لي إنني شمّرت عن ساعد الجد وألزمت نفسي بالمذاكرة أصل الليل بالنهار، وأبلل عيوني بالمكمدات الباردة مغالبة للنعاس، بطريقة جعلت الأستاذ المشرف عليّ يتعجّب، ففي فترة قصيرة جداً صرت مخزناً كبيراً لعلوم الجغرافيا بطريقة كما قال صارت المشكلة كيفية ترتيب تلك المعلومات بشكل منهجي. واستمر الوالد يذاكرني بضرورة الإقدام وخطل التراجع من أمام التحديات، ولكني وقفت صخرة صماء بأنني كنت مستعدة لإعادة السنة وهذا شيء طبيعي لممتحني الشهادة الثانوية في السودان خاصة تلك الأيام حيث الفرص محدودة يتقاتل عليها نحو مائة ألف من الممتحنين، ولكني لست مستعدة (للفضائح) بزعمي!

بعد أن آيس من إقناعي، قال لي إذا كان هذا خيارك فبها، ولكن إياك أن تغرقي في الأحزان والندم، وهذا كتاب جديد كتبته في أمر يهمك، خذيه واقرأيه بتمعن ثم اعطني ملحوظاتك، وكان ذلكم هو كتاب (المرأة وحقوقها في الإسلام) وكان يومها مطبوعاً على ورق (رونيو).

أخذت الكتاب وأزمعت أن أطالعه وأغالب به دموعي، ولكن مدرّساتي، حينما اكتشفوا غيابي عن الامتحان لحقوني في البيت واقتلعوني في حالة مزرية، ولم يكن بهن صبر على مجادلتي كما كان لأبي، ولا أعطينني براحه الذي أعطاني، ففرضن علي المواصلة فرضاً، وسقنني بسيارة الوكيلة، فواصلتُ الامتحانات، وحمدت الله أنني لم أضطر للإعادة.

إنني كلما أتأمل في سيرة الوالد معنا، والبراح الذي يعطيه لمن هم ضمن سلطته الأبوية التي لا تغالط، والحرية في الاختيار، أتعجب كيف يعن للبعض أن يصفه

بالدكتاتورية؟ لقد كانت أستاذاتي ديكتاتورات أكثر منه بما لا يقاس، وقد كانت ديكتاتورية حسنة المنقلب، لأنني لو كنت تركت وحريتي الرعناء تلك، وقد تركني ملتزماً بنهجه الذي لا يأمر ولا ينهى وصدّق إفاداتي المعطوبة التي لم تمر عليهن، لكنت أضعت عاماً من عمري فقط بسبب قراءات خاطئة.

لاحقاً وبعد الفراغ من الامتحانات تفرغتُ لالتهام (المرأة وحقوقها في الإسلام) الذي كان بلسماً لجراحات فقهية منكفئة كثيرة.. ويا للعجب، حينما تلقى السيد الصادق الإفادة الراجعة ممن شاورهم في المسودة، كان أغلب الرفض وعدم استساغة التجديد فيه قادم من الكادر النسوي. ربما لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن السيد الصادق قد كدّرهن بذات المستوى الذي لقيه زملاؤهن الذكور، وسوف يفعل ذلك لاحقاً وسوف تنبت زهور أمثال الخضراء (إيمان الخواض)، والحميراء (رشا عوض) وغيرهما، إن الزهور وإن ذهبت تزين مزهريات بعيدة، تظل مدينة للشجرة الأم!

مخاض الظلام.. عملية موسى

بإعلان النميري لقوانينه المجحفة باسم الإسلام دق أول مسمار في نعش نظامه.

وفي أوقات الزوال تلك، كانت آخر مخازي إمام القرن: ترحيله لليهود الأثيوبيين (الفلاشا) لدولة الكيان الصهيوني ليكونوا قوام مستوطنات جديدة على أراضي الفلسطينيين المحتلة.. أية خيانة دينية وقومية يا (أمير المؤمنين)! لقد شكل ترحيل الفلاشا من السودان إلى إسرائيل سراً آخر سقطات إمام القرن وآخر ملفات عصر الظلام!

تحت عنوان (مخاض الظلام..عملية موسى) وصف الأستاذ مصعب أحمد مضوي المرحلة الثانية من ترحيل الفلاشا اليهود الأثيوبيين سراً إلى إسرائيل عبر مطار الخرطوم في كتابه المخصص للقضية.

ويروي الأستاذ مصعب تفاصيل تلك العملية التي تفصّل عمالة نظام مايو. ويذكر كيف سعت إسرائيل لأمريكا أن تضغط على السودان ليهيئ هجرة اليهود الفلاشا الأثيوبيين سراً إلى إسرائيل.

ففي سبتمبر ١٩٨٤م أثناء زيارة إسحق شامير وزير الخارجية الإسرائيلي لواشنطن أجرى مع نظيره الأمريكي جورج شولتز مباحثات طلب فيها مساعدة أمريكا بإقناع

الرئيس جعفر نميري بالتعاون في نقل الفلاشا. ويقول إنه بعد قبوله للمبدأ أسند تفاصيل المهمة وتنفيذها لنائبه عمر محمد الطيب الذي كان أيضاً رئيس جهاز أمن الدولة يقابله في المسئولية من الجانب الأمريكي جيري ويفر المتخصص في شئون اللاجئين إضافة لرجال المخابرات الأمريكية والعناصر الصهيونية.

وبدأت المرحلة الأولى بنزوح الفلاشا سيراً على الأقدام من مواقعهم في الجبال الأثيوبية لمعسكرات اللاجئين في السودان في نوفمبر ١٩٨٤م. واستمرت المرحلة الثانية والمسماة (عملية موسي) منذ ٢١ نوفمبر ١٩٨٤م وحتى الخامس من يناير ١٩٨٥م، وفيها تم ترحيل ثمانية آلاف وثلاثمائة من الفلاشا جماعياً من معسكر تواوا للاجئين بشرق السودان براً إلى مطار الخرطوم ومنه عبر الجسر الجوي إلى إسرائيل حيث نظمت ٣٥ رحلة بالطائرة.

ولم يوقف العملية إلا افتضاحها. إذ قام رئيس الوزراء الإسرائيلي في مؤتمر صحفي في ٤ يناير بالإعلان عن عملية موسى مزهواً بما حققه لإنقاذ الفلاشا، فاضطرت السلطات المايوية لوقف العمليات في ٥ يناير بعد أن سمع رجال جهاز أمن الدولة السوداني خبر العملية من الإذاعة البريطانية مساء الرابع من يناير. وبتعبير مضوي (فأسقط في أيديهم وتبين لهم إنكشاف عورتهم بعد سقوط سراويلهم إلى تحت الركبة!)

وأصدرت وزارة الخارجية السودانية بياناً نفت فيه مشاركة السودان في عملية ترحيل اليهود الفلاشا! وقد انتشرت روح من انهيار المعنويات بين ضباط جهاز أمن الدولة، وحاول أحد ضباط الجهاز (الرائد أمن عبد الله عبد القيوم) الهرب من البلاد، وقبض عليه وهدد عمر الطيب من تبدو منه أي بادرة لهز الروح المعنوية.. وكان من آثار تلك الفضيحة تتالي الإدانات على السودان في العالم العربي والإسلامي بل والإفريقي الذي كانت حكومة السودان تتظاهر فيه بأنها ضد التدخل الصهيوني، و(من بعد الافتضاح الدولي المجلجل وتأزم الأحوال انقلب شركاء عملية الظلام يتلاومون).

ويكشف مصعب مدى عمالة النظامين الساداتي والنميري لأمريكا والعمليات العسكرية التي كانت تقوم بها أمريكا في المنطقة وفقاً لمناورات (النجم الساطع) التي اشتركت فيها القوات الأمريكية سريعة الانتشار والقوات المصرية ووحدات من القوات المسلحة السودانية. وقال إنه في حين رفضت أمريكا صفقة السلاح السعودية مدفوعة الثمن، كنت

تشاهد في ذات الوقت طائرات الإيواكس قابعة في مطار الخرطوم الدولي «المدني».

كما إنه رصد السخط الشعبي المتزايد على النظام جراء افتضاح عملية الظلام قائلاً: أدى الافتضاح المشين لحكومة الرئيس السابق جعفر نميري بتورطها في عملية نقل يهود الفلاشا إلى إسرائيل إلى اشتعال روح السخط بين قطاعات جماهير الشعب السوداني بمختلف مشاربها. وظهرت صحف الحائط بجامعة الخرطوم تحمل شعارات ساخرة معادية تنادي بسقوط نظام نميري الذي داس على كرامة الشعب السوداني.

وانتشرت الملصقات التي تحمل شعارات معادية لحكومة نميري على جدران المنازل والمحال وبالطرق الرئيسية بالخرطوم منددة، كما جرى توزيع المنشورات المعادية لحكومة نميري في المدارس والجامعات والأحياء السكنية وفي داخل دوواوين المصالح الحكومية. ووقف أئمة المساجد في المدن وفي بعض القرى السودانية الريفية يشجبون جريمة نقل يهود الفلاشا علناً ويستنكرون التعامل مع اليهود والصهاينة أعداء الإسلام والوطن[1].

كان المسمار الأول نقض النظام لاتفاقية السلام والحرب التي اندلعت فاستنزفته حتى النخاع.

وكان المسار الثاني تلك القوانين الشائهة، والادعاءات الباطلة من المخلوع وكل الناس كانت تعرف من هو وما علاقته بالدين الذي يستغله الآن مقصلة لترويع معارضيه.

وكان المسمار الثالث (عملية موسى) التي عرت (إمام القرن) وتركته مثل ذاك الفرعون الأحمق.

وكان المسمار الرابع اغتيال الأستاذ محمود الذي فضح جوره وفاقم الغضب ضده وحرك الجهات الحقوقية داخلياً وخارجياً تحركاً واسعاً..

ثم تتالت المسامير حتى اكتمل النعش وشيّع الظلام إلى مثواه في مزبلة التاريخ.

في الفصل القادم نروي مواكب الثورة، مراسم تشييع الظلام وبزوغ الصباح المنير!

(١) مصعب أحمد مضوي ترحيل الفلاشا الصفحات ١٦٢ وما قبلها

الفصل الثامن

بلا .. وانجلا ..

في هذا الفصل نسرد قصة دحر الظلام وانبلاج الصبح الوطني الذي بذلت فيه المهج والأرواح.

كنا قد ذكرنا آنفا نقض النظام لاتفاقية السلام وتجدد الحرب في مايو ١٩٨٣م بشكل ضغط على النظام بخسائر كثيرة.

كما ذكرنا تفاقم المواجهة بين النظام والهيئة القضائية مما أدى لسن قوانين سبتمبر التي خلقت مزيداً من الاستقطاب إذ اتخذها النظام وسيلة للبطش بالمعارضين وتصفيتهم وقد واجهت هذه القوانين المعيبة معارضة متزايدة داخلياً، كما أعطت المقاومة في الجنوب سنداً عالمياً وإقليمياً جديداً.

وذكرنا دور افتضاح (عملية موسى) بترحيل الفلاشا، وكذلك اغتيال الأستاذ محمود محمد طه في تنامي الغضب ضد النظام.

وكان النظام قد واجه عزلة قبلها عبر انتفاضة في كردفان عام ١٩٨٠م، وإضراب السكة حديد ١٩٨١م، وانتفاضة في عدد من المدن منها الخرطوم في يناير عام ١٩٨٢م.

قبل ذلك وبعده بحثت القوى النقابية والسياسية سبل توحيد مواقفها في مواجهة النظام.

ففي عام ١٩٨٤ بلورت أحزاب الأمة والاتحادي والشيوعي ميثاقا يوحد العمل الوطني الديموقراطي للاطاحة بالنظام بين أطراف جبهة المعارضة[١].

أما النقابات فقد تنامت حركتها وسعت لتنسيق عملها ما أسفر في النهاية تكوين التجمع النقابي.

(١) كمال الجزولي رزنامة الانتفاضة

وفي أواخر ١٩٨٤م فازت في انتخابات اتحاد جامعة أم درمان الإسلامية قائمة تمثل تحالف (التضامن الإسلامي) الذي ضم طلاب حزب الأمة والاتحاديين ومستقلين، وكان يقود ذلك التحالف طلاب حزب الأمة حيث كان رئيس الاتحاد هو الحبيب محمد أحمد سلامة، وفي عضوية الاتحاد الأستاذ طارق الجزولي من الاتحاديين وهو يرأس الآن تحرير صحيفة سودانايل الإلكترونية، وكان فيه كذلك الأحباب حمد الزناري، وصلاح بريمة، وغيرهم. كان هذا الاتحاد نظيفاً من (الاتجاه الإسلامي) وقد كانت هذه الجماعة منذ رجعت في المصالحة قررت الاشتراك في النظام بقلبها وربها، وصارت بعض فصائلها كتائب للنظام المايوي تحميه وتهش عنه المظاهرات في المدارس والجامعات.

وأذكر كنت حينها طالبة في مدرسة أم درمان الثانوية العليا، وكانت بعض زميلاتنا من الاتجاه الإسلامي «مخبرات» لدى الأمن نتحاشى أمامهن ذكر ما لا ينبغي للسلطة أن تطّلع عليه من أعمال المعارضة.

ولكن النميري اتخذ خطوة انفعالية فجائية ضد الأخوان المسلمين ساهمت في إحكام الحصار عليه بإفقاد معسكره لقطاع حيوي كان يساهم بفعالية في تعويق حركة المعارضة.

ففي ١٠ مارس ١٩٨٥م هجم النظام عليهم فجأة وأدخلهم المعتقلات. ولم يكونوا قد قاموا بأي نشاط معارض ولم يشتركوا في غضبة الشعب السوداني المتزايدة ضد النظام، وأذكر أن المدارس حينها كانت تقفل في الأسبوع الثاني من مارس لتتيح لطلبة الشهادة أن يمتحنوا في آخر الشهر، وحينما جئنا للمدرسة مرة أخرى للاطلاع على النتائج كانت صحيفة الاتجاه الإسلامي المعلقة في المدرسة تتحدث عن (الحكومة الرحيمة) بعد أن كان السفاح قد أطيح به، فهي آخر صحيفة كتبتها بنات الاتجاه الإسلامي في مارس ولكن بدّل الله حالاً بحال!

وبعضهم الآن يدعي أن اعتقالهم السبب في الانتفاضة كما فعل الأستاذ إبراهيم السنوسي! بينما الحقيقة أنهم لم يشتركوا في تحركات الانتفاضة وفي أحسن الأحوال كانوا يتفرجون. لكن صحيح إن ذلك الاعتقال ساهم في تذليل العقبات أمام الانتفاضة، وذلك بحرمان النظام من أكثر قطاعاته حيوية ومقدرة على إعاقة التحركات الشعبية.

مسألة اعتقال قادة جبهة الميثاق الإسلامي قبل أسبوعين من الانتفاضة لا زالت تحتاج لمعلومات أكثر لمعرفة أسبابها.

وقد سمعت على الأقل التحليلات التالية:

- التحليل الرسمي للجماعة الذي جاء في كتاب دكتور حسن مكي المؤرخ لحركتهم في الأعوام ١٩٦٩-١٩٨٥م، ويشي التحليل بأن النميري استمع لنصح الأمريكان الضائقين ذرعاً بتوجهه الإسلامي وتحالفه مع (الإسلاميين). ويذكر مكي أن جماعتهم عدّلت من موقفها من النظام منذ خطابه بمناسبة الاستقلال في يناير ١٩٨٥م، ومضت في كشف وانتقاد تهجير الفلاشا، ولكنه أكد أنه بالرغم من أنهم في اجتماع عقد مساء ٩ مارس ١٩٨٥م اطلعوا على معلومات بنية النظام البطش بهم إلا أنهم صدوها باعتبارها مبالغة أو وقيعة إذ لم يتصوروا حينها أن زيارة نائب الرئيس الأمريكي للسودان حينها (مارس ١٩٨٥م) سوف تثمر ذلك الخصام[(١)]. ويذهب المحبوب عبد السلام نفس مذهبه قائلاً: مع تزايد الحملة السياسية والإعلامية زار الخرطوم نائب الرئيس الأمريكي يومئذ جورج بوش الأب في طريقه إلى أديس أبابا وفي سياق حملة إغاثة الجوعى في البلدين .. وبعد يوم واحد من سفره كانت الموسيقى العسكرية تعزف مارشاتها صباح التاسع من مارس ١٩٨٥م فيما يشبه اجواء الانقلاب العسكري من إذاعة أم درمان ليجيء صوت النميري معلناً خاتمة علاقته الملتبسة مع الحركة الإسلامية في خطاب مضطرب يخلط الذم بالمدح وبعد ليلة شهدت جملة من الاعتقالات الواسعة). ولكن المحبوب يرجع القرار ليس فقط للتدخل الأمريكي ولكن انزعاج النظام قبلها من الشعبية التي حظيت بها حركتهم وتنظيمها للمسيرة المليونية التي عدها نصراً مشهوداً، وقال: لم يكن السائرون في المسيرة يعلمون أنهم سيضعون النميري أمام خيار الاحتفاظ بكرسيه أو الاحتفاظ بالشريعة ورموزها ولم تكتمل المسيرة إلا وقد قر رأي نميري على أن يضع نهاية لتحالفه مع الحركة الإسلامية[(٢)]. لا شك أن مقدرات جماعتهم كانت متفوقة على تكوينات مايو الفوقية الأخرى التي عجزت عن

(١) انظر حسن مكي تاريخ الحركة الإسلامية في السودان ١٩٦٩-١٩٨٥م، الدار السودانية للكتب، الصفحات ٢٠٦-٢٠٨

(٢) المحبوب، مرجع سابق ص ٤٩

التمدد شعبياً، ولكن لم يكن بالمسيرة (المليونية) فتح مبين وكانت الحشود المحدودة تذهب وتلف وتدور حول قاعة الصداقة وتأتي من جديد. ولكن النظام بعد اعتقالهم لم يستطع أن يجمع لمساندته يوم (مسيرة الردع) ولا جزء من حشد المسيرة المليونية نفسه.

- هنالك تحليل الأستاذ (محجوب عمر باشري) في كتابه (أإعدام شعب؟) وفي الحقيقة هذا الكتاب عجيب من ناحية القصص الفظيعة التي أثبتها باشري حول النميري وفيه كثير من القصص واللغط الذي كان يدور في القصر الجمهوري يرجعها لتقارير أمنية. الشاهد إن باشري يقول إن النميري قد أصيب بالجنون في أواخر أيام حكمه! وتفيد القصة الغريبة والتي يذيلها الكاتب بما يؤكد أنه رجع فيها لتقارير أمنية (في الأيام ٢٥-٢٦ يناير و٢ فبراير ١٩٨٥م) أن النميري ندم على مقتل الأستاذ محمود وسخط على كل الذين دفعوه في اتجاه قوانين سبتمبر و(فكر في اعتقال الأخوان المسلمين، وأحضر كل الملفات الخاصة بعوض الجيد محمد أحمد، والنيل أبو قرون، وبدرية سليمان)[١] وتوعد بهم. وقال في نهاية كتابه (تحدثنا عن الآلام التي أصابته بعد إعدام محمود والحالة التي اعترته وفكر في أشياء كثيرة بدأها باعتقال الأخوان المسلمين وطرد عمر محمد الطيب)[٢]. أي أنه إثر تلك الغضبة والندم الشديدين بطش بحلفائه الذين برعوا في تعطيل التحركات الشعبية ضده بحق.

- وتحليل الأستاذ مصعب أحمد مضوي ويقول إنه إثر افتضاح عملية ترحيل اليهود الفلاشا سعى بعض قادة جبهة الميثاق للاتصال بالعقيد أمن الفاتح عروة الذي تمت دعوته لاجتماع سري بحي الصافية بالخرطوم بحري لمناقشة أبعاد تورط النظام في ترحيل الفلاشا، وقد تمكن جهاز أمن الدولة من رصد الاجتماع السري عبر تسجيل صوتي كامل، مما جعل عمر الطيب يؤنب الفاتح عروة ثم ابتعثه للخارج، وبسبب هذا الاجتماع بادر اللواء عمر محمد الطيب لاحقاً إلى اعتقال قيادات الجبهة عندما ظهرت بوادر تضعضع النظام ومثوله للسقوط في مارس ١٩٨٥م.[٣]

---

(١) نفسه

(٢) نفسه صص ١٧٦

(٣) مصعب، سابق ص ١٦٣

- وهنالك تحليل آخر يذهب إلى أن الأخوان أحسوا بدنو أجل النظام بناء على قراءات سياسية، فقرروا الخروج من السفينة الغارقة في آخر لحظاتها، وبطريقة الخداع المعهودة سربوا كلاما لأمن النظام من أحد اجتماعاتهم يوحي بأنهم يخونون النظام، فكانت ردة فعله المتوقعة وهي البطش بهم. هذا التحليل يمكن قراءته مع تحليل مضوي أعلاه بأن تسريب الاجتماع كان مقصوداً من قادة جبهة الميثاق. وما يرشح من كتاب الأستاذ المحبوب عبد السلام يؤكد هذا التحليل، فقد أكد المحبوب أنهم كانوا يؤمّنون الاجتماعات القيادية، ولكن الأهم حديثه التالي: (أدخل الأمين العام تعديلاً واسعاً على المكتب التنفيذي للحركة قبل أسابيع من الاعتقال، فنجت كل عضوية المكتب التنفيذي من الاعتقالات سوى رئيس المكتب الأمين العام). فالتعديلات الفجائية توحي بخطة موضوعة مسبقاً! وهذا يعني في الحقيقة أن النميري لم يعتقل من قادة الجبهة الفاعلين إلا الترابي. وبالطبع تحركات هذه الجبهة السرية والمراوغة وصلت لحد تمثيليات استمرت لأشهر كما فعلوا لدى انقلابهم وهذا التحليل الأخير يتفق مع طبيعة الجبهة ومسيرتها.

ومهما كانت التحليلات لا يستطيع أحد أن يدعي بحق صلة لجبهة الميثاق بتفجير الانتفاضة ولا بإنجاحها. أما مجرد الادعاء فقد جاء في سرديات الدكتور حسن مكي الذي قال إنهم دفعوا باتجاه فوز قرار الخروج للشارع داخل اتحاد جامعة أم درمان الإسلامية وخرجت قاعدتهم برغم غلبة شباب حزب الأمة. وقال إنهم أخرجوا مظاهرات من الجامعات التي كانوا يسيطرون على اتحاداتها، وكذلك طلاب الاتجاه الإسلامي في المدارس[1]. ويرد على هذه المحاولة الآيسة في اللحاق بركب الانتفاضة أن اتحاد الإسلامية الذي سير موكب أم درمان في ٢٦ مارس كان بالأصل موجهاً ضد الاتجاه الإسلامي وقد حرّك الشارع لأنه كان اتحاداً (نظيفاً) منه فلا يمكنه التأثير على قراره، وهذا ينطبق على اتحاد معهد الكليات التكنلوجية الذي تسيد موكب الخرطوم في اليوم التالي والذي عبر عن عدائه لتنظيم الإسلامويين بحصبه واجهة بنك فيصل الإسلامي وهتافه ضد الاتجار بالدين. بعد ذلك انتقلت الكرة لملعب النقابات فلم يكن لمظاهرات أخرى تحدث عنها أثر. أما المدارس فقد كانت في إجازتها وكل طلاب

(١) نفسه

المدارس من أمثالنا إنما خرجوا مثلهم مثل بقية الشعب السوداني في المواكب العامة، وقد شهدنا وقوف طالبات الاتجاه الإسلامي في مصاطب الفرجة. ونحن نجد الاعتراف بالحقيقة كامن في حديث مكي نفسه إذ اعترف بأن قيادة الحركة عاشت أزمة في الأربعة أسابيع الممتدة من ١٠ مارس إلى ٥ أبريل متعلقة (بافتقار لمنهج مستقر لإحداث التغيير وإقامة البديل) وأن تلك الأسابيع (كشفت عن سوء تقدير الحركة لحقيقة تدهورمجمل أوضاع النظام: تصدع أمني وانهيار سياسي واقتصادي، وأن النظام قد فقد أسباب البقاء ومقوماته)[(١)].

المحاولة الشبيهة كانت بكلمات المحبوب الذي كرر الحديث حول اشتراكهم في تظاهرة أم درمان الإسلامية وحاول ربطها باعتقالهم مع أن المعلوم يقيناً أن الاتحاد الذي سيرها كان عدائياً للاتجاه الإسلامي، ولكن تحليلاً ساقه نعتقد بصحته لدرجة كبيرة، وهو أن كادرهم أفشل إضراب الأطباء عام ١٩٨٤م، وباستعداء النميري لهم فقد هذا الأثر في إضراب الأطباء عشية الانتفاضة، وهذا صحيح وقد سمعته من شخصية قيادية بحركتهم كانت غاضبة حينها من اعتقالهم والبطش بهم فقالت: النميري غبي، الأخوان كانوا «يحاحون» له المظاهرات في الشوارع. وهذا كان له أثر بالطبع في نجاح الانتفاضة.

لقاء الصادق الترابي الجمعة ١٥ فبراير ١٩٨٥م

في أحد أيام فبراير ١٩٨٥م، التقى السيد الصادق بالدكتور الترابي بمناسبة عقد قران أحد أفراد أسرة المهدي حضره الترابي كصهر للأسرة، وقال للصادق إني مسافر للعين لإلقاء محاضرة وأود قبل سفري أن ألقاك.

قال السيد الصادق[(٢)]:

(اتفقت مع حسن أن يحضر لملاقاتي بعد يومين لنلتقي صباح جمعة قبل سفره، وربما كان هذا في أواخر فبراير أو أوائل مارس ١٩٨٥م. الحقيقة، حينما قال لي حسن أود لقاءك تساءلت في نفسي هل أدرك أنه يشارك في نظام آفل؟ ونقلت تساؤلاتي لعمر[(٣)]

(١) حسن مكي، سابق ص ٢٠٨- ٢٠٩

(٢) وثقت هذه الرواية منه لغرض الكتاب في ٨ أكتوبر ٢٠١١م

(٣) يعني صديقه وزميله في العمل الوطني الدكتور عمر نور الدائم رحمه الله

وقلت له ما رأيك هل أدرك أن الأوضاع ذاهبة في التردي ويريدنا أن نساعده في الخروج من مستنقع مايو؟ ثم جاءني حسن وقال لي: قبل يومين كانت لدي مهمة في لجنة كادر للدولة وذهبت أسلم التقرير لنميري ولكن حسب الطريقة التي قابلني بها فإن لدي شعور قوي أنه يريد أن يعتمد علينا في مقبل الأيام. لذلك أريد أن أعرض عليكم أن تدخلوا معنا في السلطة ولا داعي لأن تستمر القطيعة.

استغربت جداً من ذلك المنطق الغافل، وقلت له إني يا حسن كنت متسائلاً هل تريد مقابلتي لتقول لي نريد أن نخرج من هذا النظام الآفل؟ وينبغي عليك أن تدرك أن الأمور في السودان ذاهبة نحو الهاوية، وهذا النظام «رايح.. رايح». وماذا تفعلون إذا ذهب؟ ألا تخاف على مستقبلكم حينها؟ فقال لي لا خوف البتة، ولو حدث تغيير فإننا سوف نحمي أنفسنا في الشارع، ولكن هذا النظام باقٍ ومستقر ولن يؤثر عليه شيء. ثم سافر العين وعاد وبعدها بأيام اعتقلوهم كلهم في ١٠ مارس ١٩٨٥م.)

وفي أجندة العام ١٩٨٥م وجدت السيد الصادق قد دون اللقاء الذي اتضح أنه تم في يوم الجمعة ١٥ فبراير ١٩٨٥م. كتب السيد الصادق التالي:

(لقاء حسن الجمعة:

١- يعتبر نميري given.

٢- يعتقد جماعته كسبت ومستمرة تكسب ولا يخشى عليها من الرأي العام السلبي ما دام لها قوة ذاتية.

٣- يعتقد أن (نميري)[1] عمل أشياء تسخيراً.)

ويبقى السؤال: هل كان دكتور الترابي يظن حقا أن النظام سرمدي ويريد أن (يمن) على حزب الأمة بالاشتراك معه في سطوة أعطاها إياهم النميري؟ أم أنه قرأ زواله في اللحظات الأخيرة، وأحب أن يورّط منافسه الأكبر في أي وضع ديمقراطي قادم، ظاناً منه أنه يخدعه، قبل أن يقفز من المركب الغرقان؟

الصادق حينما يروي القصة مصدقٌ لأن الترابي كان يظن النميري سرمدياً. بل هو

(١) الكلمة المكتوبة (نمر) ولكني أظنها من أخطاء العجلة.

يظن أن النميري هو الذي خدع الترابي فأوحى له بالقرب بينما كان ينوي التخلص منه[1].. وهذا بالطبع ممكن فالنميري متعود على المكر والخداع، ولكن أسلوب الجبهة القومية ليس بعيداً كذلك عن تلك الطريقة.. فكما وصف السيد الصادق حكومتهم الأخيرة: يؤشرون يمين وهم يزمعون الانعطاف يساراً!! وقراءة مشهد (رئيساً وحبيساً) الذي سوف نذكره في الجزء الرابع من الكتاب بإذن الله، ومشاهد أخرى كثيرة، لا تجعلنا بذات يقينية الصادق من أن ذلك اللقاء كان لنصح نصوح!

الشرارة الأولى

ذكرنا إن اتحاد جامعة أم درمان الإسلامية المنتخب حديثاً كان معارضاً للنظام، تسيطر عليه جبهة التضامن الإسلامي المكونة من طلاب حزب الأمة والاتحادي الديمقراطي وبعض المستقلين. فتجاوب مع السخط الشعبي المتزايد وسير مظاهرة في يوم ٢٦ مارس ١٩٨٥م. وتصدت لها السلطات بعنف فظيع قتلاً وضرباً واعتقالاً فاعتقلت رئيس الاتحاد محمد أحمد سلامة من حزب الأمة، وعدداً من أعضاء الاتحاد، وأدى البطش المتوحش بالطلاب لتفجر الغضب، وبكلمات الأستاذ كمال الجزولي: فإذا بعطر أكتوبر يضوع ، بسرعة البرق ، وإذا بالشعب يغدو واضحاً أنه على أتم الاستعداد للفداء في سبيل الاطاحة بالنظام.

يوميات الانتفاضة

من أجندة السيد الصادق في تلك الأيام أنقل يوميات الانتفاضة التالية:

الخميس ٢١ مارس ١٩٨٥م:

عباس وآخرون أفادوا أن اجتماع اللجنة المركزية بكامل هيئتها لم يسفر عن شيء وأنهم عائدون لعطبرة للتحضير لمواجهة السلطة. النصح: سيكون ذلك بموجب تنسيق.

الاثنين ٢٥ مارس ١٩٨٥م:

الهادي متحدثاً باسم أبنائنا في الاتحاد قال: سيخرجون في موكب غداً. قلت ينبغي

(١) هذا ما قاله في حلقة شاهد على العصر، الحلقة الثالثة عشرة، بتاريخ الأحد ١٨ أكتوبر.

التنسيق.

قالوا: الخط الخروج، قلت ليكن اختباراً للشارع.

الثلاثاء ٢٦ مارس ١٩٨٥م:

موكب جامعة أم درمان الذي تجاوب معه الشارع.

الأربعاء ٢٧ مارس ١٩٨٥م:

- موكب المعهد، جامعة القاهرة، معهد شمبات، تجاوب معه شارع الخرطوم واشتمل على شغب..الخ.
- سفر نميري وحصبه في الطريق.

الخميس ٢٨ مارس ١٩٨٥م:

استمرت مواكب الخرطوم ولجأ الأمن للضرب الغادر.

بيان نقابة أطباء مستشفى الخرطوم. (الإضراب من الخميس للسبت والمناشدة بإضراب عام).

الجمعة ٢٩ مارس:

وقوف الأحداث.

أمين مكي مدني: حضرت مندوباً لك من التجمع المهني. سيكون الموكب.

السبت ٣٠ مارس:

تجاوب نقابات أطباء المستشفيات الأخرى.

وهمس بموكب يوم الاثنين القادم.

موكب مدني وتقديم مذكرة من ١٤ نقابة تطالب بتصفية سلمية للنظام.

الأحد ٣١ مارس:

اجتماع أساتذة جامعة الخرطوم بعد توجيه الدعوة لاجتماع سياسي.

القرار:

(١) الإضراب.

(٢) الموكب الأربعاء القادم للتعبير عن الموقف.

اجتماعي الأول بمهدي بابو نمر في منزل حماد والتفاهم الأول: لكم دور، سنفعل شيئاً.

الاثنين ١ أبريل:

اجتماع مع توفيق خليل في منزل حماد باتصال عبد الرحمن والتفاهم على دور للقوات.

قال:

أ. القوات لن تضرب الناس.

ب. موقفها الإيجابي سيتوقف على تقويم موكبي الثلاثاء والأربعاء.

الثلاثاء ٢ أبريل:

موكب الثلاثاء:

١) عدد هزيل يمثل عصابات مايو.

٢) خطب متشنجة خصوصا أبو القاسم- أدان نميري- الرشيد- ألزم الله بنصرهم. أبو ساق نقبضهم كالأرانب نقتلهم كالعقارب..)

بعض مشاهد الانتفاضة

إن قصة الانتفاضة لم ترو بتفصيل من جميع الجهات بعد، ولكننا سوف نحاول نقل بعض المشاهد البارزة، ثم نأتي بشهادات السيد الصادق حول الانتفاضة وأهمها شهادتين: تلك التي أوردها في كتابه (الديمقراطية في السودان راجحة وعائدة)، وشهادته حول الانتفاضة في الذكرى الثانية للانتفاضة في كلمة ألقاها وكان حينها رئيساً لوزراء منتخب لحكومة الانتفاضة المباركة.

كان هناك التحرك في عطبرة والذي كان فيه موكب ضخم، وقد أشار السيد الصادق

في أجندته لنصح الوفد الذي زراه بضرورة التنسيق. بل كانت عطبرة ملتهبة منذ منتصف شهر مارس.

ثم كان موكب جامعة أم درمان الإسلامية الذي سار في يوم الثلاثاء ٢٦ مارس ونجد في أجندة السيد الصادق أنهم أخبروه ووافق على أن يكون اختباراً للشارع، وبالفعل كان الموكب ضخماً ووجد تجاوباً كبيراً من الشارع في أم درمان. حيث خرجوا للشارع في مظاهرة صاخبة اتجهت صوب جمعية ود نميري في أم درمان وحصبتها بالحجارة، وأحرقت سيارات كانت تقف أمام مبنى الجمعية[١].

ثم في يوم ٢٧ مارس موكب معهد الكيات التكنلوجية (المعهد الفني كما في مذكرات الإمام) وكان اتحاده يقوده تحالف بين الاتحاديين والبعثيين والناصريين[٢]، وطلاب جامعة القاهرة فرع الخرطوم، ومعهد شمبات والذي تجاوب معه الشارع كذلك.

موكب الخرطوم هذا هو الذي قام بحصب النميري وهو متجه للمطار في رحلته لواشنطن التي لم يعد منها. اتجه الموكب إلى منطقة السوق العربي حيث انضمت إليه مجموعات كبيرة من المشردين و(الشماشة) والعمال والعاطلين عن العمل وجميعهم مكتوٍ بنيران الأزمة الاقتصادية ممن أسمتهم صحف النظام ب(المتبطلين والمشردين واللصوص)، وكانت الهتافات: تسقط سلطة مايو، لن يحكمنا البنك الدولي، مليون شهيد لعهد جديد، عائد عائد يا أكتوبر، مية المية شعبنا جاع وضد نميري بالإجماع. وتوجهت المظاهرات للسفارة الأمريكية وقامت بحرق العلم الأمريكي، كما اتجهت صوب مبنى بنك فيصل الإسلامي وحطمت واجهاته الزجاجية ورددت هتافات ضد المتاجرة بالدين[٣].

وكانت قوات الأمن تصدت لموكبي أم درمان والخرطوم بعنف ظهر على جثث الشهداء مما أدخل أطباء مستشفى الخرطوم في الخط[٤]. فقد أعلن الأطباء أن استشهاد

(١) محمد علي جادين، تقييم تجربة الديمقراطية الثالثة في السودان، ص ٥٧

(٢) نفسه

(٣) نفسه

(٤) مدونات الحبيب

بعض المواطنين كان نتيجة طلقات نارية من مسافات قريبة متهمين عناصر الأمن بتلك الاغتيالات، وقد استشهد في أول يومين للانتفاضة خمسة شهداء هم: عبد الجليل طه علي، وليم، أزهري مصطفى، حامد حسن محمد والطفلة مشاعر مع ثلاثين من الجرحى[1].

في يوم الخميس ٢٨ مارس كانت المواكب مستمرة ولجأ الأمن للضرب الغادر، فأصدرت نقابة أطباء مستشفى الخرطوم بياناً تدعو فيه للإضراب من الخميس للسبت والمناشدة بإضراب عام. وفي الوقت نفسه قامت نقابة المحامين بتشكيل مجموعات للدفاع عن المعتقلين الذين كانوا يقدمون لمحاكمات إيجازية، وقد وصل عددهم إلى ٢٦٥٠ معتقلاً في اليوم الرابع للانتفاضة[2].

ومساء نفس اليوم، أي ٢٨ مارس، داهمت قوات الأمن اجتماعا بدار نقابة المحامين وكانت تزمع اعتقال عدد من المحامين منهم عمر عبد العاطي، وأمين مكي مدني، سليم عيسى، مصطفى عبد القادر، وكمال الجزولي، ولكن أميناً لم يكن موجوداً، ورجال الأمن الحاضرين لم يكونوا قد تعرفوا سوى على مصطفى عبد القادر وكمال الجزولي فاعتقلوهما.

وفي يوم الجمعة ٢٩ مارس بدأ التنسيق بين التجمع المهني وبين القوى السياسية حيث كانت قد اجتمعت على مطالب، فتم لقاء بين السيد الصادق والدكتور أمين مكي مدني الذي أخبره عن نية النقابات تسيير موكب للتعبير عن مطالب الشعب السوداني، وتفاكرا حول الميثاق واتفقا على لقاء آخر يسلم السيد الصادق الدكتور أمين مكي مدني مسودة لميثاق وطني ليكون هادياً للانتفاضة، وهو ما تم لاحقاً يوم ٢ أبريل مثلما سوف نرى.

وبالفعل تم الإضراب يوم السبت ٣٠ مارس، وتجاوب أطباء في مستشفيات أخرى، وأعلنت الهيئة النقابية لأطباء مستشفى الخرطوم تمديد الإضراب ليومين تاليين، وأعلنت الهيئة العامة لأطباء السودان تبني توصيات أطباء الخرطوم بالدعوة للإضراب العام والتنسيق مع النقابات الأخرى.

---

(١) جادين، سابق ص ٥٨

(٢) جادين، سابق ص ٥٨

وفي نفس يوم السبت ٣٠ مارس كان موكب مدني المهيب الذي تقدمت فيه ١٤ نقابة بمذكرة تطالب بتصفية سلمية للنظام.

وفي يوم الأحد ٣١ مارس دعا أساتذة جامعة الخرطوم لاجتماع أعلنوا فيه الإضراب المفتوح ودعوا لموكب يسير في يوم الأربعاء ٣ أبريل.[١] كما داهمت قوات الأمن دار اتحاد طلاب جامعة الخرطوم واعتقلت جميع من كانوا في الدار مع مصادرة ماكينات الطباعة[٢].

وفي ٣١ مارس سعى السيد الصادق للتنسيق مع القوات المسلحة وذلك بلقاء عقد مع اللواء مهدي بابو نمر والذي قال إنهم سيفعلون شيئاً. وفي يوم الاثنين ١ أبريل اجتمع كذلك مع الفريق توفيق محمد خليل والذي أكد أن القوات المسلحة لن تضرب الناس، وأن موقفها الإيجابي سيستند على تقييم موكبي الثلاثاء (الذي أعلنه النظام للردع)، والأربعاء (الذي أعلنته المعارضة للتعبير عن مطالبها).

وفي نفس يوم الاثنين ١ أبريل في المساء عقد التجمع النقابي اجتماعاً هاماً في حديقة نادي الخريجين بالخرطوم بحري لتنظيم موكب الأربعاء (الثالث من أبريل) وتقديم مذكرة وتصعيد المواجهة وكلف السيد أمين مكي مدني بنقل تلك المقترحات للقوى السياسية[٣].

في يوم ٢ أبريل نظم النظام موكباً هزيلاً سماه موكب الردع تحدث فيه قادة النظام أبو القاسم محمد إبراهيم والرشيد الطاهر أحاديث مستنكرة. أبو القاسم قال: (إننا نواجههم بمسيرة الردع، هؤلاء تعودوا أن يطوعوا الضعفاء، هذا هو تاريخ الحزبية وتاريخ الطائفية، نحن نخرج للشعب ولم نراهم يوماً واحداً مع الشعب نحن نشاهدهم في أبراجهم يحلمون بأكتوبر جديد ونسوا أننا صناع أكتوبر)[٤]! وتوعد فيه وزير الإعلام حينها محمد عثمان أبو ساق إنهم سوف يتعقبون المتظاهرين «يقبضونهم كالأرانب

(١) مدونات الحبيب

(٢) جادين، السابق

(٣) الجزولي، سابق، وجادين، سابق

(٤) جادين، ص ٦١

ويقتلونهم كالعقارب»[١]. أما الرشيد الطاهر بكر الذي اعتبر السيد الصادق في مدوناته أن في كلمته إدانة للنظام فقد أشار للظروف الاقتصادية الصعبة واهتمام السلطة بتخفيف المعاناة عن كاهل الشعب[٢].

وفي نفس اليوم ذهب السيد أمين للسيد الصادق بمنزله حسب الاتفاق. يقول الأستاذ كمال الجزولي: وعندما وصل أمين إلى منزل الصادق، ضحى اليوم التالي، الثاني من أبريل، في سباق مع (موكب الردع) ، كان الأخير يتأهب للاختفاء تفادياً لشل حركته في تلك الظروف. هكذا، وعلى عجل، سلمه أمين تصور النقابات، واستلم منه الميثاق المقترح من القوى السياسية مكتوباً بخط يده، كما حصُل منه، مثلما كان قد حصُل قبلها من القوى السياسية الأخرى على دعم وتوجيه بالمشاركة في موكب الغد، ثم اتفق الرجلان على استمرار اتصالاتهما عن طريق المرحوم عمر نور الدائم والمرحوم صلاح عبد السلام وآخرين[٣].

في يوم الأربعاء ٣ أبريل سار موكب الانتفاضة الذي التفت حوله القوى السياسية والنقابية وأعلن فيه الإضراب العام والعصيان المدني حتى النصر.

الشاهد، بالفعل اختفى السيد الصادق تلك الأيام في بيت بالخرطوم، ولم نعد نره إلا هو ودكتور عمر محمولاً في المواكب التي تلت. وقد كان موكب الثالث من أبريل ضخماً مهيباً اشتركت فيه جماهير غفيرة متجهة صوب شارع القصر.. وأذكر أنني شاركت في ذلك الموكب وأذكر الهتافات الداوية: بالروح.. بالدم، نفديك يا سودان! عائد عائد يا أكتوبر.. والروح الثائرة والفدائية التي كانت تلف الجمع الغفير.

وبإعلان العصيان المدني واستمرار الانتفاضة انقطع التيار الكهربائي وتعطلت خطوط الهاتف والاتصالات والمواصلات العامة وتوقفت حركة الملاحة الجوية، وابتداء من مساء الأربعاء تحولت التظاهرات إلى الأحياء السكنية وظلت تتصل ليلاً ونهاراً حتى الساعة الثانية صباحاً[٤].

---

(١) مدونات الحبيب

(٢) جادين، السابق

(٣) الجزولي ، سابق

(٤) جادين، سابق ص ٦٢

صاغ السيد الصادق المهدي مسودة ميثاق الانتفاضة، وعكفت نقابات: هيئة أساتذة جامعة الخرطوم، نقابات المهندسين والأطباء، والمحامين، والمصارف والتأمينات الاجتماعية على مناقشة المسودة وإضافة تعديلات عليها[1].

واتفق على اجتماع مشترك بين ممثلي الأحزاب السياسية والتجمع النقابي صباح الجمعة ٥ أبريل لمراجعة التعديلات والتوقيع على الميثاق، ثم تأجّل للسابعة مساء نفس اليوم في منزل بالخرطوم، وفي ذلك الاجتماع أثار متحدث من النقابيين مسألة دور الأحزاب السياسية وأنها كانت غائبة ورد ممثل الأحزاب بأنهم قوة ثابتة ناصبها النظام العداء منذ ٢٥ مايو ١٩٦٩م، وفي النهاية فض الاشتباك وتم الاتفاق على التعديلات في الميثاق وعلى دور الأحزاب والاعتراف بدور التجمع النقابي، وصيغت المسودة النهائية بخط دكتور أمين مكي مدني ووقع عليها الجميع[2]. وبعد نجاح الانتفاضة قام الدكتور أمين مكي مدني بعمل نسخة من ورقة الميثاق النهائية ووضع النسخة الأصلية من الميثاق والتي كان بخط يده بتوقيعات الجميع وملاحظاتهم في إطار زجاجي وسلمها للسيد الصادق المهدي[3]. لعل ذلك اعترافاً بدوره في صياغة الميثاق بداية.

(نص الميثاق موجود بملاحق الكتاب)

خطبة الجمعة ٥ أبريل.. الحمد لله الذي يمهل ولا يهمل

تعد هذه الخطبة من أهم مشاهد الانتفاضة لذلك أفردنا لها قسماً منفصلاً..

كان السيد الصادق كما قلنا مختفياً من الملاحقات الأمنية، أسوة بالعديد من قادة النقابات والأحزاب المشتركين في الانتفاضة يومها، ولكنه اعتلى ظهر الجمعة منبر مسجد الهجرة بودنوباوي وخطب في المصلين بحديث تعبوي من الدرجة الأولى فبدأ بقوله «الحمد لله الذي يمهل ولا يهمل» وتطرق للمشهد الوطني الثائر وقال «*القاعدون عن هذا الزحف المقدس قاعدون عن نداء الوطن متخلفون عن مسيرة التاريخ*»، ومن

(١) محمد سعيد محمد الحسن وقائع أطول يوم في تاريخ السودان الحديث دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ٢٩

(٢) الحسن، المرجع السابق ص ٣٣، وجزولي، مرجع سابق

(٣) الجزولي سابق

الجامع خرجت المظاهرات التي جابت أم درمان. ولم تقف المظاهرات في أم درمان حتى مساء الخامس من أبريل.

كتب الأستاذ محمد سعيد محمد الحسن وهو يؤرخ ليوم الانتفاضة (كان أخطر وأسرع ما تناقله المواطنون ظهر هذا اليوم الجمعة.. خطبة الصادق المهدي التي ألقاها في مسجد الهجرة بودنوباوي، حيث شن هجوماً مباشراً على النظام الذي جثم على صدر الوطن ستة عشر عاما)..(ورغم أن الخطبة ألقيت في مسجد ودنوباوي بأم درمان، فسرعان ما جرى نقلها إلى الخرطوم والخرطوم بحري والامتدادات، وحرص من سمعها على تسجيلها لنقلها بدوره إلى غيره من معارفه وأصدقائه).[1]

ولأهمية هذه الخطبة وتاريخيتها وقصرها، نورد نصها كاملاً:

بسم الله الرحمن الرحيم، *الحمد لله الذي يمهل ولا يهمل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وبعد-*

قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾[2].

أيها الأحباب في الدين والوطن

هذا النظام الذي يحكم السودان الآن جثم على صدر الوطن ستة عشر عاماً عجافاً ظلم فيها الناس وكذب عليهم، وأفسد الحياة الخاصة والعامة وسلط على الشعب سياط البطش والاستبداد داخلياً وجر على الوطن عار التبعية الأجنبية مهدراً السيادة الوطنية، وأثناء هذه الفترة ظل النظام يوهم الشعب بشعارات جوفاء كالتنمية والحكم الإقليمي، حتى إذا انكشفت الشعارات وبطل مفعولها تلفت محتاراً وختم حيرته برفع شعار الإسلام.

لم يطبق النظام من الإسلام إلا الجلد والقطع والصلب وترويع المواطنين. فعل ما

(١) محمد سعيد محمد الحسن وقائع أطول يوم في تاريخ السودان الحديث، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ١٧-١٨

(٢) سورة يوسف الآية ١١٠

فعل باسم الإسلام مع أن دين الله هو الرحمة والعدل والتعاون.. إن العقوبات في الإسلام إجراءات رادعة مقصود بها حماية النظام الإسلامي الاجتماعي الذي يقوم سياسياً على الشورى، واقتصادياً على التكافل، واجتماعياً على الإخاء. والعقوبة في الشريعة واحدة من ست وسائل لمحاربة الجريمة هي: الإيمان، والتربية، والرأي العام، والعفو، وإزالة الضرورة، ثم العقوبة.

إن النظام المايوي لم يوظف العقوبات الإسلامية في حماية نظام اجتماعي إسلامي، ولم يوظفها ضمن وسائل أخرى لمحاربة الجريمة بل طبقها مبتورة ووظفها في حماية نظام مستبد ونظام اقتصادي مستغل، ونظام اجتماعي قائم على المحسوبية. إن تجربة هذا النظام «الإسلامية» تشويه للإسلام وتنفير منه، ونهج مبتور يدخل في وعيد قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾[(1)].

أيها الأحباب في الدين والوطن

لقد نبهنا من هذا المنبر ومنابر أخرى للأخطاء، وكم قاومنا وكم انتفض أهلنا في الجزيرة أبا وفي ودنوباوي وفي شعبان وفي يوليو، وكم تكررت المحاولات العسكرية للإصلاح والتصحيح، وكم وقعت الإضرابات والاعتصامات والانتفاضات في كردفان ودارفور وعطبرة وغيرها، ولكن تلك التحركات لم تفلح في اقتلاع النظام ولا في إصلاحه، بل استمر كما هو مع مزيد من القهر واستخفاف بالناس وبترويج لمقولة أن الشعب السوداني استكان ورضي بالهوان و« لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» .

وها هو شعب السودان أطفالاً ونساءً، شيباً وشباباً يفجر ثورة رجب المجيدة مقدماً البرهان مرة أخرى على حيويته وإقدامه.

ولقد أسفرت شعاعات الصبح واتحدت كلمة الشعب. وكل واحد منا وواحدة مطالب بالمشاركة في إنقاذ الوطن وفي مولد السودان الجديد. **القاعدون عن هذا الزحف المقدس قاعدون عن نداء الوطن متخلفون عن مسيرة التاريخ**. قال صلى الله عليه وسلم:

(١) سورة البقرة الآية رقم (٨٥)

من لم يهتم لأمر المسلمين ليس منهم، أو كما قال. استغفروا الله.

الخطبة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله قال: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[1]. والصلاة والسلام على سيدنا محمد قال: إن المنبت لا أرضا قطع ولا ماء أبقى.

في يوم الثلاثاء الخامس من رجب ثار طلبة جامعة أم درمان الإسلامية بقيادة اتحادهم يعبرون عن ضمير أمتهم في رفض نظام الظلم والمطالبة بالحرية والكرامة، ثم تلى ذلك مواكب، ثم جاء موكب مدني العظيم الذي انتظم القوى المهنية والفئوية في موقف واحد عبرت عنه مذكرة قوية تدين النظام الظالم وتطالب بإقامة نظام ديمقراطي بأسلوب سلمي. ثم جاء موكب الأربعاء الثالث عشر من رجب الذي نظمه المهنيون السودانيون، فانتظم القوى السياسية والشعبية، والذي أفضى إلى إعلان ميثاق قومي لتجمع القوى الشعبية لإنقاذ الوطن. الميثاق الذي أعلن الإضراب السياسي حتى نهاية سلطة الفرد، وحدد النظام البديل الذي يطالب به شعبنا. ومنذ الأربعاء تعاقبت الأحياء في أنحاء العاصمة المختلفة، وسيقوم غدا موكب آخر في الخرطوم ليعلم الجميع أن الشعب السوداني قد اتحد وأن مطالبه قد تحددت وأنه عازم على انتزاع حريته وكرامته بإذن الله.

إن ثورة الشعب أيها الأحباب في رجب ماضية في سبيلها بعون الله وتوفيقه وعلينا جميعا تفادي المزالق، فلا نخرّب ولا نسمح لأحد أن يمزق وحدة الشعب لأغراض شخصية أو حزبية- لقد صارت حرية بلادنا قاب قوسين أو أدنى، فلنمض إلى سبيلنا حتى التحرير ثم إنقاذ الوطن، حريصين على نفي التشوهات التي لحقت بالإسلام وعلى حل مشكلة الجنوب حلاً سلمياً عادلاً وعلى توفير المعايش لأهل السودان وعلى إنقاذ الاقتصاد السوداني وتنميته وعلى إدارة شئون البلاد في نظام الحرية والديمقراطية.

لقد لجأ أيها الأحباب النظام كعادته لنكران الحقائق، وسيلجأ إلى القهر عن طريق

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم (١٠٣)

إعلان حالة الطوارئ لاستخدام القوات المسلحة في مهام الحفاظ على السلطة. لقد زج النظام بالقوات المسلحة والقوات النظامية الأخرى في الدفاع عن حماقاته السياسية واستبداده.

هذه القوات من أبناء الشعب المظلوم الضائع قد آن لها أن تنفض يدها لكي لا تسخر في مصالح النظام وشهواته الانتقامية، إذ يريد أن يقبض الناس كالأرانب، وأن يقتلهم كالعقارب. آن الأوان ليثور الشعب والجيش وسائر القوات النظامية في حركة إنقاذ للإسلام وللسودان.

اللهم احفظ السودان والسودانيين، اللهم اخذل الظلمة المعتدين، اللهم ارفع بأهل السودان في ظل الحرية راية الدين، اللهم وفقنا لمسح دموع المستضعفين، اللهم ارحم شهداءنا، وادعم في طريق الحق خطانا. آمين.

اقتناع الفريق سوار الذهب

ضمن الاتصالات بكبار الضباط اتصل السيد الصادق بالعميد فضل الله برمة (قائد منطقة بحري الفرعية وقائد سلاح النقل يومذاك) والذي أظهر تعاطفاً مع الانتفاضة وأكد وقوف هيئة الأركان بجانب الشعب، وطلب منه السيد الصادق إقناع الفريق عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب وكان قائداً عاماً للقوات المسلحة منذ يناير ١٩٨٥م. قالوا له إن هيئة الأركان حزمت أمرها على الانحياز للشعب وسواء أقبلت أم لم تقبل سوف يحدث التغيير.

الفريق سوار الذهب كان قد اختير قائداً عاماً في فترة وجيزة بعد أن ظل النميري ممسكاً بالمنصب لثلاث سنوات كاملة، وذلك لأن سوار الذهب كان (رجلا مأمونا لا طموحات له، كان الجميع يطلق عليه لقب «مولانا» حتى الجنوبيين)[1] فهو باتجاهاته الدينية وشخصيته كان مأمون الجانب بالنسبة للنميري خاصة وقد بايعه إماماً.

ويشرح السيد السر أحمد السعيد وهو ضباط سابق بالقوات المسلحة موقف سوار الذهب قائلاً: في نهار الجمعة ٥ أبريل ١٩٨٥م وعند صلاة الجمعة في مسجد قيادة

(١) السر أحمد سعيد السيف والطغاة، ٢٠٠١ ، ص ٩٩

القوات المحمولة جواً، وقد رفع استعداد القوات المسلحة آنذاك إلى ١٠٠٪، وبعد أداء الصلاة والمسجد مكتظاً بالضباط والجنود، وكنت واحداً من الحاضرين، وقف الفريق سوار الذهب القائد العام للقوات المسلحة وألقى حديثاً طويلاً على المصلين مفاده أن الشريعة الإسلامية التي أعلنها الرئيس النميري ستبقى، أكد بوضوح أن الرئيس النميري الرجل الذي أعلن الشريعة سيبقى أيضاً، لأننا قد بايعناه على ذلك، وإن تحركات الشيوعيين في القيام بالمظاهرات وقطع الكهرباء والتخريب وخلافه لن تخيفنا. كان بادي الانفعال إلى درجة جعلت كل من بالمسجد يوقن أن الفريق سوار الذهب متمسك بقائده الأعلى، وأيما تمسك![1]

ولكن في ذلك اليوم الطويل الذي حق له أن يوصف بأنه أطول يوم في تاريخ السودان الحديث، حدثت أحداث كثيرة، فقد تحرك أعضاء مجلس القيادة بين القيادات المختلفة في المهندسين والشجرة وغيرها وتأكد لهم أن كل الوحدات في حالة أشبه بالتمرد، وتم الاتصال بهم من قيادة الانتفاضة السياسية، وفي النهاية لدى اجتماعهم بالقيادة العامة في السادسة من صباح السبت السادس من أبريل كانت مواقف سوار الذهب قد ماعت، وخرج قرار الانحياز من فم العميد عثمان عبد الله وقد أيده جميع القادة، وبين السادسة والسابعة صباحاً كتب العميد عثمان البيان الأول «بخط يده المتميز» و«بدأت محاولات إقناع الفريق عبد الرحمن سوار الذهب لإلقاء البيان باعتباره القائد العام، وبعد جهد استغرق ما يقارب الساعتين، وبعد استصدار فتوى له بأن بيعته لإمامة النميري باطلة من أساسها، وللحفاظ على وحدة القوات المسلحة، اقتنع بأن يذيع بيان نجاح الانتفاضة واضعاً النهاية للدولة المايوية. في صباح ذلك اليوم السبت ٦ أبريل ١٩٨٥م وفي حوالي سعت ٩١٥[2] منه وفي حوالي الأربعة دقائق ونصف تقريبا ألقى الفريق سوار الذهب بياناً مسح به ما يقارب الستة عشر عاما هي كل عمر النظام المايوي».[3]

(١) نفسه ص ١٠٤

(٢) هذه هي الطريقة العسكرية في كتابة الزمن، فسعت تعني الساعة، و٩١٥ تعني ٩:١٥ أي التاسعة والربع.

(٣) سعيد،سابق ص ١٠٨

هيئة القيادة كانت تتكون من الفريق سوار الذهب (القائد العام)، ونائبه (الفريق تاج الدين عبد الله فضل)، ورئيس هيئة الإدارة (الفريق بحري يوسف حسين)، ورئيس هيئة الإمداد (الفريق توفيق خليل)، ومدير فرع العمليات الحربية (العميد الركن عثمان عبد الله)، ومدير الاستخبارات العسكرية (العميد فارس عبد الله حسني).

اختار الفريق سوار الذهب ألا يكون طريداً كالمستشار، ولكن قيل إنه لم يكن راضياً بما اعتبره (حنثا للقسم وللبيعة التي في عنقه للإمام الهارب) وصام لله ثلاثة أيام تكفيراً عن ذنب تسليم السلطة للشعب! ويثبت هذه الأقاويل أنه حينما انقض انقلاب «الإنقاذ» على الديمقراطية في ٣٠ يونيو ١٩٨٩م ذهب للانقلابيين مباركاً وقال إن الوديعة أعيدت لأهلها! وبالرغم من ذلك اكتسب حمداً على فعل فعله مرغماً لا بطلاً!

بلا.. وانجلا

في صباح السبت السادس من أبريل أعلن الجيش إذن انحيازه للشعب، وخرج الشعب عن بكرة أبيه في مهرجانات الفرح.. قال شاعرنا الكبير سيد أحمد الحردلو، رحمه الله:

طبل العز ضرب

يا السرة قومى خلاص

والبنوت زغاريدن تجيب الطاش

والخيل عركسن

والدنيا بوق ونحاس

والجنيات هديك

فى الساحة ختوا الساس

السودان خلاص يا السرة قام دواس

شد سواعدو تاني وشيد المتراس

**

طبل العز ضرب

والخيل تسابق الخيل

من آخر الجنوب لى عطبرة وتوتيل

يا شدر المشاب قوم نمشى بحر النيل

يا لوز القطن قوم تانى فرهد وشيل

وأرقص يا نخيل فوق السواقى وميل

السودان خلاص داير السمح وعديل

كسّر قيدو تانى وقام جميل بالحيل

**

طبل العز ضرب

حيا عليك يا فلاح

والاذان نده حيا عليك يا صباح

شايل النور ومالى بالاغانى الساح

والظالم وقع

يا السرة داوى جراح

خلى الناس تنوم بعد الشقا وترتاح

**

طبل العز ضرب

يا السرة قومى خلاص

شايل النور ومال بالاغانى الساح

والشارع مرق ثائر يسوى التاح

**

طبل العز ضرب

يا السرة قومى خلاص

حق الناس رجع

بى المدفع الرشاش

يا ويل من ظلم هذا البلد يا ناس

السوداني طيّب

الا كلو حماس

حين يزعل يخلي ديار عدوهو يباس

وقال شاعر الشعب محجوب شريف رحمه الله شعراً كثيراً عذبا منه:

بلا .. وانجلا..

حمد الله ألف على السلامة

إنهد كتف المقصلة

والسجن..ترباسو انخلع

تحت انفجار الزلزلة

والشعب.. بى أسرو اندلع

حرر مساجينو وطلع

قرّر ختام المهزلة

يا شارعاً.. سوّا البدع

أذهلت أسماع الملا

كالبحر.. دواي الجلجلة

فتحت شبابيكا المدن

للشمسِ واتشابا الخلا

ومنه:

يا شعباً لهبك ثوريتك

تلقى مرادك والفى نيتك

وعمق إحساسك بى حريتك

يبقى ملامح فى ذريتك

على أجنحة الفجر ترفرف

فوق أعلامك

ومن بينات أكمامك تطلع

شمس أعراسك

ماك هويّن سهل قيادك

سيد نفسك.. مين اسيادك ؟

ديل أولادك وديل أمجادك

ونيلك هيلك جرى قدامك

تحت أقدامك

رجع صداك وسجع نحاسك

وقال الأستاذ عبد الكريم الكابلي:

ليس في الأمر عجب

إنّه ما قد وجب

في جمادى أو رجب

كلما القهر سلب

حق شعبي واغتصب

فوقه الشعب وثب

لهب اثر لهب

غضب تلو غضب

فتوارى وانتحب

ثم ولى واحتجب

وقال الشاعر الحبيب حامد عيشاب:

الشعب انتفض يا مايو وينو نميرك؟

أصبح فار وفز ياما فقدتي حميرك

لأنك كنت شلة وطايشة غاشة ضميرك

وقايلة الشعب ما بقدر على تدميرك

اتبجحتو بي قصة خرافة أب عاج

بقيتو لصوص ولي راحة البلد إزعاج

قبيل ما قلتو نحن نمور يا عجعاج

وكت الشعب نتر مالكم بقيتو نعاج؟

وفعلا.. كان ظلام أب عاج قد طال في ليل طويل مدلهم. ولم نستطع أن نحمده برغم الفجر الذي انبلج، مثلما فعل الشاعر الأستاذ أبو القاسم عثمان غداة ثورة أكتوبر إذ قال:

والشعب إن رام الحياة عزيزة ... ونت الصخور ولانت الأحجار

إني حمدت الليل في إسرائه ... فالليل آخره ضحى ونهار

رواية السيد الصادق للانتفاضة

وسرد الصادق أحداث الانتفاضة في مناسبات عديدة، انتخبنا منها اثنتين: ما ذكره في كتاب (الديمقراطية عائدة وراجحة)، وما ذكره في الذكرى الثانية للانتفاضة..

في كتاب الديمقراطية[1]:

(لقد اعتادت الحركة الطالبية السودانية أن تكون ضمير شعبها في السودان وكانت رأس الرمح في التعبير عن مواقفه يساعدها على ذلك حماسة الشباب ومثاليته، وتجمعها بأعداد كبيرة في مواقع الدرس والتحصيل ودور الجامعات والمعاهد.

إن لحركة الاخوان المسلمين باعاً طويلاً في العمل الطالبي، مما أدى لتبعية معظم الاتحادات الطالبية لها. هذه التعبية مكنت الأخوان المسلمين لبعض الوقت من تجميد دور الطلبة الريادي المعهود ازاء القضايا المصيرية.

وفي أكتوبر ١٩٨٣م استطاع الطلبة الأنصار في جامعة أم درمان الاسلامية أن يكونوا تحالفاً طالبياً هزم الاخوان المسلمين، مزيحاً لهم من قيادة اتحاد الطلبة، فتم تكوين اتحاد طالبي من قوى هذا التحالف الجديد. فسير الاتحاد الجديد موكباً معارضاً للسلطة في ٢٦ مارس ١٩٨٥م، فتحالفت مع هذا الموكب قطاعات أخرى من قواعد الطلبة والمواطنين فكانت رأس الرمح لانتفاضة رجب/ أبريل ١٩٨٥م.

دعت نقابة أساتذة جامعة الخرطوم لموكب يبرز المعارضة للنظام في يوم ٣ أبريل ١٩٨٥م واستجاب للدعوة عدد من النقابات المهنية، الأطباء، المهندسون، المحامون، البنوك، المحاسبون والصيارفة، وقبل خروج هذا الموكب أعلن النظام لموكب أسماه موكب الردع يوم الثلاثاء ٢ أبريل ١٩٨٥م.

كان موكب الردع هزيلاً وكان موكب الأربعاء ضخماً عظيماً، اشتركت فيه النقابات المذكورة والأحزاب السياسية السودانية، وعندما تم بحث الدور السياسي المطلوب من موكب الأربعاء كان الرأي أن يكون:

أ-التوقيع على ميثاق وطني يضم كل القوى السياسية المشاركة في الموكب.

---

(١) الصادق المهدي الديمقراطية في السودان راجحة وعائدة

ب- إعلان إضراب سياسي يلتزم به ويعمل له الجميع حتى سقوط النظام المايوي.

وفي مساء يوم الثلاثاء ٢ أبريل كتبتُ بخط يدي مشروع الميثاق الوطني وقمتُ بتسليمه للسيد أمين مكي مدني فأوصله للآخرين حيث وافقوا عليه وتم توقيعه مساء الجمعة ٥ ابريل ١٩٨٥م من قبل الاحزاب: حزب الامة، الاتحادي الديمقراطي، الحزب الشيوعي، نقابات: الأساتذة، المحامون، الأطباء، المهندسون، البنوك والصيارفة، والتأمينات. ثم انفتح الباب على مصراعيه ليوقع عليه آخرون من أحزاب ونقابات.

وفي يوم الجمعة ٥ أبريل ١٩٨٥م اجتمع المصلون لصلاة الجمعة في جامع الهجرة بود نوباوي وهناك خطبتُ فيهم فقلت:

١- لا عذر لأحد في سكوت على ما يحدث في السودان اليوم، وعلينا أن نتحرك جميعاً لإسقاط هذا النظام الظالم.

٢- التزم الإضراب العام وتسيير المواكب ودعم التظاهرات وتأييد الميثاق الوطني الذي قدمناه للآخرين ومهرناه معهم.

٣- على القوات المسلحة والنظامية الأخرى رفع يدها عن النظام المايوي وأن تتحرك لإسقاطه مؤيدة الشعب ومنحازة لمواقفه.

وبعد الفراغ من الصلاة تظاهر المصلون في موكب كبير إلى قلب مدينة أمدرمان وقامت تظاهرات عديدة من أم درمان والحقيقة أن العاصمة كلها قد سيرت التظاهرات ضد نظام المخلوع.

ولم تكن الحركة عاصمية فقط فقد كان أول اقليم من السودان يحرك مواجهة العام الأخير من النظام المخلوع هو إقليم دارفور، ولعبت كذلك انتفاضة وموكب مدني دوراً هاما في محاصرة النظام.

وفي أوساط القوات المسلحة تمت تحركات وسط صغار الضباط لاتخاذ موقف موحد من الأحداث. وكان المرحوم فريق (م) محمد توفيق خليل قائد سلاح المهندسين يومذاك يدير حواراً معي نيابة عن زملائه حيث نقل إليّ بأنهم كقادة قرروا

تحديد موقفهم بعد تقييم موكب المعارضة (موكب الأربعاء) وموكب الردع الخاص بالاتحاد الاشتراكي والمقارنة بين الموكبين ومن ثم الانحياز للأغلبية.

وأوضح بأن صغار الضباط يمارسون ضغطاً على القادة للإنحياز للشعب، بينما القائد العام الفريق سوار الذهب ما يزال متردداً بسبب بيعته لجعفر نميري. فأرسلتُ رسولاً للفريق سوار الذهب ينصحه بالانحياز إلى جانب موقف الشعب السوداني لحقن الدماء أو التنحي، وأخيراً اختار الفريق الانصياع لرأي الأغلبية.

وفي مساء الجمعة ٥ أبريل ١٩٨٥م قررت القوات المسلحة تأييد الموقف الشعبي بإجماع الرأي فيها، وهكذا في صباح السبت ٦ أبريل ١٩٨٥م أعلنت قيادة القوات المسلحة إنحيازها لرغبة جماهير الشعب السوداني واستلام السلطة وخلع جعفر نميري والعودة إلى الديمقراطية).

في الذكرى الثانية للانتفاضة

وتحدث السيد الصادق كذلك كرئيس وزراء منتخب بمناسبة الذكرى الثانية للانتفاضة في ٦/ ٤/ ١٩٨٧م ذاكراً أهم محطاتها كالتالي:

(لم يقف الشعب السوداني الأبي موقفاً سلبياً من هذا الطغيان الغاشم، بل تحرك متصدياً للغصب المايوي بألوان من المعارضة والمقاومة والرفض، في البداية كانت انتفاضة الجزيرة أبا وود نوباوي، الانتفاضة التي كتبت بدم الشهداء الطاهر رفض الشعب السوداني للنظام المايوي الزائف.

لقد سلط النظام الزائف على العناصر الشريفة التي هبت في وجهه نيراناً تسندها قوات أجنبية، فصمدت في وجهه ثم هاجرت من أرض السودان لا فراراً ولكن استعداداً لمنازلة أخرى.

لقد توهم النظام أنه بعد إخماد انتفاضة أبا ود نوباوي قد أرعب أهل السودان فاستباح لنفسه سياسات وتشريعات غوغائية ما لبثت أن أحدثت شرخاً داخل النظام فطفحت تناقضاته إلى السطح، ووقعت حركة ١٩٧١م ومهما اختلف الرأي حول تلك الحركة فإنها عمقت تناقضات النظام ونقلت اليسار السوداني إلى صف المعارضة.

بعد ذلك اتجه النظام من الشرق إلى الغرب فكوفئ على ذلك بالمساعدة على التوصل لاتفاقية سلام مع حركة أنانيا الأولى في عام ١٩٧٢م. لقد كانت الاتفاقية في حد ذاتها تنفيذاً لأسس توصلت لها الأحزاب السودانية القومية والإقليمية قبل الانقلاب، وكان من شروط الصلح أن يشمل دستور السودان المزمع إصداره على مقدار من الحريات الأساسية، وقد كان. فأطلق سراح من بقي في الحبس من القيادات الإسلامية والوطنية.

لقد استطاعت القوي الوطنية السودانية أن تستفيد من المناخ الجديد، فخططت لانتفاضة شعبان في سبتمبر ١٩٧٣م. لقد كان طلاب جامعة الخرطوم رأس الرمح في تلك الانتفاضة وهبت معهم نقابات مهنية وعمالية فزعزعت أركان النظام الغاشم.

بعد انتفاضة شعبان اتخذ النظام إجراءات قمعية كثيرة، وأحكم بالقانون والأجهزة والسياسات منافذ العمل السياسي المعارض، فأدركت المعارضة للنظام أن العنف المايوي لا يصلح معه إلا معاملة من جنسه، لذلك بدأ التفكير في العمل العسكري الداخلي والخارجي.

أما الداخلي فقد بلغ ذروته في انتفاضة سبتمبر ١٩٧٥م العسكرية. وأما الخارجي فقد بلغ قمته في انتفاضة يوليو ١٩٧٦م.. الانتفاضة التي ترنح لها النظام الغاشم وكاد يسقط لولا أسعفته نجدة خارجية وأخطاء فنية وقعت فيها خطة الانتفاضة. وبعد إخفاق الانتفاضة استطاع النظام أن يكشف خطط المقاومة الخارجية عن طريق التحقيقات والمحاكمات والاعترافات. واستعان بها لتعطيل وسائل العمل المعارض الداخلي ولعزل المقاومة الخارجية، ولكن النظام مع هذا كله استوثق من قدرات المقاومة الخارجية فأراد أن يكسب الوقت بعرض مشروع المصالحة الوطنية.

لقد قبلت الجبهة الوطنية قائدة المقاومة للنظام المصالحة الوطنية كوسيلة ممكنة لتعديل الدستور في اتجاه ديمقراطي ولإلغاء قانون أمن الدولة، ولحل الاتحاد الاشتراكي وإعادة تكوينه بوسائل ديمقراطية. هذا إن نجحت المصالحة، وإن فاتها النجاح فقد قدرت الجبهة الوطنية أنها سوف تتيح الفرصة لبناء وسائل المعارضة داخل البلاد وتحرر الكوادر المحبوسة، وتتيح الفرصة لإزالة سوء التفاهم الذي وقع بين القوات السودانية المسلحة والجبهة الوطنية بسبب الأخطاء التي وقعت في خطة

الانتفاضة. وأهم تلك الأخطاء أن الانتفاضة كان متوقع لها أن تتم بمساهمة عسكرية محددة فاستغنى عن تلك المساهمة في المرحلة الأولى مما أتاح للنظام فرصة تصوير الانتفاضة كأنها استهدفت القوات المسلحة وهذا ليس صحيحاً.

تمت محادثات المصالحة واتفق على برنامجها ولكن النظام أدرك أن تنفيذه سيودي به فأخلف عهوده ولكن المحادثات والمخاطبات خلقت مناخاً سياسياً جديداً فتح مجالات لعمل المعارضة فاتسعت مجالات المعارضة السياسية داخل البلاد.

وطفحت إلى السطح بوضوح إخفاقات النظام فواجه مجموعة من التحركات المضادة:

- ففي عام ١٩٨٠م وقعت انتفاضة كردفان.
- وفي عام ١٩٨١م واجه إضراب نقابة السكة حديد وإضراب القضاة وانتفاضة دارفور.
- وفي عام ١٩٨٢ واجه انتفاضة الخرطوم وعدد من مدن السودان. الانتفاضة التي بلغت ذروتها بمواجهة قيادة القوات المسلحة للطاغية في فبراير ١٩٨٢م.
- وفي عام ١٩٨٢م واجه النظام مواقف رفض في الجنوب كان آخرها حوادث بور والبيبور التي تمخضت عن نشأة مقاومة جنوبية مسلحة.
- وفي عام ١٩٨٣م تجددت مواجهة القضاة للنظام لرفضهم تطهيراً تعسفياً فرضه عليهم وحاول الطاغية الإفلات من مواجهة القضاة بإعلان ما سماه (الثورة التشريعية)، وادعى أنه سيطبق شرع الله، وهي حيلة التمسها النظام لتدعيم بطشه بقدسية الإسلام وإرهاب مخالفيه بأحكام الردة والبغي. ومنذ بداية الفرية رفضتها قيادة الجبهة الوطنية السودانية فأعلنت في أكبر تجمع شعبي في عيد الأضحى في سبتمبر ١٩٨٣ رفضها للافتراء على الشريعة، ولم تفلح الحيلة في إسكات المعارضة النقابية فزادت الإضرابات مثل إضراب المحاسبين والصيارفة وإضراب الأطباء والبياطرة والمهندسين وغيرهم. ولما لم تفلح العقوبات المسماة إسلامية في إخافة المعارضين أعلن النظام حالة الطوارئ وسمي تشريعاته إسلام الطوارئ لتوسيع شبكة البطش بالمواطنين دون التفات

لضوابط الشريعة ولا لشروط العدالة.

في عام الشريعة واجه أهل السودان ألوان المذلة والعقوبات المفصولة من ضوابطها الشرعية، وفي عام الشريعة مسك الله الغيث، ولبست الطبيعة ثوب حداد، فلا نهر ولا زهر ولا ثمر. وفي عام الشريعة انتزع طلاب جامعة أمدرمان الإسلامية قيادات الاتحاد ووضعوها في يد مجموعة مسلمة وطنية معارضة للنظام الغاشم تم ذلك في أواخر ١٩٨٤.

• وفي مارس ١٩٨٥ سار موكب عطبرة الشهير الذي تحدى النظام الغاشم. وبدا الطاغية أن يتوعد الحركة الطالبية فوعدها بالويل والثبور وعظائم الأمور فقرر طلبة جامعة أمد رمان الإسلامية بقيادة اتحادهم الجديد تسيير موكب معارض للنظام الغاشم في ٢٦ مارس فسار الموكب هادراً وتجاوب معه الشارع السياسي في أم درمان ثم سار موكب مماثل في الخرطوم يوم ٢٧ مارس. هذا الموكب هو الذي حصبت جماعاته عربة الطاغية المتجهة إلى المطار في رحلته الأخيرة.

• لقد تصدت قوات الأمن المايوي لمواكب أم درمان والخرطوم بقمع عنيف ظهر على جثث الشهداء وأجسام الجرحى، وكانت قوات الأمن لا تراعي حرمة المستشفي فاستنكر ذلك أطباء مستشفى الخرطوم فأعلنوا الإضراب احتجاجاً يوم السبت ٣٠ مارس. هكذا بدأ العد التنازلي لسقوط النظام.

• ففي يوم السبت ٣٠ مارس سار موكب رهيب في مدينة ود مدني قوامه مجموعة من النقابات والقوي السياسية.

• وفي يوم الأحد ٣١ مارس دعا أساتذة جامعة الخرطوم لاجتماع أعلنوا فيه الإضراب المفتوح ودعوا لموكب يسير في يوم الأربعاء ٣ أبريل. هذا الموكب التفت حوله القوى السياسية والنقابية وأعلن فيه الإضراب العام والميثاق الوطني لإنقاذ البلاد.

• واستطاعت القيادة السياسية أن تنسق بين التحرك السياسي المعارض والقوات السودانية المسلحة التي أكدت أنها في حالة استقطاب بين الطاغية والشعب فموقفها إلى جانب شعبها.

• لقد أكد موكب الأربعاء تجمع الشعب السوداني ضد النظام الغاشم وزاد الموقف وضوحاً موكب المعارضة الذي سار في أمد رمان في يوم الجمعة الخامس من أبريل. الموكب الذي صحبه نداء واضح للقوات المسلحة للتدخل وحقن الدماء وحسم الأمر لصالح الشعب، وقد كان.

هكذا وفي أرض السودان الطيبة تكامل العطاء السياسي والنقابي والعسكري وقذف بالنظام المايوي في مزبلة التاريخ.)

***

من جديد يقود السيد الصادق ثورة شعبنا البطل مع غيره من الشرفاء، ويأتي ومن خلفه رصيد من النضال كبير، وقد قوي عوده وسطعت شمسه في سماء السياسة السودانية تقتبس الأقمار من ضياها، ولا ينكرها إلا من به رمد!

في الجزء التالي من هذه السيرة والمسيرة نتابع خطواته إبان الديمقراطية الثالثة تحت عنوان (الصادق أمل الأمة.. ولكن!)

فكونوا معنا.. بتعبير فضائيات هذا الزمان..

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

المراجع

أولاً: كتابات الإمام الصادق المهدي المنشورة:

١- الصادق المهدي، الفكاهة ليست عبثاً

٢- الصادق المهدي: رؤى في الديمقراطية والعروبة والإسلام ١٩٩٩،

٣- الصادق المهدي، نحو ثورة ثقافية، ٢٠٠٦م.

٤- الصادق المهدي، ميزان المصير الوطني في السودان، ٢٠١٠م

٥- الصادق المهدي يسألونك عن المهدية، الطبعة الثالثة، ٢٠١٥م

٦- الصادق المهدي، المصالحة الوطنية السودانية (نشر الكتاب بدون مؤلف من منشورات الحركة الإسلامية السودانية، ١٩٧٨م) المهدي، الديمقراطية في السودان: عائدة وراجحة، ١٩٩٠م

٧- الصادق المهدي أحاديث الغربة دار القضايا، بيروت، نوفمبر ١٩٧٦م.

٨- الصادق المهدي، حقوق الإنسان في السودان، ترجمة د. عبد الرحمن الغالي دار الأمين (القاهرة) (١٩٩٩م) ترجمة د عبد الرحمن الغالي.

٩- الصادق المهدي، النظام السوداني وتجربته الإسلامية (نشر الكتاب بدون مؤلف منشورات الحركة الإسلامية السودانية، ١٩٨٤م)

١٠-الصادق المهدي، الهجرة الفدائية، مقالة نشرت عام ١٩٩٩م

11- Development: The Islamic Approach. 1980

12- Social Change in Islam. 1980

13- Mahdism in Islam. 1980

14- The Economic System of Islam, 1980.

15- Islam and Revolution in the Middle East and Northern Africa. 1982.

ثانيا: أوراق ومخطوطات:

١) مذكرات سجن جبيت

٢) مذكرات سجن بورتسودان.

٣) محضر لقاء في شندي

٤) أجندة الإمام الصادق المهدي للأعوام ١٩٧٤م، ١٩٧٧م، ١٩٨٥م

٥) مخطوطات متفرقة.

ثالثاً: مراجع أخرى

١) السر أحمد سعيد، السيف والطغاة

٢) المحبوب عبد السلام، الحركة الإسلامية السودانية (دائرة الضّوءِ.. خُيُوط الظَلاَم)

٣) حسن بيومي، جهاز أمن الدولة: أسرار جهاز الأسرار

٤) حسن مكي، تاريخ الحركة الإسلامية في السودان ١٩٦٩-١٩٨٥م، الدار السودانية للكتب

٥) رباح الصادق، سارا الفاضل: كتابات وأقوال في الفكر والسياسة والحياة، ٢٠٠٩م.

٦) رباح الصادق، حلقة توثيقية مع المهاجرين عقدت في يناير ٢٠٠٨م بالمركز العام لهيئة شئون الأنصار بودنوباوي

٧) رباح الصادق هل نستيقظ في بيت أم اليقظة؟ عدالة للجميع مقال نشر بصحيفة حريات الإلكترونية

٨) صديق البادي احداث الجزيرة ابا وودنوباوي

٩) عبد الرحمن الغالي، دكتور تجارب تطيق الشريعة في آسيا الوسطى، ورقة مساعدة بحثية غير منشورة.

١٠) عبد الرسول النور، **الصادق المهدي في الجزيرة أبا**، ١٩٧٨م

١١) عبدالعزيز حسن البصير، تاريخ البرلمانات السودانية، صحيفة الرائد، ٢٤ مايو ٢٠١٠م

١٢) عبد الله أبو إمام، جعفر نميري والصراع حول السلطة ١٩٦٩-١٩٧٣ ، الطبعة الأولى ١٩٩٠، ص ٧٧، نقلا عن مجلة الدستور العدد ١٤٢ - ١١ آب أغسطس ١٩٨٠

١٣) عبد المحمود أبو شامة، **من أبا إلى تسلهاي**

١٤) عبد الوهاب همت، حوار في صحيفة أجراس الحرية - الأربعاء ١٣-٠٤-٢٠١١

١٥) غراهام توماس، **السودان: موت حلم، ترجمة عمران أبو حجلة**، دار الفرجاني، الطبعة الأولى ١٩٩٤م

١٦) فهمي هويدي، لقاء مع جعفر نميري، ونشر في الوطن المصرية في ١٦/ ١٢/ ١٩٨٤م

١٧) كمال الجزولي، **رزنامة الانتفاضة**

١٨) محجوب باشري، **أإعدام شعب؟**

١٩) محجوب برير محمد نور **مواقف على درب الزمان**

٢٠) محمد إبراهيم أبو سليم، **الآثار الكاملة للإمام المهدي**

٢١) محمد سعيد القدال **الإسلام والسياسة في السودان ١٩٥١-١٩٨٥ دار الجيل**، بيروت، ص ٢٢١-٢٢٢

٢٢) محمد سعيد محمد الحسن، **وقائع أطول يوم في تاريخ السودان الحديث** دار جامعة الخرطوم للنشر

٢٣) محمد عبد الله قسم السيد، **الصادق المهدي وأزمة الديمقراطية في السودان**

٢٤) محمد علي جادين، الدكتور، تقييم تجربة الديمقراطية الثالثة في السودان.

٢٥) محمد عمارة، الإسلام ومشكلات العصر

٢٦) محمد عمارة (الإسلام والفنون الجميلة) دار الشروق

٢٧) محمد محمد أحمد كرار، الانقلابات العسكرية في السودان.

٢٨) محمد محمد أحمد كرار، سنة أولى مايو

٢٩) مصعب أحمد مضوي ترحيل الفلاشا

٣٠) ناصر السيد النور تاريخ الانتخابات السودانية موقع السودان الإسلامي

٣١) يوسف الشريف – الوطن المصرية ٢٧/ ٨/ ٨٩

٣٢) حزب الأمة القومي – اللجنة العليا للانتخابات انتخابات أبريل ٢٠١٠ في الميزان مكتبة جزيرة الورد، القاهرة ٢٠١٠م

٣٣) سلسلة حوارات مع الإمام الصادق المهدي حول ذكرياته في السجون، صحيفة الآخبار، أغسطس ٢٠١١م.

٣٤) حلقات برنامج شاهد على العصر مع الإمام الصادق المهدي (سبتمبر – نوفمبر ٢٠١٥م)، قناة الجزيرة الإخبارية تقديم الأستاذ أحمد منصور. (١٦ حلقة).

٣٥) صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٩٦٦م

٣٦) ذكرى الخالدين، أبريل ٢٠٠٦م، اللجنة العليا لإحياء ذكرى شهداء الجزيرة أبا والكرمك وونوباوي مارس ١٩٧٠م.

٣٧) كتاب محاكمة المتهمين في قضية مقتل الإمام الهادي، ١٩٨٧م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

1) Kramer, Robert A Holly City on the Nile: Omdurman 1885-1898 PHD Thesis 1991

2) Salam Community website, http://www.salaam.co.uk/knowledge/muslim_community.php

ملاحق الكتاب

تراجم الأعلام

أبو القاسم محمد إبراهيم (ولد نوفمبر ١٩٣٧م) مواليد حي الهاشماب بأم درمان. والده الاستاذ محمد ابراهيم احمد هاشم و والدته السيدة عائشة ابوالقاسم احمد هاشم. تخرج من الكلية الحربية يناير ١٩٦٢م، من الضباط الذين شكلوا نواة سلاح المظلات عام ١٩٦٢م، من مخططي ومنفذي انقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩م، وعضو فى مجلس قيادة مايو وترقى حتى أصبح النائب الاول لرئيس الجمهورية. اعتقل إثر الانتفاضة المباركة في ١٩٨٥م وحوكم بتهمة التدبير لانقلاب مايو ١٩٦٩ و تم اطلاق سراحه بعد قيام انقلاب ٣٠ يونيو ١٩٨٩م وشارك في مؤسسات انقلاب (الإنقاذ).

أحمد الخميني (١ مارس ١٩٤٥ – ١٧ مارس ١٩٩٥) سياسي إيراني، الإبن الثاني للخميني مؤسس الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

أحمد سعد عمر (ولد ١٩٤٨م)، السيد القطب الاتحادي، نال البكالريوس في الكيمياء التطبيقية بجامعة برايتون ببريطانيا، كان مشاركاً في الجبهة الوطنية من رفاق الشريف حسين الهندي. يشغل الآن منصب وزير شئون الرئاسة ضمن حصة الحزب الاتحادي الديمقراطي الأصل بزعامة السيد محمد عثمان الميرغني.

أحمد سليمان- المحامي (١٤/ ١/ ١٩٣٤م- ٣١/ ٣/ ٢٠٠٩م) ولد بأم درمان، خريج كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة. من مؤسسي الحزب الشيوعي السوداني ومن قادة الجبهة المعادية للاستعمار. فصل من عضوية الحزب الشيوعي عام ١٩٧٠، تقلد عدة مناصب وزارية وعمل سفيرا للسودان في عدد من العواصم. انضم للجبهة الإسلامية القومية بعد انتفاضة رجب/ أبريل ١٩٨٥م.

أحمد عبد الحليم (ولد ١٩٢٩م) من الناصريين المشاركين في الانقلاب المايوي، تقلد عدة مناصب وزارية في العهد المايوي ومناصب قيادية في الاتحاد الاشتراكي، من

الوزراء المايويين الذين اعتقلوا عقب انتفاضة أبريل ١٩٨٥م.

أحمد عبد الرحمن المهدي، (ولد ١٩٣٥م)، تقلد منصب وزير الداخلية إبان الديمقراطية الثانية، تعاون مع نظام مايو حيث قلده النميري إمامة الأنصار حتى قبل التأكد من مصير الإمام الهادي المهدي والتحقيق في مقتله، وسلمه قبة المهدي. بعد انتخاب الأنصار للإمام الصادق المهدي في ٢٠٠٢م تمسك بإمامته.

إدريس عبد الله البنا (ولد ١٩٢٧م)، الدكتور، الشاعر والأديب، ينتمي لأسرة البنا الشهيرة بالفن والأدب، نائب رئيس مجلس الدولة (١٩٨٦-١٩٨٩م) عن حزب الأمة القومي.

إسحق محمد الخليف شريف بن حامد (١٩٢٣-١٩٩٥م)، شاعر وعالم موسوعي، اشتغل بالسياسة، ولد بأم درمان وفيها توفي، من أقطاب أسرة المهدي فهو حفيد المهدي لأمه والخليفة شريف لأبيه، عاش في السودان، وبريطانيا، وفرنسا، والسعودية. تخرج في كلية غردون عام ١٩٤٥، وفي جامعة اكسفورد عام ١٩٤٩، وفي جامعة دبلن عام ١٩٥١، كما نال دبلوم الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية من جامعة باريس عام ١٩٥٩. عمل مديرًا لمشاريع أسرته الزراعية بالنيل الأبيض. التحق مترجمًا برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ١٩٧٣ - ١٩٨٥. له ديوان «زهر وقفر» - دار الريحاني - بيروت ١٩٥٦، وله عدد كبير من القصائد نظمها باللغة الإنجليزية. كان واسع الاطلاع ويعتبر موسوعة جامعة للعلوم والآداب.

أحمد مختار أمبو (ولد ١٩٢١): سنغالي، وأمين عام اليونسكو من (١٩٧٤ – ١٩٨٧م) شغل عدة مناصب وزارية في بلاده.

إسماعيل الأزهري(١٩٠٠-٢٦ أغسطس ١٩٦٩م) رئيس حزب الأشقاء داخل مؤتمر الخريجين ثم رئيس الحزب الوطني الاتحادي المكون في ١٩٥٢م، رئيس وزراء السودان(١٩٥٤-١٩٥٦م)، ورئيس مجلس السيادة في الفترة (١٩٦٥-١٩٦٩م).

الحسن بن طلال، الأمير (ولد ٢٠ مارس ١٩٤٧م)، ولي عهد الأردن سابقا. هو الابن الأصغر للملك طلال والملكة زين الشرف. اختاره أخوه الملك حسين وليًا للعهد في أبريل ١٩٦٥، واستمر متقلدًا مهامه حتى عزلة في ٢٥ يناير ١٩٩٩. له

اهتمامات فكرية وثقافية عديدة.

الخميني، آية الله(١٩٠٢- ١٩٨٩) هو السيد روح الله الموسوي الخميني، تسبب انتقاده لسياسات الشاه محمد رضا بهلوي في نفيه خارج البلاد عام ١٩٦٤م، حيث أقام بالعراق وواصل تسجيل انتقاداته لنظام الشاه عبر شرائط الكاسيت التي كانت تنسخ بأعداد كبيرة وتوزع داخل إيران، حتى أجبره نظام صدام حسين على مغادرة العراق فتحول إلى فرنسا عام ١٩٧٨م وواصل التعبئة الشعبية وقاد الثورة الدينية الإيرانية الشعبية - التي أسقطت شاه إيران محمد رضا شاه بهلوي عام ١٩٧٩- من المنفى.. بعد ذلك عاد الخميني لإيران وتم تكوين الحزب الإسلامي الجمهوري وكتابة دستور جديد أعلنت بموجبه إيران جمهورية إسلامية، وسمي الخميني إماما وقائدا أعلى للجمهورية.

الزين عباس عمارة، الدكتور (ولد ١٩٣٩م) مواليد عطبرة، الشاعر والأديب والطبيب النفسي. تخرج من جامعة الخرطوم كلية الطب في ١٩٦٥م. نال دبلوم الطب النفسى عام ١٩٧٣م من جامعة لندن، ثم زمالة كلية الاطباء النفسانين الملكية البريطانية عام ١٩٧٤م.صدرت له العديد من الدواوين والمجموعات الشعرية. والعديد من الكتب حول الطب النفسي.

الشفيع أحمد الشيخ (١٩٢٤م- ٢٨ يوليو ١٩٧١م) ولد بشندي، تخرج من مدرسة الصناعات بعطبرة في عمر ١٨ عاماً والتحق بالعمل في سكك حديد السودان. في ١٩٤٨م اختير مساعدا لسكرتير عام نقابات عمال السودان. وفي ١٩٥٧م انتخب نائبا لرئيس الاتحاد العالمي لنقابات العمال. حكم عليه بالسجن خمس سنوات إبان نظام إبراهيم عبود العسكري. بعد فشل انقلاب هاشم العطا في يوليو ١٩٧١م تم اعتقاله وحكم عليه بالإعدام شنقاً في يوم الاثنين ٢٦ يوليو، ونفذ في سجن كوبر.

النذير دفع الله (بروفسر) (١٩٢٢-١٩٨١م)، درس بكلية غردون ومدرسة البيطرة بجامعة الخرطوم وتلقى دراسته فوق الجامعية في جامعة كيمبردج ببريطانيا، وعمل في وزارة الثروة الحيوانية ثم انتقل محاضرا بجامعة الخرطوم، وفي عام ١٩٦٢م كان مديرا لجامعة الخرطوم وفي ١٩٦٥م ترأس مؤتمر المائدة المستديرة، أعفي عن منصبه كمدير

للجامعة في ١٩٦٩ فعمل أستاذا في جامعات نيجريا. اختير أول رئيس لمجلس الشعب في ١٩٧٢م وعين وزيرا للصحة ثم رئيسا للمجلس القومي للبحوث.

النيل عبد القادر أبو قرون (ولد ١٩٤٨م) السيد، ولد بقريبة أبو قرون وهو ابن الشيخ عبد القادر أبو قرون أحد خلفاء الطريقة القادرية ، تلقى دراسته الجامعية بكلية الحقوق جامعة الخرطوم، تحول بعدها لحلقات الذكر وارتدى زيا غريبا وأطلق شعره وعمل بالقضاء. التقى به جعفر نميري في حلقة ذكر بحمد النيل وضمه إلى مستشاريته.

الهادي آدم (١٩٢٧م- ديسمبر ٢٠٠٦ م) شاعر سوداني معاصر تخرج في كلية دار العلوم بالجامعة المصرية، عمل معلما.

الهادي عبد الرحمن المهدي، (١٩١٨- ٣١ مارس ١٩٧٠م)، الإمام، تولى إمامة الأنصار خلفاً لأخيه الصديق المهدي في أكتوبر ١٩٦١م، تصدى للنظام المايوي الذي ارتكب في الأنصار مجزرة الجزيرة أبا في ٢٧ وحتى ٣١ مارس ١٩٧٠ وأزمع الهجرة شرقاً حينما أسر بالكرمك وقتل مع الخال محمد أحمد مصطفى والملازم سيف الدين الناجي. ولم يعرف مكان دفنه إلا في عام ١٩٨٦م حيث تم نقل رفاته في موكب مهيب ودفن بقبة الإمام المهدي.

أمين مكى مدني (ولد ٢ فبراير ١٩٣٩م)، دكتور، المحامى، القاضى، والمحاضر الجامعى، والسياسى والإداري والخبير والناشط في مجال حقوق الإنسان، على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية، عمل بمكتب المفوضية السامية للأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ومفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين، والبنك الدولى والصندوق العربى للتنمية الاقتصادية في أفريقيا. حصل على جائزة هيومن رايتس ووتش لمراقبة حقوق الإنسان، وجائزة نقابة المحامين الأمريكية لحقوق الإنسان (١٩٩١)، وجائزة الاتحاد الأوربى لحقوق الإنسان مؤخراً. وزير الأشغال والإسكان في الحكومة الانتقالية (١٩٨٥-٨٦م)، رئيس التنظيم الشعبى السوداني للدفاع عن الديمقراطية والوحدة الوطنية، الخرطوم، ١٩٨٦-١٩٨٩م. رئيس كونفيدرالية منظمات المجتمع المدني (٢٠١٢-٢٠١٥م)، ورئيس مبادرة المجتمع المدني العضوة في تحالف نداء السودان (ديسمبر ٢٠١٤م).

بابكر عوض الله (ولد ١٩١٧م)، مولانا، كان رئيس برلمان الاستقلال، ورئيس القضاء بعد ثورة أكتوبر (١٩٦٤-١٩٦٧م)، من أبرز مخططي انقلاب مايو وكاتب بيان الانقلاب والمدني الوحيد في مجلس قيادة الثورة، ورئيس وزراء حكومة مايو الأولى من ٢٥ مايو ١٩٦٩ وحتى أكتوبر ١٩٧٠م، ثم نائباً لرئيس الوزراء، ثم نائباً أول لرئيس الجمهورية حتى مايو ١٩٧٢م. يعيش حالياً مع أبنائه في بريطانيا.

بابكر كرار، الأستاذ (٧ فبراير ١٩٣٠- ٨/ ٧/ ١٩٨١م) ولد بود مدنى، قبل بكلية الآداب جامعة الخرطوم عام ١٩٤٨ وانتقل الى دراسة القانون فى العام الثانى ، فصل من جامعه الخرطوم فى السنة النهائية لأسباب سياسية، فواصل دراسة القانون بجامعة القاهرة فرع الخرطوم وتخرج منها. أسس مع آخرين حركة التحرير الاسلامى عام ١٩٤٩م بجامعة الخرطوم. وحين انتهى مؤتمر الحركة فى ١٢/ ٨/ ١٩٥١ إلى اختيار اسم الإخوان المسلمين، اعترض بابكر كرار وانسحب من المؤتمر وكون مع آخرين الجماعة الإسلامية التى أصدرت ميثاقها ١٩٥٥م، وبعد ثوره أكتوبر غيرت الجماعة الاسلامية اسمها إلى الحزب الاشتراكى الإسلامى. أيد انقلاب مايو في البداية وسرعانما اختلف معه فسافر إلى مصر ثم إلى ليبيا، عاد إلى السودان فى نوفمبر ١٩٧٨بعدالمصالحه الوطنية، وواصل عمله السياسي معارضا لنظام نميرى حتى توفى. له العديد من المؤلفات.

بدرية سليمان (ولدت ١٩٤٨م)، السيدة، تخرجت من كلية الحقوق بجامعة القاهرة فرع الخرطوم، وعملت فترة في مكتب المرحوم السيد عبد الرحمن النور، وكانت في مطلع حياتها عضوة بالحزب الاتحادي الديمقراطي، ثم انضمت للقوميين العرب، تعرف بها جعفر نميري وجعلها مستشارته القانونية. واشتركت في صياغة قوانين سبتمبر. وبعد (الإنقاذ) عادت لتقلد مناصب قيادية فهي الآن قيادية بالمؤتمر الوطني ورئيسة لجنة التشريع في المجلس الوطني.

جراهام ف. توماس، Graham F. Thomas(٢١ يوليو ١٩٢١م- ٢٠٠٢م) بريطاني، عمل في مكتب آخر سكرتير إداري بريطاني في السودان أيام الحكم الثنائي (السير جيمس روبرتسون)، جمعته صداقات عديدة بالسودانيين، وكتب في السياسة السودانية: (السودان: موت حلم)، و(السودان: الصراع من أجل البقاء).

جعفر محمد نميري (١٩٣٠-٢٠٠٩)، المشير، قاد الانقلاب المايوي الذي أطاح بالحكم الديمقراطي الثاني في السودان وأسس حكما شمولياً دموياً دمر الاقتصاد واتخذ سياسة خارجية منحازة، في الفترة (١٩٦٩-أبريل ١٩٨٥م) حيث أطاحت به الانتفاضة الشعبية، وظل مقيماً في القاهرة طيلة عهد الديمقراطية ولكنه عاد إبان حكومة (الإنقاذ) وتم تكريمه من قبلها.

جمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠م) رئيس جمهورية مصر العربية(١٩٥٤-١٩٧٠م). تخرج في الكلية الحربية الملكية عام ١٩٣٨م، عمل بالجيش وشكل مع عدد من الضباط حركة «الضباط الأحرار» التي قامت فيما بعد بقيادة محمد نجيب بثورة ١٩٥٢م، قام بتنحية محمد نجيب وصار رئيساً للجمهورية. ساهم في تأسيس حركة عدم الانحياز في مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥م. توفي إثر نوبة قلبية.

جون قرنق ديمابيور (23يونيو ١٩٤٥م- ٣٠ يوليو ٢٠٠٥م) الدكتور، العقيد، سياسي ومفكر وعسكري جنوبي، زعيم الحركة الشعبية لتحرير السودان المكونة في ١٦ مايو ١٩٨٣م. النائب الأول لرئيس جمهورية السودان ورئيس حكومة الجنوب في الفترة (٩-٣٠ يوليو ٢٠٠٥م) حيث قتل في حادث تحطم مروحيته وهو عائد من يوغندا.

حسن عبد الله دفع الله الترابي (ولد في فبراير ١٩٣٢م) الدكتور، سياسي بارز وأستاذ سابق بكلية القانون جامعة الخرطوم، انضم لتنظيم الإخوان المسلمون وصار من أبرز قياداته. انشق التنظيم لاحقا إلى جناحين أحدهما بقيادته والآخر بقيادة الأستاذ صادق عبد الله عبد الماجد. تحول التنظيم تحت قيادته إلى جبهة الميثاق الإسلامي، ثم الجبهة الإسلامية القومية، إبان الديمقراطية الثالثة، التي دبرت بقيادته انقلاب ٣٠ يونيو ١٩٨٩م، ودخل سجن كوبر للتمويه، أطلق سراحه وصار الأمين العام للمؤتمر الوطني الحزب الحاكم، في ٢٠٠٠م حدثت مفاصلة بينه وبين المشير البشير رئيس النظام، وفي العام ٢٠٠١م انشق الحزب وصار أمينا عاما للمؤتمر الشعبي الذي عارض النظام والآن يحاوره ضمن خطته التي رفضتها المعارضة.

حسين أبو شيبة، المقدم (قتل ٢٢ يوليو ١٩٧١م)، هو عثمان حاج حسين أبو شيبة، من الضباط الذين شاركوا في انقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩م، وكان موضع ثقة لدى النميري

وعين قائداً للحرس الجمهوري، شارك في انقلاب هاشم العطا في ١٩ يوليو ١٩٧١م وبعض المؤرخين يعتبرونه الدينمو الحقيقي وراء الانقلاب، نجح الانقلاب في الاستيلاء على السلطة لمدة ٣ أيام، وبعدها تم إجهاضه وإعادة نميري واعدم أبو شيبة مع غيره من الضباط والمدنيين الشيوعيين.

حسين الهندي 1924م-٩ يناير ١٩٨٢م)، الشريف، الحسين يوسف محمد الأمين يوسف بن أحمد بن زين العابدين بن حمد بن آدم بن محمد الشهير بالهندي، (السياسى المرموق، كان استقلالياً في مطلع شبابه، انضم للحزب الوطنى الاتحادي في ١٩٥٦م، تقلد عدداً من الحقائب الوزارية في فترة الديمقراطية الثانية (١٩٦٥-١٩٦٩م) عن الوطنى الاتحادي ثم الاتحادي الديمقراطى، شارك في قيادة مقاومة الطغيان المايوي وأسس مع حزب الأمة والأخوان المسلمون الجبهة الوطنية التي نظمت انتفاضة ٢ يوليو ١٩٧٦م.

حفية مأمون حسين شريف (ولدت مارس ١٩٤٢) زوجة صاحب السيرة الأولى (١٩٦٠) وابنة عمته نور الشام عبد الرحمن المهدي، تخرجت من كلية علم النفس بجامعة الأحفاد للبنات. اعتقلت بعد انتفاضة ٢ يوليو١٩٧٦م المسلحة. أسست إبان فترة الديمقراطية الثالثة منظمة (جمعية الإمام المهدي الخيرية). عضوة مجلس الحل والعقد بهيئة شئون الأنصار.

خالد الكد (ت ١٩٩٥م) ضابط سابق في القوات المسلحة السودانية، قام بمحاولة انقلابية فاشلة عام ١٩٦٦م، واشترك في الانقلاب المايوي (١٩٦٩م) ضمن كادر الحزب الشيوعي السوداني المؤيد للانقلاب، أديب ومفكر، توفي بحادث حركة بلندن.

رحمة عبد الله جاد الله (نوفمبر ١٩١٠- ٣١ ديسمبر ١٩٨٥م) زوجة الإمام الصديق المهدي ووالدة صاحب السيرة، كانت نشطة في العمل الاجتماعي والعام، كان لها صالون أدبي في ثلاثينات القرن العشرين، وأسست أول جمعية نسائية (جمعية ترقية المرأة) في ١٩٤٦م، التي تحولت إلى جمعية نهضة المرأة في ١٩٤٩م. كانت مجددة في أشياء كثيرة ومستودع للتراث والمعرفة الدينية والمهدوية والثقافة المادية من زي وحلي النساء وعادات الزفاف وغيرها، كما كانت مستودع للأمثال والأدب الشفاهي السوداني

وكانت ذواقة للفن وذات صلة بكثير من الشعراء والفنانين والأدباء.

زين العابدين أحمد عبد القادر (ولد ١٩٤٢)، الشهير بعابدين، خليفة الرائدين، شاعر ومادح الأنصار، ولد بقرية كرتوب بولاية الجزيرة. تلقى العلم في الخلوة ثم واصل في فصول محو الأمية، وعمل مزارعاً، في نفس الوقت الذي يعتبر فيه النجم الأول لمواسم الأنصار الدينية واحتفالاتهم كافة. بدأ حياته الفنية بإنشاد الدوبيت ثم ترديد أغاني الحقيبة ثم كتابة الشعر الغزلي على نهج الحقيبة وعلى النهج الغنائي الحديث (وذلك في الفترة ما بين ١٩٦١-١٩٦٨م) وبعد ذلك، وبدءا بالعام ١٩٦٩م بدأ بكتابة المدائح النبوية والمهدوية وما يسميه بالصحوية، مشيرا للمدائح التي تعبر عن الفكر الصحوي الذي أعلنه السيد الصادق المهدي. وهو شاعر ومادح الأنصار المعاصر الأشهر وبلا منازع، لقب بخليفة الرائدين (حسان بن ثابت وأحمد ود سعد). له المئات من القصائد والمدائح النبوية والمهدوية.

زين العابدين حسين شريف(١٩١٠م- ٢٠٠٥م). صحفي، ولد بأمدرمان تخرج في كلية غردون، ثم عمل فترة قصيرة بدائرة المهدي أوفد بعدها إلى جامعة درهام بلندن حيث نال شهادة العلوم الاجتماعية. عمل في الصحافة وكان رئيساً لتحرير جريدة النيل(١٩٥١-١٩٥٣م). أنشأ مطبعة دار الطباعة الحديثة وعمل في إدارتها. كانت له بعض الآراء في الصحافة والسياسة والاقتصاد. وهو حفيد الخليفة شريف الخليفة الثالث للإمام المهدي، والده السيد حسين شريف رائد الصحافة الوطنية وأول رئيس تحرير سوداني لجريدة الحضارة.

سارا الفاضل محمود (نوفمبر ١٩٣٣-٦ فبراير ٢٠٠٨م) زوجة صاحب السيرة الثانية منذ (٢٤ فبراير ١٩٦٣م) وزميلته في العمل العام وابنة عمته عائشة عبد الرحمن المهدي. وأول سودانية تتلقى تعليمها الجامعي بالولايات المتحدة الأمريكية، بالكلية الغربية للنساء، أوكسفورد أوهايو حيث نالت بكالريوس في العلوم الاجتماعية، ونالت الماجستير في السسيولوجيا من جامعة نيويورك ١٩٦١م. اعتقلت مرتين إبان العهد المايوي وحوكمت عسكرياً عقب انتفاضة ٢ يوليو ١٩٧٦م المسلحة، انتخبت في الأمانة العامة الخماسية لحزب الأمة في ١٩٨٦م وكانت مسؤولة التنظيم بالحزب. اعتقلت في أيام حكومة (الإنقاذ) الأولى، وتقلدت عدة مناصب في حزب الأمة آخرها

مساعدة الرئيس للشئون الخارجية. أسست منظمة (الناس للناس).

سالم عزام (١٩٢٤م- ١٠ يناير ٢٠٠٨م) مفكر وسياسي ودبلوماسي سعودي من أب مصري وأم سعودية. تخرج من كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حالياً) في ١٩٤٩م، ثم انتقل إلى فرنسا وواصل دراسته في مجال العلوم السياسية والإعلام في جامعتي ستراسبورغ والسوربون. وعاد لمصر في ١٩٥٢م، والتحق بالعمل في السلك الديبلوماسي السعودي، ثم استقال وتفرغ للعمل الإسلامي، وفي ١٩٧٣م أسس المجلس الإسلامي الأوربي في لندن. له مواقف مشهودة في معارضة كامب ديفيد والموقف الشجاع في الحرب العراقية الإيرانية بإدانة الحرب، منع من دخول مصر سنوات عديدة، مرض وعاد للقاهرة في آخر أيام حياته.

سلاطين، رودلف سلاطين Rudolf Slatin (٧ يونيو ١٨٥٧- ١٩٣٢) نمساوي ولد في أوبر سانت فينت غرب فيينا. توفي والده في ١٨٧٠ وكان عليه العمل فقبل وظيفة في القاهرة، ثم قرر السفر جنوبا حيث وصل للخرطوم في أكتوبر ١٨٧٤م ثم إلى جبال النوبة، ورجع للنمسا حيث كتب مقالا ونشره حول رحلته عبر النيل. في ١٨٧٨م تلقى خطابا من الجنرال تشارلس جورج غردون الذي كان حينها حاكما عاما على السودان يدعوه للانضمام إلى الإدارة في حكومته، لباها وجاء للخرطوم في يناير ١٩٧٩م. وترقى في الوظائف حتى كان بعد عامين حاكما لإقليم دارفور. في يناير ١٨٨٣ أعلن انضمامه للإسلام ليضمن إخلاص المحاربين معه، وحارب قوات المهدية حتى استسلم لها في ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣م، وبقي في أسر الأنصار حتى هرب لمصر في ١٨٩٥م وانضم للمجهودات المبذولة لإعادة غزو السودان واستكتبه رئيس قلم المخابرات البريطانية السير ونجت باشا فكتب كتابه «النار والسيف في السودان». وبعد نجاح حملة الغزو جاء سلاطين للسودان وعين مفتشا عاما للسودان في ٢٥ سبتمبر ١٩٠٠م. بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ قدم استقالته من وظيفته بحكومة السودان، توفي ودفن بمسقط رأسه في ٢ أكتوبر ١٩٣٢م.

سيد أحمد الحاردلو (١٩٤٠- يونيو ٢٠١٢م)، شاعر وقاص ودبلوماسي ومفكر سوداني، سفير سابق، له العديد من الدواوين، والقصائد الغنائية الشهيرة.

شريعة مداري، آية الله (١٩٠٥- ٣ أبريل ١٩٨٦م) هو محمد كاظم الحسيني الشريعة مداري، مرجع شيعي إيراني، تمكن في زمن الشاه من إنقاذ الإمام الخميني من الإعدام. تولى المرجعية سنة 1961 بعد وفاة المرجع حسين البروجردي فرجع إليه – في التقليد – عدد كبير من الشيعة في إيران وباكستان والهد ولبنان ودول الخليج.

صلاح الدين الصديق المهدي (١٩٤٤- سبتمبر ١٩٨٦م) شقيق الكاتب الأصغر، كان يده اليمنى في الأمور العائلية والأعمال الخاصة، كما كان ناشطا في حزب الأمة ونائب الدائرة ٥١ أمبدة في الديمقراطية الثالثة، توفي في حادث حركة مروع حيث كان ومن معه في وفد حزبي لأداء العزاء خارج الخرطوم.

صلاح الدين عبد السلام خليفة المهدي (١٥/ ٥/ ١٩٣٠- ٢٠٠٦م) تخرج ضابطا في القوات المسلحة السودانية ثم استقال في ١٩٥٩م وعمل بشركة أجيب ثم بالقطاع الخاص. كان من قيادات حزب الأمة وإبان الانشقاق كان في جناح الإمام الهادي، صار من أبرز مقاومي النظام المايوي واعتقل ضمن قادة الكيان بعد مقاومة قوانين سبتمبر ١٩٨٣م، وتقلد منصب وزير شئون الرئاسة طيلة فترة الديمقراطية الثالثة. آخر منصب حزبي تقلده هو رئيس هيئة الضبط ورقابة الأداء منذ تكوينها في ٢٠٠٣م حتى وفاته.

عبد الحميد صالح عبد القادر (١٩٢٢- ٤/ ٣/ ٢٠١١م)، الدكتور، سياسي وطبيب وقيادي بحزب الأمة، ولد بالخرطوم والده الشاعر المعروف صالح عبد القادر، وتخرج في كلية طب القصر العيني في مصر عام ١٩٤٧م، اسس اول مستشفي خاص بالسودان – دار الشفاء – في عام ١٩٥٨م ، وإلتقي مبكرا بالسيد/ عبدالرحمن المهدي وعمل ضمن القوي الاستقلالية وحزب الامة، كان وزيراً لشؤون الرئاسة في ١٩٦٥م، ووزير الدفاع، لعب دوراً بارزاً في تحقيق المصالحة الوطنية خلال فترة حكم الرئيس الاسبق جعفر نميري عام ١٩٧٧م. عيّن رقيبا لمجلس الشعب بناءا علي ترشيح من حزب الامة ثم اصبح نائبا لرئيس مجلس الشعب القومي، ولم يخرج من مؤسسات مايو بعد إعلان فشل المصالحة من قبل حزب الأمة في ١٩٧٨م.

عبد الخالق محجوب عثمان (٢٣ سبتمبر ١٩٢٧– ١٩٧١م) ولد بحي المكي بأم د رمان، التحق بكلية غردون ثم هاجر لمصر لإكمال دراسته حيث انتسب بكلية الآداب

بجامعة فؤاد الأول؛ وهناك صار كادرا قياديا في الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)؛ كبرى تنظيمات الحركة اليسارية والماركسية المصرية حينها، قضى بمصر ثلاثة أعوام؛ قبل ان يقطع دراسته بسبب المرض ويعود إلى السودان نهائيا؛ عام ١٩٤٩؛ التحق بالحركة السودانية للتحرر الوطني (حستو)؛ في العام ١٩٤٩؛ تفجر صراع داخل الحركة كان من نتيجته إبعاد عوض عبد الرازق عن قيادة التنظيم؛ واختيار عبد الخالق سكرتيرا عاما للحركة؛ وهو الموقع الذي احتله؛ حتى آخر حياته. شارك حزبه في معارضة نظام عبود العسكري، وكان عبد الخالق من أبرز القيادات السياسية بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤. أعدمه النميري على رأس قادة الحزب الشيوعي إثر فشل انقلاب هاشم العطا في ١٩ يوليو ١٩٧١م.

عبد الرحمن المهدي (الإمام) (٢٥ يونيو ١٨٨٥م- ٢٤ مارس ١٩٥٩م- أول شوال ١٣٠٢هجرية- **١٥ رمضان ١٣٧٨ه**): مؤسس حزب الأمة وباعث المهدية وإمام الأنصار منذ ١٩٤٩م وحتى وفاته. أبو الاستقلال، وعرف بمبادراته في كافة أوجه العمل الاجتماعي والزراعي والصناعي والصحافي والتعليمي السوداني وكافة أوجه النشاط في السودان الحديث.

عبد الرحمن علي طه (١٩٠١-١٩٦٩م) السيد، ولد بأربجي سنة١٩٠١م، سياسي بارز ومعلم مؤسس لبخت الرضا ووزارة المعارف. ألف كتاب (السودان للسودانيين) التوثيقي المهم للحركة الإستقلالية. كان وزيراً للحكومات المحلية في حكومة ١٩٥٨م، واستمر حتى قيام انقلاب عبود سنة ١٩٥٨م. كان معارضا للانقلاب ولكنه أذاع بيان الإمام عبد الرحمن المساند له، واعتزل بعد ذلك العمل السياسي. وعاد لقريته في أربجي فاشترك في العديد من النشاطات لتنميتها وتخطيطها.

عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب، المشير (ولد ١٩٣٥م) من مواليد الأبيض، تخرج من الكلية الحربية عام ١٩٥٥م، تم إبعاده عن الخدمة (تعسفيا) في العام 1972 وأرسل لدولة قطر .عاد بعد الرضا عنه من قبل المايويين وعين رئيسا لهيئة الأركان وتدرج إلى أن تم تعيينه في مارس 1985 قائداً أعلى للقوات المسلحة السودانية بعد أن ظل المنصب شاغراً لفترة. في الخامس من أبريل جرت محاولات عديدة من زملائه بهيئة القيادة لاستلامه السلطة وإنهاء العهد المايوي تجاوباً مع الانتفاضة الشعبية

وحقناً للدماء فقام بالخطوة، وصار رئيسا للمجلس العسكري الذي تولى الحكم في عام الانتقال (أبريل ١٩٨٥- مايو ١٩٨٦م). بعد ذلك ترأس الهيئة الشعبية للدفاع عن الوطن والعقيدة وهي تنظيم كونته الجبهة الإسلامية القومية للدعوة الحربية أثناء الديمقراطية، ثم صار رئيس مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية.

عبد الفتاح المغربي، السيد، أول رئيس مجلس السيادة في السودان المستقل سنة ١٩٥٦م، درس في جامعة بيروت ضمن أول وفد بعثة طلابية للدراسة خارج السودان. عمل محاضرا للرياضيات في كلية غردون عقب تخرجه. عين في 1951 عضوا في لجنة الدستور ممثلا للمعارضة.

عبد الكريم ميرغني (١٩٢٣-١٩٩٥م)، السيد، من مواليد أم درمان، تخرج من كلية غردون التذكارية في ١٩٣٩م، عمل بقسم الإدارة وعين نائب مأمور لكنه استقال وتحول لسلك التعليم فكان مدرساً للتاريخ بالمدرسة الأهلية، وبعدها التحق بوزارة الخارجية السودانية وابتعث إلى المملكة المتحدة لدراسة الاقتصاد بجامعة برستول بالمملكة المتحدة وبعد إكمال دراسته ونيل السودان لاستقلاله أصبح السكرتير الثاني للسفارة السودانية بالمملكة المتحدة وهو من مؤسسى السفارة السودانية، وتنقل بعدها سفيرا للسودان في اليونان ودول شرق آسيا الهند واليابان وعاد بعدها سفيرا للسودان لدى جمهورية مصر العربية وتم اختياره وزيرا للتجارة في عهد ثورة أكتوبر، وبعد الانقلاب المايوي تم اختياره وزيرا للتخطيط وهو صاحب الخطط الخمسية والعشرية للتنمية، أقيل من منصبه بعد انقلاب هاشم العطا ١٩٧١م، وقد ورد اسمه في الورقة التي عثر عليها الانقلابيون في جيب عبد الخالق محجوب كوزير للخارجية وزج به في السجن لفترة طويلة، وبعد خروجه من المعتقل واعتزاله للعمل السياسى انكب على دراسة علم الاعشاب والتداوى به وتفسير القرآن الكريم والتصوف.

عبد الله محمد أحمد، السيد، سياسى ومعلم، خريج آداب جامعة الخرطوم حيث كان منضماً للأخوان المسلمين، عمل معلماً بالمدارس الثانوية. وانضم لحزب الأمة. بعد الانتفاضة في أبريل ١٩٨٥م دخل البرلمان نائباً وتقلد عدة مناصب وزارية في عهد الديمقراطية الثالثة، تعاون مع ديكتاتورية «الإنقاذ» في البداية حيث تقلد عدة مناصب وزارية، ثم منصب سفير السودان بروما. عاش بالخارج فترة وعاد مؤخراً للاستقرار في

السودان.

عبد الله نقد الله (الأمير) (فبراير ١٩١٥م- يوليو١٩٧٩م) ولد بمدينة أم درمان، تخرج من كلية غردون قسم المحاسبة، مؤسس تنظيم شباب الأنصار ومنظمه على (نظام العشرات والثلاث وثلاثينات، ورؤوس الميات). من مؤسسي حزب الأمة، كما أنه كان مساعد السكرتير الأول، وقد قام بطواف كل المديريات لتأسيس لجان الحزب القاعدية. من منظمي حشد أول مارس وحكوم في ذلك الموكب. انتخب أمين عام للحزب في ١٤ نوفمبر ١٩٦٤م حتى وفاته. تقلد كثيرا من المناصب الوزارية أشهرها وزارة الحكومات المحلية ووزارة الداخلية، ولقد عمل عدة إصلاحات أساسية في وزارة الحكومات المحلية مثل توزيع الأراضي والخطط السكنية ودعمه للفقراء من الأسر ودعمه للمرأة (في أن تمتلك المرأة قطع أرض). كان من المقربين جدا للإمام عبد الرحمن، سجن في فترة عبود مع القيادات الوطنية بجوبا في سجن الرجاف، وأيضا سجن في فترة مايو.

علي عبد الرحمن الأمين الضرير، الشيخ، السياسي، القطب الاتحادي والقانونيّ، ابوه الشيخ الأمين الضرير كان شيخ الإسلام إبان التركية. تخرّج من كلية غردون قسم القانون سنة ١٩٢٦م، وعمِل كقاضٍ شرعيّ ما أتاح له التنقّل في كثير من أنحاء السودان حيث عمل لسنوات طوال بجنوب السودان. إنضم باكراً لمؤتمر الخريجين ولحزب الأشقّاء. عُيّن وزيراً للمعارف في أول حكومة وطنية عام ١٩٥٤م، ثمّ أميناً لحزب الشعب الديمقراطي الذي انشق عن الحزب الوطني الاتحادي وكان برعاية السيّد علي الميرغني سنة ١٩٥٦م، ووقتها أصدر كتابه المُعنون «الديمقراطية والإشتراكية في السّودان»، وفي الحكومة الائتلافية بين حزب الأمة وحزب الشعب برئاسة البك عبد الله خليل عُين نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية. عقب إنقلاب الفريق عبود، هادَن شيخ علي وحزبه النّظام وتبعاً لذلك قاطع إنتخابات عام ١٩٦٥م ووقف في المعارضة. أيضاً، كان صاحب نزعة قوميّة عربيّة وعَرِفه الناس «كعُروبيّ» أو «ناصِري» له عِلاقته القوية مع مِصر وعبدالناصر، كما مَدّ الجُسور معالاتّحادات والنّقابات التي كان يسيطر عليها اليسار في ذلك الوقت. ولقبه بعض خصومه ب«الشيخ الأحمر». بعد توحيد الوطني الاتحادي والشعب الديمقراطي في الحزب الاتحادي الديمقراطي أضحى نائباً لرئيس

الحزب الاتّحادي الديمقراطيّ.

عمر محمد نور الدائم الفكي إدريس (الدكتور) (١٩٣٤ - ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٣م)، خريج الزراعة بجامعة الخرطوم١٩٥٧م. دكتوراه بجامعة قوتنقن ألمانيا ١٩٦٣م. من رموز حزب الأمة عمل في وزارة الزراعة واستقال في ديسمبر ١٩٦٤م وتفرغ للعمل الحزبي، كان وزير الزراعة (١٩٦٦م)، انتخب بأعلى الأصوات في الأمانة الخماسية للحزب ١٩٨٦م، وتقلد العديد من المناصب الوزارية في الديمقراطية الثالثة، اعتقلته الإنقاذ وصادرت منزله، تقلد منصب النائب الأول لرئيس حزب الأمة. وهو صديق للسيد الصادق وساعده الأيمن في الحزب، توفي في حادث أليم هو وسيدنا عبد الله إسحق بطريق الدويم.

عوض الجيد محمد أحمد، (ولد ١٩٤٦م) تخرج من جامعة الخرطوم كلية الحقوق، بدأ عمله كمساعد في مكتب النائب العام واستقال في منتصف السبعينات، والتحق بالمحاماة. وينتمي للشيخ عوض الجيد الصوفي، وهو من المتحدثين في الغيبيات ما هيأه للقرب واقترحه أبوقرون للجنة التي صاغت قوانين سبتمبر ١٩٨٣م.

عيدى أمين دادا (١٩٢٥ - ١٦ أغسطس ٢٠٠٣م)، رئيس يوغندا الثالث في الفترة (١٩٧١-١٩٧٩م) ديكتاتور عسكري حكم يوغندا بالسلاح والنار. شابت فترة حكمه الصراعات الأهلية الشديدة بين الأعراق المختلفة، وعنف مستمر واغتيالات للمنافسين السياسيين، يقدر عدد القتلى في فترة حكمه ما بين ٨٠ ألفاً و ٥٠٠ ألف على حسب بعض التقديرات. بعد سقوط سلطته أبعد إلى السعودية وعاش في جدة حتى وفاته.

فاروق عثمان حمد الله، الرائد (أعدم يوليو ١٩٧١م)، ابن المؤرخ الشيخ عثمان حمد الله من كبوشية،تخرج في الكلية الحربية، وهو أحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، وعندما كان يعمل بالحامية الجنوبية بجوبا كان أحد الضباط الذين واجهوا القائد العام ووزير الدفاع واحتجزوهما لفترة، وتم فصله من الجيش، وبعدها عمل بمستشفى الخرطوم إدارياً، شارك في انقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩م وكان عضواً بمجلس قيادة مايو، وعُين وزيراً للداخلية، وتم إقصاؤه من المجلس هو والرائد «هاشم العطا» والمقدم «بابكر النور» في نوفمبر ١٩٧٠م مع تزايد الجفوة بين النميري والشيوعيين، ثم سافر

لبريطانيا، وهناك وقع انقلاب «هاشم العطا»، حيث أعلنه في مجلس ثورته، وفي طريق عودته أجبر العقيد القذافي الطائرة وهبطت بطرابلس، ثم سلمه للخرطوم، حيث قضت محكمة بإدانته والحكم عليه بالإعدام، وتم تنفيذ الحكم.

فاروق مصطفى عمر أبوعيسى (ولد ١٢/ ٨/ ١٩٣٣م) تجند في الحزب الشيوعي عام ١٩٥٠م، تخرج من كلية الحقوق جامعة الإسكندرية في العام ١٩٥٧م، وانتخب في بداية عهد عبود سكرتيرا لنقابة المحامين واشترك في النضال ضد ديكتاتورية عبود ونشط داخل الجبهة الوطنية المتحدة التي كان يقودها الإمام الصديق المهدي، وفي ١٩٦٣م ترشح في انتخابات المجلس المركزي ونال عضويته، وشارك كسكرتير لنقابة المحامين في إذكاء ثورة أكتوبر ١٩٦٤م.. وساهم في ٩/ ١١/ ١٩٦٤م بناء على معلومة مغلوطة في تأجيج الجماهير فيما سمي ب(ليلة المتاريس). وبعد الانقلاب المايوي عين وزير دولة لشئون الرئاسة، عاد للمحاماة ثم اختير نقيبا للمحامين العرب ١٩٨٣م وغادر صفوف الحزب الشيوعي. وبعد قيام انقلاب الإنقاذ ١٩٨٩م وتكون التجمع الوطني الديمقراطي بالخارج كان عضوا بهيئة القيادية كمستقل، وكان بعد اتفاقية القاهرة ٢٠٠٥م عضوا بالمجلس الوطني المعين وفقا لاتفاقية السلام ودستور السودان الانتقالي، حتى أقيل منه. وهو الآن رئيس هيئة القيادة في التحالف المسمى قوى الإجماع الوطني الذي يجمع أحزاب المعارضة السودانية.

فؤاد مطر، صحفي لبناني مهتم بالشأن السوداني، أصدر في فترة سابقة مجلة التضامن، جمعته بالعديد من الشخصيات السودانية علاقة حميمة ومنهم المؤلف. شكل موقفه المساند للنظام المايوي عشية الانتفاضة في ١٩٨٥م والمستخف بالثورة ضده هزة في مكانته كصحفي عربي ملم بالشأن السوداني.

كمال الدين عوض الجزولي دياب، (ولد ١٥/ ٤/ ١٩٤٧م)، أم درمان، المحامي والشاعر والسياسي والكاتب الصحفي والناشط في مجالات حقوق الإنسان. ماجستير القوانين LL. Mبتخصص في القانون الدولي العام من كلية القانون الدولي والعلاقات الدولية بجامعة كييف بأوكرانيا، الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، عام ١٩٧٣م، ودبلوم الترجمة من نفس الجامعة (دراسات إضافية)، عام ١٩٧٣م. تقلد منصب الأمين العام لاتحاد الكتاب السودانيين (١٩٨٥-١٩٨٩)، ولدى تأسيسه من جديد (٢٠٠٦-

٢٠١٣م).

كوامي نكروما (٢١ سبتمبر ١٩٠٩ - ٢٧ أبريل ١٩٧٢)**Kwame Nkruma** من المناضلين الأفارقة الأوائل ضد الاستعمار، أول رئيس لغانا المستقلة في الفترة (١ يوليو ١٩٦٠ - ٢٤ فبراير ١٩٦٦م).

مأمون عوض ابو زيد، الرائد (ت ٧/ ١١/ ٢٠١٠م) عضو مجلس قيادة مايو، وأحد من أبرز منفذي الانقلاب. شغل عدة مناصب إبان العهد المايوى منها رئاسة جهاز أمن الدولة، ثم وزارة الداخلية.

مبارك عبد الله الفاضل المهدي (ولد ١٩٥٠م)، السيد، سياسي وقيادي بحزب الأمة القومي سابقاً، تقلد العديد من المناصب الوزارية إبان الديمقراطية الثالثة: الصناعة، والاقتصاد والتجارة، وآخرها وزارة الداخلية. خرج سراً بعد انقلاب (الإنقاذ) وقاد المعارضة من الخارج، عاد ضمن قيادات الحزب في أبريل ٢٠٠٠م ورأس التفاوض مع النظام حيث انشق في ٢٠٠٢م وأسس حزب (الأمة الإصلاح والتجديد) وانخرط في النظام وصار مساعداً لرئيس الجمهورية منذ (٢٠٠٢) وحتى إعفائه في ٢٠٠٤، عاد بعدها للمعارضة.

محجوب شريف (١٩٤٨- ٢ أبريل ٢٠١٤م) شاعر الشعب، معلم، وناشط إنساني. وُلد بقرية أب قدوم ريفي المسلمية، أشاد بالنظام المايوي في بدايته بقصيدته (ياحارسنا وفارسنا) في يونيو ١٩٦٩م وسرعانما أدرك سوء النظام فهاجمه بقصيدة (كلمة شرف) في نفس العام، وقصيدة (لا حارسنا ولا فارسنا) في أول عام ١٩٧١ وكانت بمثابة إعلان نقد ذاتي لموقفه السابق، اعتقله النظام المايوي في ١٩٧١م وانتمى للحزب الشيوعي أثناء الاعتقال وقضى ما مجمله عشر سنوات في معتقلات مايو. كتب أبدع القصائد بمناسبة انتفاضة رجب أبريل ١٩٨٥م تغنى ببعضها الفنان محمد وردي وتغنى له فنانون كثر أغانٍ وطنية وعاطفية. تكرر إعتقاله إبان حكم (الإنقاذ) فقضى ما مجمله ست سنوات، كما فصل تعسفياً منذ ١٩٨٩ . تأثراً ببيئة الاعتقال السيئة أصيب بمرض التليف الرئوي الذي توفي جراءه. أسس مع آخرين منظمة رد الجميل التي عملت في مختلف القضايا المجتمعية ولمساعدة الضعفاء والفقراء والمهمشين والمرضى. كان يصدر مجلة (نفاج) كما صدر له عدد من الدواوين.

محمد إبراهيم أبو سليم (١٦/ ٧/ ١٩٢٦ - فبراير ٢٠٠٤م)، البروفسر، مخرج الآثار، أبرز مؤرخي السودان المعاصرين، ويعتبر مؤرخاً ووثائقياً عالمياً. سودن وظيفة مدير دار الوثائق فارتفع بمستواها وطورها من ناحية تنظيم وحفظ الوثائق وأثراها بالتعامل مع مراكز الوثائق الدولية. كما أعد كثيرا من الوثائق للنشر، له عشرات المؤلفات في مختلف المواضيع والحقب التاريخية السودانية، يعتبر مرجعاً في تاريخ المهدية ومخرج آثار المهدية حيث أخرج آثار الإمام المهدي في سبعة مجلدات ثم آثار خليفة المهدي. كما أخرج وحقق العديد من الوثائق، وألف حول الشخصية السودانية، والساقية وغيرها من المواضيع. كما أشرف على العديد من رسائل الدكتوراة والماجستير.

محمد إبراهيم نقد (١٩٣٠ م - ٢٢ مارس ٢٠١٢) سكرتير عام الحزب الشيوعي السوداني منذ اغتيال عبد الخالق محجوب في يوليو ١٩٧١م وحتى وفاته. له العديد من الأعمال الفكرية.

محمد أحمد محجوب (١٩٠٨- ١٩٧٦م)، السياسي البارز والقانوني والأديب والشاعر، تخرج وعمل مهندسا ثم تحول للقانون وعمل بالقضاء ثم المحاماة وصار نقيبا لمحامين عدة سنوات. التحق بحزب الأمة في ديسمبر ١٩٥٦م، كان زعيم المعارضة في برلمان الاستقلال، وزير الخارجية في الديمقراطية الأولى، رئيس للوزراة إبان الديمقراطية الثانية. له مؤلفات أدبية، كما أخرج مذكراته في كتاب باللغة الإنجليزية تمت تعريبه بعنوان (الديمقراطية في الميزان).

محمد أنور محمد السادات (25 ديسمبر 1918 م- ٦ أكتوبر ١٩٨١م)، ثالث رئيس لجمهورية مصر العربية خلفاً للرئيس جمال عبد الناصر، حكم فى الفترة من ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وحتى ٦ أكتوبر ١٩٨١م). والدته سودانية من أم مصرية تدعى ست البرين من دنقلا، تزوجها والده حينما كان يعمل مع الفريق الطبى البريطانى بالسودان، عاش وترعرع فى قرية ميت أبو الكوم بصعيد مصر. تخرج من الكلية الحربية فى ١٩٤٨م، وتم سجنه العديد من المرات وطرد من الجيش لمشاركته فى مناشط مقاومة للإنجليز، عاد للجيش بوساطة لاحقاً وانضم لتنظيم الضباط الأحرار الذى نفذ ثورة يوليو ١٩٥٢م وتقلد العديد من المناصب فى حكومة الثورة واختاره ناصر نائباً له فى ١٩٦٩. من أهم الأحداث التي ارتبطت به حرب العبور في ٦ أكتوبر ١٩٧٣م التي شكلت أول نصر

مصرى على إسرائيل، ثم اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل فى سبتمبر ١٩٧٨م والتى شقت الصف العربى. اغتاله تنظيم الجهاد الإسلامي المصري على يدي خالد الإسلامبولي وآخرين في يوم الاحتفال بنصر ٦ أكتوبر.

محمد توفيق خليل، فريق مهندس (م)، تولى منصب رئيس هيئة الأركان للإمداد حتى ١٩٨٣م، ثم قائد سلاح المهندسين حتى أواخر العهد المايوي، وصار عضو المجلس العسكري الانتقالي بعد الانتفاضة (١٩٨٥-٨٦م).

محمد حسني السيد مبارك (ولد في ٤ مايو ١٩٢٨): الرئيس الرابع لجمهورية مصر العربية (١٩٨١- فبراير ٢٠١١م)، تنحى عن الحكم على إثر ثورة ٢٥ يناير في ١١ فبراير ٢٠١١م، قدم للمحاكمة العلنية بتهمة قتل المتظاهرين في ثورة ٢٥ يناير، أدين وتم الحكم عليه بالسجن المؤبد يوم السبت ٢ يونيو ٢٠١٢م، وضع في ٢٢/ ٨/ ٢٠١٣م تحت الإقامة الجبرية وفي ٢٩ نوفمبر ٢٠١٤م تمت تبرئته وأطلق سراحه.

محمد سعيد القدال (١٩٣٥- ٢٣ يونيو ٢٠٠٦م) المؤرخ والكاتب المعروف، من مواليد الخرطوم، حاصل على شهادة الدكتوراة في تاريخ السودان الحديث. أستاذ مشارك في مادة تاريخ السودان الحديث في كلية الآداب في جامعة الخرطوم. شيوعى في اتجاهه السياسى، له العديد من المؤلفات حول المهدية منها (الإمام المهدي: لوحة لثائر سوداني)، و(السياسة الاقتصادية للدولة المهدية)، وقد أبرز فيهما الوجه الاشتراكى للدعوة والدولة، و(المهدية والحبشة)، وكذلك كتاب (الانتماء والاغتراب: دراسات في التاريخ السوداني) الذي بحث في بعض فصوله العلاقة بين المهدية والجنوب.

محمد عبد الحليم، العميد، ضابط بالقوات المسلحة كان مستشاراً قانونياً لمجلس الثورة الذي عينه الانقلاب المايوي.

محمد عثمان الميرغني، السيد، مرشد الختمية وراعي الحزب الاتحادي الديمقراطي منذ وفاة والده السيد علي الميرغني في ١٩٦٨، تقلد رئاسة الحزب في ١٩٨٦م، دعم النظام المايوي وأيده وشارك فيه حزبه بوزراء وبعضوية في المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي. والآن حزبه مشارك في حكومة (الإنقاذ) بعد أكثر من عقد ونصف قضاها في المعارضة.

محمود محمد طه (١٩٠٩م- ١٨ يناير ١٩٨٥م) الأستاذ، مفكر و مؤلف و سياسي،

مؤسس الحزب الجمهوري ١٩٤٥م، ولاحقاً صاحب الفكرة الجمهورية و(الرسالة الثانية). اغتاله النظام المايوي جوراً بعد إصدار حكم بالردة عليه.

معمر القذافي (العقيد) (١٩٤٢ – ٢٠١١م). حكم ليبيا لأكثر من ٤٢ سنة، تمت الإطاحة بحكمه بعد قيام ثورة ١٧ فبراير ٢٠١١م الليبية واغتيل من قبل الثوار في ٢٠ أكتوبر ٢٠١١م.

منقستو هايلي مريم (١٩٣٧م) أبرز ضابط الطغمة العسكرية الشيوعية التي حكمت إثيوبيا (١٩٧٤ – ١٩٨٧م) ورئيس جمهورية إثيوبيا الديمقراطية الشعبية (١٩٨٧ – ١٩٩١م)، أشرف على الإرهاب الأحمر الإثيوبي (١٩٧٧–١٩٧٨م) ضد معارضة حكمه، فر إلى زمبابوي في عام ١٩٩١م، حكم غيابيا بتهمة الإبادة الجماعية.

موسى الصدر (ولد عام1928 م) عالم دين ومفكر وسياسي شيعي وهو ابن السيد صدر الدين الصدر المنحدر من جبل عامل في لبنان. فُقد اثناء زيارته لليبيا عام ١٩٧٨م ولم يعرف مصيره.

ميرغني النصري (١٩٢٧–٥ أكتوبر ٢٠١٠م) ولد برفاعة، من مؤسسي حركة التحرير الإسلامي مع بابكر كرار التي تحولت إلى الحزب الاشتراكي الإسلامي ثم الجماعة الإسلامية في الفترة (١٩٤٩–١٩٥٤م). تولي منصب نقيب المحامين السودانيين لأكثر من دورة، ووزير عدل في الحكومة الانتقالية (ابريل ١٩٨٥ – ابريل ١٩٨٦م) وعضو مجلس رأس الدولة (١٩٨٧–١٩٨٩م).

نصر الدين الهادي المهدي، السيد، من أقطاب أسرة المهدي وقيادات حزب الأمة القومي، اشترك في الانتفاضة المسلحة ٢ يوليو ١٩٧٦م وكان شاباً صغير السن، تقلد منصب نائب رئيس الحزب إبان الثمانينات، وتقلد المنصب من جديد بعد المؤتمر السابع (٢٠٠٩) حتى تم اعفاؤه لالتحاقه بالجبهة الثورية السودانية.

هاشم العطا، الرائد (٣/ ١٢/ ١٩٣٦ – يوليو ١٩٧١م) ولد بأم درمان، التحق بالكلية الحربية وتخرج في ١٩٥٩م، عمل بالقيادة الوسطى حتى ١٩٦٣م، ثم معلم بمدرسة المشاة حتى ١٩٦٥م، ثم بالقيادة الجنوبية حتى ١٩٦٨م، ثم بقنصلية السودان في بون كمساعد عسكري حتى ١٩٦٩م، شارك في انقلاب مايو ١٩٦٩م وكان عضوا

بمجلس قيادة مايو، شغل منصب وزير الثروة الحيوانية. ومساعد رئيس الوزراء للقطاع الزراعي، اعتقل في ١٦ نوفمبر ١٩٧٠م وأبعد من مناصبه، قاد حركة ١٩ يوليو الشيوعية في ١٩ يوليو ١٩٧١م الذي نجح حتى ٢٢ يوليو حينما أعيد نميري للسلطة، وتم إعدامه عقب محاكمات إيجازية ولا زال قبره ومن معه مجهولاً.

هيلا سلاسي الأول، الامبراطور (١٨٩٢-١٩٧٦م)، امبراطور اثيوبيا لأكثر من ٤٠ عاماً، يعنى اسمه باللغة الإثيوبية القديمة (سلطة الثالوث) واسمه الأصلى تافاري ماكونين. كان والده حاكما لإقليم صرصر، تولى الحكم وهو فى يالرابعة عشر، وفى الثامنة عشر صار حاكما لإقليم هرر، عين وصياً على العرش ووريثاً له عندما صارت زاوديتو ابنة الامبراطور منيليك امبراطورة على اثيوبيا واستمرت وصايته ١٤ عاماً، وفى ١٩٢٨م توجته الإمبراطورة ملكاً على شوا. ثم توج امبراطوراً فى نوفمبر ١٩٣٠ بعد موت الإمبراطورة واتخذ اسم هيلا سلاسى الأول. بعد غزو الطليان فى أكتوبر ١٩٣٥م أقام فى المنفى بإنجلترا، وفى يناير ١٩٤١م عاد إلى أثيوبيا بمساعدة الإنجليز وقام بدور قيادى فى تحرير بلاده من الاحتلال الإيطالى وضم إرتريا إلى سلطانه. قام الجيش فى فبراير ١٩٧٤م بانقلاب على هيلا سلاسي واعتقل وصودرت أمواله، توفي في المعتقل في أوائل ١٩٧٦م.

يوسف بابكر بدري (العميد) (١٩١٢-١٩٩٥م) درس الصيدلة وعمل بها حتى تفرغ للعمل مع والده الشيخ بابكر بدري رائد تعليم البنات في السودان. في ١٩٦٦م أنشأ كلية الأحفاد الجامعية للبنات التي تطورت لاحقا لتصير جامعة الأحفاد للبنات. كتب مذكراته بعنوان (قدر جيل).

يوسف مصطفى التني (١٩٠٧-١٩٦٩م) سياسي، دبلوماسي، وشاعر. ولد بأم درمان، عمل سفيراً في عدة عواصم، تخرج مهندساً من كلية غردون في ١٩٣٠. عمل مهندسًا حتى عام ١٩٤٢، وفي العام نفسه التحق بالجيش ضابطًا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥)، ثم عاد مهندساً في الأشغال ليلتحق بعد ذلك بوزارة الخارجية، عمل سكرتيراً لمجلة (الفجر) ثم رئيسًا لتحرير جريدة الأمة (لسان حال حزب الأمة)، ثم التحق بمصلحة العمل، وظل بها حتى أصبح مديراً لها، ليعود مرة أخرى إلى وزارة الخارجية، وكان عضو حزب الأمة، وعضو الهيئة الستينيّة لمؤتمر الخريجين. له العديد من الدواوين الشعرية.

المقامة الجعفرية الأولى: رسالة الترويع بالتشريع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الجعفرية الأولى

رسالة الترويع بالتشريع

نوفمبر ١٩٨٤

الحمدُ للهِ المحمودِ على الخيرِ والشرْ، المسئولِ عن النفعِ والضرْ، والصلاةُ على خيرِ البَشَرْ، المصطفى في ربيعةٍ ومُضَرْ، أما بعدُ-

حدّثنا محمّد أحمد الخطيبُ، عن محمّد علي الدبّاغِ، عن إبراهيمِ البقّالِ، عن زَيْنبَ الحائكةِ، عن مَلوال النجارِ، عن كوكو الشرطيِّ، عن أوهاج الجنديِّ، عن زكريا السجانِ، عن تَاوُر البدويِّ، عن مَرْيم الطَالِبةِ، عَنْ الفَاتِحِ الجرّاحِ، عَنْ عَبْد الحَميْدِ الفَلّاحِ، عَنْ عَبدِ الرَحْمَن الغزّالِ، أنَّ حَكِيماً سُودَانياً حمَدَ اللهَ وأثْنَى عليهِ وصلَّى علَى نبيه ثمّ قال:

قالَ تعالَى: ﴿الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1]؟. فَشَاءَ اللهُ بِحِكْمتهِ البالغةِ أن يبْلُوَ أهلَ السُودان بذي الجيمِ والنونْ، والياً لم تأتْ بمِثْلِهِ القُرُونْ، استلمَ حُكمَ البلادِ ظافراً وخرجَ مِنْ كُلِّ العقَباتِ مُظَفّراً. فانْبرى لِشعاراتِ الوَرَى الزاهِرةِ المُحبَّبةِ فَرفعهَا شِعاراً شعاراً. قال: جِئتُكم بالاشتراكيةِ العلميةِ، فقال له المحرمونَ لبيكَ وسَعْدَيكَ والخيرُ كُلّه بيديكَ، فصادَرَ وأمّمْ، وزَجَر معارضيه وأفْحَمْ.

ولَكن قَبلَ إشْرَاقِ الفَجْرِ العِمْلاقْ، أدْركَهُ الإخفاقْ، وتأكّد أنَّ التجربةَ قدْ أفسدَت الحرثَ والنسلَ والأخلاقْ.

وانبَرَى لبرنَامِجِ الأحزابِ السودانيةْ، الخَاص بالمُشكلةِ الجنوبيةْ، فاتّخذَهُ مِفتاحاً

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ١ و ٢

للوحدةِ الوطنيةْ، وتَجاوبَتْ معَهُ القُوى الجنوبيّةْ، وعَقَدَ معَها الاتفاقيّةَ الحبَشيّةْ، ورشّحهُ بعضُ النّاسِ لجائزةِ السلامِ العالميةْ، ثمّ عاوَدَتـهُ الشنْشَـنَةُ الأصـليّةْ، فَخَـرقَ الاتفاقيّـةْ، وأشْعَلَ نِيرانَ الحربِ الأهلِيّةْ.

وقَبْلَ تِلكَ الزلّةِ المأسَوِيّةْ، رفَعَ الوالِي شِعارَ التنميـةِ الاقتصـاديّةْ، ونَـادَى بالسـودَان سلّةً للعالَم غذائيّةْ، وغنّى موَّالَ العداءِ للشـيوعيّةْ، فـأطربَ أصـحابَ الأمـوالِ الغربيّـةِ والعربيّةْ، فتدفقَت الأموالُ لتُحدِثَ الثورةَ الزراعيّةَ والصناعيّةْ، بمُوجبِ الخطّةِ السِـتّيّةْ، وكانَتْ خطّةً فِي غايةِ السطحيّةْ، وأشرفَ عليهَا تخطيطاً وتنفيذاً فاقِدُو الأهليّةْ، فتحوّلَت التنميةُ إلَى أُمنياتٍ وهميّةْ، وضَاعَت الأموالُ فِـي الجيـوبِ الخصوصـيّةْ، وتـدنّى إنتـاجُ البلادِ إلى نِصْفِ حالتِهِ الأوليّةْ، بينما عَظُمَتْ علَى كاهِلِ البلادِ المديونيّةْ، وفُرضَتْ علَـى البِلادِ بَرامِجُ صُندوقِ النقدِ العلاجيّةْ، فأتَتْ بنتائجَ عكْسيّةْ، وصَارتْ عَلَى مرِّ الأيامِ دائيةً لَا دوائيّةْ.

وقَبلَ السُقوطِ فِي هَذهِ الهَاوِيَةِ التنمويّةْ، رَفَعَ الوالِي شِعَارَ المُصالحةِ الوَطنيّةْ، وعَقَـدَ مَعَ الوطنيينَ عُهُوداً إصلَاحيّةْ، أَعْطَت البلادَ ابتِسامةً وقتيّةْ، سُرعان مَـا نَقَضـتْها السـدَنَةُ المايويّةْ، ورَفَضَتْها الوِصايَةُ السَاداتيّةْ، وبَينَما الوالِي ونِظامُهُ يُعاني مِن المَفاسدِ الداخليّةْ، ويَمْتَثِلُ للتبعيّةِ الخارجيّةْ، تَصدّتْ لَهُ المُعارضةُ السياسيّةْ، والحركـاتُ الفِئَويّـةِ النقابيّـةِ والمهنيّةْ، ولِكَيْ يُحْكمَ القبْضةَ الحديديّةْ، ويُعلّقَ الحُقوقَ القَانونيّةْ، كَـانَ عليـهِ أَنْ يَقهَـرَ الهيئةَ القضَائيّةْ، فَدَخَلَ مَعَهَا فِي مُنازلَةٍ تَاريخيّةْ، فَوَقَفَتْ فِي وَجْهِهِ وَقْفَةً عَنتريّةْ، فَرَأى أنْ يُغَطّي هَزيمَتَهُ الاستَراتيجيّةْ، بمُبادأةٍ تَكْتيكيّةْ.

إنّهُ فكّرَ وقدَّرْ، ونَقَل نَفْسَهُ مِن الفرِّ إلَى الكَـرْ، برُكـوبِ جـوادٍ أَغَـرْ، جَـوَادُ الشـريعةِ الأَزْهَرْ، وهَجَمَ به هُجُومَ الغِرْ، الذِي لا يَخْشَى عاقبَةَ الأمْرْ، وأكّد لكلِّ البَشَرْ، أنّ الشَـرْعَ عنْدَه قَدَاسَةٌ للسُلْطانْ، وتَعَاسَةٌ للإنْسَانْ، فَقطَعَ مِن الأيْدِي فِي نِصْفِ عـامْ، أضْـعَافَ مـا قَطَعَ العَهْدُ الإسلاميُّ الأوّلُ فِي مائةِ عامْ!

ومَعَ أنّ الجَلدَ فِي نَظَرِ الشَريْعةْ، عُقُوبةٌ مريْعةْ، مُخصصةٌ للجـرائِمِ الفظيْعَـةْ، عَمّمَـهُ الوالِي ليَجْلِدَ الناسَ بكلِّ ذريْعَةْ.

لَقدْ صَارَ أهلُ السودَان وهُمْ غالِباً جيَاعُ الأكبادْ، عُراةُ الأجسَادْ، بَيْنَ مَقْطُوعٍ ومَجْلُـودٍ

ومَجْدُوعٍ وحبيسٍ في الأصْفادْ، يُعانُونَ شريْعَةَ الجلّادْ.

وهل أتَاكَ نبأُ الواثِقِ مَسِيحِ الحماقَةِ المَايويّةْ؟ والفَاتِحِ ضحيّةِ المحَاكِمِ الجُزافيّةْ؟ ومَهْدي وزميْله اللذَانِ قُطِعَا مِن خِلافٍ في سَرِقةٍ فِيها شُبهَةُ المِلْكيّةْ؟ دِماءُ هؤلاءِ تَصيحُ اللّهمَ أقتصَّ لنَا مِنْ هَذِه الدولةِ السَاديّةْ. إنَّ القَفْزَةَ الجعفريّةْ، عَلَى قَافِلَةِ السُنّةِ المُحمديّةْ، هِي شَهْوةُ وَالٍ سِياسِيّةْ، اسْتَعَانتْ بخِبْرةِ ثالوثٍ هُم أَبو قُرُونٍ وعَوَضٌ وبَدْريّةْ، ثالوثٌ فطير المعْرفةِ الشَرْعيّةْ، قليلُ الحصِيلةِ القَانونيّةْ، واسْتَغَلّتْ بَعضَ الطرقِ الصوفيّةِ الفَرعيّةْ، واسْتَخْدَمَتْ هَيْئةً تَسْمِيتُها إسلاميّةْ، وأفعالُها نَفْعيّةٌ دُنيويّةْ.

اللّهمَ ارْحَمْنَا مِن هَذِه الألاعيبِ الصِبْيانيّةْ. لَقَد سَمِعَ النَاسُ رَئِيسَ الهيئةِ الثُلاثيّةْ، أَبَا قُرُونٍ يَتَلاعبُ بالمدائِحِ النبويّةْ، تصدّى لقولِ مَادحِ الصُوفيّةْ:

صَلِّ يَا عظيمَ الذاتْ

على صاحب المعجزاتْ

دائماً، الناجَى شَاف الذاتْ

فَنَقَلَ النشيدَ مِن الذاتِ المُحمديّةْ، إِلَى عزةٍ وبثينةٍ ورُقيّةْ، قَائلاً:

غنيت للستّاتْ

أنَا قَصْدِي الانبساط ،

دائماً، يا خلّي مع البَناتْ!

أما قُضَاةُ المحَاكِمِ الإيْجازيّةْ، فَجَماعةٌ مُختارةٌ لإصْدارِ أحْكام تَرْهيبيّةْ، بَعيدةٍ كُلّ البُعْدِ عَن العدالةِ السَماويّةْ، أَشْهَرُهم الذِي كَثُرَتْ أحْكامُهُ التَعسُّفيّةْ، وطَبّلَتْ لَه الأجْهزةُ الإعلاميّةْ، قَاضٍ مُصابٌ بالأمْراضِ العَصبيّةْ، بذَا شَهِدَتْ دَفَاتِرُ «شيخ إدريس» العِيَاديّةْ!

إنَّ اللهَ أرْسلَ مُحَمَّداً صَلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ رَحْمَةً للعَالَمِين، أيْنَ عدلُ الشريعةِ ورحْمتُها؟ أيْنَ رَخاؤها وعزّتُها؟ أيْنَ قولُ مُنْزِلِها: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]؟.

(١) سورة المنافقون الآية ٨

لَقَد لَحِقَ بالسُودَان شَقَاءٌ بالِغٌ، وضيَاعٌ قَالَ فيه القائلُ:

نَحْنُ واللهِ فِي سوءِ حالٍ

لَوْ رَأَيْناهُ فِي المَنامِ فَزِعْنَا

أَصْبَحَ النَاسُ مِنْهُ فِي شَقَاءٍ

حَقٌّ مَنْ مَاتَ منهُمو أنْ يهَنّا

وفَوقَ المُعاناةِ الحِسيّةْ، انْهَالَتْ علَى أَهْلِ السُودَان عَذاباتٌ مَعنويّةْ، ولَوثَاتٌ عَقائديّةْ، وافْتراءاتٌ فِكريّةْ.. انْهالت عَليهمْ مِن الخُطَبِ المنبريّةْ، والأجْهزةِ الإعْلاميّةْ، حَاكتْ فِي سُخفِها قُرْآنَ مُسيلمةٍ وأقاويلَ سجاحَ وأساطيرَها المرويّةْ، فِي الكتبِ التاريخيّةْ. إلَيْكَ مِنْ هَذه التجربةِ المَايويّةْ، هَذه الأمْثال المنْقولة عن الأجهزةِ المسمُوعةِ والمرئيّةْ:

أولاً: سمّى الوالِي « الآخِر» اليوم «الآخَر».

ثَانياً: سمّى الوالِي ربَّ العزَّةِ «الموفق» فأضَافَ لأسماءِ اللهِ الحُسْنَى اسْمَاً مغلوطاً مئوياً!

ثَالثاً: أضافَ للقرآنِ تعبيراً إنسانياً قال: جَاء فِي القُرآنِ وصفاً للنبيِّ «كَانَ خُلُقُهُ القُرآنَ»!

رَابعاً: أضافَ للسيرةِ المُحمديّةْ، تَعَابيرَ غَريبةً وحشيّةْ، قال مشيراً للذات النبويّةْ: «فَقَشُوا راسُه»! وقال إنّهُ أعْلنَ حالةَ الطَوارِئِ فِي أحْكامِهِ السِياسيّةْ!

خَامساً: مَنحَ بَعْضَ الصَحَابةِ أَسْماءً عَصْريّةْ، مُشيراً لِمنْ سمّاهُ عُمَر بنْ العَاصِ - أكَلَ الواوَ كمَا فَعَلتْ الطُغْمةُ المَايويّةْ، بالأمْوالِ الحُكوميّةْ!

سَادسَاً: أدْخَلَ فِي الزَكاةِ مَصَاريْفَ إضَافيّةْ، قال إنّهَا تَدْخُلُ فِي تَمْويلِ كُلِّ الشُئونِ الحُكوميّةْ!

سَابِعاً: زَاد الحُدودَ زيَاداتٍ ابْتِدَاعيّةْ، قَائِلاً يُقْطَعُ اللِسَانُ لِمُروِّجِي الإشَاعةِ، وقَاسَ الاختِلاسَ عَلَى الحَرابةِ وقَطَعَ فِيهِ مِنْ خِلَافٍ!

ثَامِناً: وعِنْدَمَا شَارَفَ الستّينْ، اكْتشفَ الوَالِي بَعْضَ مَعَانِي الدِينْ، وفَاتَهُ أنَّ

السُودانيينْ، كانُوا يُصَلُّونْ، ويَصُومونَ ويُزَكُّونْ، وشُيُوخُهُمْ يُبَايِعُونْ، بَيْنَمَا هُوَ مُجَنْدَلٌ فِي الطِينْ، فَرَاحَ يَعْلُو كُلَّ مِنْبَرٍ يُكَرِّرُ الوَعْدَ والوَعِيْدْ، كَمَا يُوْلَعُ طِفْلٌ بِكلِّ جَديدْ، قَالَ بَعدَ العِيدْ: إنَّ كَثيْراً مِن الشبّان فِي شوال صلُّوا السُتوتْ!!

تَاسِعاً: وأَفْتَى بأَحْكامِ سُلْطانيّةْ، مَا سَمِعْنا بمثْلِها فِي البَرِيّةْ، فَقَالَ إنَّ رِئَاسَةَ الجُمْهُورِيّةْ، ومُؤهِّلاتِها، سَهلةٌ دَنيّةْ، تَشْملُ فيمَا تَشملُ الإمامَةَ والخِلافَةَ وإمَارَةَ المُؤمنِين، ومُؤَهِّلاتُها صَعبةٌ قَصِيّةْ:

اسْفِنْجةٌ جَاءَتْ لِشُربِ بَحْرِ
وشَمْعةٌ ضاءَتْ لِشَمْسِ ظُهْرِ
(والشَيخُ جَعْفَر) فِي مَجَال الفِكْرِ
ثَلاثةٌ مُضْحِكةٌ لِعَمْرِي!!

عَاشِراً: وعِنْدَمَا عَرفَ الوَالِي حُقُوقَ الإنْسَانْ، قَالَ إنَّهَا حَقُّ المَأْكَلِ والمَلْبَسِ والمَسْكنِ بِلا زيادةٍ ولا نُقْصَانْ، أمَا سَمِعَ الوَالِي قَوْلَ الديَّانْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾[1] ؟!

أوْ سَمِعَ قَولَ الرُبانْ: «رَحِمَ اللهُ امْرَءاً عَرِفَ قَدْرَ نَفْسِهِ»؟! أوْ سَمِعَ شِعْرَ الإنْسَانْ:

لَيسَ أشْجَى لِفُؤَادِي
مِنْ دَميمٍ يَتَحالَى
وعَجُوزٍ تَتَصابَى
وعَليمٍ يَتَغَابَى
وَجهولٍ يَملأُ الدُنيَا سُؤالاً وجَوابَا

إنَّه مَاضٍ للأَمَامْ، يَذِلُّ الرِقَابَ ويَدُوسُ الهَامْ، ويُعْلنُ السِياساتِ ويُؤلِّفُ الأَحْكامْ، ويسْتَدِلُّ باسْتِمْرارِهِ عَلَى رِضَا الأَنَامْ، مَعَ أنَّ اسْتِمرارَ النِظامْ، رُغْمَ كُلِّ أسْبابِ الإعْدَامْ،

(١) سورة غافر الآية ٥٦

مَعْنَاهُ فِي لُغَةِ العَارِفِينْ: إسْتِدَراجُ الظَالِمِ وامْتِحانُ المَظْلُومينْ. إنَّ مُكابَداتِ الحقِّ امْتحانَاتْ، وانتِصَاراتُ البَاطِلِ إمْهَالاتْ، وقَريْباً يَنْتَهِي الامْتِحَانْ، ويَنْتصرُ عَلَى قَاهِرِهِمْ وجلَّادِهِم أَهْلُ السُودَانْ، ويَسِيْرُ بِخَبَرِ هَذِهِ التَجْرِبَةِ الرُكْبَانْ، وتَحَارُ فِي وَصْفِهَا أَجْيَالُ آخِرِ الزَمَانْ، وتِلْتَمِسُ مِنْهَا أَصْدَقَ البُرْهَانْ، عَلَى مَقَالِ يُوْسُفِ الصِدِّيقِ: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

(١) سورة يوسف الآية ١٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ميثاق تجمع القوي الوطنية لإنقاذ الوطن ٦ أبريل ١٩٨٥م

١- امتثالاً للإرادة الشعبية التي عبرت عنها انتفاضة السادس والعشرين من مارس ١٩٨٥م، والتي دشنتها جماهير العاصمة المثلثة بدماء شهدائها الزكية، وتتويجاً لموكب ٣ أبريل التاريخي الذي تلاحمت فيه قوي الشعب الوطنية استجابة لنداء التجمع النقابي وما تبع ذلك التلاحم من انتفاضات شعبية جسورة جسدت مطلبها في خلاص البلاد من النظام المايوى الديكتاتوري الغاشم، انتظم تجمع القوي الشعبية لإنقاذ الوطن شاملاً كافة القوي النقابية والمهنية والسياسية بهدف إسقاط النظام بكافة الوسائل وعلى رأسها الإضراب السياسي بهدف الإضراب العام مناشداً القوات النظامية لتحتل مكانها إلى جانب جموع الشعب وحركة تحرير الشعب السوداني لتعانق التجمع من أجل تحرير الوطن. وتتمثل قوى التجمع في كل الفئات الوطنية التي تقبل الميثاق وتوقع عليه وتعمل لتحقيق أهدافه.

٢- بعد إسقاط النظام المايوى يقوم نظام حكم قومي ديمقراطي انتقالي لفترة ثلاث سنوات وتتحدد مهام النظام الانتقالي فيما يلي:

أ- تنظيم المشاركة السياسية في فترة الانتقال بموجب دستور السودان المؤقت لسنة ١٩٥٦م المعدل لسنة ١٩٦٤م مع مراعاة الالتزامات والأهداف الواردة في هذا الميثاق في فترة الحكم الانتقالي، ومع مراعاة تمثيل القوى الحديثة في المؤسسات الدستورية عن طريق تنظيماتها الديمقراطية.

ب- كفالة كرامة وحريات المواطنين الأساسية في التنظيم والتعبير والعقيدة والعمل والتنقل وكافة الحريات الأخرى على غرار تصور المواثيق الدولية لحقوق الإنسان من خلال نظام ديمقراطي يكفل سيادة حكم القانون واستقلال القضاء.

ج- حل قضية جنوب الوطن في إطار حكم ذاتي إقليمي يقوم على أسس ديمقراطية بموجب صلاحيات محددة تحقق المشاركة الحقيقية لكافة القوي السياسية الممثلة لجنوب السودان.

د- التحرر من التبعية الاقتصادية للإمبريالية العالمية وخلق بنية اقتصادية عن طريق تنمية الثروات والموارد الوطنية وتعبئة الموارد القومية لمواجهة مشكلات الجفاف والمجاعة والغلاء وشح المواد التموينية.

ه- تحرير البلاد من التبعية الأجنبية في السياسة الخارجية لتحقيق السيادة الوطنية وتبني سياسة عدم الانحياز والالتزام التام بالانتماء العربي الأفريقي وسياسة حسن الجوار وتطوير العلاقات مع كافة الدول الشقيقة والصديقة.

و- تأكيد مبدأ الحكم اللامركزي وتقويمه على أسس ديمقراطية سليمة.

ز- تقويم وتحييد ملابسات الخدمة العامة وتصفية المؤسسات المايوية الخربة والتخلص من الطبقة المايوية الطفيلية.

ح- تحكم البلاد بعد الفترة الانتقالية بواسطة دستور تقرره هيئة منتخبة ديمقراطياً ويحسم الدستور القضايا الفكرية والسياسية بالوسائل الديمقراطية.

هذا الميثاق مفتوح لكافة النقابات والأحزاب التي ترتضي الالتزام به والعمل على تحقيق أهدافه.

تجمع القوى الوطنية لإنقاذ الوطن

التجمع النقابي ممثلاً في:

(١) نقابة الأطباء — (٢) نقابة المهندسين عن المهن الهندسية.

(٣) نقابة المحامين — (٤) الهيئة النقابية لأساتذة جامعة الخرطوم.

(٥) النقابة العامة لموظفي المصارف

(٦) الهيئة النقابية لموظفي التأمينات العامة.

الأحزاب السياسية:

حزب الأمة — الحزب الاتحادي الديمقراطي.

الحزب الشيوعي السوداني. — الخرطوم في ٦ أبريل ١٩٨٥م